ميشال أرّيفيه

البحث عن
فردينان دو سوسير

ترجمه وقدّم له وعلّق عليه
أ.د. محمد خير محمود البقاعي

الكتاب الجديد

ميشال أرّيفيه

البحث عن فردينان دو سوسير

ترجمه وقدّم له وعلّق عليه

أ. د. محمد خير محمود البقاعي

مراجعة

د. نــادر ســراج

دار الكتاب الجديد المتحدة

Original Title:
Á La Recherche de Ferdinand de Saussure
by **Michel Arrivé**
Copyright © **Presses Universitaires de France**, 2007

جميع الحقوق محفوظة للناشر بالتعاقد مع المطبوعات الجامعية الفرنسية - باريس

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الفرنسية سنة 2007

© دار الكتاب الجديد المتحدة 2009

الطبعة الأولى
آذار/مارس/الربيع 2009 إفرنجي

البحث عن فردينان دو سوسير
ترجمة أ. د. محمد خير محمود البقاعي
مراجعة د. نادر سراج
موضوع الكتاب لسانيات
الحجم 17 × 24 سم
تصميم الغلاف دار الكتاب الجديد المتحدة
التجليد برش مع ردّه

ISBN 978-9959-29-455-5
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)
رقم الإيداع المحلي 2008/768

دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 + **خليوي** 39 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 + **فاكس** 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة للدار. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق الهاري، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى
هاتف وفاكس: 013 07 34 21 218 + **نقال** 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني: **oeabooks@yahoo.com**

مُقدِّمة المؤلف للطبعة العربية

إن فرديناند دوسوسير (1857-1913) هو بالتأكيد أكثر اللغويين شهرةً في العالم كله. والسبب في ذلك بسيط: لقد أسهم إسهاماً حاسماً في تطور اللسانيات وعدد آخر من العلوم الإنسانية.

أبدأ باللسانيات. وهنا لا ينبغي القول، كما يفعل ذلك بعضهم دفعاً بالصدر، إن سوسير هو مؤسس اللسانيات: إنها موجودة قبله بزمن طويل في عدد من الثقافات، وفي الثقافة العربية على وجه الخصوص. لكن سوسير وجَّهها إلى مسالك لم يسبق لها أن سلكتها، أو إنها كانت ستتأخر في سلوكها، وربما كان ذلك سيحدث بطريقة مختلفة لولا الأثر الذي أحدثه نشر كتاب **دروس في اللسانيات العامة** عام 1916م (الذي ترجم إلى العربية عام 1985م)[1]. ويكفي لإبراز أهميّة الأثر الذي تركه في تطور اللسانيات أن نذكر بعض الأسماء: أنطوان مييه، نيكولا تروبتسكوي، لويس هلمسليف، غوستاف غيوم، رومان ياكوبسون، أندريه مارتينيه، إميل بنفينيست، ليونارد بلومفيلد، وآخرين بالتأكيد، وعلى رأسهم نعوم تشومسكي الذي يكثر من الإحالة إلى سوسير، وليس على الدوام إحالات سلبية.

إن كتاب **دروس في اللسانيات العامة** الذي نُشر بعد موت سوسير كما تدل على ذلك تعاليق ناشري تلك الدروس يتصف في بعض الأحيان بأنه يعرض تفكير سوسير عرْضاً مبسطاً. وقد حملت إلينا أعمال سوسير التي ظهرت مؤخراً، وكتابه المعنون: **كتابات في اللسانيات العامة** (2002م) على وجه الخصوص، عناصر جديدة تزكي اهتمام اللسانيين بفكر سوسير.

---

(1) الترجمة الأولى كانت في عام 1984. انظر مُقدِّمة المترجم.

لكن حصر تأثير ما قدّمه سوسير في اللسانيات عمل غير كاف. إنه أيضاً واحد من اثنين ـ الثاني هو الأميركي تشالرز بيرس ـ أسسا السيميائية، أو علم الدلالة ـ مع أنهما مصطلحان يدلان في النهاية على الشيء نفسه. إن السيميائية، على عكس اللسانيات التي رأينا منذ قليل أن لها ماضياً طويلاً، هي علم جديد، موضوعه أنظمة الدلالة. وهو بهذه الخاصية يضم تحت لوائه اللسانيات أيضاً. لكنه يمتدّ ليشمل مجموعة الممارسات الدلالية الأخرى كالكتابة على سبيل المثال. لقد طرح سوسير في كتابه **دروس في اللسانيات العامة** ملامح السيميائية، لكنه في بحثيْه عن **الحكاية الخرافية الجرمانية** وعن **الأسطورة الهندية** فعّل مناهج البحث السيميائي. وكان ينبغي على أي حال أن ننتظر ما يقارب خمسين عاماً بعد نشر كتاب **دروس في اللسانيات العامة** لتصبح السيميائية أو علم الدلالة علماً مستقلاً بفضل رولان بارت وألجيرداس جوليان غريماس على وجه الخصوص.

ونظل مع السيميائية في مجال أنظمة الاتصال. وتأثير سوسير لم يقتصر على هذا المجال. لقد طال مجالات أخرى مركزية في العلوم الإنسانية. فالإثنولوجي الكبير كلود ليفي ـ ستروس الذي ولد عام 1908م يستخدم مفاهيم اللسانيات السوسيرية ليصف البنى الأنثروبولوجية (الإناسية) للقرابة على سبيل المثال. وتكمن خصوصية عمله في نقل الثنائية السوسيرية بين اللغة والكلام إلى خارج الحقل اللساني المحض. أما المحلل النفسي الكبير جاك لاكان (1901-1981م) فإنه من جانبه صاحب المقولة المشهورة «اللاوعي مبني كالكلام». إن لاكان يستخدم نمط العلامة السوسيرية لوصف بنية ذلك الكلام، إلا أنه نمط خضع لدى لاكان للتعديل في بعض مظاهره.

لقد كنت أرمي من خلال كتابي **البحث عن فردينان دوسوسير** إلى إدراك هدفين مختلفين. كان المقصود في المقام الأول تقديم مظاهر لتفكير اللساني الكبير ومؤسس السيميائية بالاشتراك على اختلافها، وفي كل تعقيدها وتنوعها. وكنت آمل في المقام الثاني أن أدلل على الأهمية التي كانت لذلك التفكير في تطور العلوم الإنسانية في القرن العشرين. وإنه لمن دواعي سروري أن أرى أن كتابي يصل إلى قراء العربية الكثيرين.

ميشال أرّيفيه

michel.arrive@wanadoo.fr.

مُقدِّمة المترجم

لقد كان اللغوي السويسري فردينان دو سوسير (Ferdinand de Saussure) الشخصية الرئيسة التي غيَّرت مواقف القرن التاسع عشر في مجال اللغة، وانتقلت بها إلى القرن العشرين. . . ولا يستطيع أحد أن ينكر تأثيره في علم اللغة في القرن العشرين، وهو الذي دشّنه، وقد شُبِّه نشر كتابه **دروس** بالثورة الكوبرنيكية[1]. و إذا أردنا أن نقرِّبَ شخصية فردينان دو سوسير إلى القارئ العربي المهتم قلنا: إنه سيبَوَيْه اللسانيات في أوروبا؛ لم ينشر كتابه بنفسه، وإنما كان أماليَ دوَّنها تلامذته الذين حضروا دروسه، وبادر اثنان منهم إلى نشرها بعد موته بين طيَّتي كتاب سمَّوْه: **دروس في اللسانيات العامة**. ونشأت حول الكتاب حركة لغوية نقرِّبها إلى القارئ العربي فنقول: إنها كالحركة النقدية التي نشأت حول أبي تمام والمتنبي، فتعددت الشروح والتفسيرات والطبعات المحققة، والمقارنة بالمخطوطات، وإثبات الفروق، واكتشاف أسس العلوم اللاحقة من بنيوية وسيميائية وغير ذلك من المعارف. إلاَّ أن أكثر ما أثَّر في الدراسات اللغوية من فكر سوسير الذي تضمَّنته **الدروس** هو انتقاله في دراسة اللغة من المنهج التاريخي التطوري إلى المنهج الوصفي الذي اعتمدته العلوم الحديثة مُنهيةً النظرة التاريخية التي سيطرت على دراسات العلوم الإنسانية رَدَحاً غير قليل من الزمن.

تُرْجم كتاب سوسير إلى لغات كثيرة، وأُقيمت حوله دراسات متنوعة في أوروبا وأميركا وآسيا وأفريقيا وأستراليا، أشار إلى بعضها ميشال أرْيفيه (Michel Arrivé) في هذا الكتاب. وكان نصيب الكتاب في العربية حتى ساعة كتابة

---

(1) موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، تأليف: ر.هـ روبنز، ترجمة د. أحمد عوض، **عالم المعرفة الكويتية**، 227، 1418هـ/1997م، ص318-319. [المترجم].

هذه السطور خمس ترجمات[2]. وليس من مهمة هذه المُقدِّمة تقويم هذه

(2) كان أولها تاريخياً ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر التي نشرتها دار نعمان للثقافة، جونيه، لبنان، 1984م، وصدرت بعنوان: **محاضرات في الألسنية العامة فرديناد ده سوسُر** (290 ص)؛ وصدرت الترجمات الثلاث الأخرى في عام واحد هو 1985م وهي: ترجمة الدكتور أحمد نعيم الكراعين، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، وهي ترجمة عن لغة وسيطة (الإنكليزية)، بعنوان: **فصول في علم اللغة العام، ف. دو سوسير** (416 ص)؛ وترجمة صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، طرابلس – ليبيا، تونس العاصمة 1985م، بعنوان: **دروس في الألسنية العامة، فردينان دو سوسير** (406 ص). أما الرابعة فقد تُرجمت عن الإنكليزية أيضاً وأنجزها الدكتور يوئيل يوسف عزيز وراجع نصها العربي د. مالك يوسف المطلبي بعنوان: **علم اللغة العام**، وطبعت في دار آفاق عربية، بغداد، 1985م، ط2 بيت الموصل ـ الموصل ـ العراق، 1988م (272 ص). والخامسة نُشرت في المغرب بعنوان **محاضرات في علم اللسان العام** بترجمة عبد القادر قنيني ومراجعة أحمد حبيبي، نشرتها دار إفريقيا الشرق في الدار البيضاء عام 1987. وانظر مراجعة لهذه الترجمات بعنوان: **ثلاث ترجمات لمحاضرات دو سوسير**، في كتاب الأستاذ الدكتور حمزة بن قبلان المزيني، **مراجعات لسانية**، الجزء الأول، **كتاب الرياض** (79) **1420-1421**هـ/ 2000م، ص 93-126. وسبق لهذا الجزء أن صدر عام **1410**هـ[1989م]، عن النادي الأدبي في الرياض. ونشرت مراجعته لأول مرة في مجلة **عالم الكتب** السعودية، 1408هـ. وكان الأستاذ عز الدين المجذوب قام في عام 1986م في العدد السادس والعشرين من **حوليات الجامعة التونسية** (43-61) بمراجعة ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر وترجمة يوئيل عزيز وترجمة صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة. ثم راجع بعنوان: حول ترجمة رابعة لكتاب **فردينان دو سوسير** ترجمة الكراعين في العدد الواحد والثلاثين من **حوليات الجامعة التونسية 1990م**. وذكر المجذوب في بحثه الأول نقلاً عن الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في مجلة **اللسانيات** في أوائل العقد السابع أن الحاج صالح يعكف على إعداد الترجمة الكاملة **لمحاضرات دو سوسير في علم اللغة العام**. ومن العجب أن يقول المجذوب إن ترجمة الكراعين صدرت بعد صدور مراجعته للترجمات الثلاث الأخرى (1987)، ثم يؤرخ لترجمة الكراعين بعام 1985م. انظر حول ترجمة رابعة.... م. س، الصفحة الأولى من المراجعة، والحاشية رقم (2). والحقيقة أن الدكتور الحاج صالح نشر فقرات مترجمة من كتاب سوسير في بحث له بعنوان: «مدخل إلى علم اللسان الحديث»، مجلة **اللسانيات**، مجلة في علم اللسان البشري تصدرها جامعة الجزائر، ع1، 1972م، ص 45-51. وكتب الأستاذ الدكتور عبد السلام المسدّي في **صحيفة الرياض** عن الترجمات الخمس **(الرياض، ثقافة اليوم، 5/ 6/ 1414**هـ؛ 19/ 6/ 1414هـ؛ 3/ 7/ 1414هـ؛ 17/ 7/ 1414هـ) بعنوان «مساءلات فكرية». وقد رد الدكتور المزيني على ما كتبه المسدّي، وذلك **في صحيفة الرياض**، ثقافة اليوم، 26/ 10/ 1414هـ بعنوان: «عودة إلى سوسير».

الترجمات، وإنما الإشارة إليها في سياق اهتمام العرب **بفردينان دو سوسير**[3].

أما عن أهمية ترجمة كتاب سوسير إلى العربية بعد زمن طويل من صدوره فيقول الدكتور حمزة المزيني[4]: «وعلى رغم تأخر ترجمة كتاب **دو سوسير**، وسبق اللسانيات له سبقاً عظيماً الآن، إلاّ أن ترجمته إلى اللغة العربية ضرورية لقيمته التاريخية، ويجب أن يُقرأ هذا الكتاب لهذا الغرض وحده». ويقول الدكتور عز الدين المجذوب[5]: «حظي كتاب فردينان دو سوسير في الفترة الأخيرة بعناية كبيرة من قبل الباحثين العرب فظهرت له خلال سنتي 1984 و 1985 ثلاث ترجمات، وقد تظهر له ترجمة رابعة. ولكأن العرب يحاولون تدارك ما فاتهم من أمر هذا الكتاب الفذ. وقد مضى اليوم (عام 1987) على نشره سبعون سنة تداوله فيها الناس، وتناهبه الباحثون فكان له من الأثر ما هو معلوم في علم اللسانيات والثقافة العالمية بوجه عام. وقد يبدو تأخر العرب عن ترجمة هذا الكتاب أمراً غريباً بالنظر إلى قيمة الكتاب وخطره...». وفي عام 1985 يقول الدكتور مالك يوسف المطلبي في مُقدِّمته لترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز: «إن المحاضرات في علم اللغة لفردينان دو سوسير، تُرجمت على نحو أو آخر من خلال مؤلفات المعنيين بالدراسات البنيوية واللغوية وبحوثهم منذ منتصف هذا القرن». وصارت أفكار سوسير منتشرةً تؤلِّف على نحوٍ ما كتاباً مترجماً وأُدرجُ هاهنا أهم المؤلفات والبحوث:

---

(3) وقد اختلفت الترجمات الخمس في كتابة اسم مؤلف الدروس. أما هنا فقد اخترتُ أن أكتب اسمه حسب الأعمّ الأشيع في الكتابات العربية مشيراً إلى أن النون الأخيرة من فردينان خيشومية فيها غنة تشعر بالحرف الأخير من الاسم وهو الدال. كما أن الأداة «de» ينبغي أن تقابل بـ «دو» حسب النطق الفرنسي الذي يقتضي أن نكتب أيضاً «سوسور» لأن الواو أقرب إلى نطق الـ «u» الفرنسية من الياء، فتكون صحة الاسم الفرنسي بالحروف العربية «فردينان دو سوسير». انظر في تفسير هذه التسمية كتاب أرّيفيه الذي نترجمه في أول الفصل الأول. ولم يعلل أحد من العرب الذين ترجموا كتاب **دروس في اللسانيات العامة** سبب اختياره كتابةً معيّنةً. وانظر أيضاً تقديم صالح القرمادي لترجمة الطيب البكوش كتاب جورج مونان **مفاتيح الألسنية**، منشورات الجديد، تونس، 1981م، ص7 **(تعاليم فردينان دو سوسير)**. ولو أُتيح لأرّيفيه وغيره من الغربيين الذين اختصوا بسوسير قراءة ترجمات كتاب سوسير إلى العربية لأقاموا عليها دراسات عظيمة، لا في تقريعها، وإنما في كونها قراءات تُخطئ في بعض الأحيان وتُصيب. [المترجم].

(4) م. س، ص 125. [المترجم].

(5) م. س، ص 43. [المترجم].

(أ) **مشكلة البنية**، (د. ت): تأليف د. زكريا إبراهيم، وقد عقد فصلاً خاصاً تناول فيه محورَيْ الدراسة الزمنية واللازمنية عند دو سوسير.

(ب) مقالة د. محمود فهمي حجازي: **أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الإثنولوجية**، ص156/ مجلة **عالم الفكر** /نيسان/ 1972. وتضمّنت المنطق النظري الأساسي لدو سوسير.

(ج) ما تضمّنته مجلتا **اللسانيات** و **اللسان العربي**.

(د) ما تضمّنه مؤلّف د. محمود السعران **علم اللغة**، 1970.

(هـ) ما تضمّنه كتاب د. نهاد الموسى: **نظرية النحو العربي**، 1980م.

(و) ما تضمّنه مؤلّف د. ريمون طحان **اللسانيات العربية**. فضلاً عمّا ترجمه إخواننا في المغرب العربي مما لا يتهيّأ لي توثيقه الآن(6).

ولعل هذه الفكرة مدخل جيد لدراسة تلقي سوسير في الدراسات اللغوية العربية. وأُشير هنا في مجال تلقي سوسير إلى دراسات الدكتور مصطفى غلفان:

– **الكتابة اللغوية العربية الحديثة**: دراسة تحليلية نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، أطروحة دكتوراه الدولة، كلية الآداب، عين الشق، الدار البيضاء، 1991م.

– **اللسانيات العربية**: دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، منشورات كلية الآداب، عين الشق، الدار البيضاء، 1998م.

– **اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة، حفريات النشأة والتكوين**، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، المغرب، 1427هـ/ 2006م.

وغيرها من الدراسات التي سيتناولها بحثي الجاري في هذا الخصوص.

أما كتاب أرْيفيه الذي أقدم هنا ترجمة مشروحة له فقد ظهرت له بالعربية

---

(6) ترجمة يوئيل عزيز كتاب **سوسير**، م. س، ص 14. وقد أرّخ د. عبد السلام المسدّي لحركة الترجمة والتأليف في اللسانيات العربية في مُقدِّمته لـ **قاموس اللسانيات** الصادر عن الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس، 1984، ص55-86. [المترجم].

مراجعة جيدة أنجزها د. نادر سراج(*) في **صحيفة الحياة** (الثلاثاء 15 أيار/مايو 2007/ 28 ربيع الثاني 1428هـ) بعنوان: («فصول في اللسانيات العامة»... بحثاً عن فرديناند دو سوسير) أُعيد هنا نشر نصها لأن كاتبها أفلح في إعطاء فكرة عامة عن الكتاب رأيتها مفيدة لقارئ ترجمتي وهي(7):

(صدر منذ أيام كتابٌ لسانيٌ جديد عن المنشورات ـ المطبوعات ـ الجامعية الفرنسية PUF للباحث والمؤلف الأكاديمي الفرنسي ميشال أرّيفيه). الكاتب معروف بمؤلفاته في حقول اللسانيات والتداخل بين اللسانيات والتحليل النفسي والنقد الأدبي والسيميائي والخرافة والقصة. وهو أستاذ اللسانيات والسيميائيات، وقد تضمّنت مؤلفاته دراسات معمّقة لأعلام بارزين أمثال جارّي (Jerry)، وفرويد (Freud)، ولاكان (Lacan)، وسوسير.

قرأ ميشال آرّيفيه سوسير في مطلع حياته بناءً على نصيحة أستاذ مادة الفلسفة الذي أعلم طلابه بوجود كتاب «يُجدِّد المقاربة الفلسفية للغة». وكان يقصد **فصول في اللسانيات العامة**، الذي أصدره طلاب سوسير، ص317 في العام 1916م بُعيد وفاته في العام 1913 عن عمر يناهز 56 عاماً.

بيد أن العام 1972 شكّل محطةً جديدةً في استعادة التراث السوسيري. فقد صدرت طبعة جديدة ومنقّحة شملت نقداً وملاحظات بقلم [توليو دي مورو](8) (Tullio de Mauro). وعلى ما أذكر فهذه الطبعة البرتقالية الغلاف كانت بالنسبة إلينا نحن طلاب اللسانيات في خواتم الثمانينيات في السوربون الكتاب غير المقدس الذي لا مندوحةَ لطالب هذا العلم المستجد من قراءته والعودة إليه. فهو يضمّ بين دفتَيْه ألفباء اللسانيات وتعاليم المعلم المؤسس الذي عرّف اللغة بذاتها ولذاتها(**)...

(*) مُراجع هذا الكتاب الذي أشكر له جهده المنظور في مراجعة هذه الترجمة؛ إذ وُضعت تعاليقه في الحواشي متبوعةً بكلمة المُراجع بين قوسين. كما أشكر له جهده غير المنظور في تصحيح ما خفي عليّ في نص الترجمة. [المترجم].

(7) أضفنا في الهامش بعض الملاحظات التوضيحية. [المترجم].

(8) ما بين معقوفتين من إضافتنا. وقد نشر نقد دو مورو وملاحظاته بالإيطالية ثم ترجمت إلى الفرنسية في مطبعة دار نشر بايو Payot، 1972م، مع تقديم دو مورو من ص 1–18. [المترجم].

(**) عبارة سوسير المشهورة؛ ويرى مترجم هذا الكتاب أن أفضل ترجمة لها هي ترجمة الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح (م.س): عرّف اللغة منها وإليها. [المترجم].

الآراء والتعاليم التي حفلت بها **«الفصول»** بنى عليها لسانيون مُبرّزون جاؤوا من بعده، وطوّروا مفاهيمه ومنهم أندريه مارتينيه (André Martinet). وهذا الأخير أكّد حضوره اللساني، وتميّزه المفهومي من خلال **مبادئ اللسانيات العامة** الذي أصدره مطلع الستينيات، والذي يحلّ في المرتبة الثانية بعد **فصول** سوسير. هذان المرجعان تُرجما إلى عدد من اللغات الحيّة بما فيها العربية[9].

ما يزال سوسير بعد مرور [ما يقارب] مائة سنة على وفاته يستثير القرائح والمِداد. والباحثون يسعون وراء المسكوت عنه أو المُغيّب من أفكاره وتعاليمه التي مهّدت الطريق لنضوج هذا العلم واستكماله لنظرياته وتطبيقاته ولأدواته الإجرائية. وعديدة هي المؤلفات التي صدرت عن سوسير في فرنسا بالطبع [وفي] أوروبا وفي آسيا وبالتحديد في كوريا واليابان والشرق الأوسط.

ومن هنا يتساءل ناشر الكتاب: لماذا هذا الاهتمام المتعاظم بعالم لسانيّ في وقت بدأت فيه اللسانيات بإثارة أجواء الملل؟ جواب ذلك أن تأمل سوسير العميق في اللغة الإنسانية وبالألسن هو أكثر إغراء كلما تقدمنا في قراءته.

لقد شكّل هاجس الوصول إلى حقائق اللغة واكتناه ظواهرها هاجساً لصاحب **«الفصول»** الذي عُرف بدأبه وجده اللامتناهي. وفي مساره هذا اكتشف «مغاور» اللغة، ناهيك عن أن نتائج تأملاته اللسانية التي لم يُتح له الوقت للتأكد من صحتها، عُرفت بعد وفاته. ولو قيّض له أن يعيش أكثر لتلمس حدود التشابه بين اللغة والسيميائيات الأخرى مثل الكتابة والأسطورة والميثولوجيا. غير أننا نستكشف في ثنايا الكتاب أن التفكير غير المنجز لسوسير سيُمسي لاحقاً أساسياً إنْ للسانيات وإنْ للسيميائيات. وأبعد من علوم اللغة، فالملاحظ أن التأثير شمل أيضاً كل علوم الإنسان. ولهذه الغاية يحثّنا الكتاب على التفكير في مدى

---

(9) أما كتاب **سوسير** فقد ذكرنا ترجماته، أما كتاب مارتينيه فقد ترجم إلى العربية ترجمتين أولاهما بعنوان: **مبادئ اللسانيات العامة**، ترجمة أحمد الحمو، المطبعة الجديدة، دمشق 1985م، 231 صفحة من القطع المتوسط. والثانية بعنوان: **مبادئ ألسنية عامة**، ترجمة ريمون رزق الله، دار الحداثة، بيروت ط1، 1990م، 246 صفحة من القطع الصغير. وتجدر الإشارة إلى أن أندريه مارتينيه لم يُشر إلى هاتين الترجمتين في مذكراته. انظر: مقدمة ترجمة كتاب: **وظيفة الألسن وديناميتها**، لمارتينيه، ترجمة نادر سراج، دار المنتخب العربي، بيروت، 1416هـ/1996م، ص 6. [المترجم].

الحضور السوسيري في أفكار أعلام كبار ومنجزاتهم، أمثال: ميرلو بونتي (Merleau Ponty)[10] ليڤي ستروس (Levi Strauss) ولاكان.

وقبل أن نعرض المحاور التي شملتها فصول الكتاب التسعة والمُقدِّمة والخاتمة، نتوقف عند الأفكار التي ساقها المؤلف في ختام الفصل الثالث[11]. يتملك ميشال أرّيفيه شعورٌ ملتبسٌ بالقلق والحذر تجاه عدم توخّيه الأمانة والشفافية في معالجة أفكار «معلم جنيف»[12] وإعادة قراءتها. لذا يطرح سؤالاً بديهياً لا تشكيكيّاً: «تُرى هل خُنْتُ سوسير ولاسيّما وأنني مررت مرور الكرام بعدد من أفكاره التي لا يصحّ إهمالها في مساره العلمي؟». ثم يردف قائلاً: إنني، بعد سوسير، كنت ضحية تلك «المادة الزئبقية» التي هي اللغة وفق تعريف سوسير!. وكي يطمئن القارئ، ولا يعتريه القلق من هذا اللّبْس يضيف أن هذا الفصل الاستهلالي ليس سوى مدخل متدرج وتمهيدي لاكتناه معالم «الكهوف السوسيرية» وسبر خفاياها، تلك الكهوف التي ينبغي على الباحثين اكتشافها والتنقيب فيها بغية استجلاء المسكوت عنه في التعاليم السوسيرية.

ويبرع المؤلف هنا، وفي غير فصل في المقارنة بين مخطوطات **الفصول** كي يبرهن لقارئه أن الناشرين وبعض الشارحين عمدوا إلى تعديل بعض الأفكار والمعلومات بعينها أو حرّفوها أو انتقوا منها لسبب أو لآخر.

المُقدِّمة التي يستهلّ بها مقاربته لأفكار «معلم جنيف» صدَّرها بعنوان طريف «إنها ليست مُقدِّمة»، أو «إنها لم تعد كذلك». الفصل الأول حمل عنوان «حياة في اللغة»؛ وتميّز الثاني بتمحوره حول لبّ الموضوع المدروس «فصول في اللسانيات العامة: تجربة متواضعة لإعادة القراءة»؛ الفصل الثالث يبحث مسألة لم تُستوفَ من قبلُ أبعادها، السيميائيات السوسيرية بين **الفصول والبحث في الحكاية الخرافية**. الكلام والخطاب والملكة اللغوية في التفكير السوسيري هي مكوّنات الفصل

---

(10) موريس ميرلو بونتي (1908-1961م) Maurice Merleau-Ponty: فيلسوف وجودي فرنسي، أصدر بالاشتراك مع جان بول سارتر وسيمون دوبوفوار **مجلة الأزمنة الحديثة** (Les Temps Modernes). أهم مؤلفاته **فينومينولوجيا الإدراك**. [المترجم].

(11) الصواب: الثاني، ص 81 من الأصل الفرنسي. [المترجم].

(12) عبارة استخدمها أرّيفيه في خاتمة النص الأصلي، ص 219. [المترجم].

الرابع؛ مفهوم «الزمن في تفكير سوسير» هو عنوان الفصل الخامس؛ ولم يغب «الأدب» عن أفكار سوسير المستعادة فكان محوراً للفصل السادس. أما التحليل اللساني فكانت له حصته في معالجات المؤلف إذ جعله عنوان الفصل السابع «ما شأن اللاوعي لدى فردينان دو سوسير؟»؛ علاقة سوسير وتداعيات أفكاره بالآخرين اندرجت في الفصل الثامن الذي حمل أسماء أعلام ثلاثة تشاركوا في صناعة علوم اللسانيات والدلالة وما إليها «سوسير، وبارت (Barthes) وغريماس (Greimas)»؛ الفصل التاسع والأخير عالج مدوّنة غير منشورة لسوسير. أما الخاتمة فكانت اعترافاً ضمّنه المؤلف حُكماً تلخيصياً لِما سبق عرضه. وتوقف أرّيفيه عند كلمات سوسير نفسه بخصوص اعتراف جاهر به عن رحلة المغامرات التي باشرها في «المستنقع». لذا ينهي أرّيفيه رحلته هو أيضاً مستعيداً كلام «المعلم»، مصرّحاً بعبثية ومحدودية إضافة معلومة أو تحليل ما على كلمات سوسير الأخيرة. لذا التزم الصمت حين فرغت جعبته اللسانية من الكلام المُفيد المُباح.

أفلح المؤلف في عرض رؤيته المغايرة للتراث السوسيري معتمداً في ذلك وجهة نظر علمية ورائدة، صاغها بأسلوب سلس. ولم يحجب عمله على أغلب تراث «معلم جنيف» اللساني موضوعات السيميائيات، وما يتصل بعلوم إنسانية أخرى.

البحث عن فردينان دو سوسير كتابٌ لسانيٌ جديدٌ، يسعى لقراءة جديدة بصوت عالٍ ومبسط ومتماسك الرؤى والطروحات لتعاليم رائد اللسانيات وأفكاره. فاللسانيات باتت اليوم علماً مستجداً تتقاطع عنده أغلب علومنا الإنسانية منها والبحثية، على الرغم من طراوته وجديته واستقلاليته المفرطة ومخالفته المعهود والشائع بما في ذلك الاهتمام بالمنطوق أكثر من المدوّن.

ثنائيات سوسير التي طبعت تعاليمه، واستثارت تفكير المؤلف ونحن معه، استوجبت تفاسير حديثة وإعادة قراءة للمعهود الذي بات من المسلمات أو يكاد. وثنائيات التعاقبية والتزامنية هي خير ما نختتم به هذه القراءة النقدية. فقد توقف المؤلف عند الرؤية السوسيرية لمفهوم الزمن فلاحظ أن سوسير عندما يقارب المنظور المنهجي التعاقبي يكون الزمن عنده هو «العامل وبصورة أكثر تحديداً، هو الشرط اللازم للتغيير». بيد أنه يعتبره ببساطة، ووفق المنظور التزامني «فضاء للخطاب». زمن سوسير وخطابه ومصطلحاته التي باتت ذخيرة اللسانيين تتحدد بقلم أرّيفيه.

إنَّ هذا العرض الذي أوردناه على لسان نادر سراج يعطي القارئ فكرةً عمّا هو مُقدِمٌ على قراءته؛ إنه سيقرأ كتاباً مميّزاً لباحث أمضى وقتاً طويلاً في جنبات الموضوع الذي يكتب فيه، فلا عجب أن يأتي كتابه منهلاً عذباً للواردين. ينهل منه المولعون بالاطّلاع على الطريقة التي تلقّى فيها الغرب هذا الرجل الذي غيّر مسار البحث العلمي في بداية القرن العشرين.

حرصتُ في ترجمتي على وضوح الفكرة وسلاسة الأسلوب، وشرح المصطلحات ووضع مقابلها الأجنبي، وقد نهجتُ في تعريب المصطلحات نهج الاختيار فقابلتُ مصطلحات سوسير بأكثر المصطلحات سيرورة وصحةً من وجهة نظري. وكتبتُ أسماء الأعلام بالعربية والأجنبية عند أول ورود لها ثم اكتفيتُ بعد ذلك بالحروف العربية، وأعدتُ النصوص المقتبسة من كتاب سوسير (**دروس في اللسانيات العامة**) إلى الترجمة التونسية التي استقرّت الآراء على أنها أفضل الترجمات[13] وعقّبتُ وصحّحتُ عندما رأيت لزوم ذلك. ثم أحلتُ إلى مواضع وجود النصوص في الترجمات الأربع الأخرى. واستعنتُ بترجمة الدكتور عز الدين إسماعيل ـ رحمه الله ـ كتاب جوناثان كلر (**فرديناند دو سوسير**، م. س) وبغيرها مما كتب عن سوسير بالعربية في توضيح بعض ما قد يستعصي على القارئ العربي. ووضعت أرقام الأصل الفرنسي في متن الترجمة بين معقوفتين [ ] لتسهل مراجعة الترجمة على أصلها لمن أراد.

وأودّ في النهاية أن أشكر لسمو الأمير تركي بن فهد بن عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود مساعدتي على الحصول على نسخة من الكتاب بعد أن ضلّت النسخة التي اشتريتها طريقها في متاهات البريد. وأشكر للصديقين الدكتور أحمد مطر العطية والدكتور عادل حسني يوسف قراءتهما نص الترجمة وما أبدياه من ملاحظات وتصحيحات. وأشكر أيضاً للزميل الدكتور محمد صاري تزويدي بما نشر في **مجلة اللسانيات** الجزائرية مما له علاقة بفردينان دو سوسير، وللصديق الدكتور محمد لطفي الزليطني مساعداته القيّمة. كما أشكر للأستاذ الدكتور فالح بن

---

(13) قال الدكتور حمزة المزيني: «وقد ترجم الكتاب إلى العربية عدة ترجمات وأفضلها ترجمة صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، ونشرتها في تونس الدار العربية للكتاب 1985». انظر: «التحيز اللغوي وقضايا أخرى»، كتاب **الرياض** (125)، 1425هـ/ 2004م، ص 84.

شبيب العجمي توضيح ما ورد في الكتاب من كلمات وعبارات ألمانية. كما أشكر لزملائي في قسم اللغة العربية في كلية الآداب وفي كلية اللغات والترجمة في جامعة الملك سعود اهتمامهم ومساعداتهم كلّ حسبما يستطيع. وأشكر لمؤلف الكتاب السيد ميشال أرّيفيه أنه خصّ هذه الترجمة بمُقدِّمة مهمة، وأجاب على وجه السرعة عن استفساراتي المتعلّقة ببعض مواضع كتابه. وأخيراً وليس آخراً أرجو أن تجد زوجتي الدكتورة رندة سلامة اليافي وأطفالي رونة وورودة وعبد اللّه في إنجاز ترجمة هذا الكتاب وصدوره عربون عرفان ومحبة تعويضاً عما صرفتُهُ في ترجمته من وقتٍ بعيداً عن حاجاتهم ورغباتهم. واللّه ولي التوفيق.

أ.د. محمد خير محمود البقاعي

الرياض 5/ 11/ 1428هـ

16/ 11/ 2007م

أعمال سوسير المطبوعة والمخطوطة[1]

- **دروس في اللسانيات العامة**، نشرها شارل بالي (Charles Baily) وألبير سيشهي (Albert Sechehaye) بالتعاون مع ألبير ريدلينجر (Albert Riedlinger)، لوزان وباريس، بايو (Payot)، 1916، مجلد واحد في 325 صفحة. والإحالة إلى الصفحات في كتاب أرّيفيه مذكورة حسب الطبعة الثانية عام 1922 التي يختلف ترقيمها عن الطبعة الأولى (انظر إنكلر (Engler)، 1968–1989)، وقد أُعيد نشر هذه الطبعة في الطبعات التالية بلا تغيير. ـ ومنذ عام 1972 ظهر النص في نشرة محققة أعدها توليو دي ماورو (Tullio de Mauro) حافظتْ على الترقيم نفسه، لكنها مذيّلة بحواشٍ نقدية وتعليقات للناشر. وعندما نقتبس تلك التعليقات فإن مرجعها هو **الدروس**.

- سوسير، 1922–1984 ـ **مجموع المنشورات العلمية**، جنيف، سونور (Sonor) ولوزان، بايو، ثم باريس ـ جنيف، سلاتكين (Slatkine). مجلد واحد من 641 صفحة.

- سوسير، علم العَروض ـ **[دروس في علم العروض الفرنسي]**، مكتبة جنيف، مخطوطات فرنسية 3970/ ف، ف 1–58.

---

(1) ذكر مؤلف الكتاب هذه الأعمال مع المختصرات التي استخدمها للإشارة إليها. وقد استخدمنا مختصرات عربية هي: (**الدروس= دروس في اللسانيات العامة**)؛ (**كتابات= كتابات في اللسانيات العامة**)؛ (**الحكاية الخرافية= بحث في الحكاية الخرافية الجرمانية**)؛ (**الجناس التصحيفي ـ بحث في الجناس التصحيفي** Anagramme)؛ (**علم العروض = علم العروض الفرنسي**). وغيرها، مما هو في القائمة.
إن مما يؤسف له، ويُعدّ خللاً في المعرفة العربية اللسانية المعاصرة أنه عدا **الدروس** لم يترجم من هذه الأعمال إلى العربية شيء. وقد رأيتُ المنظمة العربية للترجمة أعلنت في موقعها على الشبكة العنكبوتية أنها تبحث عن مترجم لكتابات سوسير في اللسانيات العامة. [المترجم].

– سوسير ـ غوديل (Godel)، 1960 ـ غوديل روبير (ناشر)، «ذكريات عن فردينان دو سوسير تخص شبابه ودراساته»، **دفاتر فردينان دو سوسير**، 17، 1960، 12-25.

– غوديل، 1957-1969 ـ **المصادر المخطوطة لدروس في اللسانيات العامة لفردينان دو سوسير**، جنيف، دروز (Droz)، 1957، ط2، 1969. مجلد في 283 صفحة.

إنكلر، 1968-1989 ـ طبعة محققة من **دروس في اللسانيات العامة لفردينان دوسوسير**، ج1. الإحالات إلى صفحات **الدروس** مذكورة بالتتابع حسب طبعة 1916 ثمّ حسب الطبعة الثانية. فيسبادن (Wiesbaden) أوتو هارّسوويتز (Oto Harrassowitz)، 1968، (ط1)، 1989، (ط2). مجلد من 515 صفحة.

إنكلر، 1974-1990 ـ طبعة محققة من **دروس في اللسانيات العامة لفردينان دوسوسير**، ج2. فيسبادن، أوتو هارّسوويتز، 1974 (ط1)، 1990 (ط2). مجلد في 51 صفحة و 8 صفحات للتعليقات.

– كوماتسو (Komatsu) ـ **الدرسان الأول والثالث حسب تعليقات ريدلينجر وقسطنطين** (Constantin)، طوكيو، جامعة غاكوشوين (Gakushuin)، 1993، طبعة غير تجارية. مجلد في 368 صفحة.

– بارّيه (Parret)، 1993-1994 ـ «المخطوطات السوسيرية في هارفارد»، **دفاتر فردينان دوسوسير**، 47-234.

– **كتابات** ـ فردينان دو سوسير، **كتابات في** اللسانيات العامة، نصوص جمعها سيمون بوكيه (Simon Bouquet) ورودولف إنكلر، باريس، غاليمار (Gallimar)، 2002. مجلد في 353 صفحة.

– ستاروبنسكي (Starobinski)، 1971 ـ **الكلمات تحت الكلمات، الجناس التصحيفي عند فردينان دو سوسير**، باريس، غاليمار، 1971، مجلد في 167 صفحة.

— — — —

– **الحكاية الخرافية ـ الحكاية الخرافية الجرمانية**، طبعة مُحققة ومشروحة، آنا مارينيتي (Anna Marinetti) ومارشيلو ميلي (Marcello Meli)، إست (بادوفا) Est (Padova)، مكتبة زيالو (Zielo) 1986، مجلد في 511 صفحة.

– تريستان ـ كومانسو إيبسوكو، "تريستان (Tristan) ـ تعليقات لسوسير"، **حوليات سلسلة محاولات ودراسات**، كلية الآداب، جامعة غاكوشوين، مجلد 32، 1985، ص 149–229.

استهلال

أقرأ سوسير منذ أكثر من خمسين عاماً، وآية ذلك أنني في عام 1955م. كنت مرشحاً لدخول أهلية التعليم في ثانوية دار المعلمين العليا للآداب هنري الرابع (Henri IV) عندما أخبر أستاذ الفلسفة لويس غيّرميت (Louis Guillermit)، المختص بأفلاطون (Platon) وكانط (Kant)، والذي كان يتعاون بين مدة وأخرى مع **مجلة الأزمنة الحديثة**، مستمعيه بوجود كتاب «جَدَّد طريقة المعالجة الفلسفية للغة»: **دروس في اللسانيات العامة لفردينان دو سوسير**.

ويُخيّل إليّ أن رفاقي لم يُبدوا أي حماسة لما قاله الأستاذ: لأن أهلية التعليم في ذلك العصر كانت مفرطة في طابعها «الأدبي» والتقليدي، ولم تكن تهتم إلا قليلاً بالعلوم الإنسانية، ولم تكن تكاد تعرف بوجود **اللسانيات**، ناهيك عن أن أستاذاً آخر من أساتذتنا موريس لاكروا (Maurice Lacroix)، وهو مختص قديم بالدراسات الهللينيّة، وذو مزاج قتالي، مؤلف مُعجم إغريقي ـ فرنسي كان من المفترض أن يحلّ محلّ **مُعجم بيي** (Bailly) القديم. كان هذا الأستاذ يسخر سخرية فظّة من عنوان حلقة علمية فيفول: إن قولنا: «إنسانيات وعلوم إنسانية» يساوي قولنا: «واقع وكاريكاتير» وكانت سخريته تلقى استحساناً عاماً مشوباً بالخسة.

لماذا كنت مهتماً بذلك الاقتباس الخاطف، إنْ أسعفتني الذاكرة، من كتاب سوسير؟ ربما كان ذلك بفضل الرسومات الإيجازية للعلامة التي كان غيّرميت قد عرضها عن بُعد لمستمعيه؟ أو الإشارة التي خصّ بها الفيلسوف مفهومَي التزامن synchronie والتعاقب diachronie، التي يبدو لي أنني لمحت فيها تحييداً للتاريخ الذي كنت أمقته؟ لم أعد أذكر ذلك جيداً. لكن ما أذكره أنني سارعت إلى المكتبة التي تبيع المطبوعات الجامعية الفرنسية PUF ـ تلاحظ أن ذلك كان عصر ما قبل

التاريخ! ـ واشتريت منها بشغف نسختي الأولى من كتاب **دروس في اللسانيات العامة**. كان في ذلك الوقت على الرغم من صفحاته[1] التي بلغت 317 صفحة مجلداً قليل السماكة نسبياً، لم يكن بعدُ قد تضخم [2] بالحواشي النقدية وملاحظات توليو دي ماورو التي لم تظهر إلاّ منذ طبعة عام 1972م.

منذ ذلك الوقت لم أنقطع عن قراءة سوسير، وأنا اليوم كما أعتقد أمتلك نسختي الخامسة من كتاب سوسير، وهي اليوم في 520 صفحة. أشتري بانتظام، وبسعر رخيص أي نسخة أكتشفها في مكتبة من المكتبات التي تبيع الكتب المستعملة، أو ممن يبيعون محتويات سقائف بيوت في الأقاليم بما فيها الكتب القديمة. إنني في بحث دائم، وليس دائماً بسعر رخيص، عن الطبعة الأصلية، طبعة 1916م، التي تتميّز عن لاحقتها جوهرياً باختلاف بسيط في ترقيم الصفحات.

ومنذ عام 1964م قرأت بشغف المقالات التي دشّن بها ستاروبنسكي (Starobinski) **البحث في مجال الجناس التصحيفي** anagrammes[2]. وفي الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه تلك الدراسات، كان ستاروبنسكي يطبع بدون ضجة بعض عناصر العمل حول **الحكاية الخرافية**، وهي عناصر لم تكن حينئذ مميّزة تمييزاً كافياً من البحث في **الجناس التصحيفي**. وظهرت أيضاً بسرية تامة، مُستلّة من كتاب **دفتر تلميذ بلا عنوان** مقالة بعنوان«تعليقة عن الخطاب»، وهي مقالة تدعو إلى مستقبل لامع للأدبيات السوسيرية. ونستطيع قراءة تلك المقالة بيسر في **كتابات**، ص277.

وانتظرت عام 1970 لأنشر أول نص عن سوسير: الفصل الخاص بكتاب **دروس في اللسانيات العامة** في كتاب: **القواعد، قراءة**، وهو كتاب يعلّم اللسانيات عبر النصوص، كتبته بالاشتراك مع جان كلود شفالييه (Jean-Claude Chevalier).

ومنذ ذلك الوقت نشرت ثلاثين مقالة عن سوسير في مطبوعات متنوعة كل التنوع، نشرت في الصحيفة المشهورة *Monde des livres* وفي مجلات أقل شهرة

---

(1) كان هذا في الواقع عدد صفحات كتاب سوسير منذ الطبعة الثانية، وهي أقل بقليل من صفحات الطبعة الأولى (325).

(2) وترجمه الدكتور حسين الواد في بحثه (**مجلة Tel quel) والحداثة الأدبية**، **علامات**، مج 11، ج42، ص 66: الجناح التصحيفي. ولعلها خطأ مطبعي صوابه: الجناس التصحيفي. [المترجم].

مختصة بتاريخ اللسانيات، وفي أمشاج mélanges[3] أو في أعمال المؤتمرات القليلة الانتشار.

أستمر بعض الوقت في الحديث عن سيرتي الذاتية فأقول: إنني منذ عشرين سنة أفكر في تخصيص كتاب لسوسير، وليس مجرد مقالات. هل أجرؤ على القول: إنني منذ زمن طويل صرت أعدّ كل كتاب يصدر عن سوسير إهانة شخصية لي. ولما كانت الكتب التي تصدر مع مرور الزمن كثيرة فلنا أن نتخيل عدد المرات التي كنت فيها أشعر بالإهانة؛ لأنه ليس من النادر أن تشهد صدور عدد من الكتب في العام الواحد. وأشكر الله أن هناك بعض الكتب التي لا أعرفها، مع أن تلامذتي القدامى اليابانيين والكوريين الذين أصبحوا أساتذةً يحرصون كل الحرص على إخباري بما يُنشر في بلادهم، بل إنهم يدعونني إلى كتابة مُقدِّمات لكتبهم عن سوسير[4]. أينبغي القول: إنني اليوم أنجز هذه المهمة بكل عناية واهتمام؟

[3] لقد حان زمن الخروج من المأزق. وربما أنه زمن الردّ على الإهانة بمثلها؛ لأن لديّ حججاً قوية تجعلني أعتقد أنني لست الوحيد في حالتي. وها أنا أنشر أخيراً كتابي عن سوسير. لكن كان دون ذلك خَرْطُ القَتاد. كنت لسنوات خلت قد دبّجت مُقدِّمة. وأرى أنه من المناسب أن أنشرها كما كتبتها تقريباً، لكن بعنوان يُبطل كونها مُقدِّمة. وما دام الأمر ذلك فلماذا ـ تبّاً ـ أنشرها؟ لسببين: الأول، أنها تقدم بعض المعلومات التي كان من الضروري نشرها بأي حال من الأحوال، وبأي شكل من الأشكال. وأنني، على وجه الخصوص، اتخذت في هذه المُقدِّمة المفقودة، باتزان وتعقل موقفاً من مسألة نص كتاب **دروس في اللسانيات العامة** الذي كان منذ عام 1957م موضعاً لنقاش احتدم منذ بضع سنوات.

---

(3) نترجم كلمة mélanges بأمشاج، وهي كتب تُنشر فيها أبحاث متنوعة لتكريم شخص أو تأبينه، وتطبع عادةً بأعداد قليلة؛ لذلك يصفها الكاتب بالسرية. شأنها شأن أعمال الندوات والمؤتمرات وفضّلنا أن نصفها بما أثبتناه. [المترجم].

(4) يونغ هو شوا (Yong-Hochoi)، **مشكلة الزمن عند فرديناند دو سوسير**، باريس، لارماتان (L'Harmattan)، 2002م؛ وأكاتان سويناغا (Aka-tane Suenaga)، **سوسير، نظام من المفارقة. لسان، كلام، عشوائي، لاوعي**، ليموج (Limoges)، لامبير ـ لوكا (Lambert-Lucas)، 2005م. ولا أتحدث عن الكتب التي ينشرونها في اليابان وكوريا (خصوصاً كتب سونغدو كيم (Sungdo Kim) ويونغ هو شوا أيضاً).

والسبب الثاني، أنه من المفترض أن تكشف المُقدّمة عن الشكل الذي يسبغه المؤلف على الكتاب الذي وُضعت له تلك المُقدّمة. والمُقدّمة التي أنشرها اليوم تشرح لماذا عزفت عن كتابة هذا الكتاب بالمظهر الذي كنت في ذلك الوقت أتصور أن يكون عليه.

كنت أفكر، وهذا ما نراه عندما نتصفح بسرعة ما كان مُقدّمة، في كتاب مغلق، يعرض بالتالي كل مظاهر التفكير السوسيري فاصلاً بينها. وقد بدأت أخشى ألاّ تتوافر في ذلك الكتاب الذي يُبنى بهذه الطريقة، في الحد الأدنى بادرةً من بوادر الحل، ليس بالتأكيد لكل المسائل التي طرحها سوسير، لكن للمسائل التي ما زالت أعماله تطرحها.

نعلم جيداً أن تفكير سوسير ليس نصاً مغلقاً. إنه يتتابع بمثابرة، ويكتسي ثوباً من القلق نتلمّسه غالباً، ويُجاهر بها في بعض الأحيان، خلال حياة كانت، مع أنها قصيرة نسبياً في مدتها الإجمالية[5]، فهي تسمح في هذه الأثناء مجالاً لفترات طويلة من التأمل. وليست صدفة بالطبع ألاّ ينشر سوسير في حياته أي كتاب عدا عملين نشرهما في صباه، كتب الأول وعمره 21 سنة، والثاني وعمره 24 سنة: لم يكن يرى أنه قادر على التعبير بالكلمات عن نوعية الأشياء التي يعالجها. والكتاب الذي بدأ بكتابته بعنوان: **في الجوهر المزدوج للغة** لم يُكتب له ألبتّة أن يصل إلى نهايته. أما مشاريع الكتب الأخرى التي خطط لها، أو بدأ بها فإنها بقيت غير منتهية أيضاً. وعندما كان في بعض المرات يتحدث في هذه الرسالة أو تلك عن إمكانية أن يكتب كتاباً فإنه ما يلبث أن يعدل عن ذلك.

[4] لكن ربما لا يكون من المستبعد في نهاية الأمر أن يتحدث المرء في نص مغلق عن تفكير غير مغلق، بالطريقة نفسها التي نستطيع بها كما يقال: أن نصف

(5) يختصرها سيمون بوكيه Simon Bouquet بطريقة مبالغ فيها عندما يقول منذ السطور الأولى في كتابه (1997م، 2): «سوسير مات وعمره 54 سنة». وهذا ليس بصحيح، فسوسير ولد في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1857، وكان عمره 56 عندما مات في 22 شباط/فبراير 1913م. حقاً إنه ليس لسوسير حظ مع كاتبي سيرته: فتوليو دي ماورو جعل سنة ولادته حتى طبعة عام 1985م من كتابه **دروس في اللسانيات العامة** سنة 1871م (دروس، 319). وليطمئنّ الجميع: لن أقف طويلاً عند هذه الهفوات.

الأمر الغامض وصفاً دقيقاً. أشك في ذلك: هل من الممكن أن تكون **كلية** نص ما tout d'un texte قادرة على توضيح الكل الأقل pas-tout لنص آخر؟ وهل نحن في واقع الأمر نتعامل في حالة سوسير مع نص؟ لقد رأينا أنني استخدمت المصطلحية اللاكانية[6] في الكل والكل الأقل. وسنرى في الفصل الثاني أن سوسير لا يعترض على تحويل الضمير إلى اسم ولا أن يجمعه «les touts». ويمكننا أيضاً أن نطرح المسألة بمصطلحات اللغة الواصفة (métalangage) ما مصير الحكمة اللاكانية لو لم يكن سوسير موجوداً حقاً؟ ليست الإجابة عن هذا السؤال سهلة[7].

إنه لمن المستحيل أن نصف فكراً وصفاً يختلف عن الشكل الذي يتخذه الموضوع الذي نذر نفسه له. وأعني هنا: إضفاء مظهر الإغلاق ونحن نصف تفكيراً منفتحاً كل الانفتاح. لكن المسائل النظرية في هذه النقطة هي في نهاية الأمر قليلة الأهمية.

أقدِّم نفسي في هذا الكتاب ضحية راضية بما أحدثته فيَّ محاكاة سوسير: لم تكن لديَّ القدرة ـ وبعبارةٍ أدق: عدلت عن أن تكون لي القدرة ـ على بناء سياج حول مكان غير مُسيَّج.

الكتاب الذي أفكر فيه، فضلاً عما سبق، ونلمح ذلك إذا تصفحنا المُقدِّمة التي لم تعد مُقدِّمة، يُقدِّم تفكير سوسير في عدد من الجوانب المنفصلة، وتبدو عبر انفصالها تسوِّغ تقسيم أبحاثه: **اللسانية**، والسيميولوجية، وفي ظواهر **الجناس التصحيفي**. ليس هناك ما هو أقل ضمانة من نجاح هذا التحليل. ولعله من المناسب أن نترك بلا إجابة مسألة الوحدة أو التعدد في موضوعات تفكير سوسير ومنهجه، وإنْ لم يكن من المستحيل ـ لم أمنع نفسي من ذلك ـ أن أطرحها على نفسي.

إن واحداً من مظاهر المحاكاة الواضح كل الوضوح هو التكرار. إنه ظاهرة

---

(6) إن لاكان الذي سنصادفه في الفصل السابع على وجه الخصوص، يسجل بوضوح أن سوسير هو أحد مراجعه، ويعبِّر بوجه من الوجوه عن احترامه له، يطرح ثنائية الـ الكل tout والكل الأقل pas-tout. ليميِّز باختصار بين المغلق وغير المغلق. (لاكان، الحلقة الدراسية، XX، أيضاً، تلفزيون).

(7) توجد بعض بذور الإجابة في التحليل المُقدَّم في بداية الفصل الثاني، وفي عدد آخر من المواضع التي أُشير فيها إلى اضطراب سوسير في المصطلح.

منتشرة في **كتابات** Ecrits سوسير. وهي **موجودة أيضاً في المصادر المخطوطة** للدروس الثلاثة من عام 1907 إلى 1911م، ولم يستطع ناشرا عام 1916م تلافيها تماماً. لقد كانا على حق: فالتكرار الذي سبق تسويغه بأسباب تربوية بديهية هو سمة ملازمة للتفكير السوسيري. اللغة نظام صارم، ولهذا فإنه مما لا يمكن تفاديه أن المشكلات التي تطرحها تتكرر في عدد من المواضع. والتكرار هو أيضاً سمة حتمية مستمرة في تأمل سوسير [5] **في الجناس التصحيفي وفي الحكاية الخرافية** أيضاً. وهذا يمثل، ليس الأثر الذي يتركه تنظيم الموضوع الذي ينبغي وصفه فقط، بل عدم إنجاز البحث الذي يهدف إلى إنجازه. لذلك لا يَعجَبَنَّ أحدٌ من رؤية النص نفسه مقتبساً مرتين في كتابي هذا، في فصلين مختلفين، لكنهما مفسران بطريقتين مختلفتين؛ لأن المكان الذي تشغله في النظام القضية المدروسة مختلف.

لكن لا ينبغي على أي حال أن نفرّط في محاكاة سوسير.

إن الكتاب الذي أنشره اليوم يمثل في أدنى الحدود، بوصفه كتاباً غير مغلق، مظاهر الإنجاز. ومن النادر أن تنتهي الجُمل ببياض، أو أن تُشرح بما يخالف المألوف «ليس هذا ما أردت قوله»، كما يتردد في **كتابات** سوسير(8). وعلى الجملة، لقد سعيت إلى الوضوح، سواءً في أجزاء العبارة أو في التأليف.

إن الحكم على العبارة يخصّ قارئي إن وُجد. أما التأليف فإنني أخصّه ببضع كلمات. بعد مُقدّمة الكتاب الذي لم أكتبه نجد فصلاً ظاهره في السيرة. عنوانه: «سوسير: حياة في اللغة»، وهو عنوان راودني في لحظةٍ فكرةُ وضعه عنواناً للكتاب، حاولت فيه إجراء جرد تاريخي لنشاطات سوسير المتعلقة باللغة بالمعنى الواسع جداً للمصطلح. وفي الوقت نفسه بالمعنى الضيّق للمصطلح: ونلاحظ أنني تفاديت ما أمكنني أي إشارة إلى أي حدث لا علاقة له بنشاط باحث في علوم اللغة.

---

(8) تجد هذا النفي في واحدة من التعاليق الزائدة «Notes item»: «Item هناك خطأ في القياس بين اللغة وبين أي شيء إنساني آخر لسببين: 1/ العجز الداخلي للعلامات. 2/ قدرة عقلنا على الارتباط بمصطلح هو في ذاته عاجز. (لكنني لم أرد قول هذا. لقد خرجت عن الموضوع)». إنكلر (1974-1990، 38).
وهناك صياغة أخرى مشابهة تماماً، لفكرة العيب ونابعة من الشعور نفسه بعدم سلامة ما يقال، وبضرورة التصحيح: «ليس في هذا شيء مما أردت قوله». **كتابات**، 109.

وهناك فصل ثانٍ طويل يحتوي على محاولة إعادة قراءة كتاب **دروس في اللسانيات العامة**. لقد بدا لي من الضروري أن أبدأ من هنا، آخذاً في الحسبان الأسباب المذكورة في المُقدِّمة. ومع ذلك، فإنه من البديهي أن أشير في كل مرة بدا لي فيها ذلك نافعاً ـ وقد كان في الغالب كذلك ـ إلى الاختلافات بين محتوى **الدروس** والتعليم «الأصيل» الذي كان يقوم به سوسير. يرمي هذا الفصل، دون أن يصل بدون شك إلى مبتغاه، إلى الوصول إلى مرحلة الإنجاز. مع ذلك فإنه لا يقف وقفةً متساويةً عند كل المسائل المطروحة.

إنه من جهة صامت صمتاً يكاد يكون مطبقاً عن قسم مهم من **دروس سوسير**: إنه القسم الذي يخص اللغات ـ بالجمع ـ، وليس اللغة ـ بالمفرد. ليس لأن تلك الفقرات ليست مهمة، [6] بل إننا على العكس، وعلى الرغم من عقبة الشكل المكتوب الذي أسبغه الناشران بعد زمن على خطاب الأستاذ، نشعر باللذة التي كان سوسير يحس بها وهو يصف لطلابه الأسر اللغوية[9]، أو الصعوبة التي نواجهها في التمييز بين اللغة واللهجة (**دروس**، 264، 278)[10]. مع ذلك، فإن لهذه الملاحظات بالطبع سمة الملاحظات التي تُلقى على طلاب الإعدادية: إنها تهدف إلى إيضاح طريقة عمل هذا الشيء المجرد الذي هو اللغة مع الاستعانة بأمثلة محسوسة. ولعله من المناسب، لنقدّر هذه الملاحظات حقّ قدرها ونمنحها قيمتها الحقيقية، أن نرجع إلى النص، وأن يكون ذلك في شكله الأصلي أفضل

(9) تلمس في هذا الخصوص أن سوسير كان يتخذ موقفاً هو في الوقت نفسه حذر وواثق حول مسألة وحدة الأصل أو تعدد الأصل في اللغات: «القرابة الكونية بين اللغات ليست أمراً مرجحاً، لكنها حتى لو كانت صحيحة كما يعتقد ذلك لسانيٌّ إيطاليٌّ هو السيد ترومبيتيللي Trombettielle فإنها لا يمكن البرهنة عليها بسبب التبدلات الكثيرة جداً التي حصلت». (**دروس**، 263) ـ. وسنرى في الفصلين الثاني والخامس على وجه الخصوص أن موقف سوسير بخصوص التصنيف، التاريخي أو النوعي(*)، للغات يخضع لاعتبارات متنوعة تفضي به في بعض الأحيان إلى حد الشك في كل إمكانية للتصنيف التاريخي أو النوعي.

(*) اعتمدنا مصطلح «نوعي» مقابلاً عربياً لـ typologique المثبت في مُعجمين لغويين حديثين: **مُعجم علم اللغة النظري**، ص293، و**مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص514. وخالفنا بذلك **مُعجم اللسانيات**، ص206 الذي يترجمها إلى «نموذجي» والمترجم الذي اعتمد «نماذجي». (المراجع).

(10) التونسية، 287-288، 302-303؛ العراقية، 215، 225؛ اللبنانية، 233، 246؛ المصرية، 338، 355؛ المغربية، 274، 259. [المترجم].

من أن نعود إليه بالشكل الذي اتخذه في طبعة عام 1916م. ومن جهة أخرى، احتوى الفصل الثاني على عرض مختصر لثلاث مسائل أخرى، وهو عرض يمهّد الطريق لمعالجات مفصّلة في الفصول الثلاثة التالية.

لقد سعيت أول ما سعيت في الفصل الثالث إلى إرساء علاقات مركّبة وتطورية بين اللسانيات والسيميولوجيا. السيميولوجيا كما تظهر ظهوراً ضبابياً في **الدروس**. كما أرسى سوسير دعائمها بطريقة أكثر وضوحاً في **الكتابات والمصادر المخطوطة**. وعلى وجه الخصوص كما عولجت في بحث **الحكاية الخرافية الجرمانية** (Leg) وفي نصوص أخرى مختلفة، وخصوصاً **التعليقة حول تريستان** (Tristan).

ثم قدّمت بعد ذلك في الفصل الرابع شرحاً نوعياً عن المسألة التي دار حولها نقاش كبير، إنها مسألة العلاقات بين «لسانيات اللغة ولسانيات العبارة» لكي ألتزم هنا بالمصطلحات التي استُخدمت في **دروس** نشرة عام 1916م.

ويعالج الفصل الخامس باستفاضة مسائل كانت بلا شك مصدر قلق شديد لسوسير: إنها المسائل المتعلّقة بالزمن في الكلام.

ويعرض الفصل السادس إلى مسائل الأدبية والحرفية والسردية: لأن سوسير الذي لا يخص الأدب في دروسه إلاّ بإشارات عابرة يقف طويلاً عند تحليل ـ بكل ما تعنيه كلمة تحليل من معنى ـ نصوص شاع ـ صح ذلك أو لم يصح ـ أنها نصوص أدبية.

وفي الفصل السابع، طُرحت مشكلة اللاوعي في تفكير سوسير. وقد أفضى بي هذا الطرح الصعب، [7] الذي لا يمكن التغاضي عنه إلى طرح مسألة العلاقة بين تفكير سوسير وتفكير فرويد. ونلاحظ في سياق هذه الدراسة دور الوسيط الذي جاء لاكان بعدهما ليؤديه.

أما الفصل الثامن، فيترك النص السوسيري ليتفحص مظهراً من أكثر المظاهر الحاسمة لتأثير سوسير اللساني: إنه التأثير الذي مارسه سوسير على غريماس وعلى بارث اللذين تتجذر السيميائية أو السيميولوجيا لديهما بعمق في تفكير سوسير.

ويعود الفصل التاسع والأخير إلى سوسير، لكنها عودة خاصة. إنها ـ أعترف بذلك ـ محاولة خداع. فهذا الفصل في الحقيقة مخصص للنص الذي طبعه بعد

وفاة صاحبه المأسوف عليه أداليير ريبوتوا[11] (Adalbert Ripotois) في من جديد. (2005) De Perec, etc., derechef. إن وجود أداليير ريبوتوا وجوداً حقيقياً يظل مشكوكاً فيه على الرغم من النبذة التي كتبها جان فيرتز (Jean Wirtz) ونشرها عن حياته وسيرته وكتبه. لكنْ ليطمئنّ القارئ «الجاد»: إن المسألة المعالجة في هذا الفصل هي مسألة مهمة كل الأهمية في فكر سوسير: أعني مسألة طبيعة العلاقة بين الكلام والصوت البشري؛ وهي علاقة يرى سوسير أنها مُشْكِلة.

(11) تجدر الإشارة إلى أنه لا ينبغي الخلط بين أداليير ريبوتوا وعمه الأكبر أدولف ريبوتوا Adolphe Ripotois. وبغية تجنب هذا اللَّبْس المؤسف، فالمعلومات الضرورية واردة في الصفحة 301.

[9] هذه ليست مُقدِّمة

أو أنها لم تعد كذلك

ينصف إنتاج سوسير حتى لمن ينظر إليه مِنْ علٍ بصفتين نادراً ما تجتمعان. أولاهما صفة مذهلة جداً: إنها الأساس الإبيستمولوجي الذي يقوم عليه ذلك الإنتاج. «وأخيراً جاء سوسير»، عبارة رددها الناس عام 1968م قياساً على نمط العبارة المشهورة التي قالها بوالو (Boileau): «أخيراً جاء ماليرب (Malherbe)». إن ما أطلقه ديكرو (Ducrot) هو بالتأكيد مزحة تهدف إلى نقد الصيغة التي اشتهرت، مزحة يقول فيها ديكرو بأسف معلن: «إن كثيراً من كتب مبادئ اللسانيات [...] تبدأ بتصريحات فيها قليل من التحفظ في الشكل، وبمضمون يكاد يكون مكرراً». (ديكرو، 1968، 35). لكن إمكانية وجود الصيغة في حدّ ذاتها هي إمكانية موحية، تجعل ديكرو يستأنف حديثه على الفور قائلاً إن «الإضافة الأصيلة التي جاء بها سوسير»، هي إضافة تتمثّل في رأيه «بافتراض قَبْلي لوجود النظام في العنصر». (المصدر السابق). أليس في ذلك إقرار فيه بعض التباين وكثير من العلم بالنسبة إلى ما هو شائع في التعبير عن الجِدَّة «الإضافة» في الطرح السوسيري؟

لم يؤسس سوسير اللسانيات التي كان لها ماضٍ علمي طويل عندما رأى النور. لكن كتابه هو في الأصل تحول هائل عرفه المسار التطوري لهذا النوع الدراسي. واستطاع الناس انطلاقاً من وجهة النظر هذه التحدث عن «قطيعة سوسيرية». وهو مفهوم ربما يكون مبالغاً فيه، لكنه على أي حال موسوم بميسم عصره: إنه الالتقاء بين الماركسية والبنيوية. وعلى الرغم من ذلك، وحتى لو أنه كان من المغامرة التحدث عما كانت ستؤول إليه اللسانيات بلا سوسير، فإنه يكفي أن نذكر عدداً من الأسماء ـ تروبتسكوي (Troubetzkoy)، ومِيّيه (Meillet)، وهلمسليف (Hjelmslev)، وجاكوبسون (Jakobson)، وغيّوم (Guillaume)، وبنفينيست (Benveniste)، ومارتينيه، وآخرين على سبيل المثال ـ لنلمح أهمية

الحدث السوسيري. ونضيف إلى ذلك بالطبع أن السيميولوجيا تجد أحد مصادرها ـ الأكثر أهميةً بلا شك في فرنسا وفي أوروبا ـ في «السيميولوجيا» السوسيرية: فلم يكن لفكر بارت ولا لفكر غريماس أن يكون ما هو عليه بلا كتاب **دروس في اللسانيات العامة**. وإن المظهر الأخير [10] من مظاهر «الحدث السوسيري: هو أن عدداً آخر من قطاعات التفكير في العلوم الإنسانية تأثرت تأثراً يتفاوت في مباشرته وقوته بتأثير الفكر السوسيري: وينبغي هنا أن نذكر أسماء لاكان وليفي ستروس وميرلو بونتي ـ من بين «آخرين: نغيّر اسماً واحداً من بينهم من وقت لآخر»، كما يقول لاكان ـ. ومهما يكن من الأمر، فإن سوسير يظل، بين اللسانيين، بلا شك اليوم ـ ليس في فرنسا وسويسرا وأوروبا فقط ـ أكثر من يُقرأ ويُترجم ويُستشهد به: والكتب التي تناولته تُعدّ بالعشرات، والمقالات بالآلاف.

لكن منجز سوسير يتخذ من جانب آخر، وهذه طبيعته الثانية، مظاهر غريبة: يمكن أن يقول الناس: إن سوسير ـ الذي تولّد حالته عدداً من المقولات ـ لم ينشر ما كتبه ولم يكتب ما نشر باسمه. وهي مقولة لا نكاد في هذه المرة نجد فيها شيئاً من المبالغة، وتعلن هي بنفسها عن نوعية المنجز. وسيكون بالبداهة من الضروري، أن نحدد ونحصر، وفي النهاية أن نؤكد هذه الصيغة في جوهرها. وسأكتفي حالياً بملاحظة أن وضعية المنجز الذي تصفه الصيغة وضعية نادرة كل الندرة في مجال العلوم الإنسانية: ولست أعرف في حقيقة الأمر أي مثال آخر مماثل. إن مثال جاك لاكان الذي فكر فيه الناس في بعض الأوقات يتسم بسمات لا يمكن ألْبَتَّةَ مقارنتها مباشرة بسمات مثال سوسير، إنها أقل وضوحاً. هذه الوضعية النوعية لمنجز سوسير تفضي إلى نتائج مهمة حول الطريقة التي يُقرأ بها. وإن الشوائب التي نجدها في النصوص التي نشرها الآخرون بعد موته، ووضعية غير المطبوع، وفي بعض الأحيان المجهول التي اتصفت بها خلال زمن طويل نصوص أخرى لسوسير ـ بعض النصوص ما زالت على هذه الحال حتى اليوم ـ تؤدي بالتأكيد إلى قراءات ذات نمط فيلولوجي وحرفي، هي على العموم مخصصة للنصوص الأدبية. وتشكّلت مع مرور الزمن مؤسسة صغيرة دولية حقيقية للمختصين بطباعة ما هو غير مطبوع من أعمال سوسير. إن كتابة سوسير ـ التي يحاول التجويد انتزاعها من الاستعجال، ومن المظهر الرشيق، هي تركيب غريب ومُغرٍ يتخذه فكر سوسير، يعمّق قرابته من النص الأدبي ـ شأنه شأن الأشياء النوعية ـ التي هي نفسها أدبية غالباً ـ. ومن هنا يكون

هناك في بعض الأحيان، بطريقة أقل أو أكثر انتظاماً، بعض الفضول للاطّلاع على سيرة سوسير، إنه فضول يشبه الفضول الذي يتمثّل في الاطّلاع على سيرة شاعر أو روائي. وتكون الرغبة معلنةً حيناً ومكبوتةً حيناً آخر في أن تؤخذ تلك السيرة في الحسبان عند تحليل المنجز. وإنه لغريب ما تأتي به المصادفات، أو بعض سوء الطالع الغريب، أن سيرة سوسير ما تزال حتى اليوم بعيدةً عن أن تكون واضحةً كل الوضوح، ويبدو أنه من الصعوبة بمكان أن نعرفها حق المعرفة. مما سيكون له بالضرورة أثر في تأجيج الفضول حولها، وفي إضفاء صفة القداسة على الشخص الذي هو موضوعها.

[11] أما أنا فأشعر ـ هل أرغب في ذلك؟ ـ بأنني مصاب إصابةً بسيطةً بعدوى الفضول لمعرفة تلك السيرة. لكنني في كل الأحوال مضطر إلى افتتاح هذا الكتاب بفصل قصير عن التاريخية السوسيرية التي تركّز حصراً على حياته الثقافية. وليس ذلك لأنني سآتي بمعلومات جديدة: لقد عدلت منذ زمن عن البحث عن ذلك، ولا أكاد أستطيع أن أقدّم عن نقطة جزئية إلاّ تاريخاً ما زال حتى اليوم مجهولاً. لكن اهتمامي انصبّ على منشورات عدد لا يمكن حصره من أفراد أسرة سوسير، وراق لي ملاحظة عدد من نقاط الالتقاء مع فكر فردينان: وسنرى أنها نقاط التقاء ملموسة، وخصوصاً مع عمه تيودور (Théodore) وأخويه ليوبولد (Léopold) ورينيه (René). وفيما عدا ذلك، اكتفيت بتوليف المعلومات التي جمعها الآخرون قبلي توليفاً يُكمل نقصها. لكن بدا لي من الضرورة أن أقدّم إلى القارئ الإشارات الضرورية التي تسمح له بموضعة فكر سوسير في الظروف التاريخية لتشكّله. وعلى وجه الخصوص للوصول به إلى أن يرى بأي طريقة كان سوسير يدير الأعمال المختلفة التي شغلته إبّان حياته ـ القصيرة نسبياً في مدتها الكلية، الطويلة إذا أخذنا في الحسبان ظاهرة الإفراط في نضجه العلمي المبكر (1872–1913). وسيلحظ القارئ خصوصاً أن بحوث سوسير التي تُعدّ غالباً منفصلةً جرى العمل عليها بطريقة متوازية. وبكل تأكيد، فهذا الأمر لا يفترض ـ ولا يستبعد ـ أن بينها بالضرورة رابط نظري أو منهجي...

أعود الآن إلى المزحة التي تقدم عرضها لتقويم ما تقدمه. إذ إن هناك عدداً من النصوص لا يمكن إهماله يُستثنى من التقسيم الذي تقدمه. أشير بادئ ذي بدء إلى كتابين كتبهما مؤلفهما ونشرهما. الأول، **مذكرة في النسق البدائي للصوائت في**

اللغات الهندو ـ أوروبية[1] Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes، نشره سوسير عندما كان عمره 21 سنة: يعود تاريخه إلى عام 1879، لكنه صدر في واقع الأمر في كانون الأول/ديسمبر 1878م. إن هذا «الكُتيِّب» كما يسمّيه بكل تواضع سوسير ـ هو في الواقع كتاب من 268 صفحة ـ أكسب مؤلفه فور صدوره شهرةً عالميةً، كانت بالتأكيد مصحوبةً ببعض الإنكار الذي يبدو أنه ضاق به ذرعاً. وفي عام 1881 ظهر في هذه المرة «كُتيِّب» حقيقي: الرسالة التي ناقشها سوسير في ليبزغ Leipzig، وعنوانها: «في استخدام حالة الجر المطلق في السنسكريتية»، وهي رسالة لا يتجاوز عدد صفحاتها 95 صفحة في الطبعة الأصلية، وهي أقل من ذلك في المجموعة. وبعد هذا التاريخ لم ينشر سوسير ـ الذي كان عمره 24 عاماً ـ أي كتاب.. أما ما بقي مما نشره سوسير في حياته فإنه يشغل 268 صفحة في «مجموعة المنشورات العلمية Recueil des publications scientifiques» التي نُشرت عام 1921م. وهي مقالات في اللسانيات الهندو ـ أوروبية، مراجعات كتب، [12] ملخصات، بضمير الغائب، مداخلات أُلقيت أمام جمعيات علمية مختلفة، إلخ. بعض هذه النصوص هي تعاليق اشتقاقية مختزلة بعض الأحيان في عدد من الأسطر. أما كل ما بقي، فإن ما تمّ لسوسير نُشر بعد وفاته. ونستطيع بالعودة إلى أصولها أن نقسمها إلى ثلاث مجموعات:

1/ **دروس في اللسانيات العامة**. وكما يشير إلى ذلك عنوانه، كان هذا الكتاب في الأصل مجموعة من **الدروس** أو بتحديد أكثر سلسلة من **الدروس** ألقاها سوسير في جامعة جنيف من عام 1907 إلى عام 1911م ـ تخللتها فترات انقطاع: ف **الدروس** لم تُلْقَ إلاّ سنة بعد سنة. وبعد موته عام 1913م قام اثنان من زملائه ومريديه، شارل بالي (Charles Bally) وألبرت سيشهي (Albert Sechehaye) ـ وقد كانا من تلامذة سوسير القدماء، لكنهما مع ذلك لم يتابعا **دروسه في اللسانيات العامة** ـ وقرّرا بغية نشر ما كان يعلّمه الأستاذ الراحل ـ أن يجمعا مخطوطات سوسير والمعلومات التي دوّنها من استمعوا إلى دروسه. وقد سارا في عملهما الذي ساعدهما فيه ألبير ريدلينجر (Albert Riedlinger) المستمع الصادق لأول

(1) ترجمها الدكتور عز الدين إسماعيل رحمه الله في ترجمته كتاب كلر، ص 66: **استخدام حالة الإضافة في اللغة السنسكريتية**. [المترجم].

درسين من **الدروس**: ونُشر الكتاب في عام 1916م. وأوضح في الحال أنه كان من الصعب أن يقوما بعمل أفضل، نظراً للإمكانات التي كانت تتوفر للناشرين في ذلك العصر، ونظراً للمُهل القصيرة التي حدَّداها لنفسيهما. إن كتاب **دروس في اللسانيات العامة** كما أُريد له أن يكون في طبعته «النموذجية» ـ التي توصف بعض الأحيان «بالنسخة الشائعة = Vulgata(*)» ـ هو النص الوحيد الذي كان متوافراً للقراء بين الأعوام 1916 و1957 (تاريخ نشر كتاب روبير غوديل (R. Godel) عن المصادر المخطوطة لكتاب **دروس في اللسانيات العامة**) وغالباً حتى بعد ذلك. إذاً، مارس فكر سوسير عبر هذا النص تأثيره في تطور اللسانيات والعلوم الإنسانية في القرن العشرين. ولم تعرف الأسماء التي تقدم ذكرها وهي بغير ترتيب: مييه وتروبتسكوي وهلمسليف وميرلو-بونتي **الدروس** إلاّ في «نسختها الشائعة». أما جاكوبسون وبنفينيست ومارتينيه ولاكان وليفي ستروس وبارت وغريماس فإنهم علموا، بدرجات مختلفة، بوجود مصادر مخطوطة، وباختلافاتها عن النسخة النموذجية. وعلى الرغم من ذلك فإن هذه «النسخة الشائعة» هي التي بلورت، أساساً، تفكيرهم. إذاً لم يكن بالإمكان إهمال النسخة النموذجية، ومحاولة أن نستبدل بها على الدوام **دروس** سوسير «الأصيلة» ـ إذا افترضنا أنه بالإمكان إيجاد تلك الأصالة بتمام ودقة.

ويظل هناك بالطبع قضية أن الآراء التي يطرحها الأستاذ في دروسه لم يقدّمها تلامذته بدقتها الحرفية. لذلك نجد أن الصيغة التي تتوقف عندها **الدروس** تنتهي بالقول: ـ «إن موضوع اللسانيات الوحيد والحقيقي هو اللغة بذاتها ولذاتها» [13] ـ هي «خاتمة الناشرين»، وليس في المصادر المخطوطة ما يسمح بتأكيد أن العبارة قالها سوسير بهذه الصيغة أو بصيغة أخرى تقاربها. ولعل الأخطر من ذلك هو أن طريقة تأليف الكتاب المعتمدة لا تتوافق بوضوح لا مع تأليف أي من الدروس الثلاثة الأولى، ولا بلا أدنى شك مع التأليف الذي يمكن أن يكون سوسير قد خطط له لو أتيح له أن يخطط لطباعة الدروس التي كان يلقيها. ومن هنا تأتي الاختلافات التي

(*) ترجمها قاموس **الكامل الكبير**، ص1406: الكتاب المقدس باللاتينية، وهي ترجمة حققت ونقحت ونصها هو المعتمد اليوم. والاستخدام هنا مجازي ويُراد منه أن هذه الطبعة هي الأكثر شيوعاً. (المراجع).

لا يُستهان بها بين «النسخة الشائعة» وبين ما يمكن أن نستخلصه من المصادر المخطوطة. وضمن الحدود التي ذكرناها قبل قليل، ينبغي أن نأخذ في الحسبان تلك الاختلافات.

لقد بدا واضحاً أنني، بخلاف قرّاء سوسير الآخرين، لن أدخل في مجال الطعونات ضد ناشري نسخة عام 1916، ولا حتى في مجال الحسرة والأسف فيما يخص مشاريع نشر أخرى. تُرى هل نصُّ عام 1916 هو نصٌّ منحول كما نسمع ذلك من الآن فصاعداً هنا وهناك؟ إن هذا التقويم يحتوي ضمنياً على مكوِّنات أخلاقية ليست في سياقها، وتنمُّ عن وجود نزعة تقديس لكلام المؤلف عند من يعلنون عنها: هل نصُّ عام 1916 هو على هامش كلام الأستاذ كما هو حال الأناجيل المنحولة بالنسبة إلى الحقيقة المُنزلة أو المُوحاة Vérité؟ ويهمل هذا التقويم كل الإهمال الجانب التاريخي لقضية نشر كتاب **دروس في اللسانيات العامة** عام 1916 انطلاقاً من درس أُلقي خلال خمس سنوات على الطلاب. ولا تأخذ في الحسبان الصعوبات التي تلازم في كل المقاييس ظهور النص الشفاهي مكتوباً. لكننا في نهاية الأمر نتعجب بعض الشيء من هذه اللعنات. ألم تنصَبّ بالقَدر نفسه ـ بل بعنف أكثر إن كان ذلك ممكناً ـ بخصوص الحلقات العلمية **Séminaires** التي نظمها لاكان؛ وهي في الأصل حلقات شفوية، ثم نُشرت في كتاب؟

2/ البحث في «**الجناس التصحيفي**». ويُمثِّل كمّياً أكثر الأقسام أهميةً من **كتابات** سوسير: ليس أقل من 99 كرّاساً حسبما أحصاها غوديل، وستاروبنسكي وأخذها عنه غاندون (Gandon) (2002، 3). وتصل حتى 117 كراساً إذا صدقنا ميشال ديبوي (M.Dupuis) (غاندون، المصدر السابق). وباختصار، إن اهتمام سوسير المستمر بهذا البحث هو إيجاد كلمات، هي في بعض الأحيان ذات منطوق قصير، مكتوبة «تحت كلمات» نص ظاهري. وبطريقة تعليمية خالصة، كما لو أنه يهدف إلى توضيح ذلك للطلاب، يصف سوسير الظاهرة بالطريقة التالية:

> أذكر بيتاً شعرياً، بصفته هنا مؤشراً أولياً لهذه الأنماط، لأنني لا أستطيع في حال من الأحوال التفكير في أن أعرض هنا نظريتي في الشعر الساتورني[2] Saturniens:

---

(2) البحر أو الشعر الساتورني هو: نمط شعري لاتيني أو إيطالي قديم لم تعد المبادئ =

Taurasia Cisauna Samnio cepit[3]

هذا بيت شعري يتضمَّن جناساً تصحيفياً، يحتوي اسم Scipio كاملاً (في المقاطع ci + pi + io. فضلاً عن ذلك، ثمة وجود لـ (S) في Samnio cepit التي هي حرف بدئي لمجموعة من الكلمات تكاد تتكرر فيها جميعاً كلمة Scipio (ستاروبنسكي، 71، 29)).

[14] إن كلمة «الذي يعود» في «البيت الشعري ذي الجناس التصحيفي» هي اسم علم. وهذه هي الحال في أغلب الأحوال. وسيتكرر الأمر نفسه مع اسم الإله أبولو (Apolo) (sic، مكتوب حسب الإملاء القديم، بلام واحدة غير مكررة) في البيت الشعري الذي سيكون موضع تحليل في الفصلين الخامس والسابع. لكن

= الإيقاعية التي يقوم عليها معروفة اليوم. إذ لم تصل إلينا منه سوى 132 مقطوعة شعرية كاملة وموثوقاً بصحتها. كما احتفظت لنا الكتب النحوية المتأخرة منه بخمسة وتسعين شاهداً شعرياً هي بيت أو جزء من بيت، بالإضافة إلى سبعة وثلاثين بيتاً في شكل مراثٍ أو نقوش على بعض القبور.

ولوحظ أن الشعراء المتأخرين مثل إينيوس (Ennius) ومن بعده فرجيل قد احتفظوا في قصائدهم السداسية المقاطع بشيء من جماليات البحر الساتورني. حاول النحاة القدماء استقراء نظام البحر الساتورني من نموذج إغريقي قديم يقوم على مبدأ الكم المقطعي أو تتابع المقاطع الخفيفة أو الثقيلة. لكنهم اليوم منقسمون في شأنه بين اتجاهين: اتجاه، يرى أن هذا البحر يقوم على مبدأ الكم (لكنه ليس مقترضاً من الإغريقية). واتجاه، يرى أن هذا البحر يقوم على مبدأ النبر... وعلى الرغم من هذا الاختلاف فهناك شبه إجماع على جملة من الملامح التي تتسم بها البنية الإيقاعية لهذا البحر. فبيت الشعر من البحر الساتورني ينقسم إلى شطرين بينهما فاصلة، ويكون الشطر الثاني أقصر من الأول أو في مثل طوله...

انظر بحثاً طويلاً عن البحر الساتورني saturnian verse على موقع:

http://encyclopedia.thefreedictionary.com . [المترجم].

(3) بيت من اللغة اللاتينية المشتركة من مجموعة أبيات منقوشة على ضريح لوشيوس كورنيليوس سيبيو بارباتوس (Lucius Cornelius Scipio Barbatus) (ت. 150 ق.م) وترجمته: «استولى على تورازيا وسيزونا وسامنيو» هي أسماء أماكن. والشاهد أن ممارسة الجناس التصحيفي في البيت تُفضي إلى استخراج اسم سيبيو. وسيبيو اسم سياسي وقائد عسكري روماني مختلف في تاريخ وفاته (185-129 ق.م) من أبرز إنجازاته العسكرية أنه قاد حملة أخيرة على مدينة قرطاجة في شمال إفريقية، وسوّاها بالأرض سنة 146 ق.م، ثم صار زعيماً للمعارضة في روما سنة 132 ق.م. وهو حفيد بالتبني للقائد الروماني الأكبر سيبيو الإفريقي الكبير (237-183 ق.م). وتحدث شيشرون عن حلم الفتى سيبيو (Somnium Scipionis) الذي التقى جده في حلمه. [المترجم].

اسم العلم ليس وحده الذي يمكن أن يخضع **للجناس التصحيفي**: إذ نجد «تحت الكلمات» العائدة إلى القصيدة عناصر من كل الأنواع اللغوية. نكتشف فيها بعض الأحيان ـ شرط أن يكون النص الظاهر أو السطحي طويلاً كفاية ـ جملاً، بل نجد مشروع سرد (انظر على سبيل المثال ستاروبنسكي، 71، 78).

وليست هذه الخصوصية حكراً على الشعر اللاتيني القديم، لكنها موجودة أيضاً في الشعر اللاتيني الكلاسيكي ـ وحتى في الشعر الكلاسيكي المتأخر ـ وهي موجودة في النثر أيضاً حيث لا يُنتظر أن نجد إلاّ أثراً ضئيلاً لمثل هذا البحث الأدبي، مثال ذلك البحث الذي تناول رسائل سيزار Lettres de César. وعلى الرغم من أن هذه النصوص لم تكن قط في واقع الأمر مجهولة فقد كُشف عنها بصورة متأخرة، ثم نشرت: ولم تظهر إلاّ في عام 1971م عندما جمعها جان ستاروبنسكي في مجلد واحد ـ ذي عنوان دالٍّ كل الدلالة: **الكلمات تحت الكلمات** Les mots sous les mots ـ وقد كان عمل ستاروبنسكي في نشره هذه المجموعة عملاً لا يكاد يكون مسبوقاً. وعلى الرغم من عدد من النشرات الجزئية السابقة فإن العمل على **الجناس التصحيفي** لم يُنشر حتى اليوم نشراً يحيط بالعمل كله. ويتساءل بعض الشراح العدول عن إمكانية نشر المجموعة.

3/ **البحث في نص الحكاية الخرافية** وخصوصاً الجرمانية. وقد خص سوسير هذا الموضوع بعمل هام: ليس أقل من 820 ورقة حسب إحصاء يوهان فهر (Johannes Fehr) (2000). ويتمثَّل العمل في جوهره في تساؤل واسع عن أصول **الحكاية الخرافية**[4] Nibelungenlied: هل للأحداث التي ترويها في صيغها المتعددة

---

(4) أغنية بلاد النيبولونجن la Chanson des Nibelungen بالفرنسية وبالألمانية: Nibelungenlied: وهي حكاية بطولية أسطورية من القرون الوسطى في ألمانيا، ظهرت في القرن الثالث عشر الميلادي باللغة العامية لذلك العصر. واسمها مشتق من السطور الأخيرة من الروايتين الرئيسيتين للنص («انتهى التاريخ الآن: إنه زمن الحكاية البطولية للنيبلونغ»). وليس لها مؤلف معروف. تحكي قصة مغامرات سيغفريد Sigfrid القيِّم على كنوز نيبولونجن لمساعدة غونتر Gunther في الزواج من برونهيلد Brunehilde وزواجه من كريمهيلد Kriemhild أخت غونتر، ومقتله على يد الخائن هاغن Hagene والانتقام الدموي الذي انتقمته له زوجه كريمهيلد. بالإضافة إلى أحداث تاريخية أخرى. انظر: **موسوعة ويكيبيديا الحرة** /http://fr.wikipedia.org/wiki . [المترجم].

والمختلفة علاقة بالأحداث التاريخية الحقيقية التي اتخذت في منطقة محددة إطاراً مكانياً لها؟ يبدو أن سوسير كان في بعض الأحيان يُسلِّم بهذه الفرضية التي يبدو أنها مدعومة بعدد من المؤشرات المستخرجة من الدراسة اللغوية والتاريخية لأصل أسماء المواقع الجغرافية (المواقعية) في سويسرا الرومنية (Suisse romande).

لقد جرد سوسير نفسه لعمل طويل وشاق بزغت منه، كما لو أن ذلك حدث مصادفة خلال التأمل، فرضية أخرى: أليست **الحكاية الخرافية** شأنها شأن اللغة مكونة بفعل نظام من العلامات التي تتحول مع الزمن شأنها شأن كلمات اللغة؟ حينئذٍ تكون مثلها موضوعاً لهذا المجال الجديد «السيميولوجيا» الذي كان سوسير يفكر فيه منذ زمن بعيد، وسارع إلى تضمينه في كتابه **دروس**. ويتضح منذ البدء أن هذا المفهوم الجديد يتصل بصعوبة مع فرضيته التي طرحها عند الانطلاق. وتفضي الفوضى الظاهرة في مُسوَّدة سوسير إلى صعوبة في البحث. وتُظهر أن نوازع التردد التي راودته في نشر النتائج [15] جعلته يتردد في تأليف كتاب، وهي ترددات تظهر هنا وهناك في المُسوَّدة وهي ناجمة عن ضعف إرادته في تأليف الكتاب.

ظهر هذا البحث متأخراً أيضاً عن عمله في **الجناس التصحيفي**، حتى لو أن ستاروبنسكي كان يقتبس منه في مقالاته بعض المقاطع بشكل سريع. والطبعة التي ظهرت عام 1986م تظل ناقصة وفي الوقت نفسه غير كافية فيلولوجياً، وبالغة السرّية في كل الأحوال.

يتضح لنا أن سوسير ليس رجل كتاب واحد ولا رجل اهتمام واحد. وقد شاعت الموضة في السبعينيات بإيجاد أكثر من سوسير. بدأنا باثنين، ثم بثلاثة، ووصلنا إلى حدود ستة...

لم يعد هدفي وأنا أكتب هذا الكتاب أن أعدد سوسير ولا أن أعيده إلى الوحدة. لكن هدفي هو محاولة وصف تكوُّن تفكيره وتطوره، دون أن تغيب عن ناظري مشكلة العلاقات التي يمكن أن تنشأ بين أطراف أبحاثه هذه التي تتقاطع ظاهرياً أو واقعياً.

وتواجه هذا المخطط عدة عقبات. تتمثَّل إحداها في الوقائع التاريخية. فكما رأينا منذ قليل ـ وكما سنرى ذلك بوضوح عند استعراض الفصل الأول ـ فقد نُشرت بحوث سوسير المختلفة نشراً متتالياً، لكنها ـ قدْر ما نستطيع افتراض ذلك ـ كانت تجري غالباً

بصورة متزامنة. وإن هذا المعطى الواقعي ينفي إذاً عن القسم المركزي من الكتاب كل تذبذب في التسلسل الزمني لتأليف الكتاب: فهو لن يأخذ في الحسبان، إلاّ مصادفةً، مظاهرَ النشر المتأخرة، وليس حقيقة التفكير السوسيري.

والعقبة الأخرى مصدرها الشكل الذي اتخذته **كتابات** سوسير، وخصوصاً كتاب **دروس في اللسانيات العامة**. هل كان ينبغي أن نقتصر على الطبعة الشائعة أو النموذجية؟ لقد كان ذلك يعني أن نغضّ الطرف عن بعض المظاهر الحاسمة من فكر سوسير بالرغم من احتجابها النسبي. أو أنه كان من الضروري العودة إلى **المصادر المخطوطة** وحدها؟ في هذه الحالة كان ذلك يعني أننا نمنع أنفسنا من فهم بعض مظاهر التأثير التي تركها كتاب **دروس في اللسانيات العامة**. ألم يكن من الأفضل أن نأخذ في الحسبان، وفي الآن نفسه الاتجاهين دون أن نغفل عن التمييز بينهما تمييزاً دقيقاً؟

لقد حاولت حلَّ هاتين المسألتين ـ ناهيك عن مسائل أخرى لن أتحدث عنها لأنها ستظهر لاحقاً في سياق هذا الكتاب ـ عندما ألّفت هذا الكتاب بالطريقة التالية:

فصل تأسيسي يضع الأسس، وخصوصاً التاريخية لحياة سوسير، وهذا يعني حصراً تقريبياً لمساره وأعماله. وسأعالج في هذا الفصل بعض اهتماماته التي غالباً ما اعتُبِرت هامشية، وسُكت عنها في هذه المُقدّمة.

[16] قسم أول، يتضمّن فصلين مختصرين: سأعرض فيه لكتابين نشرهما سوسير الشاب، ولن يغيب عني أن أطرح سؤالاً مفاده إلى أي مدى يبرهن الكتابان استمرارية فكر سوسير.

والقسم الثاني، سيتضمن فصلاً وحيداً: سأحاول فيه أن أُرسي دعائم المشروع السوسيري في «السيميولوجيا» مستعيناً بطبعة **الدروس** الشائعة، وبمصادرها المخطوطة، وبأعماله عن **الحكاية الخرافية**.

والقسم الثالث، سأحاول فيه دون أن أُغفل الإطار السيميولوجي الذي أُرسيت دعائمه في الفصل الثاني، الدخول في تفاصيل التفكير اللساني الخالص لدى سوسير، متفحصاً التفرع الثُنائي الأساسي في تعليمه: لغة وكلام، دال ومدلول، تزامنية وتعاقبية، علاقات تتابعية وعلاقات ترابطية، قيمة ودلالة. أُدرك

بألم شديد وأنا أنكبُّ على هذا التعداد العديم الفائدة أنني أخون التفكير السوسيري: إذاً، أشير على الفور إلى أن كل واحدة من تلك الثنائيات التي تميِّز بينها تتراكب كل التراكب مع الثنائيات الأخرى كلها على نمط الموضوع نفسه الذي تسعى إلى توضيحه: إنه ذلك النظام «الصارم» الذي هو اللغة من بين أنظمة أخرى. ومن هنا بالطبع منبع الصعوبة القصوى في إخضاع تلك الأنظمة الأخرى لخطية الخطاب التعليمي التي لا يمكن تلافيها. ولعله اتضح أنني سأستخدم في هذا القسم استخداماً تنافسياً معطيات «النسخة الشائعة» ومعطيات المصادر المخطوطة.

وفي القسم الرابع، سأتناول مسألة **الجناس التصحيفي**، والعلاقة المحتملة التي يمكن أن نجدها بين هذا العمل وبين الاهتمامين الرئيسيين الآخرين لسوسير.

وأخيراً، سأعرض في القسم الخامس بعض مظاهر التأثير الذي تركه فكر سوسير، في اللسانيات وفي السيميولوجيا، بالتأكيد، لكن أيضاً في بعض المجالات الأخرى مثل علم النفس والإثنولوجيا على سبيل المثال.

هل ينبغي التذكير بما قلته؟ ليس هذا المخطط هو الذي اعتمدته في نهاية الأمر، لكنني اعتمدت المخطط الذي تحدثت عنه في **الاستهلال**. وأرى مع ذلك أن بعض المعلومات التي أعلنت عنها لتكون فصلاً مستقلاً وجدت لها مكاناً، وإن كان مختصراً، في الفصل الأول.

[19] الفصل الأول

الحياة في اللسان

ملاحظات متسلسلة تاريخياً وغيرها عن حياة فردينان دو سوسير ومساره

إن لعائلة فردينان دو سوسير أصولاً فرنسية عريقة. فالاسم الذي تحمله ذو علاقة كتابية باسم مدينة صغيرة في منطقة اللورين سولكسير ـ سير ـ موزيلوت (Saulxures-sur-Moselotte) في منطقة الفوغ (Vosges) الحالية التي تقع في منتصف الطريق بين روميرمون (Remiremont) وجيرار-مير (Gérard-mer). غادرت الأسرة التي اعتنقت مذهب الكلفينية (calvinisme)[1] في وقت مبكر منطقتها الأصلية في اللورين (Lorraine) واستقرت في جنيف. ومنذ القرن السابع عشر أصبح آل سوسير ينتمون إلى الطبقة الراقية في جنيف، وأدركتهم الثروة في القرن التالي: فباتوا يملكون منزلاً جميلاً في شارع المدينة، امتلكوا منزلاً للاصطياف في كرو دو جنتود (Creux de Genthod).

ومنذ بداية القرن الثامن عشر وعبر كل جيل، أنجبت عائلة سوسير عدداً مذهلاً من العلماء والكُتّاب، والفنانين في بعض الأحيان. أولهم هو نيكولا (Nicolas) (1709–1791): كان محامياً، وكانت هوايته التي يتقنها هي زراعة الكرمة، وكَتَبَ للموسوعة المقالات التي تخص هذا المجال. أما ابنه هوراس-بنديكت (Horace-Bénédict) (1740–1798)[2] فقد ظلّ لزمن طويل أشهر آل سوسير، وما زال كذلك بلا شك في عيون الكثيرين. فالباريسيون الذين يسكنون

---

(1) مذهب جان كلفان (Calvin) (1509–1564)، المصلح الديني والكاتب واللاهوتي الفرنسي البروتستانتي. (المراجع).

(2) هذا هو التاريخ الذي تورده التعليقة (لمؤلف مجهول) عن حياة السيدة نيكير دوسوسير =

شارع دو سوسير على سبيل المثال لا يعلمون أن الذكرى التي يحملها هذا الشارع ليست ذكرى حفيده البعيد فردينان. وكانت صورته خلال زمن طويل تزيّن الورقة النقدية السويسرية من فئة العشرين فرنكاً. وكان أول من تسلّق في عام 1787، لهدف علمي، الجبل الأبيض (Le Mont-Blanc). وقد وصف هذه الرحلة بتأثر ونشوة، ولم يهمل الحديث عن الاشتقاق الذي يعود إلى أصل له علاقة بالأجبان لكلمة sérac عندما يتحدث عن كتل الثلج المتجمد فيقول:

> يطلقون في منطقة الألب اسم sérac على نوع من الجبن الأبيض المتماسك الذي يُستخرج من مصل اللبن، ويضغطونه في صناديق مستطيلة [20] يأخذ فيها شكل مكعبات أو بالأحرى شكلاً متوازي المستطيلات. وعندما تكون كمية الثلج كبيرة فإنها تأخذ غالباً هذا الشكل عندما تتجمد بعد أن تكون قد أشبعت بالماء في جانب منها (**رحلة في جبال الألب**).

ونسأل: هل ورث سوسير من جده الأعلى هذا اهتمامه بالجغرافيا الألبية (نسبةً إلى جبال الألب)، وشعوره بمتعة واضحة عندما يستخدم الاستعارات التي تظهر فيها عناصر تلك الجغرافيا؟ نفكر هنا في حديثه عن المجلدات[3] (**كتابات**، 179)، وعن سلسلة جبال الألب نفسها (**دروس في اللسانيات العامة**، 117؛ ط. إنكلر، 1968–1989، 182؛ كوماتسو، 179 و 329)، أو حديثه أيضاً عن جداول المياه، وعن منبع الرين والرون اللذين يذكرهما بالاسم:

> إن مسألة أصل اللغات ليس لها الأهمية التي ينسبها الناس إليها. وهذه المسألة لم يعد لها وجود. إنها قضية تافهة[4] شأنها شأن قضية منبع الرون! إن لحظة التكوين لا يمكن القبض عليها كما حدثت: إننا لا نراها. (إنكلر، 1968–1989، 160).

ولقد اكتسب اثنان من أبناء هوراس بنديكت مكانة ثقافيّة متميّزة. ابنته ألبرتين–أدريان (Albertine-Adrienne) (1766–1841)، قريبة مدام دوستيل (Madame de Staël) وصديقتها ــ وقد كتبت لمحة عن حياتها ــ واشتهرت باسم نيكر دو سوسير

= Neker de Saussure ومؤلفاتها في أعلى الطبعة المُعاد نشرها من كتاب التربية المتدرجة. وتجعله مصادر أخرى (وتوليو دي ماورو على وجه الخصوص) يعيش حتى عام 1799.

(3) glacier: نهر جليدي، مُجَلدة [ركام من الثلج في الجبال العالية]. (المراجع).

(4) puérile: تافهة وسخيفة.

(Necker de Saussure). وأهم منشوراتها كتاب في ثلاثة مجلدات بعنوان: **التربية المتدرجة أو دراسة لمسيرة الحياة**، وهو كتاب نُشر عدة مرات حتى نهاية القرن الثامن عشر. ونجد فيه بعض الملاحظات الصائبة عن اكتساب الطفل اللغة:

> إن الأحداث التي تعبِّر عنها الأفعال أو تفترضها، لا تمتلك في الطبيعة نمطاً مُستداماً؛ ولا تدركها حواس الطفل عندما يُسمِّيها، إنه لا يقول: ذهب aller إلاّ في لحظة لا يحصل فيها الذهاب. ينبغي أن يمتلك في داخله الفكرة التي يعبِّر عنها الفعل، وأن تنطبق تلك الفكرة الواضحة والمتحولة، بالتالي، على كل ما ينفذ الحدث. (مج1، ص 138).

إن تحليل العلاقة بين الكلمة والشيء هو موضوع محبب ـ أخيراً، هذا «الشيء» الخاص الذي هو الحدث: أياً كان فهو غائب ـ أو ليس مشوقاً أن نتلمس هاجس مفهوم أداة الوصل في الفقرة التالية:

> إن أكثر ما يبعث الحيرة في رأس الطفل المسكين هو الضمائر. فـ «أنا» Moi و«ضمير المتكلم» Je على وجه الخصوص يظلاّن زمناً طويلاً غامضين لديه. ولمّا كانت تلك الكلمات تنطبق حصراً على من ينطق بها فنحن لا نستخدمها أبداً عندما نحدِّث الطفل، إنه يراها في كل لحظة تغيِّر من محمولها دون أن يكون ألبتّة هو نفسه: ومن هنا تأتي قضية أنه لا يفكر في استخدامها. (المصدر السابق، ص 140).

أما شقيق ألبرتين، نيكولا-تيودور (1767-1845) فهو جَدُّ فردينان دو سوسير لأبيه. كان أستاذ الجيولوجيا وعلم المعادن في جامعة جنيف، وقد تشرف بإطلاق اسمه على معدن سُمِّي لاسوسيريت la saussurite ـ [21] وهي ليست ذلك المسّ الخفيف الذي يُصاب به أولئك الذين يسعون في كل الأوقات وراء الهوس السوسيري المعتدل ـ لكنها ببساطة اسم ذلك المعدن الذي سُمِّي باسم مكتشفه نيكولا-تيودور دو سوسير، وبتحديد أكثر «خليط من الزوزيت Zoïzite والفلسبار plagioclase»[5].

(5) هذا التعريف مأخوذ من **معجم الكيمياء وتطبيقاتها**، لكليمان وريمون دو فال، تقنية ووثائق *Dictionnaire de la chimie et de ses applications*, de Clément et Raymonde Duval Technique et Documentation.

يقول مترجم هذا الكتاب: الزوزيت: اسم معدن أخضر مؤلّف من سليكات الكالسيوم والألومينيوم. وهو مرادف لكلمة سوسيريت. والفلسبار هو مجموعة الأملاح المعدنية

حمل الابن الأول لنيكولا-تيودور، ببساطة، اسم تيودور. ولد في عام 1824، وكان من كبار قراء الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو (Jean-Jacques Rousseau) ـ وألّف عنه كتاباً عنوانه: **روسو في البندقية** ـ وافته المنيّة في عام 1903م، ويكون بذلك قد عاصر حفيده زمناً طويلاً. وتساءل هل تسنّى لهما الوقت يوماً للتحادث معاً عن الكتاب الذي خصّصه تيودور لدراسات عن اللغة الفرنسية Études sur la langue française. **في إملاء أسماء الأعلام والكلمات المقترضة**، De l'orthographe des noms propres et des mots empruntés كُتيّب في 125 صفحة نُشر في دار شيربوليز وفيشباكر (Cherbuliez et Fischbacher) في عام 1885م؟ لست أدري. لكن لو أتيح لسوسير أن يراجع هذا البحث مراجعة هاوٍ أمين كلَّ الأمانة فإنه يكون قد قرأ فيه عن تاريخ إملاء الكلمات الأجنبية هذه الخاطرة العقلانية جداً:

> في القرون التي سبقت القرون التي نعيشها كان اسم العَلَم الأجنبي يدخل في اللغة من خلال الأذن وليس عبر رؤية الرموز الكتابية. والمؤلف الأول الذي دعا لاستخدامها لم يكن في الغالب قد قرأه وإنما سمعه يُنطق ببساطة واخترع لهذه الكلمة طريقة كتابة تدفع القارئ الفرنسي إلى قراءتها بلا صعوبة تُذكر، ويحتفظ لها في الوقت نفسه بطريقة نُطقها الأصلي تقريباً. (ص 1-2).

وفي موضع آخر من كتابه، يورد تيودور دو سوسير خاطرةً أكثر عموميّةً عن العلاقة بين المكتوب والمنطوق:

> يبدو في أيامنا أن الحرف يرغب في التفوق على الصوت [...] فالحرف ينبغي أن يُمثّل الأصوات التي نريد إحداثها أو المحافظة عليها. ينبغي أن يكون خادم اللغة ولا ينبغي أن يجرّ الأصوات على أن تخضع للإملاء.
> (ص 75 ثم 77).

أليس مُشوّقاً أن نجد في هذه الأسطر التصورات الأولية للفقرات التي احتوت على معارضة شديدة العدائية للإملاء في الفصل السادس من «مقدمة» كتاب **دروس في اللسانيات العامة** (ص 44-45)[(6)]؟ ويتضح لنا على أي حال أن فردينان

= التي لها تركيب متشابه، وهي العناصر المُشكِّلة للصخور وهي تُشكّل 60٪ من تكوين القشرة الأرضية.

(6) التونسية، 48-49؛ العراقية، 42-43؛ اللبنانية، 39-40؛ المصرية، 53-54؛ المغربية، 35-36. [المترجم].

لا يحيل أبداً إلى تيودور، وأن هذا الأخير لا يستشهد أَلْبَتَّةَ بما يمكن أن يكون قد عرفه من قبلُ عن فرديناند.

الابن الثاني لنيكولا-تيودور اسمه هنري (Henri)، وهو والد فرديناند، ولد عام 1829م، وقضى عام 1905م. كان مختصاً بعلم الحشرات، وينحصر عمله في الحشرات مستقيمات الأجنحة و غشائيات الأجنحة. وكان كثير السفر، وخصوصاً إلى المكسيك حيث كان يبحث في المواقع الماقبل - كولومبية Précolombia[7] في مدينة كانتونا (Cantona)، جنوب بويبلا (Puebla).

وعندما عاد إلى جنيف، تزوج هنري دو سوسير من لويز دو بورتاليس (Louise de Pourtalès)، التي تتحدَّر هي أيضاً من الأرستقراطية البروتستانتية الراقية في جنيف. وكان باكورة زواجهما فرديناند الذي ولد في 26 تشرين الثاني/نوفمبر 1857م.. وولد بعده [22] ثلاثة أطفال ذكور: هوراس (Horace) (1859–1926)، وليوبولد (Léopold) (1866–1925)، ورينيه (René) (1868–1934). ويستحق هؤلاء الإخوة الثلاثة لفرديناند بعض اهتمام بسبب علاقاتهم بأخيهم الأكبر المشهور.

كان هوراس دو سوسير رساماً موهوباً. ونعرف من لوحاته على وجه الخصوص الرسم الشخصي الذي خصَّ به أخاه فرديناند الذي بدا في هذا الرسم ذا مظهر جاد كل الجدية[8]. أما ليوبولد دو سوسير الذي احترف العمل في البحرية العسكرية الفرنسية فإنه اشتهر بكونه متخصصاً متمكناً في الحضارة الصينية، وفي علم الفلك الصيني على وجه الخصوص - وبهذه الصفة نفسر الاهتمام العابر الذي خصَّه به لاكان - كما اشتهر بأعماله اللغوية التي ظهرت فيها بعض المفاهيم العنصرية، وخصوصاً في كتابه **سيكولوجية الاستعمار الفرنسي في علاقاته مع المجتمعات الأصلية** Psychologie de la colonisation française dans ses rapports avec les sociétés indigènes، كما ظهر ذلك في أعماله عن الهند الصينية أيضاً. وقد افترض بعضهم أن مفاهيم ليوبولد حول خصوصيات اللغات في علاقاتها بـ «الأجناس» أثرت بعض التأثير في مفهوم اللغة langue عند شقيقه

(7) أي المتعلق بأمريكا وحضارتها قبل مجيء كريستوف كولمبوس. (المراجع).

(8) نجد هذا الرسم الشخصي مع صورتين لفرديناند دوسوسير منشورتين في حولية 1964 للمدرسة التطبيقية للدراسات العليا، الشعبة الرابعة Annuaire 1964, EPHE, 4e section.

فردينان[9]. وقد كان لهذا التأثير فعلٌ عكسيٌّ: ففي **دروس في اللسانيات العامة** لا وجود لمفهوم العرق بوصفه سبباً في التغيُّرات الصوتية. ويبدو أن ضمير الغائبين *on* الذي يستخدمه سوسير ربما كان يختفي في ثناياه أخاه ليوبولد. لكن مواضع هذا الضمير النكرة *on* كما استشهد به هي موضوعات نزاع.

> قال بعضهم: إن للعرق نزعات تُحدِّد قَبْلياً اتجاه التغيُّرات الصوتية. وفي هذا مسألة تتعلّق بالأنثروبولوجيا المقارنة: لكن هل يتغيَّر الجهاز المصوت من عرق إلى آخر؟ لا، بل إنه لا يكاد يتغيَّر من فرد لآخر. (**دروس**، 202؛ انظر أيضاً ص 304، و**كتابات**، 216).

أما الأخ الأخير، رينيه دو سوسير فإنه لمع في وقت مبكر من حياته. فقد شغل منصب أستاذ الرياضيات في جامعات واشنطن وجنيف وبرن على التوالي - لكنه استقال من عمله في هذه الأخيرة عام 1925م - وهو على وجه الخصوص أحد كبار المختصين بالإسبرانتو espéranto وعرض إصلاحات لهذه اللغة أفضت في نهاية المطاف إلى وضع ما سُمّي بالـ Antido التي لن تلبث أن تُسمّى الـ espérantido، وأخيراً الـ espéranto الجديدة. وقد سعى في أحد كتبه إلى أن يُقدِّم نفسه بوصفه رائد أخيه في التمييز بين التزامن والتعاقب: بخصوص التعارض بين التحليل الذاتي (التزامني) والتحليل الموضوعي (التعاقبي) الذي مثّل له سوسير في **دروس** (ص 251)[10] بكلمة enfant «طفل» وجذرها اللاتيني in-fans (الذي يعني حرفياً «لا يتكلم»)، ويذكر في عام 1918 المقال الذي نشره عام 1916 أ. أولترمار A. Oltramare عن كتاب [23] **دروس في اللسانيات العامة** لأخيه الراحل، ويصوغ الملاحظة التالية التي تظهر فيها الأسبقية التي يدّعيها لآرائه الخاصة عبر صيغة فعل الماضي المستمر الذي يبدأ الفقرة به:

> كنت قد لاحظت أنا نفسي [في البناء المنطقي للكلمات في الـ La construction logique des mots en espéranto، جنيف 1911] بخصوص كلمة موسيقي (mus'ique الصفة القديمة لـ muse) أنه ينبغي أن نعدُّها حالياً بوصفها كلمة بسيطة وصفية تولّد بدورها صفات جديدة، مثل

(9) جوزيف جون، **اللغويات الاستعمارية عند ليوبولد دو سوسير**، 1999م.

Joseph John E., *The colonial linguistics of Léopold de Saussure*, 1999.

(10) التونسية، 275؛ العراقية، 206؛ اللبنانية، 223؛ المصرية، 321؛ المغربية، 234. [المترجم].

موسيقي music'al و music'ien، إلخ، التي يؤدي فيها الجذر music دور عنصر بسيط (البنية المنطقية للكلمات في اللغات الطبيعية منظوراً إليها من وجهة نظر تطبيقها على اللغات الاصطناعية، 5).

لا أعلم شيئاً عن العلاقات التي يمكن أن يكون فرديناان قد وطّدها مع رينيه. هل أخبر هذا الأخير أخاه بادعاءاته بشأن الأسبقية حول التضاد بين التزامن والتعاقب؟ ما نعرف على أي حال هو أن فرديناان يتحدث باهتمام كبير في **دروس** (ص 111)[11]- لكن دون أن يستشهد بأعمال أخيه - عن مسألة تطور الـ espéranto: وهذه المسألة بالتحديد هي التي تَسم أفكار رينيه بميسمها.

لكن لنترك آل سوسير، ولنعد إلى فرديناان. إننا نملك عن شبابه وطفولته وثيقة استثنائية: **ذكريات الطفولة والشباب** Souvenirs d'enfance et de jeunesse (سوسير–غوديل Saussure-Godel, 1960)، وهي ذكريات كتبها عام 1903م. لكن هل أترك لنفسي العنان للقول: إن تلك الذكريات تصدر عن حزن عميق خفي؟ يقدم سوسير كل الأحداث التي يرويها منضوية تحت لواء الإخفاق دون أن يعبّر باستمرار عن الخيبة التي يشعر بها. فالسنة الدراسية 1872–1873، قضاها «في ثانوية جنيف، ليخسر سنة بتمامها خسارة كاملة». (سوسير–غوديل، 1960، 17). ومثل ذلك محاولته إرجاع الكلمات اللاتينية والإغريقية والألمانية إلى أقل عدد من الجذور، Essai de réduire les mots du grec, du latin et de l'allemand à un petit nombre de racines وهي محاولة تعود إلى سنة 1872م[12]. لقد كان المؤلف اليافع، عبر الملاحظات النقدية لصديقه القديم أدولف بيكتيه (Adolphe Pictet)، «يضيق كل الضيق من محاولته الفاشلة». (المصدر السابق). لكن الغريب أن ذروة الخيبة لديه كان مصدرها اكتشاف «الحرف الخيشومي المصوت = nasalis sonans». وفي أثناء السنة الضائعة التي قضاها في ثانوية جنيف عنّ له في يوم من الأيام في أثناء قراءة في هيرودوت Hérodote أن -a- في atai هي بديل حرف N الذي هو أكثر قِدَماً منها:

(11) التونسية، 122؛ العراقية، 94؛ اللبنانية، 98؛ المصرية، 138؛ المغربية، 98. [المترجم].

(12) في «ذكرياته»، يسمي سوسير هذا العمل الأول: نظام عام للغة= Système général du langage (سوسير-غوديل، 17).

كانت ميزته عندي (وهذا صحيح فيزيولوجياً) أنه بين صامتين، وأنه عبر هذه الصفة يترك المجال مفتوحاً لنشوء a إغريقية، لكنها كانت n كأي حرف n آخر. (سوسير-غوديل، 1960، 18).

[24] وبعد أربع سنوات علم سوسير عندما وصل إلى ليبزغ أن الحرف «الخيشومي المصوت» ـ يعني الـ a البديلة لصوت n ـ كانت موضع بحث حديث لبروغمان Brugmann، وهو بحث أحدث صدىً كبيراً في الأوساط العلمية. وهكذا أصبح ما كان يفكر فيه منذ عام 1872م، ويعدُّه «من الحقائق الأولية التي لم يكن يجرؤ على الحديث عنها بوصفها شائعة جداً»، هذا الشيء، أصبح منذ وقت قريب اكتشافاً مثيراً! ولمّا كان سوسير لم يكتب شيئاً في الموضوع فإنه لم يكن قادراً على إثبات سبْقه في هذا المجال. ولم يستطع بعد ثلاثين سنة مرّت على هذا الحدث تقريباً أن يمتنع عن تسجيل «حزنه العميق» الذي سبّبته له ضرورة الرجوع إلى عمل باحث آخر فيما يرى أنه من اكتشافه. (سوسير-غوديل، 1960، 24).

وخلال السنتين (1873–1875) اللتين قضاهما في جيمناز (Gymnase) جنيف (المعادل السويسري للمدرسة الثانوية في فرنسا) تابع الاهتمام باللسانيات: بدأ يتعلم مبادئ السنسكريتية بقراءة كتاب بوب (Bopp). ولم تمنعه تلك الدراسات الصعبة من اللهو كبقية طلاب المدارس من أقرانه: كان يرسم على طريقة توبفير (Töpffer) شكلاً من أشكال الرسوم المتحركة التي لقيت استقبالاً جيداً، «مغامرات بوليتيكوس = Les aventures de Polytychus» (بادير (Badir) 2003).

ومن 1875–1876، «أضاع بلا طائل سنةً جديدةً في متابعة دروس في الكيمياء والفيزياء في جامعة جنيف». (سوسير-غوديل، 1960، 20). لكنه كان أيضاً في الوقت نفسه يتابع دروس اللسانيات الهندو ـ أوروبية للمحاضر لويس موريل (Louis Morel)، «على الرغم من أن دروسه لم تكن إلاّ نسخة حرفية مؤكدة عن محاضرة جورج كورتيوس (Georges Curtius) حول القواعد الإغريقية ـ اللاتينية التي كان موريل قد سمعها في ليبزغ السنة الماضية». (المصدر السابق). ومن جنيف أرسل إلى جمعية اللسانيات في باريس «بحثاً فيه شيء من الحمق عن اللاحقة ـ t ـ»[13].

(13) لقد نُشر هذا البحث بالعنوان المشار إليه («اللاحقة ـ T ـ») في مذكرات جمعية اللسانيات، =

ومع ذلك فإنه قُبل في 13 أيار/مايو 1876م عضواً في جمعية اللسانيات، وهو في الثامنة عشرة من عمره، ولم ينبس ببنت شفة في «مذكراته» عن النجاح الذي حققه.

وفي 21 تشرين الأول/أكتوبر 1876م انتسب سوسير إلى جامعة ليبزغ. وسكن في المدينة برفقة والده في بداية المطاف، وتمتع فيها كما يبدو بمعاشرة مجموعة صغيرة من الطلاب القادمين من جنيف. وكانت له مراسلات كثيرة، وغالباً ظريفة مع والده، ومع عدد من أصدقائه في جنيف. مثال ذلك أننا نجده يقول متحدثاً عن «السعال الديكي» الذي نزل بأحد الأصدقاء: «من الطبيعي أن ينزل به السعال الديكي مرة واحدة على الأقل عندما يكون صاحب حظوة دائمة لدى النساء»[14]. وقد ذكر في هذا السياق مخططاً لإعداد **«معجم لأنواع التورية»** (سوسير، 2003، 460).

[25] كان سوسير مقلاً في حضور دروس أساتذة اللسانيات مع أنهم كانوا من الأساتذة المشهورين. وهو حين تردد على دروس «اللغتين السلافية والليتوانية التي كان يلقيها ليسكيان (Leskien)، واللغة الفارسية القديمة لهوبشمان (Hübschmann)، وبعض دروس اللغة السلتية لفيندتش (Windish)»، فإنه «لم يدخل يوماً صف اللغة السنسكريتية، وبصورة أقل دروس اللغة القوطية أو أي درس من دروس القواعد الجرمانية». (سوسير-غوديل، 1960، 21). وسبب ذلك أنه كان مشغولاً بتحرير كتاب كان بصدد إنجازه في حزيران/يونيو 1878م (سوسير، 2003، 462) ونشره في كانون الأول/ديسمبر من السنة نفسها (كان قد بلغ لتوّه الواحدة والعشرين). إنه كتابه المشهور: **مذكرة في النظام الأولي للصوائت في اللغات الهندو ـ أوروبية** *Mémoire sur le système primitif dans les voyelles indo-européennes* (تاريخ نشره 1879م).

هذا الكتاب الذي تصعب قراءته اليوم؛ فلكي نقرأه ينبغي أن نكون على معرفة ليس فقط بالعديد من اللغات التي عالجها (وخصوصاً وليس حصراً،

3، 1877، 197-211 (في سوسير، 1922-1984، 339-352). وهذا أول بحث ينشره سوسير في مجلة علمية.

(14) هناك تورية في عبارة الأصل في معنيي كلمة «Coqueluche» فهي تعني السعال الديكي، وتعني الحظوة لدى النساء. [المترجم]. وقد ذكر في هذا السياق مخططاً لإعداد **«معجم لأنواع التورية»**. (سوسير، 2003، 460).

السنسكريتية واليونانية واللاتينية) وبأهم مفاهيم اللسانيات المقارنة، لكن أيضاً بتاريخ الشعوب الهندية ـ الأوروبية. لأن المصطلحية وعلم الرموز كانت في طور التشكّل بفضل عناية الباحث الشاب، وقد حصلت فيها منذ ذلك الوقت تغييرات جذرية: فسوسير لم يتحدث في ذلك الوقت عن الحروف الحنجرية laryngale، وكان يستخدم رمز A و O بدلاً من بدائل h الحالية.

وتكمن الأهمية في أن نأخذ في الحسبان العلاقات النظامية بين الصوائت الهندو ـ أوروبية: إن تلك العلاقات هي التي تبرز التطابق بين الظواهر التي تبدو ظاهرياً مختلفة، وتطرح لأول مرة وجود «معاملَيْن[15]» هما A و Q. إن هذين «المعاملَيْن» عن الطبيعة الصوتية اللذين اختار سوسير ألا يعالجهما سيسميان فيما بعد حرفين حنجريين. وقد سمح اكتشاف اللغة الحثيّة[16] التي اكتُشفت بعد موت سوسير، بفضل أعمال جيرزي كوريلوفتش (Jerzy Kurylowicz) (1927)، بملاحظة وجود «المعاملَيْن» اللذين اكتشفهما سوسير في تلك اللغة على شكل «فونيمين» Phonèmes.

لقي بحث سوسير وخصوصاً في فرنسا استقبالاً جيداً، لكنه تعرّض لانتقادات شديدة في ألمانيا، وخصوصاً من أستاذ اللغويات المشهور أوستهوف (Osthoff). وانصبّ هذا النقد خصوصاً على الجانب «المنهجي» في الكتاب. ويبدو أن سوسير قد ضاق ذرعاً بتلك الانتقادات وبتلك الاقتباسات التي يستخدمها الآخرون من عمله دون أن يذكروه: لقد استشهد بسخرية بغوستاف ميير (Gustav Meyer) باعتباره «أول من جهِّل اسم سوسير» (سوسير-غوديل، 1960، 23). وحسبما جاء في شهادة عالم اللغات الهندو ـ أوروبية ألبير كوني (Albert Cuny)، وإن كانت متأخرة جداً، فإن سوسير فكّر حينها في أن يهجر دراسة اللسانيات لدراسة الحكاية الأسطورية الجرمانية. وقد درس هذه الحكاية في وقت متأخر لكن دون أن يتخلّى عن اللسانيات.

---

(15) سمّاهما سوسير حسب ما ذكر جوناثان كلر «معاملان صوتيان =coefficients sonnants». انظر: **فردينان دو سوسير** لجوناثان كلر، ترجمة: د. عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2000م، ص 128. [المترجم].

(16) نسبة إلى الحثيين؛ وهم شعب فتح آسيا الصغرى وسورية في الألف الثاني للميلاد. المصدر السابق. [المترجم].

وبعد أن أقام عدة شهور للدراسة في برلين بين عامي (1878–1879) التقى خلالها باللساني الأميركي ويتني (W. D. Whitney) عاد إلى ليبزغ [26] في الثامن والعشرين من شباط/ فبراير 1880م، وناقش رسالته للحصول على الدكتوراه في الفلسفة، وكان عنوانها: «في استخدام حالة الإضافة المطلقة في السنسكريتية». وحصل على أعلى معدل ممكن على رسالته summa cum laude. وينشر الكتاب المختصر (95 صفحة في الطبعة الأصلية) في السنة التالية. وأعيد نشره في مجموعة أعمال سوسير (سوسير 1922–1984، 269–338)، وهو، لا يجد اليوم قرّاءً كثيرين. مع أنه يستحق القراءة: وهو يشهد بالاهتمام المبكر جداً لدى سوسير بعلم التراكيب وعلاقاته بالسيميولوجيا. وآية ذلك أن التواؤم المختلف لحالتي الجر «المطلق» في السنسكريتية ـ الإضافي ومفعول الموضع ـ مع أنواع الجامد والحي والإنساني هي ما يدرسه في الكتاب دراسة دقيقة. ونلحظ من جانب آخر أن وجهة النظر المعتمدة في الدراسة تلتزم السكونية بما يُمكن من صرامة. أما تطور الوقائع فلا يكاد يعرض له بالدراسة. ولا يشير المؤلف إلاّ إشارات ضمنيّة (سوسير، 1922–1984، 272) إلى كتاب **قواعد السنسكريتية** la Grammaire du sanscrit لويتني، ويبدو أنه مُطّلع أيضاً على كتاب: **حياة اللغة** *La vie du langage*. في عام 1894 بدأ بكتابة بحث عن ويتني. هذا النص الذي لم يكتمل سيُشار إليه في عدة مواضع في الفصل التالي: وهو من أكثر أفكار سوسير عن مشكلات اللغة والسيميولوجيا عمقاً وصعوبة.

وفي خريف عام 1880م، وبعد إقامة في ليتوانيا[17] استقر سوسير في باريس،

---

(17) ما زال التاريخ المحدد لهذه الرحلة حتى لحظة كتابة هذه السطور غير معروف بدقة. وإن شهادة جورج غوييس Georges Guieysse لا تبدّد أبداً هذا اللّبس. فالشاب غوييس الذي انتحر بعد عدة أشهر من رحلة سوسير الذي حزن عليه حزناً كبيراً تنسب شهادته إلى أستاذه سوسير آراءً غريبة كلّ الغرابة: «لقد سافرت أنا نفسي قبل ثماني سنوات إلى ليتوانيا». ويبدو أن هذا التصريح يحلّ المشكلة: لأن هذا القول يعني أن الرحلة تمت قبل ثماني سنوات من عام 1880م.

لكن سوسير يتابع القول حسب شهادة غوييس: «... لكي أجمع البقايا الأخيرة لهذه اللهجة الفرعية».

ملاحظة مدهشة كل الدهشة: لقد كانت اللغة الليتوانية في عام 1880م وما زالت كذلك حتى اليوم لغة حيّة بكلّ ما تعنيه الكلمة، وهي بعيدة كل البعد عن أن تكون في حالة «البقايا الأخيرة». هل كان سوسير يشير إلى بعض التفرعات اللهجية المهددة؟ أم أن غوييس =

وبقي فيها باستثناء بعض الأسفار القصيرة حتى عام 1891م. وأصبح في عام 1882م «سكرتيراً مساعداً» في جمعية باريس للسانيات. وعُيِّن منذ 30 تشرين الأول/أكتوبر عام 1881م بناءً على ترشيح من ميشال بريال (Michel Bréal) «محاضراً في اللغة القوطية واللغة الألمانية القديمة» في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا. وظل سوسير في هذه المؤسسة خلال عشر سنوات، تخللها «عطلة استيداع» لعام 1889–1890م، يلقي دروسه في موضوعات متنوعة كل التنوع: «الصوتيات» (عنوان إحدى مخطوطاته)، القواعد القوطية[18]، والألمانية القديمة [27] واللغة الإسكندنافية القديمة، والقواعد المقارنة في اليونانية واللاتينية، واللغة الليتوانية، إلخ. وكان يتابع دروسه عدد كبير من الطلاب والمستمعين: من رجال الأدب وأساتذة المدارس الثانوية والجامعيين من عدد من الجنسيات، وعلى وجه الخصوص أنطوان مييه الذي حلّ محلّ سوسير في عام 1889–1890 (بنفينيست 1964 وفلوري (Fleury)، 1964م). وكان تدريسه حسبما ذُكر عدد من الشهادات، وخصوصاً شهادة مييه،

> «يترك كلّ مستمعيه آذاناً صاغية لذلك الفكر الذي هو في طور التشكُّل، والذي يتكوّن أمام ناظريه، ويصل إلى صيغة أكثر دقةً وأكثر أسراً أيضاً في اللحظة التي يُصاغ فيها بأكثر الطرق دقةً وتأثيراً. لقد كان شخصه يجعل الناس يحبون علمه». (بنفينيست، 1964، 27، دروس، 336).

وفي عام 1891م قرّر سوسير الذي حاز بوصفه أجنبياً وسام جوقة الشرف برتبة فارس[19] بموجب المرسوم الصادر في 11 تموز/يوليو العودة إلى جنيف. وليس

الشاب لم يفهم ما قاله أم أنه نقل ما قاله أستاذه نقلاً خاطئاً؟ وشهادته كما نرى ليست ذات مصداقية مطلقة. وإنه لمن الممكن المحتمل أن هذه الرحلة المختلف حول زمانها حدثت في وقت متأخر قطع فيه سوسير إقامته في باريس لبعض الشهور. وليس هناك ما يمنع القول أيضاً: إنه قام برحلتين إحداهما في عام 1880م والأخرى في وقت متأخر نسبياً.

انظر توضيح توليو دي ماورو، دروس، 331، رقم 6.

(18) إن الملاحظات التي دوّنها خلال تلك الدروس مستمع سيتال الشهرة هو فرديناند لوت Ferdinand Lot مستكملةً بالملاحظات التي دوّنها موريس غرامون Maurice Grammont هي قيد النشر بعناية مارك ديسيمو Marc Décimo وأندريه روسو André Rousseau.

(19) لا تحتفظ أرشيفات وزارة العدل التي وقع فيها حريق إلا بتاريخ المرسوم. ونشر فلوري (1964، 41-42) اقتراح منح الوسام الذي عُثر عليه في أرشيفات المدرسة التطبيقية للدراسات العليا. ويبدو أن سوسير كان يحرص على ذلك التميز. (ديسيمو، 1994، (1995)، 96).

لدينا معلومات كافية عن الأسباب التي دعته إلى مغادرة باريس. وربما كان السبب نفوره من طلب الجنسية الفرنسية التي كانت ضرورية له لكي يخلف ميشال بريال في «الكوليج دو فرانس» (Collège de France)[20]. لقد كان سوسير خلال بضعة شهور من إقامته في باريس، ودون أن يدري، جاراً، بالمعنى الجغرافي للمصطلح، لأجنبي آخر لم يكن في ذلك العصر قد اشتهر بعدُ خارج الوسط الاحترافي المغلق شأنه شأن سوسير: إنه سيغموند فرويد الذي عاش في باريس من تشرين الأول/ أكتوبر 1885م إلى شباط/ فبراير 1886م. (انظر فيليلا (Vilela)، 2006، 119).

وفي جنيف تزوج فرديناند دو سوسير من ماري فايش (Marie Faesch) وأنجب منها ولدين: جاك (1892–1969م) وريمون (1894–1971م)، الذي أصبح محلّلاً نفسانياً (psychanalyste) إثر جلسة تحليل نفساني مع فرويد. وسنتحدث عنه في الفصل السابع، وعن الدور الذي كاد أن يضطلع به في العلاقة التي فشلت فشلاً ذريعاً بين والده ومحلله النفساني.

منذ عودته إلى مسقط رأسه عُيّن سوسير «أستاذاً من خارج الملاك[21] لتاريخ اللغات الهندو - أوروبية والمقارنة بينها» [28]. وقد «دشّن هذا الكرسي» عندما ألقى في تشرين الثاني/ نوفمبر 1891م ثلاث محاضرات طرحت بوضوح مشكلة موضوع علم اللغة لا بل إمكانية قيام هذا العلم:

> هل في إمكان اللسان أو اللغة أن يُعدّ موضوعاً يستحق في ذاته الدراسة؟ (كتابات، 145).

---

(20) ينبغي مع ذلك أن نلاحظ أمام هذه الفرضية التي يتردد ذكرها كثيراً أن بريال الذي كان عمره عام 1891م 59 عاماً كان ما يزال بعيداً عن سن التقاعد الذي لم يصل إليه إلا بعد 15 سنة في عام 1906 عندما أصبح في سن 74 عاماً.

(21) إن الصفة «من خارج الملاك» extraordinaire لم تكن في المصطلحية الجامعية لجامعات جنيف في ذلك العصر تتضمّن أيّ طابع مدحي. لأن الصفة إذا أُخذت بمعناها الاشتقاقي فإنها تشير إلى الطبيعة الزائدة عن العدد للكرسي المشغول، بعكس الكراسي المخصصة للأساتذة من داخل الملاك ordinaire.

[يقول مترجم هذا الكتاب إن كلمة extraordinaire تحمل في معناها ظلالاً من المدح لأنها تُترجم بعبارات كقولنا: سفير فوق العادة وغير ذلك. وقد ترجمناه هنا بخارج الملاك مراعاة للسياق. وهو مصطلح يُستخدم في الأوساط الجامعية في المشرق العربي].

لقد ألقى دروساً متنوعة ما أمكنه ذلك في إطار العنوان الذي وُضع للكرسي الذي يشغله: السنسكريتية، الصوتيات الإغريقية واللاتينية، تاريخ الفعل الهندو - أوروبي، الفعل الإغريقي، إلخ.

ويبدو أنه في كانون الأول/ ديسمبر من سنة 1891م بدأ بكتابة مشروع كتاب عنوانه **في الجوهر المزدوج للسان** De l'essence double du langage (إنكلر، 2002، 181). وبقي ذلك المشروع غير مكتمل، ولم يُعلن عنه إلاّ في عام 2002م عندما نشرت **كتابات سوسير في اللسانيات العامة** *Écrits de linguistique générale*.

وفي عام 1892م أجاب سوسير عن «تحقيق إحصائي حول الإصغاء الملوَّن والترسيمات البصرية» التي أطلقها إميل كلاباريد (Émile Claparède). ونشر إجابته في العام التالي تيودور فلورنوا (Théodore Flournoy)، زميل سوسير في كلية الآداب (فلورنوا، Flournoy، 1893م).

وتميّزت سنة 1894م من بين كلّ السنوات التي عاشها سوسير بأنها سنة حافلة بنشاط علمي كثيف. فناهيك عن النص الذي أعدّه لذكرى ويتني، أخذ سوسير على نفسه كما جاء في مقال له عن «التنبير accentuation في اللغة الليتوانية» (سوسير، 1922-1984م، 526-538) ما يبدو أنه تحضير لكتاب عن التنبير (ل. جاجر (L.Jäger)، م. بوس (M. Buss)، ل. غيوتي (L. Ghiotti)، 2003م). ولم يكن حال هذا المشروع بأفضل من حال مشروع كتاب **في الجوهر المزدوج للسان** فإنهما لم يُنشرا في حياة سوسير.

وفي عام 1896م تحول سوسير إلى مدرّس من «داخل الملاك»، على كرسي احتفظ بالاسم الذي كان يحمله عندما كان «من خارج الملاك». وقد اغتنت دروسه بعناصر جديدة: نظرية المقطع، صوتيات الفرنسية الحالية، علم العروض الفرنسي (انظر الفصل 6)[22]، اللسانيات الجغرافية لأوروبا، النرويجية القديمة، إلخ. وبين عامي 1904-1905م ألقى سوسير محاضرات بدلاً عن زميل له مختص بالجرمانيات؛

(22) سنرى كما جاء في قطعة من مخطوطة كُتبت بلا شك لتلك الدروس، ونُشرت في الفصل السادس من هذا الكتاب أن سوسير يتخذ موقفاً حازماً من اثنين من صروح الأدب العظيمة: بوسويه Bossuet وباسكال Pascal.

السيد ريدار (E.Redard) الذي أعاقه عائق عن متابعة دروسه، وكانت محاضرات سوسير عن Nibelungenlied: وكان لهذه المحاضرات الأثر الواضح لاستمرار اهتمام قديم لدى سوسير لن يلبث أن يتجدد بعد قليل (انظر الفصلين الثالث والسادس).

في عام 1897 شارك سوسير من جديد مع زميله تيودور فلورنوا ـ أستاذ «علم النفس الفيزيولوجي»، وأصبح بعد وقت قليل [29] قارئاً جيداً وشارحاً لكتاب فرويد **تفسير الأحلام**(23) Traumdeutung ـ في جلسات استحضار للأرواح مع وسيطة الأرواح هيلين سميث (Hélène Smith)، التي كان اسمها الحقيقي إليز-كاترين مولر (Élise-Catherine Muller). وقد تفحص سوسير بعناية «اللغة الهندوستانية» التي تنطق بها الشابة ـ المُشابِهة للسنسكريتية(24) «sanscritoïde» ـ وسجل ملاحظات مهمة عن بعض خصائص هذه اللغة الزائفة. وقد استفاض فلورنوا في الحديث عن ملاحظات سوسير في عام 1900 في كتابه: **من الهند إلى كوكب المريخ. دراسة في الروبصة مع لغة المعتوهين** Des Indes à la planète Mars. Étude sur un cas de somnambulisme avec glossolalie(25).

واتسمت نهاية عام 1905م وبداية عام 1906م بالنسبة إلى سوسير، برحلات قام بها إلى فرنسا ونابولي وروما. كان سوسير مهتماً بسعادة غامرة كما يبدو بتلك «الكتلة الغامضة» التي هي عبارة عن «حجر أسود» موجود في ساحة مدينة جنيف، وهي كتلة اكتُشفت عام 1899م، وتعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ولم تكن حتى ذلك العصر قد باحت بعدُ بكل أسرارها:

> إن النقش الموغل في القدم في الساحة يمثل بالنسبة إليّ تسلية ملائمة جداً ألجأ إليها عندما أجد الحاجة إلى أن أجهد فكري. ليس هناك ما نستخلصها منها بالطبع، ولكنه من المهم تأمل تلك الكتلة الغامضة والتأكد من عيانية القراءة. (**رسائل إلى مييه**، CFS، 1964 (21)، 106).

---

(23) **تفسير الأحلام** لسيغموند فرويد ترجمه مصطفى صفوان، راجعه مصطفى زيور، دار المعارف، مصر، 1969. [بين يدي طبعة مصورة يبدو أنها نشرت عام 1981م. (المترجم)].

(24) sanscroïde: تتألف هذه الكلمة من snascrit + العنصر اليوناني الأصل oïde المضاف إلى المصدر ليدل على «مشابه لـ...». (المراجع).

(25) ومن المستغرب أن فلورنوا لم يستشر سوسير بخصوص اللغة الزائفة الأخرى «المريخية» التي كانت تستخدمها هيلين سميث. مهما يكن من الأمر، فإنه لم يُشر إليها إشارة واضحة.

وفي عام 1905م تقاعد جوزيف ڤيرتايمر (Joseph Wertheimer)، أستاذ اللسانيات العامة في جامعة جنيڤ وكان حاخاماً كبيراً في جنيف، وحَبْر جنيف، بعد أن بلغ 72 عاماً. وقد كانت الكفاءات اللسانية لهذا المختص المشهور بالقَبالة Kabbale كفاءات متواضعة. وفي 8 كانون الأول/ديسمبر 1906م عهدت كلية الآداب في جامعة جنيف لفردينان دو سوسير في خلافته في تدريس اللسانيات العامة: إذا أضاف الأستاذ سوسير اللسانيات العامة إلى قائمة الدروس التي كان يلقيها من قبلُ. وقد قام سوسير بإنجاز برنامج تعليم هذه المادة بجد وإخلاص: وهو برنامج كان من المقرر له أن يُلقى كلّ سنتين مرة، وانعقد درس اللسانيات العامة فعلياً في 1907م (من 16 كانون الثاني/يناير حتى 3 تموز/يوليو، بحضور خمسة أو ستة مستمعين، منهم ألبير ريدلينجر، ولويس كاي (Louis Caille)، وفي عام 1908–1909م (من تشرين الثاني/نوفمبر 1908 إلى 24 حزيران/يونيو 1909م، بحضور أحد عشر مستمعاً منهم ألبير ريدلينجر وإميل قسطنطين (Émile Constantin)، وأخيراً في عام 1910–1911م (من 29 تشرين الأول/أكتوبر 1910 إلى 4 تموز/يوليو 1911م)، بحضور اثني عشر مستمعاً لم يكن بينهم ألبير ريدلينجر، وبحضور إميل قسطنطين والسيدة سيشهي، التي ستصبح زوجة أحد ناشري كتاب **دروس في اللسانيات العامة**.

وفي الوقت نفسه الذي كان سوسير يحضّر دروسه في اللسانيات العامة ودروسه الأخرى، كان منصرفاً إلى نشاطين بحثيين آخرين.

[30] ووفق ما جاء في بعض الفقرات في ملاحظاته، فقد كان ينوي تأليف كتاب مخصص **للتاريخ وللحكاية الخرافية. دراسة في أصل التقاليد الجرمانية المعروفة باسم** Heldensage *Histoire et légende. Étude sur l'origine des traditions germaniques connues sous le nom de Heldensage* (**الحكاية الخرافية** الألمانية، 183)، وقد حرّر في ذلك دراسةً طويلةً فيها بحث لا يُجارى عن الحكاية الخرافية الجرمانية Nibelungenlied التي كانت منذ زمن طويل تشغل جانباً من اهتماماته شأنها في ذلك شأن نصوص حكايات خرافية أخرى (تريستان وإيزوت Tristan et Yseut) أو أسطورية (وعلى وجه الخصوص الميثولوجيا الهندية التي لم يكن في البحث عن ويتني إلاّ اهتمام سريع بها، بينما يتسع ذلك الاهتمام في مخطوطة أوكسفورد، بارّيه (Parret)، 1993–1994، 224–231). وسنرى في الفصلين الثالث والسادس كيف تولدت في تفكيره فكرة السيميولوجيا واتصالها باللسانيات.

هذا من جانب، ومن جانب آخر انصرف سوسير إلى بحث بلا نهاية عن كلمات، وفي بعض الأحيان عن جُمل، بل نصوص سردية قصيرة راهنة تنضوي تحت لواء الجناس التصحيفي anagrammes أو القلب المكاني paragrammes أو الجناس المنحوت hypogrammes، «تحت الكلمات» نصّ لشعراء كلاسيكيين - لاتينيين ويونانيين - ثم في النثر اللاتيني. وقد كان يخفي بحرص عمله هذا الذي لم يحدث عنه إلا فئة قليلة من مكاتبيه، وخصوصاً ميّيه (Meillet)، وبالي (Bally)، وليوبولد غوتييه (Léopold Gautier)، أحد تلامذته (ستاروبنسكي، 1971، 20 و 138؛ غاندون، 2002، 16-18). وقد توقف هذا البحث توقفاً كان على ما يبدو فجائياً في نيسان/أبريل أو أيار/مايو 1909م، في ظروف سنتحدث عنها في الفصل السابع[26].

في هذه المدة الأخيرة من حياته بدأت مظاهر التكريم تنهال على سوسير: فخصص له زملاؤه وتلامذته في 14 تموز/يوليو 1908م كتاباً تكريمياً فيه **أمشاج**[27] **من الدراسات**. وقد كان منذ عام 1909م عضواً في الأكاديمية الدانماركية للعلوم Académie danoise des sciences، وعُيِّن في عام 1910 عضواً مراسلاً لمعهد فرنسا l'Institut de France[28].

استأنف سوسير تدريس مقرراته - باستثناء دروس اللسانيات العامة - في بداية العام الدراسي 1911م. وتوقف عنها في بداية الصيف 1912م، وقد أعاقه المرض (تذكر بعض الروايات دون تأكيد بأنه أصيب بسرطان الحنجرة)، ولم يستأنف التدريس في بداية العام الدراسي 1912م.

---

(26) فرانسيس غاندون (2006) طرح طرحاً دقيقاً مسألة التزامن بين ثلاثة نشاطات بحثية لسوسير. فإذا كانت مرحلة **دروس في اللسانيات العامة** (من كانون الثاني/يناير 1907 إلى تموز/يوليو 1911م) معروفة ويمكن تلافي الخطأ فيها فإنه ما زال هناك بعض الضبابية التي تلف البحوث التي كانت جزئياً أو كلياً سرية، عن **الحكاية الخرافية** وعن **الجناس التصحيفي**. ويحدد غاندون باحتمال صحة كبير المدة الأولى بين 1904 و 1911، والثانية بين 1906 ونيسان/أبريل 1909. ويتفق معه أيزوك كوماتسو Eisuke Komatsu مع فوارق بسيطة على هذه التواريخ. إذاً تمثل المدة من 1907 إلى نيسان/أبريل 1909م زخماً من الزمن كانت فيه أنشطة سوسير مختفية بين مراحل بحثه الثلاث.

(27) أترجم كلمة mélanges بأمشاج. [المترجم].

(28) الذي سيصبح بعد ذلك الأكاديمية الفرنسية. [المترجم].

واعتزل في هذه المدة في قصر فوفلنس (Vofflens) الذي تملكه أسرة زوجته. وقد اهتم في هذه المدة، وربما كان ذلك بتشجيع من أخيه ليوبولد، باللغة الصينية.

اشتدّ عليه المرض. وتوفي في 22 شباط/ فبراير 1913م، وكان عمره 56 سنة. وأُقيمت مراسم دفنه في 26 من الشهر نفسه في جنتود.

[33] الفصل الثاني

دروس في اللسانيات العامة
محاولة متواضعة لإعادة القراءة

من أين أبدأ؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه ضمنياً أو علنياً بعض الأحيان كل قارئ من قراء سوسير يريد أن يتحدث عن قراءته[1]. وليس هذا التردد إلاّ إعادة للتردد الذي يظهر في عدة مواضع من أعمال سوسير عندما يريد أن يعبّر عن أفكاره حول اللغة:

> ينبغي، لكي أستطيع التعبير تعبيراً مناسباً عن كل آرائي، أن أعتمد نقطة انطلاق ثابتة ومحددة. لكن كل ما أسعى إلى إثباته هو أنه من الخطأ في اللسانيات أن ننظر إلى حدثٍ واحدٍ بوصفه مُحدّداً في ذاته. (إنكلر، 1968-1989، 25).

ويحدث لسوسير أن يضع عنواناً صريحاً لهذا التساؤل:

> Unde exoriar؟ ـ إن السؤال الذي ليس فيه إلاّ قدْر ضئيل من الادعاء، بل السؤال الموغل في الإيجابية والتواضع هو السؤال الذي نستطيع أن نطرحه على أنفسنا قبل أن نحاول البدء. من أي نقطة انطلاق نتناول المادة الزئبقية للسان. وإذا كان ما عنيته صحيحاً فليس هناك نقطة انطلاق واحدة يمكن القول: إنها نقطة الانطلاق الحتمية. (**كتابات**، 281).

ويصل به هذا القلق، في مرحلة من مراحل تفكيره على الأقل، حدّاً يجعله يشكّك في وجود أي نقطة انطلاق:

---

(1) مثال واحد هو مثال فرانسواز غاديه Françoise Gadet (1987) التي تفتتح كتابها: **سوسير. علم اللسان** *Saussure. Une science de la langue* بالسؤال الذي أعاودُ طرحه هنا.

ثمّة إذاً، في الحقيقة، غياب ضروري لأي نقطة انطلاق («رسالة إلى أنطوان ميّيه في عام 1894»، دروس، 409).

إذاً هل يعني ذلك في نهاية الأمر أن القول الحق هو استحالة البدء؟ لكن سوسير ما يلبث أن يعدل عن هذا الإفراط في القلق:

. . . وإذا كانت لدى أحد القراء الرغبة في متابعة فكرتنا من بدايتها إلى نهايتها بانتباه، في هذا المؤلّف، فإننا متأكدون من أنه سيجد من المستحيل اتّباع تنظيم أكثر صرامةً من التنظيم الذي اتبعناه (السابق).

[34] لنبدأ إذاً ما دام البدء مُمكناً. ويظل اختيار نقطة الانطلاق هو القضية. إن التردد نفسه موجود لدى سوسير وقارئه على حدّ سواء، وهذا يثير الدهشة. ويتحدّد التردد عند سوسير عبْر قابلية الموضوع المُراد نظمه[2] systématicité بالمعنى الدقيق للكلمة: لا قيمة لأي شيء في اللغة إلاّ من خلال علاقاته ببقية الأشياء. وهذه السمة هي التي تجعل من اللغة «جوهراً زئبقياً»، إنها على الدوام في نقطة أخرى غير تلك التي نعتقد أننا لمحناها فيها، دون أن تغيب عن المكان الذي نعتقد أنها فيه. وليس الخطاب السوسيري بأقل زئبقية من جوهر اللغة: فكل فقرة من فقراته ليس لها معنى إلاّ في علاقاتها بالفقرات الأخرى. فقارئ سوسير في مواجهته خطابه تعتريه الحيرة نفسها التي اعترت قبله سوسير نفسه في مواجهة اللسان. لقد سبق لي أن طرحت على نفسي السؤال المتعلّق بنقطة الانطلاق في عام 1970م عندما عرضت، لأهداف تعليمية بسيطة، كتاب **دروس في اللسانيات العامة** في كتاب يهدف إلى التدريب على اللسانيات (**القواعد، قراءات**). وهاأنذا أعود اليوم إلى طرحه من جديد.

صحيح أن الوضع تغيّر اليوم. ففي عام 1970 كنت أجهل، شأني شأن الباحثين جميعاً، أن سوسير كان حقاً قد بدأ يسعى ليضمِّن أفكاره عن اللغة في كتاب قطع في تأليفه شوطاً كبيراً. ولم يكن أحد في ذلك الوقت قد عرف بلا شك عنوان ذلك الكتاب **في الجوهر المزدوج للغة**[3]. لقد جرى الإعلان عنه عام 2002

(2) لم يستخدم سوسير قط، ما عدا الغلط أو السهو، مفردة نظم systématicité، لكنه استخدم استخداماً كثيراً الصفة نظامي Systématique. (انظر من المراجع التي ذكرت ذلك إنكلر، 1974-1990، 43). كما استخدم المصدر الاسمي المؤنث نظامية une systématique، (المصدر السابق).

(3) اخترت هنا استخدام عنوان الكتاب بين هلالين، وتفاديت استخدام الحروف المائلة لكي =

في **كتابات في اللسانيات العامة**. وما أعنيه طبعاً أن كتاب **الجوهر المزدوج** ليس كتاب **دروس في اللسانيات العامة**. إن نصّي الكتابين من وجهة نظر شكليّة متعارضان تعارضاً واضحاً بجعل من غير الضروري الدخول في التفاصيل. ومع ذلك فإن للنصين سمة مشتركة: التساؤل عينه المستمر والقلق في آنٍ معاً بشأن تلك «المادة الزئبقية» التي هي **اللغة**. إذاً، لقد بدا لي أنه ليس من العشوائية ولا من المصادفة في شيء (على افتراض أنه ينبغي عندما نتحدث عن اللسان تفادي الاتفاقي والاصطلاحي...) أن نستعين **بالجوهر المزدوج** للحديث عن **دروس في اللسانيات العامة**.

لم يكن في الإمكان تفادي أن تبدأ «مقدمة» **الجوهر المزدوج للغة** بتساؤل يشبه التساؤل الذي [35] قرأناه منذ قليل حول صعوبة ـ بل استحالة؟ ـ إيجاد نقطة انطلاق.

> يبدو في واقع الأمر أنه من المستحيل أن نمنح الأولية لهذه الحقيقة اللسانية أو تلك، بطريقة تجعل منها نقطة الانطلاق المركزية: لكن هناك خمس أو ست حقائق جوهرية مرتبطة كل الارتباط فيما بينها حتى إننا نستطيع أن ننطلق من أي منها ونصل منطقياً إلى الحقائق الأخرى كلها، وإلى النتائج المتشعبة نفسها، مهما صغرت، انطلاقاً من أي من تلك الحقائق. (**كتابات**، 17).

وانسجاماً مع قراره، يفكر سوسير في إمكانيتين للبدء:

الأولى، وقد اختارها صراحةً من بين إمكانيات أخرى على سبيل التمثيل: إنها التثبت من الثنائية ـ من **الجوهر المزدوج**، وفي الإجمال من «الموضوع اللساني l'objet linguistique»[*]، أو مما حزمت أمري على تسميته هكذا على الرغم من الصعوبات التي تنشأ عن هذا المفهوم:

> نستطيع على سبيل المثال أن نكتفي فقط من هذا المعطى بالقول: إنه لمن الخطأ (ومما لا يمكن تطبيقه) أن نقابل بين الشكل *La forme* والمعنى *Le sens* لكن ما هو صحيح في المقابل هو المقابلة بين الصورة الصوتية *figure vocale* من جهة، والشكل ـ المعنى *La forme-sens* من جهة أخرى (م. س).

---

[*] لا يظنّن أحد أن سوسير أنجز ذلك الكتاب. وعلى الرغم من العمق الذي يُعدّ سمة عامة للتفكير في هذا الكتاب فإنه يظل إن لم أخطئ القول: مُسَوَّدة، شرط أن نخلّص هذا المصطلح من كل قيمة دونيّة.

يبدو مما سبق أن سوسير لا يكتفي بطرح الثنائية المعروفة من أزمان سحيقة عبْر المقابلة بين المصطلحين القديمين الشكل والمعنى. بل إنه يلتزم، عبر صياغة المصطلح الجديد المركّب شكل ـ معنى خصوصاً، في مسار نقل الثنائية التقليدية. إن مفهوم «الصورة الصوتية[4] الذي ينتمي إلى مجال الفيزيولوجيا والأكوستيكية» أو علم السمعيات «acoustique» (**كتابات**، 31) يمنح الصوت الذي يُظهر «الشكل ـ المعنى» مكاناً جوهرياً. ونرى من ذلك أن الثنائية نفسها جرت مضاعفتها[5]. إنها ثنائية حافظ عليها سوسير، لكنه منحها كثيراً من الحيوية.

وفي هذه النقطة بالذات تُظهر «المادة الزئبقية» للغة سمةً أخرى، أليست في نهاية الأمر هي السمة نفسها، للموضوع الذي تسعى إلى وصفه:

> إن من يتابع هذه الفكرة كائناً من كان يصل بشكل حسابي إلى النتائج نفسها التي ينتهي إليها من ينطلق من مبدأ يبدو ظاهرياً بعيداً كل البعد، على سبيل المثال: يمكن في اللغة التمييز بين الظواهر phénomènes الداخلية أو الظواهر العائدة لـ الوعي، وتلك الخارجية التي يمكن فهمها فهماً مباشراً. (م. س).

وإذا صح أن المعاينتين المتتاليتين تبدوان مختلفتين كل الاختلاف. فإنه، مع ذلك، من السهولة بمكان ملاحظة كيف سيتمّ الانتقال من إحداهما إلى الأخرى. [36]. فنقطتهما المشتركة هي الثنائية. وإنْ كان من المؤكد أن نقطة الارتباط في الثنائية قد تغيَّر مكانها فإن مكانها لن يكون منذ الآن ـ أعني في المعاينة الثانية ـ بين المادة ـ مادة «الصورة الصوتية» كما لاحظنا منذ قليل، وبين الشكل ـ وهو بالتحديد شكل «الشكل ـ المعنى» ولكن بين المفهومية المباشرة «للظواهر الداخلية» ـ الصورة الصوتية ـ وبين «الظواهر الداخلية» والتي هي عناصر «الشكل ـ المعنى»[6].

---

(4) عندما يُقرأ هذا المفهوم قراءةً تقريبيةً فإنه يؤدّي إلى تفسيرات معكوسة طريفة. مثال ذلك: أننا نجد أندريه غرين André Green يسمح لنفسه، ودون أن ينتابه الضحك، بالقول إن سوسير «كان يفضل مصطلح **الصورة الصوتية**» على **الدال** (2003، 275). لا ليس الأمر كذلك، فسوسير لم يكن يفضل ذلك بتاتاً: بل كان يستخدم بالتناوب هذين المفهومين المختلفين اختلافاً جوهرياً.

(5) إننا نعرف المصير الذي انتهت إليه هذه المضاعفة على يد هلمسليف (1943-1971): فهو سيصبح التضاد بين الشكل والمادة في مستويي العبارة والمحتوى.

(6) تتحدد نوعية هذه الظواهر الداخلية باعتبارها تعود إلى الوعي. وهل يعني هذا أن «الصورة =

ولم يمرّ زمن طويل حتى انبثق في تطور التأمل السوسيري تسمية «وجهة النظر» التي بدأت تأخذ على عاتقها الموضوع المتأثر بالثنائية. وسيجد ذلك الموضوع نفسه حينئذٍ مُسمًّى بمصطلحات جديدة مُركّبة:

وجهة نظر حالة اللغة في ذاتها،

= ليست مختلفة عن وجهة النظر الفورية،

= ليست مختلفة عن وجهة النظر السيميولوجية (أو عن العلامة ـ الفكرة).

ـ ليست مختلفة عن وجهة النظر المخالفة للتاريخ،

= ليست مختلفة عن وجهة النظر الصرفية أو النحوية،

= ليست مختلفة عن وجهة نظر العناصر المنسقة. (كتابات، 21).

ـ نعرف أن سوسير لم يكن في بعض الأحيان يتوانى عن أن يترك لنفسه العنان لدرجة التحريض ـ لذلك نجد، وبطريقة استفزازية تماماً، أن لـ «وجهة النظر» هذه خمس تسميات وُصفت بأنها «غير مختلفة». وعندما خصّ «العلامة ـ الفكرة» ـ وهذه في رأيي تسمية جديدة «للشكل ـ المعنى» الوارد في «مقدمة **الدروس**» ـ فقد استخدم «وجهة النظر السيميولوجية».

لقد اتضح أنها ليست المصادفة وحدها هي التي جعلتني كليّةً أختار بدء وصفي بإرساء أساس السيميولوجيا وموضوعاتها: أنظمة العلامات. وحريٌّ بالقول إذا كانت هي المصادفة هي الدافع فقد حدثت بالتأكيد عبر الاختيار الذي قام به سوسير، والذي هو على الأرجح اتفاقيّ.

أنظمة العلامات والسيميولوجيا

شكّلت السيميولوجيا اهتماماً قديماً عند سوسير في السنوات التي كان يلقي فيها دروسه في اللسانيات العامة. لقد لاحظنا منذ قليل أنها كانت من قبلُ حاضرة في **«الجوهر المزدوج»**. فمنذ عام 1901 عمد أدريان نافيل (Adrien Naville) زميله في جامعة جنيف إلى إظهار السيميولوجيا في كتابه: [37] **تصنيف جديد للعلوم**

= الصوتية»، مع أنها تسمّى «خارجية» و «مُدرَكة مباشرة» فإنها تنتمي إلى «اللاوعي» إذا استخدمنا مصطلح سوسير؟ جدلية معقدة سنوضّح بعض مظاهرها فيما يلي، وخصوصاً في الفصل السابع.

Nouvelle classification des sciences، ووضعها ضمن علم الاجتماع، وجعل اللسانيات فرعاً منها:

> يلح السيد فردينان دو سوسير على أهمية علم شديد العمومية يسمّيه السيميولوجيا، وهو علم سيكون موضوعه قوانين إبداع العلامات وتحولها ومعانيها. إن السيميولوجيا قسم أساسي من علم الاجتماع. ولمّا كانت أهم أنظمة العلامات هي لغة المواضعة بين البشر فإن العلم السيميولوجي الأكثر تقدماً هو اللسانيات، أو علم قوانين حياة اللغة. (**تصنيف جديد للعلوم**، ط2، 1901، 104)[7].

إن للسيميولوجيا، في بنيتها الداخلية على الأقل، كما تظهر في كتاب **دروس في اللسانيات العامة** صورة تشبه الصورة التي ذكرناها:

> إذاً، إنه من الممكن أن نتصور علماً يدرس حياة العلامات في صلب الحياة الاجتماعية. وهو يشكّل قسماً من علم النفس الاجتماعي، بالتالي قسماً من علم النفس العام. ونقترح تسميته بـ sémiologie أي السيميولوجيا (مشتقة من الكلمة اليونانية semeion بمعنى «علامة»). ولعله سيمكّننا من معرفة ممّ تتكوّن العلامات والقوانين التي تسيّرها. ولما كان هذا العلم غير موجود بعدُ فإننا لا يمكن أن نتنبأ بما سيكون عليه. لكن يحق له أن يوجد، ومكانه مُحدّد سلفاً. وليست اللسانيات سوى قسم من هذا العلم العام. والقوانين التي ستكشف عنها السيميولوجيا ستكون قابلةً للتطبيق على اللسانيات. وستجد اللسانيات نفسها مُلحقة بميدان محدد المعالم مضبوط ضمن مجموع الوقائع الإنسانية. (**دروس**، 33)[8].

---

(7) إن هذا التحديد المرجعي التافه ليس بدون فائدة: إنه يلفت النظر إلى الفكرة التي أشار إليها بيير كوسّا Pierre Caussat في تقديمه لطبعة عام 1991 من كتاب نافيل ـ ومفادها أن كل ذكر للسيميولوجيا أصبح ساقطاً منذ الطبعة الثالثة للكتاب (1920) التي هي تالية لطبعة **الدروس**. والطبعة الأولى التي تعود إلى عام 1888، هي بدورها مسكوتٌ عنها لأسباب مختلفة طبعاً.

(8) استأنستُ في إيراد النصوص المقتبسة من كتاب سوسير **دروس في اللسانيات العامة** بالترجمات العربية (التونسية على وجه الخصوص) مع تغيير بعض المصطلحات التي أرى أن ما أورده أولى منه؛ فمصطلح الدلائل الذي قابل به المترجمون التونسيون مصطلح signe استخدمتُ بدله مصطلح علامة، وأشرتُ إلى موضع ورود النص المقتبس في الترجمات العربية الخمس وسمّيتها اختصاراً: التونسية؛ العراقية؛ اللبنانية؛ المصرية؛ المغربية. ترتيباً اتفاقياً وليس معيارياً أو تاريخياً. وبشأن هذا النص: التونسية، 37؛ العراقية، 34؛ اللبنانية، 27-28؛ المصرية، 40؛ المغربية، 26. [المترجم].

نرى من خلال النص السابق أن السيميولوجيا كما يبدو في عام 1916 لا تتداخل كل التداخل مع ما ذكره نافيل في عام 1901م. إنها مرتبطة بعلم النفس وليس بعلم الاجتماع مع أنه اجتماعي. وليس له على وجه الخصوص الأهمية التاريخية التي ينسبها إليه نافيل[9]. وينبغي في النص السابق الاحتراس من الاستعارة في مفردة *la vie* في قوله (...حياة العلامات في رحاب الحياة الاجتماعية)، لأنها عند الاقتضاء صالحة لأن تُؤوَّل تأويلاً تاريخياً. ليس في الأمر شيءٌ من ذلك: فالاستعارة التي - لم يُشِرْ إليها في ملاحظات من استمعوا لدروس سوسير إلاّ إشارةً عابرةً - تشير هنا إلى طريقة اشتغالية العلامات. وهذا ما تؤكده الإيضاحات التي ذكرت من قبلُ حول موضوع اللسانيات: العلامات، بالتأكيد، لكن في الأنظمة التي تكوّنها والتي لا يمكن فصلها عنها:

> إن اللغة نظام من العلامات يعبّر عن الأفكار، وهي في هذا شبيهة بنظام الكتابة وبنظام الألفباء التي يستخدمها الصم والبكم، وبالطقوس الرمزية وآداب السلوك أو الرتب العسكرية أو غيرها من الأنظمة. إلا أن اللغة أهم تلك الأنظمة جميعاً. (**دروس**، 33)[10].

[38] وكما هي الحال غالباً في **الدروس**، يُدرج سوسير نقطة جوهرية دون أن يحدث ذلك جلبة كبيرة: إنها هنا الرابط الذي لا تنفصم عراه بين مفهوم العلامة[11] ومفهوم النظام. وليس في اعتبار سوسير علامات خارج الأنظمة التي

---

(9) لعل هذا الاختلاف المزدوج هو الذي يفسر اختفاء أي إشارة إلى السيميولوجيا أو إلى سوسير كما أشرنا إلى ذلك في الهامش السابق. ويمكننا أيضاً أن نفكر تفكيراً مختلفاً في ذلك الاختفاء. فربما كان سببه يعود إلى أن السيميولوجيا التي أسّس لها سوسير في **دروسه** بوضوح ظاهر، لكن بطريقة إرهاصية عطّت في عام 1920 في سُبات عميق. وبقيت كذلك زمناً طويلاً: وكان ينبغي الانتظار ما يقارب أربعين سنة لرؤيتها تصحو من سُباتها، وخصوصاً بعناية بارت وغريماس. انظر حول هذا الموضوع الفصل الثامن.

(10) التونسية، 37؛ العراقية، 34؛ اللبنانية، 27؛ المصرية، 40؛ المغربية، 26. [المترجم].

(11) اعتمدتُ ترجمة مصطلح signe علامة، وsignifiant دال و signifié مدلول. وقد اختار مترجمو الطبعة التونسية مصطلح دليل ودال ومدلول على التوالي وقالوا (ص 153): اخترنا هذه التسمية كي نربط بين الدليل والدال والمدلول من الناحية الاشتقاقية، ولأن الدليل في اللغة العربية يفيد فيما يفيد هذا المعنى.

قلت: لكن الدليل في اللغة العربية مصطلح مشغول بكونه ما يدل على شيء كما في قولنا دليل براءة ناهيك عن المعنى الفلسفي الذي يحمله الجمع أدلة كقولنا: أدلة وبراهين. =

تكوّنها؛ وسنرى قريباً قوة هذه المطالبة التي تفرض حتماً الشكل الذي يبدو عليه وصفي. ينبغي بالبداهة أن نقرأ كلّ مرّة في التوضيح الذي قرأناه قبل قليل عن السيميولوجيا اسم العلامة بوصفها نظاماً للعلامات، وحياتها لا تفي تطورها عبر الزمن، لكن الطريقة التي تشتغل من خلالها «في رحاب الحياة الاجتماعية». أما فيما يخص قائمة الأمثلة التي يضربها فإننا نلاحظ فيها نمطين من أنظمة العلامات: الأولان هما («الكتابة، ألفباء الصم والبكم») المشتقان من نظام علامات أوّلي هو نظام اللغة، وظيفتهما الظهور في مادة أخرى مرئية (الحروف والإشارات) بدلاً من أن تكون مسموعة (ذبذبات الصوت). والأمثلة الثلاثة الأخرى ـ لكن القائمة التي تحتويها تظلّ مفتوحةً بدليل تكرار كلمة «إلخ»[12] ـ هي أمثلة العلامات غير

= أما مصطلح علامة فهو أكثر تفرغاً لأداء معنى signe. أما مترجم العراقية فقد اختار مصطلح الإشارة مقابل signe واستخدم المصطلحين الآخرين كما استخدمناهما. ومصطلح الإشارة شأنه شأن الدليل مشغول بمعانٍ تمنعه من أداء المعنى المطلوب كما في قولنا: إشارة مرور وغير ذلك. وقد وافق اختيارنا ما اختاره من قبلُ الدكتور المسدّي في **قاموس اللسانيات**، م. س، 184. [المترجم].

(12) هل أترك العنان لنفسي لأقترح أن سوسير ربما كان يفكر في العناصر ـ «الرموز» ـ في **الحكاية الخرافية الجرمانية**؟ إنه يقول بوضوح، لكن خارج **الدروس**، إن «الرموز تخضع للتغيرات نفسها وللقوانين نفسها التي تخضع لها سلاسل الرموز الأخرى، على سبيل المثال: الرموز التي هي كلمات اللغة. إنها تشكّل جميعاً قسماً من السيمولوجيا (التركيز على العبارة الأخيرة من ميشال أرّيفيه)» في (**الحكاية الخرافية الجرمانية**، 30). ومن البديهي أن المشكلة التي يطرحها السؤال عن سبب كون الحكاية الخرافية مُدرجة بطريقة ظاهرة كلّ الظهور في السيميولوجيا في النص الذي اقتبسناه قبل قليل، في حين أنها مسكوت عنها تماماً عند تعداد الموضوعات المُمكنة للسيميولوجيا المذكورة في **الدروس** هي مشكلة متشعبة كلّ التشعب. وهناك مظهر آخر من مظاهر المشكلة: هو الاختلاف المصطلحي القائم بين علامات اللغة في المصطلحات الخاصة idiolecte(*) بكتاب **الدروس**، ورموز **الحكاية الخرافية في اللهجة** الإقليمية أو الباتوا patois(**) العائد إلى البحث. لقد لاحظنا تواً أن نقل الأولى بالثانية (العلامة بالرمز) أفضى إلى التركيب التالي: الرموز التي هي كلمات اللسان، وتعريف اللسان في **الدروس** يجعل هذا الأمر مستحيلاً. وسأشرح هذه المشكلة باستفاضة في الفصلين الثالث والسادس. (المقارنة بين اللهجة واللهجة الإقليمية أو «الباتوا» هي مقارنة الجزء بالكل).

(*) idiolecte: لهيجة: لهجة شخص بعينه في سياق معيّن وفي زمن محدد. **معجم المصطلحات اللغوية**، رمزي بعلبكي، ص235. ويبدو أن المراد هنا هو المصطلحات الخاصة كما أورد المترجم. (المراجع).

(**) patois: لهجة إقليمية، لهجة محلية؛ **مُعجم اللسانية**، بسام بركة، ص155. (المراجع).

اللسانية. وتكمن الجدّة الحاسمة في **الدروس في** تحديد الموضوعات الممكنة التي تعالجها السيميولوجيا المستقبلية: تعلم اليوم أنه كان عليه أن ينتظر أربعين عاماً كاملة ليجد حقاً بفضل أعمال غريماس وبارت[13] متتابعَين «المكانة (...) المحددة من قبلُ» (**الدروس**، 33) التي نُسبت إليه في **الدروس**.

اللسان، واللغة والكلام

إن اللغة، نظام العلامات النوعية ـ «أهم نظام بين الأنظمة» ـ هو موضوع اللسانيات التي هي نفسها مدرجة في [39] السيميولوجيا. ويبقى أن نخصص ذلك الموضوع، وأن نميّزه على وجه الخصوص من اللسان. وأول النقاط التي ينبغي الإشارة إليها هو أن اللغة مُدرجة في اللسان:

> لكن ما اللغة؟ إنها في رأينا لا تتداخل مع اللسان: إنها ليست إلاّ جزءاً محدّداً منه، لكنه جزء جوهري بلا شك. إنها في الوقت نفسه نتاج اجتماعي لملكة اللسان ومجموعة من المواضعات الضرورية التي يتبناها الكيان الاجتماعي ليمكّن الأفراد من ممارسة تلك الملكة. وإذا أخذنا اللسان في كُليّته، بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات؛ موزعاً في الآن نفسه بين ميادين متعددة؛ بعضها فيزيائي، وبعضها فيزيولوجي وبعضها نفسي، منتمياً في الآن نفسه إلى ما هو فردي وإلى ما هو اجتماعي. ولا يتسنى لنا تصنيفه في أي قسم من أقسام الوقائع الإنسانية لأننا لا نستطيع أن نستخلص وحدته.
>
> أما اللغة، فهي على عكس ذلك، كلٌّ قائم في ذاته، ومبدأ يخضع للتصنيف. وما إنْ نجعلها في المقام الأول بين وقائع اللسان حتى ندخل نظاماً طبيعياً في مجموعة لا تخضع لأي نوع آخر من التصنيف. (**دروس**، 25)[14].

---

(13) أفكر في بحث غريماس الذي يجهله كثير من الناس وهو بعنوان «الراهنية السوسيرية»، **المجلة الفرنسية المعاصرة**، رقم 3، 1956، 191-203، وغريماس، 2000، 371-382). ويطرح فيه غريماس رأيه القائل إنه «ليس هناك مبدئياً ما يعارض توسيع المناهج البنيوية لتُطبّق على الوصف الشامل لحقول الرمزيات الثقافية والاجتماعية، المغطاة بالدال اللساني والتي تُفهَم عبره». (ص 196). وبخصوص بارت أشيرُ إلى بحثه المنشور عام 1964 بعنوان «مبادئ في السيميولوجيا» في العدد المشهور من مجلة *Communications*. انظر الفصل الثامن. [وقد ترجم ما كتبه بارت بعنوان: **مبادئ في علم الأدلة**، ترجمه محمد البكري، دار الحوار، اللاذقية، سورية، 19. (المترجم)].

(14) التونسية، 29؛ العراقية، 27-28؛ اللبنانية، 21؛ المصرية، 31-32؛ المغربية، 18. [المترجم].

وبذلك، وضمن إطار هذه الملكة التي هي اللسان، وهي ملكة حَرِيَّةٌ بأن تتخذ مظاهر «متعددة الأشكال وغير متجانسة» لا تسمح لها بأن تتحدد بدقة، «تكون اللغة كُلاًّ». ويبقى بالطبع تحديد هوية الموضوع الذي إذا أضيف إلى *tout* كلية اللغة، فإنه سيكوّن الكل الأقل *pastout* (فلنمتنع مرّة أخرى عن هذا التعبير اللاكاني) للسان في مفهوم سوسير.

يتخذ ذلك الموضوع في **الدروس** اسم الكلام parole. والعلاقات بين اللغة والكلام في رحاب اللسان تلخص بطريقة واضحة كل الوضوح في الفقرة التالية:

> تجنباً لتعريف الكلمات تعريفات عقيمة، ميّزنا في المقام الأول في نطاق (التونسية، 123، نطق: خطأ) الظاهرة الكلية التي يُمثّلها اللسان، بين عاملين اثنين: اللغة والكلام. واللغة بالنسبة إلينا هي اللسان إذا طُرِح منه الكلام. إنها مجموع العادات اللغوية التي تمكّن المتكلم من الفهم والإفهام. (**دروس**، 112)[15].

وبشكل مسبق، فالنصّ ينبثق من التضاد بين اللغة والكلام:

> عندما نفصل اللغة عن الكلام فإننا نفصل في الوقت نفسه: 1-ما هو اجتماعي عما هو فردي؛ 2-ما هو جوهري عما هو ثانوي ونوعاً ما عَرَضي. (**دروس**، 30)[16].

لن أنازع هنا الأصول المخطوطة، مع أنها في هذا الموضع مختلفة كل الاختلاف عن نص الطبعة المعتمدة: إن الأصول المخطوطة لا تدرج - وسأعود إلى هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل الرابع - اللغة والكلام فقط، لكن اللغة و«ملكة اللسان» أيضاً. (إنكلر، 1968-1989، 41؛ كوماتسو، 189). والكلام يتدخل بعد حين بوصفه كما يبدو عاملاً يسمح بممارسة تلك الملكة:

> إن ملكة اللسان حدث مميّز من اللغة، لكنه لا يحدث بدونها. ونعني بالكلام عمل الفرد الذي يمارس ملكته بوساطة المواضعات الاجتماعية التي هي اللغة.

---

(15) التونسية، 123؛ العراقية، 95؛ اللبنانية، 99؛ المصرية، 140؛ المغربية، 99. [المترجم].

(16) التونسية 34؛ والعراقية 32؛ واللبنانية، 25؛ والمصرية، 37؛ المغربية، 23. [المترجم].

[40] ليس من المتنازع فيه أن نص **الدروس** يقيم تراتبية بين اللغة والكلام: الأولى «جوهرية»، والثاني «ثانوي»[17].

ويوجد هنا على أي حال خطأ ينبغي تلافيه. إنه الخطأ المتمثل في القول: إن سوسير يستبعد من حقل اللسانيات كل ما يستخدمه «المتكلم» من راموز Code اللغة. إنه خطأ يتكرر غالباً، وسأكتفي الآن بمثال واحد:

> وكان رد سوسير [...] هو أن اللسانيات ينبغي أن تقتصر على دراسة اللغة لذاتها ومن أجل ذاتها (سيرفوني (Cervoni) 1987، 9؛ ونجد مثالاً آخر على الموقف نفسه في الفصل الرابع. وهناك العشرات من النمط نفسه).

إن ما في **الدروس** يعارض هذا الموقف تماماً. فنصّه لا يعدل عن التراتبية التي جرت الإشارة إليها بين اللغة والكلام، بل إنه يؤكدها تأكيداً قوياً. وهي قوة مبالغ فيها بلا شك إذا قيست بالآراء التي كان سوسير[18] يطرحها غالباً.

لكن وجود الفصل الذي خُصص «للسانيات اللغة و لسانيات الكلام» في **الدروس** يُظهر بوضوح أن اللسانيات عليها أن تهتم باللغة بالتأكيد، لكنها تهتم بالكلام أيضاً. ومن هنا جاء التدقيق المصطلحي النهائي والحاسم:

> وقد يمكن مع شيء من التجوُّز أن نطلق اسم اللسانيات على كل من هذين الفرعين، وأن نستعمل عبارة لسانيات الكلام، لكن ينبغي ألاّ نخلط بين العبارة الأولى واللسانيات بالمعنى الحقيقي للكلمة، أي تلك التي موضوعها الوحيد هو اللغة. (**دروس**، 38-39)[19].

وسنرى بوضوح أكثر في الفصل الرابع كيف تراءى من خلال مصطلح لسانيات الكلام ما سيُعرف في وقت متأخر بلسانيات المنطوق linguistique de l'énonciation.

ولا ينبغي أن نفرّط في الاستنتاج من العودة القوية للتراتبية المُقامة في

(17) سنرى في الفصل الرابع أن الصفة «ثانوي» هي من زيادة الناشرين: لم يسمعها من سوسير أيّ من مستمعيه...

(18) مع ذلك فإنه قد يحدث لسوسير أن يقيم تراتبية بين اللغة والكلام يقول: «إن ما ينجزه الكلام مما هو مُعبَّر عنه في اللغة يمكن أن يبدو غير جوهري». (كوماتسو، 283). ويقول أيضاً: «إن الظواهر الأخرى [ظواهر الكلام، م. أ] تحتل بنفسها تقريباً مرتبة تابعة». (السابق). هذا أثر آخر من آثار التردد المؤلم في فكر سوسير.

(19) التونسية، 42؛ العراقية، 38؛ اللبنانية، 33؛ المصرية، 45؛ المغربية 30. [المترجم].

الدروس بين نوعي اللسانيات المشار إليهما وبالتحفظات (على الأقل للسانيات بمعناها الحقيقي) التي تفرضها على النوع الثاني: لأن تلك التحفظات مصدرها الناشران[20]، وأن الدرس [41] الذي ألقاه فيها سوسير يعطيها شكلاً أقلّ صرامةً، بل يبعدها تماماً. دليل ذلك أن نجد في **دفاتر قسطنطين** النص التالي:

> قلنا: إن دراسة اللغة هي ما نتابعه. وهذا لا يعني أنه لا ينبغي في لسانيات اللغة أن نلقي نظرة على لسانيات الكلام. (ربما يكون ذلك مفيداً، لكنه اقتراض من مجال مجاور). (إنكلر، 1968–1989، 58–59؛ كوماتسو، 305).

لم يعد هنا تحفظ ولا حتى تراتبية بين فرعَي اللسانيات. ثمة ببساطة التمييز بين مجالَين متجاورَين، والقرار باعتماد أحدهما دون الآخر. وليس هناك ذكر للأسباب الموجبة لهذا الاقتصار على مجال دون آخر. هل من المغامرة في شيء ألا نرى في ذلك إلاَّ تأثيراً للراهنية الإبستيمولوجية؟ إن ما يفرض نفسه على اللسانيات كما يتصورها سوسير بأكثر الطرق حسماً هو دراسة اللغة. لكنه يحترس كل الاحتراس من استبعاد الكلام من مجاله. إنه في الإجمال يتوقع مرتبة لسانيات الكلام بالطريقة نفسها ـ وبطريقة لا تكاد تكون أقلّ وضوحاً ـ التي توقع فيها من قبلُ مرتبة السيميولوجيا في تصنيف العلوم. ويبدو لي أن هذا لم يغب عن بنفينيست، لكنه كان متحفظاً جداً في إعلان ذلك. وينبغي أن نتلمس موقفه في مظاهر مُعجميّة، هي نفسها مشوّشة بفعل تعدد معاني مصطلح «كلام». وإن مما لا يمكن إنكاره أن مصطلح كلام parole مستخدم في عدد من المواضع بوصفه معادلاً للمنطوق أو عملية القول énonciation، كما هي الحال على سبيل المثال في هذا التعريف الرائع للتجديف:

> التجديف في أتمّ أحواله هو إجراء كلامي؛ ويتمثّل بطريقة معيّنة في أن

(20) هل أبالغ في الاستطراد عن موضوعي ـ سوسير ـ عندما أتساءل عن دوافع الناشرَين عندما أعطيا، وهما عالمان كل العلم بالسبب، لهذا الاحتراز بخصوص الكلام، قوة أكثر مما أراده سوسير؟ ويمكننا أن نترك لأنفسنا العنان لنرى في ذلك الأسف الذي ربما كان مختلطاً بالغيظ لدى شارل بالي على وجه الخصوص – بالي الذي سيكون في كتابه المستقبلي **لسانيات عامة ولسانيات فرنسية** صاحب «النظرية العامة للمنطوق»، وغيظه لأنه لم يستطع أن يحقق في **الدروس** البرنامج الذي أعلن بخصوص لسانيات الكلام. وسنرى أيضاً في الفصل الرابع أن تعدد معاني كلمة مصطلح «كلام» سيؤدي دوراً فيما ينبغي أن نسمّيه سوء فهمهم لتفكير سوسير في هذه النقطة.

تستبدل باسم الذات الإلهية الإساءة إليها. (**مسائل في اللسانيات العامة**، 2، 245-255؛ انظر أمثلة أخرى ص 82، 200، و 259 على وجه الخصوص).

وإنه لمن المستغرب أننا غالباً نجد خارج الكتابات اللسانية أكثر الآراء وضوحاً حول الكلام والخطاب discours عند سوسير. من ذلك أن لاكان يعترف بأهمية الكلام في الفكر السوسيري. وكيف لنا أن نعجب من ذلك لدى محلل نفساني تحتل ممارسة الكلام لديه مكانة جوهرية للغاية؟

ويبقى في نهاية الأمر أن لسانيات الكلام مع أنها تُطرح باعتبارها ضرورية وشرعية فإن **الدروس** لا تمسها إلا مساً رقيقاً. إذاً، إنه لمن المناسب العودة إلى اللغة، وفي الوقت نفسه إلى مفهوم نظام العلامات. ومن الضروري أن أفعل ذلك على مرحلتين: أصف بادئ ذي بدء العلامات، ثم أفكر بعد ذلك في شكل الأنظمة التي تكوّنها. [42]

العلامة السوسيرية

ينبغي البدء بمتابعة سوسير في ملاحظاته المتشائمة حول مصطلحية الموضوعات اللسانية. إنه دافع مستفيض لتأملاته:

> إن أي مصطلح نختاره سواء كان (علامة، مصطلح، كلمة، إلخ) لن يكون مطابقاً تماماً وسيتعرض لخطر ألا يشير إلا إلى جزء مما نريد تسميته. من المرجح أنه ليس هناك مصطلح لا ينطبق عليه ما ذكرناه. ما إنْ ينطبق مصطلح ما في لغة ما على مفهوم قيمي فإنه من المستحيل معرفة ما إذا كنا في هذا الجانب أو ذاك، أو أننا في الجانبين معاً في الوقت نفسه. إذاً، إنه لمن الصعوبة بمكان أن نجد كلمة تؤدي معنى دون أن تقع في لَبْس الاشتراك. (إنكلر، 1968-1989، 151، كومانسو، 306).

وخصوصاً بشأن كلمة علامة:

> ينبغي أن نعلم إذا أردنا أن نطلق اسم علامة على الكل (التأليف بين المفهوم والصورة) أو أنه إذا كان في الإمكان أن تُسمّى الصورة الأكوستيكية[21] (الفيزيائية) نفسها علامة (النصف الأكثر مادية). (كومانسو، 287).

(21) يقول ناشرا كتاب سوسير في هامش الصفحة 140 من النص الفرنسي تعليقاً على عبارة الصورة «الأكوستيكية»: قد تبدو عبارة صورة أكوستيكية مُفرطة في الضيق والقصور إذ إننا نجد بالإضافة إلى الصورة التي يتمّ بها تمثيل الأصوات المكوّنة للكلمة، الصورة التي يتم بها تمثيل تقطيع =

ويجهد سوسير نفسه مرحلياً لتلافي «زئبقية» المصطلحات. فقد فكر في لحظة من اللحظات في استخدام كلمة عبارة expression للإشارة إلى «القسم الأكثر ماديّة»: «إن كلمة عبارة (هذا الشكل هو تعبير عن...) هي الكلمة التي ينبغي دراستها». (**كتابات**، 107؛ نعرف المصير الذي آل إليه هذا المصطلح (عند هلمسليف)، الذي لم يكن يستطيع مع ذلك معرفة هذه الملاحظة الزائدة). إنه يورد غالباً في المصطلحات الجديدة: الصيغة النادرة (الشاردة) kénôme [التي تعني: أصغر وحدة صوتية][22] (**كتابات**، 93) ـ وهي تمثيل اشتقاقي ودلالي لمصطلح سينيم cénème[23] [أصغر وحدة صوتية لدى هلمسليف ـ ويبدو أن هذا المصطلح يحدد الصورة الأكوستيكية. وينطبق الأمر نفسه ضمن شروط أكثر تعقيداً على مصطلح aposème [أصغر وحدة صوتية] الذي يقابل مصطلح سيم sème[24] [أصغر وحدة معنوية: مغْنَم]: «إن الـ aposème هو في نظره الوعاء الصوتي للسيم وهو ليس وعاء لدلالة ما». (**كتابات**، 105؛ وبعد عدة أسطر يرد aposème معادلاً للصورة الصوتية figure vocale). لكن ينبغي الاحتراس من الاستعارة المتمثّلة في كلمة جثة:

> الصورة الصوتية aposème هي جثة السيم (المَغنم). ويمكن على الأرجح قبول هذا التشبيه، أي أنه ليس خطراً. ولكن هناك مع ذلك خطرٌ أن تبقى الجثة شيئاً منظماً في تركيبها الداخلي (تشريح) في حين أنها تتداخل بسبب مبدأ المواضعة في كلمتي التركيب الداخلي (التشريح) والفيزيولوجيا. (**كتابات**، 107).

= النطق بها، أي الصورة العضلية لعملية التصويت. لكن اللغة في نظر ف. دو سوسير إنما هي وديعة أودعت فينا وتتلقاها من الخارج. (انظر ص 61). فالصورة الأكوستيكية هي التصوير الطبيعي الأمثل للكلمة من حيث هي ظاهرة لغوية موجودة بالقوة وبغض النظر عن كل تحقيق لها في اللفظ، بالتالي يمكن أن نعتبر الجانب الفيزيولوجي الحركي في إحداث الصوت مُقدَراً مُضمَراً، وكيفما كان ينبغي ألاّ نحلّه محلاً ثانوياً بالنسبة إلى الصورة الأكوستيكية. [انظر الترجمة التونسية، 152-153. [المترجم]

(22) مرادف لـ «فونيم» ومثله مصطلح هلمسليف الآتي ذكره بين معقوفتين. [المترجم].

(23) سينيم cénème: هي في المنظومية (glossematics)، الوحدة الصغرى في النظام الفونولوجي للغة ما. وهي في جوهرها وحدة فارغة ليس لها دلالة مستقلة. **مُعجم المصطلحات اللغوية**، رمزي بعلبكي، ص86. (المراجع).

(24) هذا المصطلح sème يرد معرّباً سيم في **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص445؛ فهو صورة السّيميم، أي الوحدة الصغرى الممثلة للسّيميم في مجالٍ دلاليّ ما. (المراجع).

وفي بعض الأحيان وبدون كثير من المواضعة تغريه المقابلة العيثية تماماً بين sôme و sème = مَعْنَمْ لأن كلمة sôme الملفوظة بانخطاف inertôme (**كتابات**، 113) تسوّغ اشتقاقياً لأنها مأخوذة من الكلمة اليونانية التي تعني «جسد» و «جثة»، واستعارة جثة التي استخدمت ونوقشت (**كتابات**، 113) بمصطلحات قريبة كل القرب من المصطلحات التي ذكرناها عند الحديث عن الـ aposème.

[43] وفي موضع آخر يلجأ سوسير إلى استعارة أقل كآبة، إنها استعارة المنطاد ballon التي سبق لها الورود (عن طريق الوعاء) عندما تحدثنا عن الـ aposème.

> البالون هو المَعْنَم أو السيم، والوعاء هو الـ sôme، لكن هذا بعيد عن التصور الذي يقول: إن الوعاء هو العلامة، والهيدروجين هو الدلالة، دون أن يكون للمنطاد أي أهمية. إن المنطاد هو كل شيء بالنسبة إلى قائد المنطاد كما أن المَعْنَم أو السيم هو كل شيء بالنسبة إلى اللساني. (**كتابات**، 115).

ينبغي الاعتراف بأنه في خضم هذه الاستعارات الكثيرة ليست استعارة المنطاد أكثرها سهولةً. إن المنطاد الذي هو تعبير مجازي عن المَعْنَمْ أو السيم يحتوي ـ إذا صح القول ـ على الوعاء (le sôme) وما يحتويه (الهيدروجين): وعن طريق ثنائيته، فهو الصورة البيانية العائدة إلى صورة «الشكل ـ المعنى» أو «العلامة ـ الفكرة».

أما الحلّ الراقي للتضاد بين الدال والمدلول فقد تبّناه سوسير على الرغم من مخاطره، وهو لن يُعتمد بدون حماسة، إلاّ في واحدة من القراءات النهائية للدرس الثالث. (كوماتسو، 306).

إذاً، لعله من المناسب أن يقف المرء على أهبة الاستعداد دوماً: إن مصطلح **علامة** ـ كي لا نتحدث إلاّ عنه: لأن الحالة نفسها تنطبق، كما رأينا قبل قليل، على مصطلح **المصطلح** وكلمة **الكلمة** و *sôme* الـ *sôme* ـ هو مصطلح زئبقي. فهو تارة يشير إلى الوجهين معاً، وتارة ينحرف ـ لأن الأرض زلقة [أي تميل] ـ إلى أحدهما: والنص الذي سنورده في الصفحات المقبلة من هذا الفصل يُظهِر ذلك بما لا مزيد عليه.

لنحاول أن نتناوله الآن، حسب صيغة سوسير «من الجانبين في وقت واحد». فما هذان «الجانبان» وبصورة أخرى ما العلامة بالنسبة إلى سوسير؟ ينبغي أن نبدأ بعملية استبعاد: إنه استبعاد «الشيء» وهي تسمية سوسيرية لما سيسميه اللسانيون بعد ذلك المرجع[25]:

> لا تجمع العلامة اللغوية بين شيء واسم، ولكن بين مفهوم وصورة «أكوستيكية» (98؛ ويبدو أن الصياغة الشفوية التي صاغها سوسير كانت أكثر تفصيلاً: فقد دوّن قسطنطين: «تقوم العلامة اللغوية على ائتلاف يصنعه العقل بين شيئين مختلفين كل الاختلاف، ولكنّ كليهما نفسي، ومتضمَّن في الفكرة: صورة سمعية مؤتلفة مع مفهوم». كوماتسو، 285).

إن المفهوم المستبعد ممثل بترسيمة تمثّل شجرةً وحصاناً ـ شيئان، موضوعان مُسمّيان ـ ومقابلهما الكلمتان اللاتينيتان (شجرة *arbor* و *equos* [شكل قديم لـ *equus*] اللتان توافقانهما.

إن استبعاد «الشيء» ـ سوسير يتحدث في ملاحظاته أيضاً بوضوح أكثر عن «الموضوعات المسماة» (إنكلر، 1968–1989، [44] 148) ـ هو النتيجة المباشرة لرفض تصور اللغة بوصفها «ثبتاً مصطلحياً، أي قائمة من المصطلحات التي تتوافق مع أشياء مساوية لها». (ص97). ليس ذلك بالتأكيد لأن سوسير كان يجهل مشكلة العلاقات بين اللسان والحقيقة. إنه يطرح تلك المشكلة بوضوح ليدل على مدى تعقيدها:

> لكن هذا التصور [اللغة بوصفها ثبتاً مصطلحياً]... يفترض أن الرابط الذي يجمع بين اسم ما وشيء ما هو عملية في منتهى البساطة وهذا أمر بعيد جداً عن الواقع. (**دروس** 97)[26].

---

(25) تعلم أن هذا المصطلح (*référent* مرجع) الذي يُكتب في الأصل (*référend* تبعاً لاشتقاقه اللاتيني: (المرجع = *le référend référendum*) هو المصطلح «المطلوب تسميته» كما أن الأب le père *le révérend* «مطلوب احترامه». وقد كتبه بنفينيست *référend* (1966، ص37) مع أنه عندما عاود إصدار بحثه المشار إليه عام 1974 (ص 226) اعتمد الإملاء «الحديث référent» الذي يستعصي تقريباً على الفهم في واقع الأمر.

(26) اجتزأ المؤلف من النص الفرنسي دون أن يشير إلى ذلك، قارن بالترجمة التونسية 109-110؛ والعراقية 84. والنص الفرنسي بتمامه هو:

إن مصطلح «عملية» يشير بوضوح إلى أن المذكور هنا هو الإجراء اللغوي الذي تأخذ بوساطته العلامة على عاتقها المرجع. لدينا هنا إذاً ما أعتقد أنه من المشروع تسميته مخطط النظرية السوسيرية في المرجعية، وهو مخطط ينبغي ألاّ نعجب من رؤيته يبقى عمداً على حالة النقص التي هو عليها: إن «العملية» التي «تتحدد» بموجبها «الموضوعات» تنتمي إلى الكلام. إنها تنضوي طبعاً تحت لواء اللسانيات، لكنها لسانيات «الكلام» التي رأينا منذ قليل أن سوسير يقرّ بشرعيتها لكنه يستبعدها (مؤقتاً؟) من مخططه[27].

وبذلك يظل المرجع مستبعداً ببراعة، براعة فائقة ربما: وسنراه في موضع غير بعيد يطل برأسه من جديد بطريقة غير متوقعة، ولا يمكن بلا شك السيطرة عليها. (انظر ص 49). لكنه في هذه اللحظة في حالة استبعاد قسري.

وبذلك يظل مكوّنا العلامات وحدهما موجودين: «المفهوم» و «الصورة الأكوستيكية»:

فالعلامة اللغوية إذاً هي كيان نفسي ذو وجهين يمكن تمثيله بالشكل التالي:

= cette conception [est critiquable à bien des égards]. Elle suppose des idées toutes faites préexistant aux mots (sur ce point, voir plus loin, p. 155); elle ne nous dit pas si le nom est de nature vocale ou psychique. car arbor peut être considéré sous l'un ou l'autre aspect; enfin elle [laisse supposer que le lien qui unit un nom à une chose est une opération toute simple. ce qui est loin d'être vrai].
ما بين معقوفتين في النص الفرنسي ساقط من النص الذي يورده آريفيه بدون إشارة. قارن بنص الدروس الأصلي في الطبعة التي أشار إليها آريفيه. وقد وضعنا مكان النص الساقط نقاطاً. [المترجم].

(27) إن الاسم «عملية» opération هو إضافة (أتجرأ على وصفها بالموفقة) من الناشرين. ويبدو أن سوسير لم يستخدمها، وفي المقابل أظهر فيما عرضه «الموضوع الذي هو خارج المتكلم، والاسم الذي لا ندري بالضبط هل هو صوتي أم ذهني. والعلاقة بين الاثنين ليس فيها شيء من الوضوح». (إنكلر، 1968-1989، 148). هذا الرابط «الغامض» بين الاسم والموضوع ينبغي بالطبع أن نتثبت منه، وبأي شيء نحدده إلاّ عن طريق «العملية» التي يقوم بها المتكلم؟

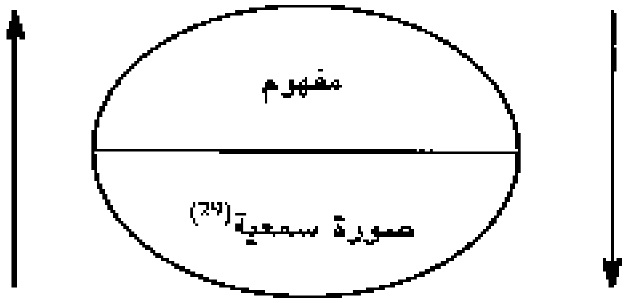

(الدروس 99)[28]

[45] وفي هذا الموضع بالذات، يتدخل التجديد الذي سبقت الإشارة إليه تدخلاً حاسماً؛ وهو تجديد مصطلحي ومفهومي في الوقت نفسه، يتمثل في «أن يستبدل بمصطلحي مفهوم وصورة أكوستيكية مصطلحا الدال والمدلول على التوالي»[30] (ص 99). وبذلك فقد «الوجهان» كل ما بقي لهما من السمة المادية الخاصة بهما: لأن الصفة «أكوستيكية» كانت تحمل بالطبع سمةً ماديةً حتى لو أن سوسير كان يلح (ص 98 وفي مواضع أخرى في المصادر المخطوطة) على أن المادة الفيزيائية للصوت ليست هي المقصودة، لكن المقصود هو الصوت بوصفه «بصمة نفسية». إذاً، فتعريف العلامة هو أنها في نهاية الأمر «كيانٌ كليٌّ» ذو

(28) التونسية، 110: وقد ترجم مصطلح Concept بمتصور ذهني؛ و image acoustique بصورة أكوستيكية؛ العراقية، 85: وترجم المصطلحين بـ: فكرة و صورة أكوستيكية؛ اللبنانية 88: تصور وصورة سمعية؛ والمصرية، 123: الفكرة والوحدة الصوتية؛ المغربية، 86: تصور وصورة سمعية. [المترجم].

(29) وعلى أي حال ينبغي ملاحظة أن السهمين المتعاكسين اللذين يحيطان بالشكل الإهليلجي الذي يمثل العلامة في الترسيمة التي دونها الناشران غائبان (إنكلر، 1968-1989، 149-150): إن الناشرين هما اللذان أضافاهما. وكل ما نجده في بعض الأحيان سهماً وحيداً داخل الشكل الإهليلجي الذي يمثل العلامة، وهو يعبر الحاجز الذي يفصل القسمين. (انظر ص 68). وقد قام قارئ مشهور هو لاكان بمحو السهمين اللذين أضافهما الناشران عندما وضع جدول «خوارزمياته»(*) (1966، 497). إنه لم يكن يدري بلا شك أنه يلتقي في هذه الجزئية مع التعاليم الأصيلة لسوسير.

(*) الخوارزمية تُعرَّف وفق **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص37 باعتبارها أسلوباً حسابياً يُستخدم في اللسانيات وعلم الأصوات يسعى إلى تبسيط مسألة لغوية ما بإظهارها في سلسلة متتالية في النقاط البسيطة. وأكثر ما يُستخدم هذا الأسلوب في النحو التوليدي. (المراجع).

(30) نعلم أن هذا الاستبدال قد حصل بطريقة متأخرة كل التأخير في دروس سوسير. وآية ذلك أنه في 19 أيار/مايو 1911 أدرج سوسير بلا حماسة هذه المصطلحية الجديدة في دروسه. (كوماتسو، 303-306).

وجهين مترابطين هما الدال والمدلول. ويدفع الحذر التعليمي بسوسير إلى أن يلاحظ في نهاية المطاف أنه لمّا لم يجد أفضل من مصطلح «علامة» رضي به لتسمية ذلك الترابط (بين الدال والمدلول)، على الرغم من أن الاستخدام الشائع لمصطلح علامة يجعل منها بديلاً قريباً للدال:

> أما مصطلح علامة signe فهو مصطلح رضينا به، لأننا لم نجد له بديلاً يحلّ محله، فاللغة المستخدمة لا تؤمّن لنا أي بديل آخر، (**دروس**، 99-100)؛ وبذلك ينسخ الناشران نسخاً لا يكاد يمتّ إلى الحرفية بصلة تفسيرات سوسير التي أشير إليها فيما سبق - (كوماتسو، 306) - بخصوص «الصعوبة في إيجاد كلمة تدلّ بلا لُبس على معنى: ترابط»[31].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ترسيمة العلامة السوسيرية تتخذ باستمرار في النسخة السائرة من **الدروس** الشكل نفسه، إنه الشكل الذي أوردناه فيما سبق بفارق واحد هو استبدال المدلول بالمفهوم والدال بالصورة الأكوستيكية. إذاً، إن تفاصيل هذه الترسيمة تتكرر بلا تنويع في **الدروس** كلها، وأشير إلى أهم تلك التفاصيل. هناك من جهة، مكونا العلامة المفصولان بخط مستقيم. لقد كان ذلك بالنسبة إلى سوسير الوسيلة الوحيدة ليسجل خطياً ضرورة التمييز بين المكوّنين والعلاقة التي تنشأ بينهما في الوقت نفسه. والمظهر الآخر من مظاهر الترسيمة هو أن القسم المخصص للمدلول يأتي على الدوام فوق المكان المخصص للدال. هل لهذا التموضع النوعي لدى سوسير أيّ مُلاءمة وثيقة بالموضوع؟ كل شيء يوحي إلى أن الإجابة هي: لا. لأننا نقرأ في موضع تال بخصوص الاستعارة المشهورة للورقة أن سوسير ينوي، غير مبال، عكس الوجه والقفا. (**كتابات**، 264-265). وإنه لمن الصحيح أن المصادر المخطوطة لا تورد أي ترسيمة معكوسة. لكنها في عدد من المواضع (انظر على سبيل المثال إنكلر، 1974-1990، 36) تورد الترسيمة عمودياً، بل تتخذ شكلاً مستطيلاً تخترقه عارضة منحرفة.

[46] إن العلامة كما عرّفها سوسير يحكمها «مبدآن»: «اعتباطيّة العلامة» و«الصفة الخطية للدال».

ولعله من المناسب في المقام الأول أن نلاحظ التفاوت المصطلحي

---

(31) قارن التونسية 111؛ العراقية 86؛ اللبنانية، 89؛ المصرية، 124؛ المغربية، 87. [المترجم].

والمفهومي الذي ينشأ بين هذين المبدأين. يتعلّق الأول بالعلامة في كليّتها، أي بضرورة العلاقة بين الوجهين. والثاني، على الأقل كما صاغه سوسير في حالته الأولى (ص 103) لا يتعلّق إلا بالدال، وباستبعاد المدلول: كما لو أنه كان في الإمكان فصل الوجهين. ألا يعني فصلهما أن لأحدهما خصوصية يرفضها الآخر؟ وكما سنرى بوضوح أكثر في مناسبة أخرى (انظر ص 65) أن سوسير يرتضي كل الرضا العملية مع أنه يقدمها بوصفها عملية مستحيلة.

اعتباطيّة العلامة

إن سوسير واضح كل الوضوح في الصياغة النظرية التي قدمها «للمبدأ الأول»: إن العلاقة «الاعتباطية» تتموضع حقاً بين وجهي العلامة، حتى لو أن مصطلح علامة يحتوي أيضاً في أرجح الاحتمالات[32] كما صاغه سوسير في 2 أيار/مايو 1911 القيمة القديمة «للصورة الأكوستيكية»:

> العلامة اللغوية اعتباطية. والرابط الذي يربط صورة أكوستيكية معيّنة مع مفهوم محدد، ويسبغ عليها [بلا شك على الصورة الأكوستيكية م. أ] قيمة العلامة [بلا شك: هو الدال في المصطلحية التي اعتمدها سوسير في 19 أيار/مايو] هو جذرياً رابط اعتباطي. (إنكلر، 1968–1989، 152؛ كوماتسو، 287).

لقد قرّر الناشران سعياً إلى الوضوح المحمود نسخ هذه الصيغة في مصطلحية جديدة، مما يسبغ على مصطلح علامة المعنى الذي يجمع بين الدال والمدلول:

> إن الرابط الذي يجمع بين الدال والمدلول رابط اعتباطي ـ أو بعبارة أخرى وبما أننا نعني بكلمة علامة الكيان الناتج عن الجمع بين الدال والمدلول ـ يمكننا أن نقول بصورة أبسط: إن العلامة اللغوية اعتباطية. (**دروس**، 100)[33].

وعلى أي حال فصيغة: العلامة اللغوية اعتباطية كرّرها سوسير بالتحديد في 19 أيار/مايو 1911 (كوماتسو، 305)، وهو اليوم الذي اعتمد فيه المصطلحية

(32) . . . مع أنه ودون تأكيد مطلق، يحدث أن ينسب سوسير إلى كلمة (علامة) المعنيين في العبارة نفسها: «العلامة اللغوية (الصورة الركيزة للعلامة) هي علامة متسعة». (كوماتسو، 289).

(33) التونسية 111-112؛ العراقية، 86-87؛ اللبنانية، 89؛ المصرية، 124؛ المغربية، 87. [المترجم].

الجديدة. وإنه لمن المحتمل الممكن أيضاً [47] أن مصطلح العلامة في هذا التوارد يعني حقاً الوجهين معاً وعلاقتهما.

ويلح بوكيه (Bouquet) (1997، 279-291) إلحاحاً كبيراً على الاستبدال الذي قام به الناشران، ويخصّص عدداً من الصفحات ليصف قائمة الأخطاء التي وقعا فيها في عدد من المواضع الأخرى. وهو محقٌ جزئياً: فالناشران طالما خلطا بين القيمتين اللتين أسبغهما سوسير بالتناوب على مصطلح العلامة الذي استخدمه غالباً بالمعنى الذي سيخصّص لاحقاً لمعنى الدال. وعلى أي حال فهذا اللُّبس، توقّعه سوسير وفسّره، بشكلٍ من الأشكال، وفي عددٍ من المواضع؛ سوسير الذي سبق أن رأيناه يصف بنفاذ بصيرة مشوبة بالأسف خطر الانزلاقات المستمرة التي تتعرض لها كل المصطلحات ـ بدءاً بمصطلح مصطلح نفسه ـ من اللحظة التي نحاول فيها أن نحددها بالنسبة إلى واحد من وجهَي الموضوع اللساني (انظر على وجه الخصوص: كوماتسو، 306، المذكور أعلاه). لقد كان الناشران بما لا يقبل النقض من ضحايا ذلك الانزلاق. ومن هنا كانا مصدر عدد من الصيغ غير الدقيقة، التي يمكن الاعتراض على مدى إخلاصها للتعاليم السوسيرية الحرفية. لكن الرأي عندي أن حجج بوكيه هي في جوهرها، على الرغم من براعتها الشديدة غير ذات فائدة: فسواءً كانت الاعتباطية منظوراً إليها «من وجهة نظر الدال» (1997، 287)، أو من وجهة نظر المدلول فإنها كما طُرحت في 2 أيار/مايو يُكرّس العلاقة بين وجهَي العلامة.

هل هناك استثناءات من مبدأ اعتباطية العلامة؟ يسارع سوسير إلى التخلص من الأمثلة المضادة الواضحة التي تقدمها صيغ الكلمات التي تحاكي أصوات الطبيعة (onomatopées) أو صيغ التعجب. فالصيغ الأولى «وعددها أقل بكثير مما نظنه»، «ليست قط عناصر عضوية في أي نظام من الأنظمة اللغوية». (**الدروس**، 101-102)[34]. أما صيغ التعجب فيمكننا أن ننفي عن أكثرها وجود رابط ضروري بين الدال والمدلول. (**الدروس**، 102)[35]. إن عملية التنظيف السريعة والحيوية هذه تترك آثاراً مُعجمية في **الدروس**: فالمقابلة التي تنشأ بين العلامة التي هي في التعريف اعتباطية وبين الرمز الذي «يتميّز بأنه ليس على الدوام اعتباطياً». (**الدروس**،

---

(34) التونسية 113-114؛ العراقية، 88؛ اللبنانية، 91؛ المصرية، 126؛ المغربية، 89. [المترجم].

(35) التونسية 114؛ العراقية، 88؛ اللبنانية، 92؛ المصرية، 127 المغربية، 90. [المترجم].

101)، وهو بسبب هذه الميزة لا يظهر ضمن نظام اللغة. لقد سبق أن لاحظنا، وسنلاحظ ذلك لاحقاً أن هذا التضاد المصطلحي ليس مطّرداً في نصوص سوسير الأخرى: سواء في **الكتابات** أو في أعماله على **الحكاية الخرافية**، إنه يستخدم مصطلح رمز ـ صحيح أنه غالباً محدد بصفة (انظر فيما يلي الصفة: مستقل) ـ بالمعنى الذي تتخذه العلامة في **الدروس**.

إن لمشكلة «التعليل النسبي» مكانة مهمة في **الدروس**. وتظهر في حالة أن عنصراً [48] مركّباً يتكوّن من عدد من المصطلحات الموجودة في النظام اللغوي:

> فمفردة «عشرون= Vingt» غير مسوّغة، أما تسعة عشر= dix-neuf فليست غير مسوغة بالدرجة نفسها لأنها تذكّر بالعنصرين اللذين تتكوّن منهما وبعناصر أخرى تشترك في تأليفها مثل «عشرة= dix» و «تسعة= neuf» و«تسعة وعشرين= vingt-neuf»، و«ثمانية عشر= dix-huit»، و«سبعين= soixante-dix»، إلخ. وإذا أُخذ كلٌّ من العنصرين على حدة عشرة= dix وتسعة neuf فإنهما يستويان في الاعتباطية مع عشرين، أما تسعة عشر= dix-neuf فإنها حالة من حالات التسويغ النسبي. (**الدروس**، 181)(36).

إن إرساء مفهوم «التعليل النسبي» الذي يُنظر إليه بوصفه «يحدُّ من الاعتباطية» (**دروس**، 182) يمكّن سوسير من التفكير بحذر في استخدام معيار درجات «عدم التعليل» بهدف إنشاء تصنيف نموذجي للغات(37):

> ويمكن القول بوجه من الوجوه ـ وهو وجه لا ينبغي الإفراط في اعتباره على حقيقته، إلا أنه يجعلنا ندرك صورة من صور التضاد الذي نحن بصدده ـ إن اللغات التي يبلغ فيها انعدام التعليل أقصاه هي لغات أكثر مُعجمية، واللغات التي ينخفض فيها انعدام التعليل إلى حده الأدنى لغات أكثر نحوية. (**الدروس**، 183)(38).

إن المعادلة التي تحددها اللغة بين الاعتباطية المطلقة (التي تفضلها وإن

---

(36) التونسية، 197، وقد انقلبت فيها كلمة «عشرين» إلى كلمة «مائة= cent»؛ العراقية، 151؛ اللبنانية، 158؛ المصرية، 226؛ المغربية، 167. [المترجم].

(37) في مخطط البحث عن ويتني أبدى سوسير بخصوص هذه الإمكانية تشاؤماً مطلقاً. انظر الفصل الخامس.

(38) التونسية، 199، يصحح الخطأ المطبعي، الوجوده: صوابه: الوجوه؛ العراقية، 152؛ اللبنانية، 161؛ المصرية، 230؛ المغربية، 169. [المترجم].

بدرجات مختلفة اللغات الصينية والإنكليزية والفرنسية) والتعليل النسبي (الموجود بكثرة في السنسكريتية والألمانية واللاتينية) تسمح للعقل «بإدراج مبدأ نظام وقياس في بعض أقسام كتلة العلامات». (**الدروس** 182)(39). لكن ينبغي ألاّ يصل بنا الأمر إلى حد اعتقاد أن إدراج مبدأ نظام يستجيب لأي غاية من الغايات: وكما سنرى في الفصل الخامس فإن المصادفة وحدها «أقل التغييرات الغرضية في الصامت أو في النبرة»، «حذف حرف الـ o من نهاية كلمة» (**كتابات**، 216) هي وحدها سبب اختلاف اللغات في هذه النقطة مع أنها لغات ترتبط بصلات قرابة كما هي حال اللاتينية والفرنسية والإنكليزية والألمانية(40).

مهما يكن من الأمر، فإن التعليل النسبي لا يوجد ألبتّة إلاّ في داخل نظام اللغة: ولا يعمل إلاّ بين «مصطلحات» «الدفائن»(41). ولا يصل ألبتّة إلى العلاقة بين الدال والمدلول التي تصل محكومة «بالمبدأ الأساسي لاعتباطيّة العلامة». (**الدروس**، 180).

إذاً، يبقى مطلوباً البحث عن دليل لتأكيد اعتباطية العلامة. وما إن يطرح سوسير هذا المبدأ حتى يسعى على الفور لإيجاد ذلك الدليل. [49] والمثال الذي يضربه يُظهر أنه يظلّ مخلصاً لتكوينه الأصلي:

> وهكذا فإن المتصور الذهني «أخت» [أي المدلول م. أ] لا تربطه أي علاقة داخلية بتتابع الأصوات التالي: الهمزة والضمة والخاء والتاء والتنوين الذي يقوم له دالاً، ومن الممكن(42) أن نمثله أي مجموعة أخرى من الأصوات. (**الدروس**، 100)(43).

---

(39) التونسية، 199؛ العراقية، 152؛ اللبنانية، 161؛ المصرية، 230؛ المغربية، 169. [المترجم].

(40) تلك هي في كل الأحوال واحدة من المواقف التي اتخذها سوسير في مشكلة التطور، وسنرى في الفصل الخامس اضطراب تفكيره في هذه النقطة.

(41) يريد أنه داخلي لا يبدو على السطح كما هي حال الكنوز التي تكون عادةً مخبوءةً. [المترجم].

(42) استخدم الناشران في التعبير عن فكرة الأخت التي هي اسم مؤنث بالفرنسية l'idée de soeur ضمير المذكر «هو= il» وقد كانا بلا شك وهما يفعلان ذلك يفكران في أحد الاسمين المذكّرين: مدلول= Signifié أو مفهوم= concept ويظهر هذا الاسم الأخير في المصادر المخطوطة التي تقترب جداً من نص 1916: «إن مفهوم «الأخت» على سبيل المثال لا يرتبط بأي سمة (علاقة) داخلية مع الأصوات التالية r ö + s التي تشكّل الصورة الأكوستيكية التي توافقها». (إنكلر، 1968-1989، 152).

(43) التونسية، 112؛ العراقية، 87؛ اللبنانية، 90؛ المصرية، 124؛ المغربية، 88. [المترجم].

لكن كيف يمكن إثبات غياب «الاتفاق الداخلي» ما دام المدلول «أخت= sœur» ليس له بالتحديد في الفرنسية إلاّ دال واحد *s-ö-r*؟ وليس له مرادف محدد، لأن ما ندعوه «مرادفات تستمد قيمتها الخاصة بها من تقابلها»[44]. (**الدروس**، 160)[45]. والوسيلة الوحيدة التي يبدو أنها تفرض نفسها هي الاستعانة بلغة أخرى: ثم يتابع سوسير القول بلا لَبْس:

> وخير دليل على الاختلاف بين اللغات وجود اللغات المختلفة التي تختلف في تسمية الأشياء: فالمدلول «عجل= bœuf»، دالُّه *b-ö-f* في الفرنسية و*o-k-s* (Ochs) في الألمانية (**الدروس**، 100؛ وهنا أيضاً فإن نص الدروس قريب كل القرب من الآراء التي علّقها مستمعو سوسير. إلا أن ما يُستغرب أن واحداً فقط من بينهم هو فرانسيس جوزيف (Francis Joseph) سمع بوضوح المقابلة بين bœuf الفرنسية و Ochs الألمانية، في حين أن آخر هو قسطنطين سجّل المقابلة بين bœuf الفرنسية و bos اللاتينية. . . لا ينبغي الاعتماد على الطريقة التي يعلّق بها المستمعون على كلام أساتذتهم. . .).

نرى الانحراف الذي أصاب الاستدلال: إن الانتقال من لغة إلى أخرى لإثبات، في هذه أو تلك، اعتباطية العلامة يعني أن نفترض أن مدلول «عجل= bœuf» مطابق كل المطابقة مدلول «Ochs». مما يتناقض تماماً مع أكثر المواقف وضوحاً مما دافع عنه سوسير نفسه في موضع غير بعيد: فإذا كان قد استبعد مفهوم اللغة بوصفها «ثبتاً للمصطلحات» فذلك بالتحديد لأنه «يفترض أفكاراً جاهزة تسبق وجود الكلمات». (ص 97)[46]. وفي المصادر المخطوطة يبلغ به الأمر حدّاً [50] ينكر معه بوضوح إمكانية التطابق الدقيق بين علامات اللغات المختلفة:

---

(44) التونسية، 177؛ العراقية، 135؛ اللبنانية، 141؛ المصرية 201؛ المغربية، 147. [المترجم].

(45) وبصيغة أوضح: «إذا كانت اللسانيات علماً منظماً (...) فإن واحدة من أكثر تأكيداتها الفورية ستكون: استحالة إيجاد مترادف، يكون الشيء المطلق والأكثر جدارةً بالملاحظة، الذي يفرض نفسه من بين كل المشاكل المتعلّقة بالعلامة». (**كتابات**، 265). ومثال «الأخت» مثال دالّ كل الدلالة في هذا الخصوص. فمرادفتها كلمة frangine تبتعد عنها عبر السمة المدلولية «في المجال الأسري»، حتى لو كان يُمكن للكلمتين، في عدد من الحالات، أن يشيرا إلى المرجع نفسه. («الأخت الشقيقة»، «الراهبة»، إلخ). لكن هل يمكننا القبول بأن تحلّ كلمة *frangine* محل كلمة *sœur* في عبارة: الفيزياء والكيمياء هما مجالان متآخيان؟ [يقال بالفرنسية (أختان)، لأن كلمة (مجالان= disciplines) مؤنثة. [المترجم].

(46) التونسية، 109؛ العراقية، 84؛ اللبنانية، 87؛ المصرية، 121؛ المغربية، 85. [المترجم].

لو كانت الأفكار محددة مسبقاً في العقل الإنساني قبل أن تصبح قيمة لغوية فإن أحد الأشياء التي تنتج بالضرورة هي أن مصطلحات لغة من اللغات تطابق تطابقاً تاماً مع مصطلحات لغة أخرى. فبين

الفرنسية	الألمانية
cher= عزيز	*lieb, theuer* (بالمعنى الأخلاقي أيضاً)

ليس هناك ألبتة تطابق تام. (إنكلر، 1968–1989، 262).

إذا لم يكن هناك «تطابق تام» بين *cher* و *lieb*، فلماذا يكون موجوداً بين bœuf و Ochs؟ ولا يمكن للدال bœuf= عجل في عبارة *Ça fait un effet bœuf*= لقد خلف حدثاً مذهلاً، أن يترجم إلى الألمانية بكلمة Ochs، كما لا يمكن للدال Ochs في عبارة Er steht wie der Ochs am Berge[47] أن يترجم إلى الفرنسية بكلمة bœuf.

وإذا صح أنه في العديد من الحالات يمكن للدالين أن يُترجم أحدهما بالآخر فإن المصادفة وحدها هي التي تجعل العلامات التي يظهران عبرها تأخذ على عاتقها مسؤولية المرجع نفسه، أو بمصطلح سوسير «تشير إلى الشيء نفسه».

يبدو واضحاً أن سوسير في سياق حجاجه ينتقل من الاعتباطية بين الدال والمدلول إلى الاعتباطية بين العلامة والمرجع. وحقيقة الأمر أن سوسير كان قبل سنوات خلت، في مخطط بحثه عن ويتني، يتصور قضية الاعتباطية بهذه الطريقة بالمصطلحات نفسها تقريباً: كانت العلامة حينئذٍ تسمى تسمية ـ معادلة ـ الرمز المستقل symbole indépendant:

> نعني بالرمز المستقل أصناف الرموز التي لا تتوافر لها تلك الميزة الأساسية المتمثلة في عدم وجود أي نوع من الرابط المرئي مع الشيء المراد تسميته، وبالتالي هي لا تستطيع أن ترتبط، ولو ارتباطاً غير مباشر في المآل الذي يؤول إليه مصيرها. (**كتابات**، 209).

لكن ما لا يمكن إنكاره هو أن **الدروس**، في نسختها النموذجية ومصادرها المخطوطة اللتين تكادان تتفقان تماماً، تنقل العلاقة بين الدال والمدلول، لكنها تفسر الظاهرة مستعينة بمصطلح المرجع. وقد لاحظ إدوارد بيشون (Edouard Pichon) ذلك الحدث في وقت مبكر، وأشار إليه بدقته المعتادة:

(47) ترجمتها الحرفية: «يقف كالعجل فوق الجبل»، أي «لا يدري ماذا يفعل». [المترجم].

[...] العلامة اعتباطية، لأن دالاً مثل [b-oe-f] [كذا في الكتابة الصوتية، الخاصة ببيشون] ليس له أي علاقة بمدلوله. وإمكانية التعبير عن المدلول نفسه بالألمانية عبْر الدال [o-k-s] هي الدليل الحق على هذه السمة الاعتباطية(48).

لسنا بحاجة إلى الذهاب أبعد من ذلك؛ إن خطأ سوسير في رأيي واضح كل الوضوح. ويتمثل في أنه لا يلحظ أنه يدرج في سياق برهانه [51] عناصر ليست في القول. فهو يُعرِّف بادئ ذي بدء المدلول بوصفه فكرة عامة للعجل؛ ثم يتصرف بعد ذلك وكأن ذلك المدلول كان الشيء المسمى عجلاً أو على الأقل الصورة الحسية لعجلٍ ما. . . والحالة فهما شيئان مختلفان [كذا لنبر العوض] كل الاختلاف.

وفي موضع غير بعيد، يدقّق بيشون ويقول:

إذا صح أن هناك عجولاً في ألمانيا كما في فرنسا فإنه لا يصح أن الفكرة التي تعبّر عنها كلمة [o-k-s] الألمانية مشابهة للفكرة التي تعبّر عنها كلمة [b-oe-f] الفرنسية.

إن هذه الانتقادات الجلية والقاسية في آنٍ معاً مقتبسةٌ من البحث المعنون «اللسانيات في فرنسا: مشكلات ومناهج»، المنشور عام 1937 في **مجلة علم النفس الخاص والباتولوجيا**، (ص 26 للفقرة الأولى، 27 للفقرة الثانية)(49).

وبعد سنتين، في العدد الأول من المجلة الدانماركية **Acta linguistica** يصوغ بنفينيست انتقادات قريبة جداً مما ذكرناه:

يصرّح سوسير بعبارات مُتقنة (ص 100) أن «العلامة اللغوية لا تجمع بين شيء واسم، ولكن بين مفهوم وصورة أكوستيكية». لكنه لا يلبث أن يؤكد

(48) في الأصل الفرنسي أحال المؤلف إلى (**الدروس**، 102)؛ والصواب أن يُحال إلى بحث بيشون الذي سيشير إليه المؤلف بعد قليل. [المترجم].

(49) سيعود بيشون إلى المشكلة في الاجتماع الثالث من سلسلة «العيش بحرية في الحضارة»، في 23 شباط/ فبراير 1937. وعلى الرغم من التجديد المصطلحي (على سبيل المثال كلمة typome التي تُفسّر بأنها «صورة حسية ـ فاعلية حقيقية» image sensus-actionelle) فإن التحليل قريب كل القرب من التحليل الموجود في البحث. وينتهي بهذه الصيغة الرائعة: «الكلمة هي العلامة الضرورية للفكرة لأنها جسدها ولا نستطيع أن نفكر فيها بدونها». (**المجلة الفرنسية للتحليل النفسي**، 1938).

أن طبيعة العلامة هي اعتباطية لأنها ليس لها مع المدلول «أي ارتباط طبيعي بالواقع»[50]. من الواضح أن الاستدلال خاطئ بسبب اللجوء اللاواعي والاختلاسي إلى مصطلح ثالث لم يُفهم حق الفهم في تعريفه الأولي. هذا المصطلح الثالث هو الشيء نفسه، الواقع. [...] عندما يتحدث عن الفرق بين b-ö-f و o-k-s فإنه يرجع رغماً عنه إلى حقيقة أن هذين المصطلحين ينطبقان على الواقع نفسه. إذاً، هذا هو الشيء الذي استُبعد بسرعة في بادئ الأمر من تعريف العلامة، ثم أُدرج في ذلك التعريف عبر التفاف وجعل التناقض يستقر فيه باستمرار. (**في مسائل في اللسانيات العامة**، 1، 50).

أتوقف لبرهة بداعي المسرّة لمعالجة المشكلة التاريخية التي يطرحها التقارب ـ وقد ثمّنا التدقيق بشأنه ـ بين هذين الانتقادين اللذين ليسا على وجه التحديد معاصرين.

فبيشون هنّأ بسخرية في مقال مختصر جداً «قبل عدة أسابيع من وفاته»[51] زميله الشاب واللامع «بانضمامه» إلى رأي القائلين باللا ـ اعتباطية، ويعبّر عن انذهاله لاكتمال الاتفاق بين موقف بنفينيست وموقفه من قضية الاعتباطية: «لا يمكن أن نحلم باتفاق أتمّ من الاتفاق الذي نراه». (**Acta linguistica**، 2، 1940–1941).

[52] لكن لندع التاريخ و ما فيه من ضغائن صغيرة. سأقتصر على المشكلة النظرية التي يطرحها نقد بيشون وبنفينيست. وبكلمة واحدة: إنه نقد لا يمكن إنكاره. وتعتريني بعض الدهشة من رؤية بوكيه ـ الذي يجهل بيشون ويهمل ذكر بنفينيست بقدْر ما يتهاون بذِكْر الاقتراح الذي انتقده ـ يذكر باطمئنان (1997، 290) أن «بنفينيست فوّت النظرية السوسيرية». إنه لمن البديهي أن سوسير انزلق من المدلول إلى المرجع، وهو بسبب هذا عاد إلى الوقوع، ربما دون أن يشعر، في المفهوم الذي استبعده قبْلياً من اللغة بوصفها ثبتاً اصطلاحياً. هل هي غفوة قصيرة زائلة للحذر النظري؟ نفكر هنا في ذلك القلق الذي اعترف به سوسير بخصوص الكتاب ـ إنه بلا شك كتاب «**في الجوهر المزدوج للسان**» ـ الذي كان بصدد كتابته:

---

(50) بنفينيست هنا غير دقيق: يستخدم العلامة بمعنى الدال وينسب إلى سوسير اقتباساً (غير موثّق) لا نجده في **الدروس**.

(51) أشار إلى هذا التوضيح التاريخي **فيغو** بروندال Viggo Brondal في الملاحظة التي خصّ بها بيشون بعد موته، ونجدها في العدد الثاني من مجلة **Acta linguistica** بعد مقال بيشون القصير جداً.

> لا يمكننا أن نفهم ما اللغة إلا بالاستعانة بأربعة أو خمسة مبادئ تتلاقى على الدوام بطريقة تبدو معها كأنها اعتُمدت بوضوح لتضلّل أكثر الناس براعةً وانتباهاً في أفكارهم الخاصة. (**كتابات**، 95).

هل يمكن لهذه الدرجة، إن اللساني وبالرغم من شدة انتباهه لتفكيره الخاص، يمكن أن ينخدع فعلياً؟ لن يكون ذلك إلاّ تأثير الموضوع الذي ارتضاه لنفسه.

وينبغي الاعتراف أننا يمكن، إنْ كان هناك خطأ، أن نجد له عذراً. لأنه حتى لو كانت العلامة مكوّنة من الدال والمدلول حصرياً فإنه ينبغي بطريقة من الطرق أن يكون للمدلول علاقة ما بالمرجع: إن علم الدلالة الأكثر «ثباتاً» لا يمكنه أَلْبَتَّة التوصل إلى أن يزيل نهائياً واقعة أن المرجع ينبغي أن تتمثّل فيه سمات تتفق مع سمات المدلول الذي هو مسؤول عنه. وهذه هي المشكلة التي يطرحها بوضوح جورج كليبير (Georges Kleiber) فيما يخص العلاقة بين التصنيف catégorisation (الموجود في المدلول) وبين التسمية **dénomination**، وهي عملية يستطيع المتكلم بوساطتها أن يحدد المراجع: «ما المعايير التي تسمح على سبيل المثال باستخدام تسمية كلب chien لِكلب؟». (**علم دلالة النمط**، 17)[52].

لكن الأجدى طرح السؤال على اللسانيين ـ الذين يخوضون في غمار هذه المشكلة منذ بدء التفكير في اللسان ـ وأن نستنجد، استثنائياً، في هذا الموضع بأحد سُذّج علم الدلالة نسبياً. إنه لاكان ـ لأنه هو الذي يؤدي لمرة دور الساذج ـ الذي يطرح المشكلة بخصوص الفيل والزرافة: إننا بالتأكيد نبقى في إطار علم الحيوان: يقول لاكان بطريقة فيها بعضٌ من البراعة:

> إن فكرة الدال والمدلول هي الأساس الذي تقوم عليه بنية اللسان. والدال هو مادي على الدوام، وهو الذي عرفناه عند القديس أوغسطين (Saint-Augustin) في الكلمة le verbum، [53]. وإذا نظرنا إليهما كلاً على حدة

(52) هل ينبغي القول إن علم دلالة المثال التي تقول كما يشير اسمها إلى ذلك بإمكانية التدرج في التصنيف (فالصوص يصبح «أقل من عصفور» منه إلى عصفور دوري، لكنه «أكثر» من بطريق!) تتعارض بهذا تعارضاً تاماً مع رؤية سوسير ورؤية لاكان أيضاً: فهما يريان بالتحديد أنه لا يوجد هنا فحوىً لغويٌ لا أكثر ولا أقل، لكن هناك حدوداً تحدد دون منطقة تغطية. (انظر ص 106).

فبينهما علاقة يظهر أنها اعتباطية خالصة. فليس هناك سبب يدعو إلى تسمية الزرافة زرافة والفيل فيلاً أكثر من تسمية الزرافة فيلاً والفيل زرافة. وليس هناك سبب يدعو إلى إنكار أن للزرافة خرطوماً وأن للفيل عنقاً طويلاً. وإذا كان ذلك خطأً في النظام العام المُتلقى فإنه خطأ لا يمكنه كشفه كما يشير إلى ذلك القديس أوغسطين طالما أن الحدود لم توضع. وأي شيء أصعب من أن نضع حدوداً صحيحة؟. (1975، 290).

إنّ لاكان، شأنه شأن سوسير كما نرى، يجعل في البدء الاعتباطية[53] بين الدال والمدلول. بلا أي لَبْس[54]. ولكن تتمة تحليله تقوده على الفور هو أيضاً إلى طلب تدخل المرجع. وهو فعل يكاد يكون حتمياً: إذا كانت كلمة فيل هي دال «زرافة» فإن الفيل (سواء كان فيل السافانا أو فيل حديقة حيوان فنسان (Vincennes): «الموضوع المُسمّى» «الشيء» المرجع في نهاية الأمر) له بالضرورة عنق طويل وقرنان صغيران على الرأس. إن التشاكل الضروري بين المدلول والمرجع يفسر الانحراف الذي يجعل سوسير ـ ولاكان بعده، والقديس أوغسطين قبلهما ـ ينزلق من الأول إلى الثاني. وبمصطلحات ميلنر (Milner) إنهم ينتقلون جميعاً وكأنهم رجل واحد من المرجع المفترض ـ «الدلالة المعجمية»، أي المدلول ـ إلى المرجع الحالي ـ ذلك الذي يسمح للعلامة بتسمية «الشيء» (1989، 336).

يبقى القول: إن الانحراف الذي يمكن تفسيره تفسيراً مقبولاً موجود وجوداً لا يمكن إنكاره، يثقل كاهل البرهنة حتى إنه ينزع عنها كلّ أثر للملاءمة. ماذا يمكن القول؟ لا شيء آخر إلاّ أن مبدأ الاعتباطية يظلّ غير قابل للبرهنة على وجوده. لكن السؤال هل يمكن البرهنة على وجوده؟ يجتهد ميلنر مخالفاً بنفينيست في البرهنة على وجوده، لكن دون أن يستطيع الذهاب إلى أبعد مما ذهب إليه سوسير في رأيي. وينبغي الاعتراف أن استدلاله بارع لأنه يهدف إلى إعادة إدراج العلاقة الموجودة قبْليّاً بين العلامة والشيء، إعادة إدراجها، بين الدال والمدلول:

الصوت، هو أيضاً، ينتمي كما هو إلى نظام الأشياء، وبالطريقة نفسها إلى

(53) الاعتباطية وفق **معجم المصطلحات اللغوية**، ص55، سمة تميّز اللغة عن كثير من الأنظمة السيمية الأخرى؛ وتحديداً: إن الرموز المستخدمة فيها لا تمليها الحقيقة المعبر عنها. (المراجع).

(54) ويصل به الأمر إلى حد قبول مفهوم سوسير في الاعتباطة دون تردد. وينتهي في وقت لاحق إلى التساؤل حول الموضوع ثم إلى تفضيل الاحتمالية على الاعتباطية في نهاية الأمر.

الفكرة، أو المدلول؛ لأن الارتباط الذي يجمعهما بوصفهما شيئين، وتبعاً للثنائية، ليس له أي شيء مشترك مع الارتباط الذي يجمعهما بوصفهما وجهين للعلامة: وأن أي سبب ينتمي إلى الصوت لا يمكن له أن يعمل في الثاني. وبذلك لا تتحكم الاعتباطية في العلاقة بين الشيء المدلول والعلامة فقط، لكن أيضاً في العلاقة بين الدال والمدلول ـ على عكس ما يذهب إليه بنفينيست في بحث له مشهور. (1978، 58).

لقد لاحظنا أن مصطلح (فكرة) يتطابق بدقة (مع أنه غير تام) مع مدلول، وأن مصطلح (صوت) يظل بكراً من أي تفسير. لأنه في الواقع من المستحيل ـ في الجهاز المفاهيمي السوسيري[55] [54] مطابقته مع الدال. ودون أن نأخذ بالحسبان هنا تطور فكر سوسير (انظر ص 71) ينبغي أن نقتبس الفقرة التالية الحاسمة:

يستحيل أن ينتمي الصوت ـ ذلك العنصر المادي ـ بذاته وحده إلى اللغة. [...] إن الدال في جوهره ليس أمراً صوتياً ألبتّة، وإنما أمر مجرد لا يتجسد، يتكوّن لا من جوهره المادي لكن حصرياً عبْر الفروق التي تفصل صورته الأكوستيكية عن كلّ الصور الأكوستيكية الأخرى. (الدروس، 164)[56].

وبذلك يكون استدلال ميلنر خاطئاً: إذا لم نتحدث إلاّ عنه[57]، إن الدال السوسيري ليس صوتاً وليس شيئاً، ولن يكون معنيّاً بأي مبدأ لا يتنقل إلاّ بين الأشياء والعلامات: فهو ليس هذا ولا ذاك.

يبدو في القول الصحيح أنه إذا كان لا يمكن البرهنة على مبدأ الاعتباطية فإن الأمر نفسه ينطبق على المبدأ المعاكس. وقد فشل بيشون وبنفينيست في التغلب على الصعوبة كلٌ من جانبه؛ بالطريقة نفسها تقريباً. وإذا لم نذكر إلاّ الثاني فنقول: إنه صاغ المبدأ صياغةً حازمةً:

---

(55) هل ينبغي التنبيه على أن الأمر مختلف كل الاختلاف في نظرية (كنظرية مارتينيه على سبيل المثال) لأنها تطابق الدال مع المادة الصوتية؟

(56) التونسية، 181؛ العراقية، 137؛ اللبنانية، 144؛ المصرية، 205-206؛ المغربية، 150-151. [المترجم].

(57) ويمكن أن نقول بلا شك الشيء نفسه عن المدلول. ولابد من أن هناك سبباً (انظر ما سبق) جعل سوسير يختار الإقلاع عن مصطلح المرجعية لحساب الفكرة أو المفهوم، ولا يعود يتحدث إلاّ عن المدلول. وسيعالج بيرغونيو **Bergounioux** المسألة بوضوح في نص سنذكره لاحقاً في الفصل الرابع.

إن الرابط بين الدال والمدلول ليس اعتباطياً، إنه بالعكس ضروري. (**مسائل في اللسانيات العامة**، 1، 51).

لكن البرهنة ضعيفة:

إن المفهوم («المدلول») «عجل» هو بالضرورة يطابق في وعيي المجموعة الصوتية böf. وكيف يمكن أن يكون غير ذلك؟ وقد طُبعا كلاهما معاً في ذهني؛ ويستدعي كلٌّ منهما الآخر في كُلّ مناسبة. وثمّة تعايش وثيق بينهما حتى إن مفهوم «عجل» هو كالروح للصورة الأكوستيكية ع. ج. ل (المصدر السابق. إن الإشارة إلى «الروح» في تقابلها الحتمي مع «الجسد» تسمح بلا شك بأن نجد من جديد هنا أثراً لأفكار بيشون التي أشرنا إليها في الصفحة 51).

هل قلت: ضعيف؟ الأمر يحتاج إلى تدقيق: إن التحليل في ذاته غير قابل للنقاش. لكنه لا يذكر شيئاً في صالح «ضرورة» العلاقة بين وجهَي العلامة. وليس له من ميزة إلاّ أنه يكرر بطريقة موغلة في السوسيرية الحديث عن علاقة افتراضية متبادلة ـ تلك التي تصوّرها الاستعارة المشهورة لوجهَي الورقة ـ بين الدال والمدلول. ويقف التحليل محايداً بخصوص مسألة الاعتباطية أو مسألة الضرورة.

وفي وقت أكثر قُرباً (1983) نرى موريس توسّان (Maurice Toussaint)، المقنع جداً عندما يواجه «أنصار الاعتباطية» arbitraristes [55] وعندما يتعلّق الأمر بالبرهنة إيجابياً على ضرورة العلاقة بين وجهَي العلامة، نراه، يتحدث بإيجاز.

إن المبدأ الذي لا يمكن البرهنة عليه هو مسلّمة[58] postulat. وإنه لمن الصحيح أن سوسير لا يعرض ذلك المبدأ بوصفه فرضاً أولياً، لأنه، كما يبدو، راضٍ عن «البرهنة» التي يعتقد أنه قدّمها. لكن القول الحق: إن في إمكانه بلا ضرر أن يكتفي بخصوص مبدأه الأول بموضع المسلّمة: وهذا ما يظهر في الصفحة 62، ثم 67 عندما يتضح أن الوظيفة الأساسية لاعتباطيّة العلامة هي أن تسمح بإرساء مفهوم القيمة.

وهذا يُفسر بلا شك حالة الطلاقة التي تعتري سوسير وهو يعالج مشكلة

(58) المُسلّمة هي قضية غير بديهية ولا مبرهن عليها، ومع ذلك يُسلّم بها أساساً للاستدلال في المسائل النظرية والعملية. [المترجم].

الاعتباطيّة عندما يتعلّق الأمر بأنّ لا تُدرس إلاّ في رحاب العلامة. ويمكننا في نظري أن نلمس تلك الطلاقة في السمات الثلاث التالية:

- نقص الوضوح الذي لا يمكن إنكاره، والذي يسبق «البرهنة»؛

- الخفة التي ينظر فيها سوسير إلى الآراء التي صيغت حول المسألة، وهي آراء لا تقل إمكانية عدم إنكارها عن سابقتها. ويصل به الأمر إلى حد القول: «إن مبدأ اعتباطيّة العلامة لم يتنازع فيه أحد». (ص 100)[59]. وهذا يصدق في جوهره على عصر سوسير فقط، وسوسير يعرف جيداً ما يدين به في هذه المسألة لويتني الذي هو واحد من قلّة من اللسانيين الذين ذكرهم سوسير في **الدروس**[60]. لكن سوسير في ما يقوله يضرب عرض الحائط بسيل من الآراء المعارضة التي صيغت حول المسألة في فترات من تاريخ التفكير حول اللسان، بدءاً بأفلاطون في «محاورته» المُسمّاة *Cratyle* لتنتهي بعد ستين عاماً من ظهور **الدروس** بكتاب موريس توسّان الذي يخلو عنوان كتابه من أي لَبْس في هذا الخصوص: **ضد اعتباطية العلامة** *Contre l'arbitraire du signe*.

- قابلية التغيُّر في المصطلحية التي استخدمها سوسير للمقابلة بين العلامات الاعتباطيّة والموضوعات السيميولوجية المعللة[61]. وآية ذلك أن سوسير في **الدروس** يطرح في مقابل العلامة، المُحدّدة بالاعتباطية، الرمز الذي «سِمَتُهُ ألاّ يكون دائماً اعتباطياً تماماً». (**الدروس 101**)[62]... نتذكر أن سوسير يستبعد الرمز من الجرد الذي أجراه للموضوعات اللسانية. وهذا ما يهدف إليه التوضيح الذي جاء به عن «صيغ محاكاة أصوات اللغة لأصوات الطبيعة» و «صيغ التعجب» (**الدروس 101-102**): فهما ليستا رمزيتين إلاّ ظاهرياً. لأن [56] اللغة نظام علامات

---

(59) التونسية، 112؛ العراقية، 87؛ اللبنانية، 90؛ المصرية، 124؛ المغربية، 88. [المترجم].

(60) «لقد كان ويتني محقاً كُلّ الحق في إلحاحه على صفة الاعتباطية في العلامات، وهو إلحاح أراد به أن يبيّن بجلاء أن اللغة إنما هي مؤسسة اجتماعية محض». (**الدروس**، 110). [انظر التونسية، 122؛ العراقية، 94 (وتلي: خطأ)؛ اللبنانية، 98؛ المصرية، 138؛ المغربية، 98. المترجم].

(61) تسمح هذه الكتابة بتفادي استخدام المقطع علامات معللة، وهو مقطع مستحيل في إطار النظرية التي يعرضها سوسير في **الدروس**.

(62) التونسية، 113؛ العراقية، 87؛ اللبنانية، 90-91؛ المصرية، 125-126؛ المغربية، 89. [المترجم].

دون عدوى قياسية[63] من الرمز. ذلك أننا نتذكر أن التعليل النسبي الذي لا يعمل إلاّ بطريقة داخلية في اللغة لا يتهم الاعتباطية ولا يقحمها. إن التوزيع المفهومي والمصطلحي للعلامة والرمز هو في **الدروس** توزيع دقيق ومطّرد اطّراداً مطلقاً، بلا أيٍّ من الهنات التي تظهر هنا وهناك وتجعل مصطلح (علامة) يحلّ محلّ مصطلح (دالّ). لكن سوسير في الشق الآخر من تفكيره السيميولوجي، التفكير الذي يتناول **الحكاية الخرافية الجرمانية** لا يحتفظ بهذا التعارض، ويستخدم بلا تردد مصطلح رمز لتسمية الموضوع المبني على نمط العلامة (انظر النص المذكور، ص 95 من هذا الكتاب، وعلى العموم الفصل الثالث كله).

لماذا انعدم المرح؟ يكاد سوسير يفسر ذلك مباشرةً بعد أن طرح بطريقة قابلة للنقاش كل القبول فكرة إجماع الآراء التي تتحدث عن اعتباطية العلامة عندما يقول:

> [...] لكن غالباً ما يكون اكتشاف حقيقة من الحقائق أقل عناء من إحلالها المحل الذي يليق بها. ويسيطر المبدأ المذكور سابقاً على كل لسانيات اللغة[64]، ونتائجه لا تُحصى. وهي والحقُّ يُقال لا تبدو جميعاً في الوهلة الأولى بنفس الدرجة من البداهة، ولا تنكشف إلاّ بعد عناءٍ ومناورة، ونكتشف معها الأهمية الأساسية للمبدأ. (**الدروس**، 100)[65].

لن يكون في الإمكان القول أكثر مما قلنا، إن للمبدأ أهميّةً اكتسبها عبْر الصورة الداخلية التي ينسبها إلى العلامة هي أقل من الأهميّة التي يكتسبها عبر الوظيفة التي يتقلدها في التفكير اللساني كله، وخصوصاً بالنسبة إلى توضيح مفهوم القيمة وتحديد مفاهيم التطور. وإن طبيعة الأشياء تجبرني على العودة إلى القيمة في هذا الفصل، ثم في الفصل الخامس فيما يخصّ التطوّر.

الصفة الخطية للدال

مهما يكن المبدأ الأول خلافياً فإن المبدأ الثاني يتجاوزه صعوبة وغموضاً.

---

(63) contamination: عدوى قياسية أو تلويث: وتعني: نشوء تركيب ما بسبب من اختلاط صيغتين اثنتين. (**مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص 118-119). (المراجع).

(64) إن هذا التحديد يستبعد مرّةً أخرى لسانيات الكلام التي يكون مكانها في دراسة العلاقات بين العلامة والشيء.

(65) التونسية، 112؛ العراقية، 87؛ اللبنانية، 90؛ المصرية، 124؛ المغربية، 88. [المترجم].

لأن التناقضات ستظهر هذه المرة في مشكلتين متتاليتين. وسيكون من الضروري العودة إلى هاتين المسألتين باستفاضة في الفصل الخامس. ومع ذلك، فإنه من المناسب أن نطرح منذ الآن المُعطيات بوضوح.

ينبغي بادئ ذي بدء أن نسجل أن التحليل الوارد في **الدروس** يبدو أنه يحافظ في البداية على التنافر الذي تحقق قبلياً بين [57] تسميتَي المبدأَيْن: «اعتباطية العلامة» و «الصفة الخطية للدال»:

> لمّا كان الدال ذا طبيعة سمعية فإنه ينتشر في الزمن وحده، وله بالتالي الخصائص التي يستعيرها من الزمن: أ) فهو يمثّل امتداداً، ب) وإن ذلك الامتداد قابل للقياس في بُعْدٍ واحد: هو الخط. (**الدروس**، 103)(66).

نستخلص من هذه الفقرة أن الدال، والدال وحده هو الذي يتأثر «بالصفة الخطية». وإن «الدوال الأكوستيكية»، وبعبارة أخرى «العناصر» التي تُستخدم لبناء «وحدات» اللغة (أي «العلامات»، على سبيل المثال «الكلمة»)، هي التي تتسلسل بطريقة خطية. كيف يمكن الذهاب إلى غير ذلك مادام من المستحيل، كما سيقال ذلك في موضع مُقبل (ص 170) أن «نتلفظ بعنصرين في وقت واحد؟»(67). إن

---

(66) التونسية، 114؛ العراقية، 89؛ اللبنانية، 92؛ المصرية، 128؛ المغربية، 90. [المترجم].

(67) إن سوسير والحق يُقال يتساءل بسرعة حول هذه المسألة: «من ذلك على سبيل المثال أنني إذا نبرت مقطعاً فإنه يبدو أنني أراكم في النقطة نفسها عناصر دالة مختلفة». **الدروس**، 103) [التونسية، 115؛ العراقية، 89؛ اللبنانية، 92؛ المصرية، 129؛ المغربية، 91. المترجم]. ويبدو أنه يحلّ المشكلة حلاً يمكن وصفه بالتسريع بعض السرعة عندما يذكر أن «المقطع ونبرته لا يشكّلان إلاّ عملية تصويتية واحدة». (**الدروس**، السابق). ونلاحظ أن اللجوء إلى العملية التصويتية يدل بوضوح أن تحليل سوسير يتموضع هنا في جانب الكلام وليس في جانب اللغة. ونعلم أن جاكوبسون سيعود إلى مسألة خطيّة الدال هذه ليقول بقسوة واضحة: إن «المعلم خضع للمعتقد التقليدي في الصفة الخطية للدال». (1963، 48). وسنجد عند ميلنير بعد ذلك صدىً لهذه الانتقادات إذ يقول: «بعض أبعاد الشكل الصوتي هي بالتحديد محكومة بالتزامن: السمات المتوافقة والظواهر النغمية على وجه الخصوص. عندما ننطق /b/ فإننا ننطق في الوقت نفسه الشفوية والجهورية(*) والانغلاق(**) مع أن هذه السمات الثلاث هي تجريبياً مُستقلة عن بعضها البعض.
«عندما ننطق éternel فإننا ننطق في الوقت نفسه المقطع /nel/ والنبر الذي يحمله». (1989، 386-387). وقد رأينا منذ قليل أن سوسير عالج المسألة الثانية. أما الأولى فإن مما لا يمكن إنكاره أن السمات المتوافقة لا تخضع للخطية. لكن سوسير لم يرَ إلاّ تتالي «العناصر» =

الخطية المكانية هي الانعكاس الثانوي، لكنه انعكاس دال، لتلك الخطية الزمنية، وهو انعكاس يؤثّر تأثيراً لا يمكن تفاديه في «العلامات الخطية» عندما نستبدل بها «الدوال الأكوستيكية». لأن سوسير لا يتردد هنا عن الاستعانة بالكتابة ـ المحتقرة في مكان آخر ـ لتشكّل دعماً إضافياً لمبدأه الثاني:

> [...] إن الدوال الأكوستيكية ليس لها ما تتصرف به عدا خط الزمن، أما عناصرها فتأتي واحداً تلو الآخر لتكوّن بذلك سلسلة. وتبرز هذه الخاصية للعيان على الفور بمجرد أن تُرسم تلك العناصر بالكتابة، وبمجرد أن يحلّ الخط المكاني للعلامات الكتابية محلّ التعاقب في الزمن (**الدروس**، 103)(68).

[58] نرى أن خطية الدال ليست إلاّ الانقياد لزمن «الدوال الأكوستيكية»، التي تسمّى تسمية أخرى هي «العناصر». أما استخدام الكتابة بوصفها حُجة مُساعدة فإنه يجد تسويغاً نظرياً منجزاً في قطعة من مخطوطات هارفرد المخصصة لـ «فيزيولوجية الصوت وفيزيائيته»:

> يمثّل الزمن للأذن ما يمثله المكان للنظر. (بازيه، 1993-1994، 194 و206).

ولعله من المناسب هنا، قبل أن ننتقل إلى مسألة أخرى صعبة، أن نلح عند الحديث عن الصفة الخطية للدال أننا أمام صيغة لتدخُّل الزمن في اللسان. وسنرى

التي هي في مصطلحاته «الدوال الأكوستيكية». إن التحقيق الصوتي المتزامن للسمات المتوافقة، مهما يكن قابلاً للإنكار، ليس إذاً حجةً مضادةً للخطية كما يتصورها. وهو يقول ذلك بطريقة واضحة كل الوضوح في قطعة من مخطوطات هارفرد Harvard التي تعترينا الدهشة من أن جاكوبسون لم يلاحظها مطلقاً: «عندما نتحدث عن السلسلة الصوتية فإننا نضع على الدوام نصب أعيننا شيئاً ملموساً. وعندما نتكلم عن فونيم معزول فإننا يمكن أن نسمعه بطريقة ملموسة أو بطريقة مجردة. ملموسة إذا تصورناه بوصفه يشغل فضاء/ برهة من الزمن. ومجردة إذا لم نتحدث إلاّ عن الخصائص المميّزة، وإلاّ إذا صنفناه. وهنا لا يوجد بداية ولا نهاية ولا طور: وينتج من ذلك على الفور فصيلة. إن الفونيم في التصنيف هو فكرة مجردة. والفونيم في السلسلة الصوتية هو فكرة ملموسة. يمكن للسلسلة أن تقتصر على فونيم واحد». (بازيه، 1993-1994، 204-205).

(*) sonorité: «الجهورية» وفق **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص462. و**مُعجم اللسانية**، ص151. (المراجع).

(**) occlusion تترجم بـ «الانسداد» أو «الانغلاق» وفق **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص345؛ و**مُعجم اللسانية**، ص146. (المراجع).

(68) التونسية، 115؛ العراقية، 89؛ اللبنانية، 92؛ المصرية، 129؛ المغربية، 91. [المترجم].

في موضع تالٍ أن هناك صيغةً أخرى لذلك: إنها التعاقبية la diachronie[69]. ويبدو من النظرة الأولى أن التمييز بين الخطية والتعاقبية سهل، بل مفرط في السهولة: لكننا سرعان ما نلاحظ أن الحدود التي تفصل بينهما ليست مُحكمة الإغلاق، حتى إن التداخلات التي يمكن أن تحدث ليست شرعية حتماً. وسيكون لاكان، من جديد، عبر تردده شاهداً مفيداً: عندما عَلِقَ بعض الوقت في الأرض البور التي يلتقي فيها المفهومان فإنه تفحص تفحصاً ملائماً نقطة مركزية من الجهاز السوسيري.

لننتظر أن نصل بالبحث إلى التعاقبية لمعالجة هذه المسألة، ولنبق في هذه الأثناء مع الخطية وحدها. في موضع آخر من **الدروس** (ص 145)[70] نجد تلميحاً جديداً وسريعاً جداً إلى الصفة الخطية. ذلك أن الناشرين اللذين ربما كانا حريصين على تلافي التكرار، أو أنهما أحسا بالصعوبة القصوى للمشكلة اختصرا في سطرين (مُرفقين بإحالة إلى الفقرة التي سبق ذكرها) الآراء التي استفاض سوسير في ذكرها. وقد سجل ريدلينجر القسم الأهم منها بقوله:

> لكن لدينا هنا صفة رئيسية للمادة الصوتية لم يجرِ التركيز عليها: ذلك أنها تظهر لنا وكأنها سلسلة أكوستيكية مما يستدعي على الفور الصفة الزمنية التي تعني أنه ليس هناك إلاّ بُعْدٌ واحدٌ. نستطيع القول: إن ذلك صفة خطيّة: **سلسلة الكلام تتمثل لنا بالضرورة على شكل خط** (الخط المائل من وضع م. أ)، وإن لذلك أثراً كبيراً في كل ما ينشأ بعد ذلك من علاقات. ولا تستطيع الفوارق الوصفية (الفرق بين صائت وآخر، والفرق في النبر) أن تعبّر عن نفسها إلاّ متتالية. لا يمكن أن يكون لدينا في الوقت نفسه صائت منبور و صائت غير منبور؛ كل شيء يشكّل خطاً أو امتداداً، كما هي الحال في الموسيقى أيضاً. (غوديل، 1957-1969، 205-206؛ إنكلر، 1968-1989، 234)[71].

---

(69) ثمة توافق على استخدام مصطلح «تعاقبي» مقابلاً عربياً لـ diachronie و«تزامني» لـ Synchronie. انظر: **مُعجم اللسانية**، ص58؛ و**مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص146. (المراجع).

(70) التونسية، 161؛ العراقية، 123؛ اللبنانية، 126؛ المصرية، 182؛ المغربية، 131. [المترجم].

(71) أشير في كل الأحوال إلى صعوبة نصيّة صغيرة لم يفكر غوديل في الإشارة إليها بوضوح: إن هذه الفقرة من ملاحظات ريدلينجر ـ نذكر أنه لم يحضر الدرس الثالث ـ تخصّ قطعة من الدرس الثاني التي تعلق عن شرح مفصّل في الدرس الثالث حول «الصفة الخطية للدال». أما المستمعون الآخرون للدرس الثاني فإنهم دوّنوا أيضاً أن «الكلام هو أيضاً يتمثل =

[59] نرى أن سوسير لم يعد يشغل نفسه بملاحظات خلافية حول الدال «الذي يمثل امتداداً»[72]. ويسجل بوضوح أن «سلسلة الكلام» هي التي تتأثر بالخطية، ويشير بوضوح أيضاً إلى أن هذا الانقياد للزمن مصدره الصفة المادية للعناصر الصوتية التي تكوّن سلسلة الكلام.

ويبدو أن هذه النقطة مما يذهب إليه سوسير موجودة في الملاحظات الزائدة Notes Item. إن المصطلحات المستعملة مختلفة لأن سوسير لا يتحدث هنا عن الصفة الخطية، بل عن «أحادية مكانية uni-spatialité» (**كتابات**، 110) أو عن «زمانية». (**كتابات**، 111). لكنه يقول بوضوح عن الأولى إنها تؤثّر في Sôme، أي، كما سبق أن ذكرنا (انظر ص 42)، في «الصورة الصوتية». أما فيما يخص الثانية فإنه يعلّق عليها التعليق التالي:

> ملاحظة زائدة.الزمنية.كلما بحثنا اتضح لنا أن تقسيم زمن السلسلة المجهورة (هو من تلقاء نفسه تقسيم بسيط، أحادي الاتجاه) هو الذي يوجد في الوقت نفسه الصفات [ ] والتوهمات كالتوهم الذي يجعلنا نعتقد أن وحدات اللسان منظمة كلها، في حين أنها بكل بساطة، كليات قابلة للتجزئة في الزمن وبالتوازي مع وظائف يمكن أن ننسبها إلى كل جزء من الزمن. (**كتابات**، 111).

ليس هناك بالتأكيد من يستطيع أن يعرف حق المعرفة «الصفات» التي تركها سوسير خالية نهائياً من أي ميزات تميزها. لكن القسم الحافل بالملاحظة واضح فمن المؤكد: أن ظهور عناصر اللسان عبْر السلسلة المجهورة هو الذي يوفر لها في واقع الأمر زمنيتها.

يبدو أن الاستعارة الجميلة كل الجمال، والغامضة في الوقت نفسه، أعني

تمثُّلاً واضحاً بوصفه خطاً (غوتييه) أو أن «سلسلة الكلام تقدم نفسها لنا بوصفها خطاً». (قسطنطين) (إنكلر، 1968-1989، 234). وفي المقابل، لا يظهر التركيب syntagme، سلسلة الكلام، بوضوح في مدوّنات من استمعوا إلى الدرس الثالث. ويبقى أن الصفة الخطية للدال هي على الدوام من درس لآخر من خصوصيات الكلام.

(72) جان-كلود ميلنير (1989، 386) أشار بدقة، وهو على حق، إلى الغموض المفرط الذي نجده في الفقرة: كيف يمكن للدال أن «يمثّل امتداداً»؟ ويبدو أن سبب هذه الصعوبات ليس الناشرين، لكنها تظهر في الآراء التي أطلقها في حقيقة الأمر سوسير: انظر إنكلر، 1968-1989، 157.

استعارة المصباح السحري (**كتابات**، 109-110 ثم 112) تؤكد كل التأكيد تأثير الزمنية في الصورة الصوتية، وفيها وحدها. لكن مفهوم «الصورة القابلة للإلصاق recolligible» يقوم بلا شك على الإمكانية، المتصورة بطريقة هي في الوقت نفسه سريعة وغامضة، المتمثلة في «التخلي عن مبدأ التتابع الزمني»: ونجد هنا فكرة يبدو أنها ترهص بالفكرة التي نجدها في البحث حول **الجناس التصحيفي** (انظر: غاندون، **اسم الغائب**، 2007 وكتابنا هذا، ص 101).

ونفكر في الوقت نفسه في ذلك المفهوم الشديد اللباقة، إنه مفهوم «الكيان النسقي المجرد» (**الدروس**[73]، 190-191، وإنكلر، 1968-1989، 278 و 313، حيث تتمحور المقابلة بين «نظامين» هما النظام الخطابي والنظام الحدسي). ويبدو أن سوسير كان شديد التحفظ في صياغته الدقيقة: آية ذلك [60] أن الأمر لا يتعلّق بأقلّ من إمكانية إدراج علم التراكيب ـ كل علم التراكيب ـ حتماً في لسانيات اللغة آخذين في الحسبان هذا الموضوع الذي يبدو أنه في الظاهر متناقض ذاتياً: جوهر لغوي قائم على حدَثٍ كلامي. وستعود هذه المسائل إلى الظهور في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

لنطفئ ذلك المصباح السحري الغامض ولنعد إلى تعاليم **الدروس**. إن ما يراه سوسير واضح كل الوضوح من خلال انعكاسه في الرصيد المُعجمي النهائي في **الدروس**: الدال خطي لأنه مادي. وإن مادية «العناصر» («الدال الأكوستيكي») هي التي تفرض عليها أن تظهر متتابعة في زمن الكلام، أي في التحقق الملموس للغة..

وهنا تبرز أولى الصعوبات: يبدو أن المبدأ غير قابل للنقاش إذا كان الدال، المدمج في الصوت («الدال الأكوستيكي») مادياً حقاً. لكن هل هو كذلك حقاً؟ لقد رأينا فيما سبق أن سوسير يتحدث عن الصفة غير المادية للدال وكأنها أمر حتمي: ص 164 ويقدم عدم انتماء الصوت إلى اللغة. وبالتالي عدم ماديته (يسميه الصفة «غير الحسية») للدال وكأنه أمر بديهي. ويظهر للعيان هنا تمييز وضحه توضيحاً نهائياً هلمسليف: إنه التمييز في إطار الدال (وفي إطار المدلول أيضاً) بين مستوَيي الشكل والجوهر. لاحظنا فيما سبق، في كتاب **«الجوهر المزدوج»** أن الكلمة المخصصة للصوت يُنظر إليها على أنها صوت يُعدّ جوهراً مادياً: إنه الصورة الصوتية (التي لها

(73) التونسية، 208؛ العراقية، 158؛ اللبنانية، 168؛ المصرية، 241؛ المغربية، 177. [المترجم].

تسمية أخرى هي sôm). ضمن هذا المنظور فالصوت (شأنه شأن الحرف أيضاً) ينتمي إلى الجوهر، وليس له إذاً مع الشكل ـ العنصر الوحيد الذي ينتمي لدى سوسير إلى اللغة ـ إلاّ وظيفة وحيدة «ثانوية» للتعبير.

يبدو جلياً التناقض الذي أطلقته وجهة النظر الجديدة هذه. إن الدال يوصف في موضع بأنه خطي لسبب وحيد هو ماديته. لكنه في موضع آخر يوصف بأنه غير مادي. هل يستمر والحالة هذه في «خطيّته»، أي خاضع للزمن؟ إذا كان الجواب نعم فما سبب هذا الخضوع؟ وسوسير إذا كنتُ قد أحسنتُ قراءته لا يطرح هذه المشكلة، بالتالي لا يقول شيئاً عن احتمال تمكّن الخطية في دال «لا جسدي».

هنالك عقبة أخرى، واضحة وضوح المسألة السابقة، وسنفيض في الحديث عنها في الفصل الخامس. ولعله من المناسب مع ذلك أن نشير إليها منذ الآن.

لقد رأينا في القِطَع التي اقتبسناها حتى الآن أن الدال ـ والدال وحده ـ بلا أدنى التباس، هو الذي يوصف بالخطية. ولا نجد شيئاً عن الخطية المحتملة للعلامة ـ التي تستتبع بالضرورة إشكالية خطية المدلول ـ.

[61] ترد هذه المشكلة في **الدروس** بعد الفصل الخامس بقليل، الفصل الخامس المخصص «للعلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية». ونلاحظ فيه بدهشة أن النص في لحظة تعريف التركيب يضع بلا تردد محلّ «الصفة الخطية للدال» «الصفة الخطية للغة». (**الدروس**، 170)[74]. والعبارتان مختلفتان كل الاختلاف: لنتذكر تعريف اللغة بأنها «نظام من العلامات»: وإذا كانت اللغة «خطية» فإن تسلسل العلامات ـ الدال والمدلول ـ هو بالضرورة خاضع للخطية. ولا يمكن أن يكون هنا أي غموض: لم تعد «الدوال الأكوستيكية» خطية متسلسلة، بل «الكلمات» ـ أي «العلامات» ـ هي الخطية المتسلسلة:

إن الكلمات تعقد فيما بينها في صلب الخطاب[75]، وبمقتضى تسلسلها،

---

(74) التونسية، 186؛ العراقية، 142؛ اللبنانية، 149؛ المصرية، 213؛ المغربية، 156. [المترجم].

(75) نجد هنا واحدة من الإشارات الأساسية لمصطلح خطاب discours في **الدروس**. وسنرى أن هناك على الأقل إشارتين أخريين، وهذا يكفي تماماً لمعارضة بوكيه الذي يزعم أن المصطلح «خضع لرقابة» الناشرين.

> علاقات قائمة على الصفة الخطية للدال. وهي صفة ينتفي معها إمكان النطق بعنصرين معاً في الوقت نفسه. وتنتظم هذه العناصر واحداً تلو الآخر في السلسلة الكلامية. ويمكن أن نسمّي هذه التوليفات التي تتخذ لها من الامتداد حاملاً: تركيبات. (الدروس، 170)[76].

ما سبب إحلال «اللغة» مكان الدال في تعريف الخطية؟ إنه يكمن بلا شك في واقعة مفادها أن سوسير لا يميّز، في تصوره للمفهوم المطلوب تعريفه ـ التركيب التعبيري[77] ـ بين «نظام الوحدات الصغيرة في الكلمة» ونظام «الكلمات في الجملة»: «وينتمي هذا إلى علم التركيب، حتى عندما يتعلّق الأمر باللواحق». (إنكلر، 1968–1989، 278). وبذلك نجد في التشكيل الذي يضم سابقة relire= أعاد القراءة، والذي يرد في **الدروس** بوصفه أول مثال لمفهوم النسق أن الخطية نلاحظ بالطريقة نفسها بين الـ r ـ والـ e ـ وبين ـ e ـ هذه والـ l ـ، على الرغم من واقعة أن «عناصر» الزوج الأول هي قسم من الوحدة نفسها re ـ، في حين أن عناصر الزوج الثاني تفترق بحدود الوحدتين re ـ و lire ـ. وحتى في مستوى الكتابة ـ التي رأينا أن سوسير ليس بعيداً عنها كل البعد الذي يدّعيه بعض الأحيان ـ فإن العلاقة بين عناصر الزوجين (في كلمة relire) هي علاقة متطابقة تماماً. ذلك أن [62] الخطية تتجاوز حدود العلامات فتسلسل العلامات هو خطي بقدر ما هو تسلسل الدوال خطي. ولمّا كانت اللغة نظام علامات فإنه يصبح من الممكن الحديث عن «خطية اللغة».

(76) التونسية، 186؛ العراقية، 142؛ اللبنانية، 149؛ المصرية، 213؛ المغربية، 156. [المترجم].

(77) يبدو جلياً أن سوسير هو أول من استخدم مصطلح تركيب syntagme لتسمية موضوع لساني. ويتفق كلٌ من **معجم المصطلحات اللسانية الفرنسية** TLF و **المعجم الاشتقاقي التاريخي للفرنسية** DEHF في تعيينه أول من استخدم المصطلح زمنياً 1916، وهو تاريخ النشرة الأولى من كتاب **الدروس**. إن التاريخ صحيح بلا شك إذا اعتمدنا على المصادر المطبوعة: إن سوسير إن لم أكن قد نسيت، لا يستخدم مصطلح تركيب تعبيري في أي من النصوص التي جُمعت في المجموعة ـ Recueil التي هي بالضرورة تسبق الدروس لأنها نُشرت في حياة المؤلف ـ. لكنه يستخدمه مرتين في مخطط كتاب في **الجوهر المزدوج للسان**: «لقد سمّينا نسقاً الكلام الفعلي» (**كتابات**، 61؛ «كلام فعلي» يقابل «مواز أو كلام محتمل»، وهذه المقابلة هي التصور الأولي للمقابلة بين «العلاقات التركيبية» و«العلاقات الترابطية»). وإن مخطط الكتاب المذكور لم يؤرخه ناشر **كتابات**. لكن رودولف إنكلر في نص آخر (2002، 181) يؤرخه كانون الأول/ ديسمبر 1891م. إذاً، يبدو أن الاستخدام اللغوي الأول لمصطلح syntagme يعود إلى هذا التاريخ.

نرى أن سوسير يُعرِّض مبدأه الثاني لانزلاق مزدوج: فالتطابق الجوهري بين علاقة العناصر في رحاب وحدةٍ ما وعلاقة الوحدات المتتالية في النسق، تسمح له بأن يحلّ العلامات محلّ الدوال بوصفها موضوعات تخضع للخطية. وتعريف اللغة بأنها «نظام علامات» يسمح له بطرح المفهوم الذي لم يكن متوقعاً في الأصل، والذي ينبغي الاعتراف بأنه «إشكالي إلى حد كبير»: إنه مفهوم «خطية اللغة». إذاً هل يمكن «النظام» أن يكون «خطياً» بالمعنى الخاص الذي خصّ به سوسير هذه الكلمة؟ نتساءل بقلق عن شروط مثل تلك الاحتمالية.

خاتمة حول المبدأين

إنه لمن المفيد بلا شك ـ وهو بالتأكيد ضرب من الجرأة ـ أن يحاول المرء تفسير، أو على الأقل توضيح ـ التناقضات التي تعتري التفكير السوسيري كما تظهر في **الدروس**؛ وهي تناقضات لا يمكن إنكارها؛ فيما يخص الاعتباطية، وقد سبق أن وجدنا لها حلاً، ولتوضيح هذا الحلّ نقول: إن التناقض بين قراءتي المبدأ لا يظهر إلاّ عندما يَبذل سوسير جهده للبرهنة عليه. وفي الواقع، ربما كان سبب ذلك أن البرهنة لا تعني سوسير كثيراً. إن ما يعنيه في مبدأ الاعتباطية هو الإمكانية التي توفرها له ليطرح مفاهيم النظام والقيمة في كل صرامتها. وهو يقول ذلك بوضوح في فقرة من الدرس الثالث لم يعتمدها ناشرا **الدروس**:

> لو لم تكن العلامة اعتباطية لما استطعنا القول: إنه لا يوجد في اللغة إلاّ الاختلافات (إنكلر، 1968-1989، 265؛ ودوّن ديغالييه (Dègallier) وقسطنطين كلام سوسير بالطريقة نفسها).

ومن هنا تتأتى بلا شك السطحية البادية للعيان عندما يعمد إلى البرهنة. وفي مكان آخر يخصص وقتاً أكثر ليشير إلى مكانة المبدأ وأهميته في اللسانيات وفي السيميولوجيا. لقد كان من الأفضل بلا شك أن يُقدّم المبدأ كما هو في الواقع: مُسلّمة لم تُبرهن بعدُ ـ وربما غير قابلة للبرهنة عليها ـ وليس أن يقدّمه على أنه نظرية يتطلب إثباتها بالبرهان. سوسير لم يفعل ذلك. وإنه بلا شك من غير المفيد الجدل حول الأسباب التي قدّمها أو لم يقدمها إلى نفسه.

[63] أما بخصوص الصفة الخطية للدال فإن الأمور أكثر تعقيداً. هل من الممكن أن نستعين استثنائياً بفرع آخر من فروع التفكير «السوسيري» ـ أقصد بحثه عن **الجناس**

التصحيفي؟ ليس الأمر بديهياً. لأنه يبدو واضحاً أن هناك حدوداً فاصلة بين شقّي التفكير السوسيري. ما عدا نقطة واحدة: إنها بالتحديد مسألة «الصفة الخطية للدال» التي يعرض لها بوضوح، وإنْ بتسمية أخرى، في بحثه المذكور مع إشارة خفية إلى اللسانيات - وهي إشارة وحيدة في مباحثه عن **الجناس التصحيفي**، إذا كنت قد أحسنت القراءة.

إن هذا الالتقاء الاستثنائي بين الفكرتين يشكّل الحجة الوحيدة، والقوية التي تسمح لي بالاستعانة بإحداهما لإيضاح الأخرى:

> القول إن العناصر التي تشكّل كلمة من الكلمات تتتابع هو حقيقة من الأفضل ألا تنظر إليها في اللسانيات[78] بوصفها شيئاً لا فائدة منه لأنه شيء بديهي، ولكن أن تنظر إليها على العكس بوصفها الشيء الذي يعطي المبدأ الرئيسي لأيّ تفكير مفيد حول الكلمات. وفي مجال موغل في الخصوصية كالمجال الذي نعالجه[79]، يستطيع أن يُطرح على الدوام بفضل القوانين الأساسية للكلمة البشرية على العموم سؤال كسؤال التتابع أو عدم التتابع، وذلك منذ البداية[80]...

هل نستطيع أن نقول إن كلمة TAE مؤلفة من *ta + te*، أي أن ندعو القارئ لا إلى تجاورٍ في التابعية، لكن إلى معدل من العناصر الأكوستيكية خارج الزمن؟ خارج النظام في زمن العناصر؟ خارج النظام الخطي الذي ألتزم به إن قدّمت TAE عبر TA-AE أو TA-E، ولا ألتزم به إذا قدّمتها عبّر ta + te التي نخلط بينها خارج الزمن كما أستطيع فعل ذلك في خلط لونين متجاورين؟. (ستاروبنسكي، 1971، 46-47).

نلاحظ القرابة الجليّة بين هذه الفقرة والفقرة المخصصة في **الدروس** لخطية الدال: كل المشاكل نجدها معالجةً بطريقة تكاد تكون متجانسة في القطعتين تصل إلى حدّ التمييز الذي يقوم به سوسير بين «العناصر الأكوستيكية» التي تخضع عادة

---

(78) هذه هي الإشارة الواضحة التي أشرت إليها. ولعلنا لاحظنا في السطر الأول من النص استخدام كلمة عنصر بالمعنى الذي تحمله في **الدروس**.

(79) بالطبع يشير سوسير هنا إلى بحثه عن **الجناس التصحيفي**، فهو يقوم بحركة مضاعفة رابطاً إياه بوضوح باللسانيات وجاعلاً منه «مجالاً موغلاً في الخصوصية».

(80) يحدث هنا كما سبق أن حدث مراراً لسوسير، في هذا البحث، الذي أنجزه سرّاً تقريباً، دون أن تكون لديه أي نيّة لنشره، أنه يتوقف في وسط جُملته. وقد استنتجنا من أنه يعمد إلى ذلك غالباً بالطريقة نفسها في تأملاته اللسانية الخالصة.

«النظام الخطي» و «الدوال البصرية» التي يمكن أن يكون فيها «لونان متجاوران» كما هو الحال على سبيل المثال في «الإشارات البحرية» المذكورة في **الدروس**. إننا في نقطة نستطيع معها أن نبدأ في التأمل حول الترتيب التاريخي. لنتخيّل سوسير يكتب في اليوم نفسه ـ على دفترين مختلفين ـ النص الذي قرأناه قبل قليل والنص الذي يجد صدىً له في **الدروس**. إلاّ أن هنالك فارقاً، لكن [64] في مستوى المصطلحية فقط: فالصفة (خطية) ـ مع أنها موجودة في نص البحث ـ فإنها ليست كما هي حالها في **الدروس** المُسمّى العَلَمي(81) للمبدأ. لقد فضّل سوسير إدراج مفهوم التتابع الذي يمكن استخدمه مسبوقاً بسابقة النفي اللاتتابع. مبادرة في أوانها: تتجنب العودة إلى السطر ligne الذي لا يستطيع أن يكون إلاّ مجازيّاً ـ لأنه كيف يستطيع سطر أن يكون زمنيّاً تماماً؟ وفيما عدا هذا الفارق المصطلحي البسيط فإن الفكرة هي نفسها: إنها تتناول خضوع الدوال الأكوستيكية للزمن، ومُقدّمة على أنها «القانون الأساسي للكلمة الإنسانية على وجه العموم». وإن للاستثناءات التي تلحق بهذا القانون، في «المجال الموغل في الخصوصية»، مجال **الجناس التصحيفي**، طبيعة فضائحيّة حقاً: ومن هنا يأتي شغف سوسير بها، حتى إنه هنا، في وسط الجملة، يضيق ذرعاً بها، فيصادف الشكل الشعري لهذا «البحر الألكسندري(82) الخاطئ لِمالارميه»(83) المتمثّل في القفلة(84) الجميلة «خارج نسق الزمن الذي يعود إلى العناصر». والذي لا يستطيع بدوره إلاّ أن يذكّر بالاستعارة التي لا تقلّ جمالاً عن القفلة وهي استعارة المصباح السحري التي لاحظنا فيما سبق الجوانب الغامضة أو العتمات فيها.

لقد لاحظنا في الفقرة التي اقتبسناها من البحث في **الجناس التصحيفي** أن

---

(81) éponyme: المُسمّى العَلَمي: مُسمّى باسم عَلَم (موقع جغرافي أو مؤسسة أو كتاب)، **معجم المصطلحات اللغوية**، ص175. (المراجع).

(82) بحر شعري من اثني عشر مقطعاً صوتياً. وهذا التحديد يعود إلى الشعر الفرنسي. ***Larousse***، ص1998. [المترجم].

(83) أستعير هذه التسمية المتسقة من المأسوف عليه توماس أرون (Thomas Aron) 1970، 57. Mallarméen: نسبة إلى الشاعر الفرنسي اتيان (ستيفان) مالارميه، باريس، 1842 ـ فافان 1898.

(84) clausule: قفلة؛ إلتزام ظاهرة لفظية في الفواصل المرسلة أو المسجوعة للكلام المنثور لتحقيق إيقاع معيّن. **معجم الكامل**، ص195. (المراجع).

التتابعية الوحيدة المقصودة هي تتابعية «العناصر» في تكوين الكلمة. ومن هنا تأتي تتابعية العلامات في التركيب التعبيري ـ للكلمات في الخطاب: نعلم جيداً أنها بالنسبة إلى سوسير المشكلة نفسها ـ لم ينطق ببنت شفة. وينطبق الأمر نفسه تماماً في الفقرة الموجودة في **الدروس** المخصصة لموضعة «مبدأ» الصفة الخطية للدال. هنا إذاً نجد بيت القصيد في التفكير السوسيري.

كيف نفسر الخفة التي لا يمكن إنكارها، التي تميّز تطور التفكير في **الدروس**؟ فالنص ينتقل بلا تحذير من خطية الدوال إلى خطية تسلسل العلامات لتشكيل الأنساق. ويصل به الأمر أيضاً إلى حدّ تقرير المفهوم الإشكالي «لخطية اللغة» الذي هو متناقض في ذاته، ناهيك عن أنه يناقض التحليل الذي جعله يُقدّم «فعل الكلام» على أنه مكان للخطية. وبذلك تختلط اللغة بالكلام؟ كيف وصل بنا الأمر إلى هنا؟ وليس من المزايدة بشيء أن نرى هنا في هذا الاتساع السريع ـ المزعج بنتائجه ـ أثر عنصر لا يظهر جليّاً في النظرية: طلب توافق مطلق بين القواعد التي تتحكم في الدوال وبين التوافق الذي يتحكم في العلامات. هل الدوال منظمة خطياً؟ ينبغي إذاً أن تكون العلامة مثل ذلك أيضاً، ولم يكن سوسير يتخيل أنه يمكن أن يكون هناك اختلاف [65] بين شكل الدال وشكل المُكوّنات الأخرى للغة. صحيح أن الكلمات تتتابع في الخطاب بالطريقة نفسها، ظاهرياً، كما تتتابع الفونيمات في الكلمات: لقد رأينا فيما سبق أن هذه هي الحجة التي تمتلكها لسوسير بتحقيق عبوره المختلف حوله من الدال إلى اللغة. لكن هذه الخطية ليس لها بين الكلمات الوظيفة التي لها بين الفونيمات. ولمّا كنت غير معنيٌ تماماً بالدخول هنا في مسألة هي من اللسانيات المحضة، وهي مسألة تبعدني عن مشروعي الذي هو لساني وصفي حصراً أسجل فقط: أن العلاقات الدلالية ـ التركيبية التي تقوم بين الكلمات في الخطاب هي عادة تمثَّل بطريقة لاخطية: شجرة على سبيل المثال ليس لها أي علاقة بالخطية...

أنظمة العلامات ومفهوم القيمة

ما إنْ تحدد مفهوم العلامة ـ مع كل الصعوبات والالتباسات غير القابلة للنقاش التي يشملها ـ حتى أصبح في الإمكان توقع الطريقة التي تصور بها سوسير

اشتغالية نظام العلامات. نستطيع البدء بالاستعارة المشهورة للورقة[85]. وتحتل تلك الاستعارة مكانة متواضعة في النسخة المنشورة من **الدروس**، لكن قراءة تُظهر أنها كانت موضوعاً ملحاً في تفكير سوسير:

> تُشبّه اللغة بطلحية من الورق: يمثّل الفكر وجهها والصوت قفاها[86]؛ ولا نستطيع أن نقطع الوجه بدون أن نقطع في الوقت نفسه القفا؛ والأمر نفسه ينطبق على اللغة، فنحن لا نستطيع فيها عزل الصوت عن الفكر، ولا عزل الفكر عن الصوت؛ ولا نستطيع ذلك إلا بعملية تجريد ذهنية من شأنها أن تفضي إلى معالجة الموضوع من وجهة علم النفس البحت أو علم الفونولوجيا[87] البحت. (**الدروس**، 157)[88].

[66] ينبغي هنا أن نأخذ الاستعارة بحرفيتها، كما يفعل ذلك سوسير. سوسير الذي نراه في بعض مواضع الملاحظات يلوّح بالمقص الذي يسبق القص، ويسجل

---

(85) يخصص سوسير في خطابه العلمي عن العلامة مكاناً مهماً للاستعارة. وقد سبق لنا في سياق هذه الدراسة أن رأينا عدداً منها. نذكر منها على سبيل المثال استعارة «الجبة المرقعة برقع من قماشها نفسه». (**الدروس**، 235). [التونسية، 257؛ العراقية، 194 (فاللغة رداء مرقع برقع كثيرة قطعت من قماش اللغة)؛ اللبنانية، 208؛ المصرية، 298؛ المغربية، 219. المترجم]. وستجد استعارات أخرى في الفصول التالية. وسوسير واع كل الوعي بهذه الخصوصية التي تميّز خطابه، إنه يدافع عن الاستعارة ويبجلها تبجيل المشغوف بها: (إنه على العموم معجب «بالمجاز» في اللسانيات في فقرة من الملاحظات المخطوطة (إنكلر، 1968-1989، 18). وهذا على الجملة لا يتوافق أبداً مع إقحام المفاهيم التقليدية «للمعنى الحقيقي والمجازي». (**كتابات**، 72).

(86) هل من المفيد التذكير هنا بأن سوسير لا يقيم تدرجاً بين مفهومي الوجه والقفا؟ ويعبّر عن ذلك في فقرة من كتاب **كتابات في اللسانيات العامة**، يقول: «عندما أتحدث عن وجه ورقة أو قفاها فإنا أعني متعاكسين يظل أحدهما إلى جانب الآخر بسبب أنه لا يوجد من قبل أي صفة تميّز الوجه من القفا تميزاً خاصاً والعكس صحيح». (إنكلر، 1974-1990، 49، **كتابات**، 264-265).

(87) نعلم أن سوسير يعطي لمصطلح فونولوجيا معنى ـ تخلى عنه الاستخدام المعاصر ـ إنه معنى «فيزيولوجيا الأصوات» (ص 55). [التونسية، 62؛ العراقية، 51؛ اللبنانية، 49؛ المصرية67، ؛ المغربية، 46. المترجم]. وهو يوضح هذا التعريف كل التوضيح في مخطط بحثه عن ويتني، يقول: «أقصد بالفونولوجيا ـ ذلك العلم الخاص الذي لم نجد ألبتة اسماً، أتحدث عن علم «الشروط الطبيعية لإنتاج مختلف الأصوات من قبل أعضائنا». (**كتابات**، 205). إذاً، إن الفقرة التي اقتبسناها من الدروس تعني أن الفصل المحتمل بين المستويين يُفضي في مستوى الدال إلى قصره على مظهره المادي وإلى جعله موضوع تحليل فيزيولوجي بحت وصارم.

(88) التونسية، 174؛ العراقية، 132؛ اللبنانية، 138؛ المصرية، 197؛ المغربية، 143. [المترجم].

بمحاكاة صوتية بربرية «بم، بم pam, pam» الضجة التي يحدثها المقص عندما يغلق شفرتيه على المادة التي يقصها! أترك لعالم التحليل النفساني أن يتأمل كما يرغب في وضع هذا المقص. أما أنا فإنني أرجع إلى الورقة: فوجهاها يمثلان «المستويين غير المُعرَّفين»، مستوى «الأفكار المبهمة» (وهو الوجه) و«المستوى الذي لا يقلّ في عدم التعريف عن سابقه، مستوى الأصوات» (وهو القفا).

إن خاصية اللغة هي أن تعمد إلى عملية قطع تصيب بشكل تزامني وجهي الورقة اللذين لا يمكن فصلهما. ولكن ما النتائج التي تفضي إليها عمليات القطع تلك؟ إنها «تلفظات» القِطَع التي تنتج عن عملية القطع، ينبغي أن نفهم كلمة تلفظات على الدوام بالمعنى الحرفي. وهي قِطَعٌ لها بالضرورة وجهان شأنها شأن الورقة التي هي (القطع) من الآن فصاعداً قِطَع لا تحصى منها:

> فكل عنصر لغوي هو بمثابة عضو صغير، أو منطوق articulus تستقر فيه فكرة ما في صوت ما، وفيه يصبح الصوت علامة[89] فكرة ما. (**الدروس**، 156)[90].

إن لأي ترسيمة وظيفة تتمثّل في إيضاح النظرية التي تمثلها أكثر من توضيح الاستعارة. ولقد عرفت الترسيمة التي قدمها سوسير باسم «ترسيمة الكتلتين اللتين لا شكل لهما»، وسرعان ما أثرت في عدد كبير من القراء، ولاكان على وجه الخصوص، لاكان الذي شرحها بإسهاب مُحكم مراراً وتكراراً. بل إنه ذهب إلى حدّ اقتباسها في الحلقة الدراسية séminaire III 3 (1981، 296):

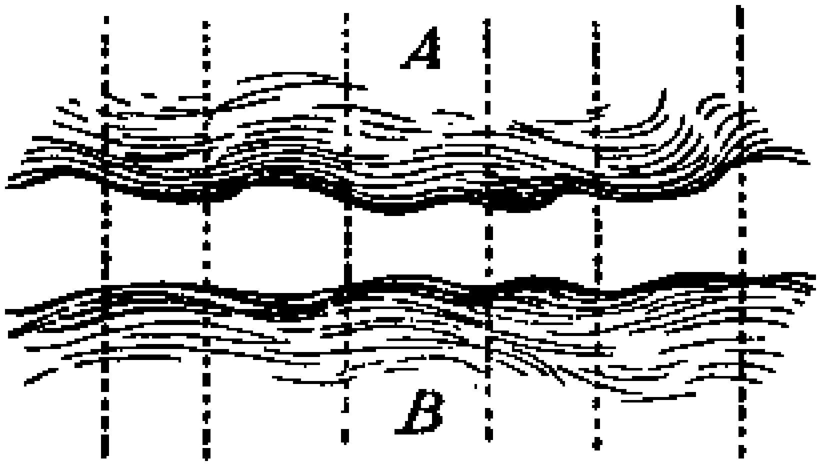

(89) كنا ننتظر أن يرد هنا مصطلح الدال بدل مصطلح العلامة. لكن ناشري الدروس ـ المسؤولين هنا كل المسؤولية عن هذه الصياغة ـ لم يلتزما قط بانتظام المصطلحية السوسيرية.

(90) التونسية، 173؛ العراقية، 132؛ اللبنانية، 138؛ المصرية، 196؛ المغربية، 143. [المترجم].

إن «الخليط» A هو خليط «الأفكار المشوشة»، والخليط B «الذي ليس أقل تشويشاً» هو خليط الأصوات. أما طلحية الورق [67] خاصة الاستعارة ـ إذا كنا نحرص حتماً على إيجادها ـ فقد لحق بها بعض البداءة: إنها الحيّز المتضمّن بين الخليطين، والخطوط المتعرجة التي تُعيّن حدودها تشكّل الوجهين. أما الخطوط العمودية[91] التي تقطع الخليط في وقت واحد فإنها تكوّن العلامات. وينبغي أن نحترس أن المقصود هنا هو العلامات التي تتحدد بتعارضها المتبادل في النظام الذي تكوّنه، أي اللغة. وبعبارة أخرى، العلامات ممثّلة في تزامنها في حضن النظام، فمترادفات مثل: هاب، خشي، خاف ـ وهي الأمثلة التي استخدمها سوسير في **الدروس**[92]، ص160 ـ موجودة في النظام وتتحدد فيه بشكل متبادل: إذاً، يبدو أن قراءة الترسيمة هي قراءة عمودية (أي ترابطية حسب المصطلح السوسيري). وقد انصبّت تأويلات ـ بعض اللسانيين وغيرهم، ولاكان على وجه الخصوص ـ على حدود القطع وسمات تتابعها في الخطاب: إنها إذاً قراءة استبدالية. وهي في رأيي قراءة خلافية إلى أقصى حدود الخلاف.

وتبقى مشكلة واحدة: حسب أي مبدأ تجزأ الانقطاعات المعلّمة بالخطوط المستقيمة الكتلتين غير المتشاكلتين؟ إن رأي سوسير في هذا رأي قطعي:

> فليس هذان الصعيدان اللذان يربط بينهما الحدث اللغوي مبهمين وغير واضحي المعالم فقط بل إن الذي يستدعي تخصيص مقطع[93] أكوستيكي مُعيّن لفكرة ما إنما هو اختيار اعتباطي كل الاعتباطية. ولو لم يكن كذلك لفقد مفهوم القيمة شيئاً من صفته؛ إذ إنه عندئذ يكون متضمّناً لعنصر قد فرض عليه من الخارج فرضاً. لكن القيم تبقى في الواقع نسبية تماماً، ولذلك كان الرابط بين الفكرة والصوت اعتباطياً من أساسه. (**الدروس**، 157)[94].

نرى بوضوح ظاهر من خلال الفقرة السابقة الوظيفة التي يمارسها في النظرية

---

(91) ارتأى لاكان أن هذه الخطوط هي خطوط منقوطة. وقد أوّل هذه الجزئية على طريقته، وأشير على الفور مع ذلك إلى أن التنقيط بدعة من الناشرين خالية بلا شك من أي نيّة أو أي وظيفة: أما الترسيمات التي رسمها مستمعو سوسير، وهي ترسيمات أقلّ جودة، فإن الخطوط العمودية فيها خطوط عادية. والحدود التي تفصل الوحدات السوسيرية هي حدود مُحكمة.

(92) التونسية، 177؛ العراقية، 135؛ اللبنانية، 141؛ المصرية، 201؛ المغربية، 147. [المترجم].

(93) تعيد هذه الكلمة إلى الأذهان من جديد استعارة قطع الورقة التي ما تزال ماثلة في الأذهان.

(94) التونسية، 174؛ العراقية، 132؛ اللبنانية، 138؛ المصرية، 197؛ المغربية، 143. [المترجم].

السوسيرية مبدأ اعتباطية العلامة، ذلك المبدأ الذي يُطرح في الفقرة بكل «جذريته». ولهذا يعترف سوسير بوضوح أن المبدأ ليس إلاّ نتيجة لتدخل مفهوم القيمة. وهو في الوقت نفسه يمثّل بوضوح، وإنْ بطريقة غير مباشرة، الروابط التي توحد توحيداً دائماً بين قراءتَي المبدأ. لقد رأينا فيما سبق مظهراً من مظاهر تلك الروابط. إنه المظهر الذي يبدو اليوم أنه ليس المظهر المتناقض: ويتمثّل فيما يلي: لكي تستطيع اللغة أن تُعرَّف بوصفها نظاماً من القيم المحضة فإن [68] مما لا غنى عنه ألاّ تكون العلاقات بين الوحدات اللسانية بأي شيء من خارج اللغة[95]. وينبغي أن يكون تأثير المرجع ـ التأثير الذي يحدثه في العلاقات بين العلامات «عنصر مفروض من الخارج» ـ تأثيراً معدوماً. لهذا ينبغي أن نقر مبدأ الاعتباطية بين العلامة والمرجع. لكن لما كان المرجع، تبعاً لذلك، لا مكان له في اللغة فإن الوسيلة الوحيدة لطرح قضية الاعتباطية هي نقله ووضعه بين المستويات التي لها ملاءمة لغوية: الدال والمدلول.

إن قراءة بسيطة **للدروس** تكفي لتسويغ الاعتباطية بوصفها مرتبطة ارتباطاً لا فكاك له بمفهوم اللغة بوصفها نظام قيم. وهو تأويل جاء به من قبلُ بوضوح متفاوت بعض أبرع قراء سوسير (على سبيل المثال: كلودين نورمان (Claudine Normand)، (2000)، أو آن هينو (Anne Hénault)، (1992 و 2000).

ماذا تقول المصادر المخطوطة؟ إنها تؤكد كل التأكيد هذا التحليل، سواءٌ عبر الملاحظات المدوّنة من قِبل مستمعي **الدروس** في محاضرة 4 تموز/ يوليو 1911 التي سبق ذكرها منذ قليل أو عبر تلك التي دوّنها قسطنطين قبل عدة أسابيع وبالتحديد في 12 أيار/ مايو:

> لم نتعمق التعمق الضروري في ظاهرة [الاعتباطية] نفسها. إنها تواجه بين علاقتين.
>
> إن فكرة العلاقة الاعتباطية تسمح بتدخل نوعين من العلاقات ينبغي التمييز بينهما بعناية. فمن جهة، لدينا هذه العلاقة التي عرضنا لها قبل قليل:

(95) سيعود سوسير إلى هذه النقطة، بطريقة أكثر اختصاراً عندما يتحدث عن المقابلة بين التزامنية والتعاقبية.

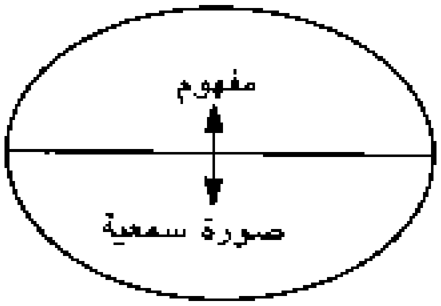

ومن جهة أخرى هذه العلاقة:

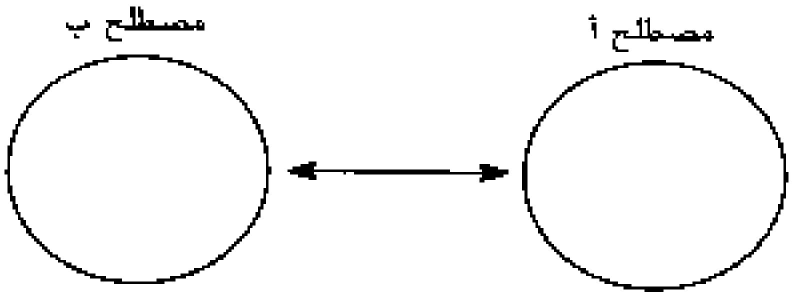

(كوماتسو، 301–302).

نرى أن مشكلة اعتباطية العلامة، على الرغم من أهميتها في تاريخ اللسانيات، هي هنا مجرد وظيفة، كيف أصفها؟ ربما ليست وظيفة تابعة، لكنها وظيفة مشتقة: إنها ليست [69] إلاّ نتيجة و/أو شرط مفهوم اللغة بوصفها نظاماً من القيم. وتعود أهمية هذا المفهوم إلى سوسير بالذات ويرتكز ذلك المفهوم على ألاّ نأخذ في الحسبان، في وضعية الوحدات اللغوية، إلاّ العلاقات التي تربطها في إطار نظام القيم التي تكوّنها:

> ... إن مفهوم القيمة كما حددناه آنفاً يبيّن لنا أنه لوهم كبير اعتبار مصطلح ما مجرد اتحاد صوتٍ ما بمتصورٍ ما. إن تعريفنا له على هذا النحو عزلٌ له عن النظام الذي هو جزء منه، وهذا يعني الاعتقاد بأنه بمكننا أن ننطلق من المفردات فنجمعها ونبني النظام من خلال إقامة المجموع، والحال أنه ينبغي على العكس من ذلك أن ننطلق من الكل متضامناً لكي نحصل بواسطة التحليل على ما يضمّه من عناصر. (الدروس، 157)[96].

(96) التونسية، 174؛ العراقية، 132؛ اللبنانية، 138؛ المصرية، 197؛ المغربية، 143. [المترجم].

وإذا تقدمنا قليلاً آخذين في الحسبان بنية العلامة رأينا أن القيمة تتدخل بالضرورة في ثلاثة موضوعات متمايزة: من جهة، كل وجه من وجهَي العلامة ـ المدلول والدال ـ، ومن جهة ثانية العلامة في كُلِّيَّتها.

سأختصر الحديث عن «القيمة اللغوية منظوراً إليها في مظهرها المفهومي». وفي هذه النقطة يستخدم سوسير الأمثلة المشهورة: هاب، خشي، خاف، واكترى، كرى= louer ونظيرَيْه الألمانيين[97] mieten و vermieten. والتحليل الذي لا يقلّ شهرةً عن الأمثلة السابقة، إنه تحليل قيمة كلمتَي sheep و mutton (خروف) الإنكليزيتين مقارنة بقيمة الكلمة الفرنسية mouton التي تتحد في المرجع معهما (لكنها، في تعريفها، ليست متكافئة معهما):

> فالاختلاف بين sheep و mouton من حيث القيمة راجع إلى أن للكلمة الأولى في الإنكليزية مصطلحاً آخر بجانبها، وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الكلمة الفرنسية. (**الدروس**، 160)[98].

وبذلك يمكن لكلمتين في لغتين أن تكونا مترادفتين ترادفاً تقريبياً، وفي كل الأحوال ذات مرجع واحد دون أن تكون لهما القيمة نفسها. فنحن نترجم كلمة *sheep* (ومثلها كلمة *mutton* أيضاً) بالكلمة الفرنسية mouton. دون أن يكون ذلك دقيقاً. ومع ذلك فإن الكلمتين الأوليين اللتين تحدد كل منهما الأخرى ليس لهما قيمة الثالثة التي تحتل وحدها الحقل الذي تقتسمه الكلمتان[99].

إن «مقص» اللغة الإنكليزية قطع، إن صحّت العبارة ـ «بم، بم» ـ خرافه

(97) وفي هذا الموضع يتخذ سوسير موقفاً وإن كان ضمنياً من مسألة المعاني المتقابلة: فهو يقبل أن قيمة الكلمة الفرنسية louer أجز، أن تؤدي معنيين متقابلين للفعلين الألمانيين mieten و vermieten. إنه دون أن يقول ذلك صراحةً يتفق مع فرويد الذي هو كما نعلم مناصر متحمس «للمعاني المتقابلة» (1910-1971).

(98) التونسية، 177؛ العراقية، 135؛ اللبنانية، 141؛ المصرية، 201؛ المغربية، 147.[المترجم].

(99) يقول سوسير (التونسية، 177): إذا كان للكلمة الفرنسية mouton = خروف والكلمة الإنكليزية sheep الدلالة نفسها فإنه ليس لهما القيمة نفسها: وذلك لأسباب عديدة نذكر منها على وجه الخصوص أنهم يسمّون في الإنكليزية القطعة من اللحم تُطبخ وتُقدّم للآكلين mutton وليس sheep. فالاختلاف بين، sheep و mouton من حيث القيمة راجع إلى أن بإزاء كلمة sheep في الإنكليزية كلمة أخرى، وليس الأمر كذلك بالنسبة إلى الكلمة الفرنسية. [المترجم].

بطريقة تختلف عن المقص الفرنسي. وإن نتيجة عملية القطع هذه هي التي تشكّل الوضعية الحقيقية للوحدات اللغوية، أكثر مما يشكّلها اشتراك الدال مع المدلول:

> عندما أكتفي بالقول: إن كلمة من الكلمات تفيد معنى ما، وعندما أقتصر على مجرد اقتران الصورة الأكوستيكية مع المفهوم أكون قد قمتُ بعملية قد تكون [70] صحيحة إلى حدّ ما، وتعطي فكرة عن الواقع، إلاّ أنني لا أعبّر بذلك ألبتّة عن الحدَث اللغوي من حيث جوهره وأبعاده. (**الدروس**، 162)[100].

وتتدخل القيمة بالضرورة أيضاً في المجال «المادي». شأنها شأن المدلول والدال اللذين لهما وضعية تخالفية. إن سوسير الذي يتمثّل بادئ ذي بدء بالدال الأكوستيكي يستعين مرّة أخرى بمبدأ اعتباطية العلامة ليرسي دعائم تلك الوضعية، بطريقة يصح القول: إنها ما زالت عامة لأن المدلول والدال (كلٌّ منهما «جزءٌ من اللغة») مشارٌ إليهما معاً عن طريق الاحتجاج:

> فبما أنه لا وجود ألبتّة لصورة صوتية تكون ملائمة أكثر من غيرها لأداء ما وُضعت لأدائه فمن البديهي أن نسلّم حتى بصورةٍ ما قبلية بأنه لا يمكن في نهاية المطاف لأي جزء من أجزاء اللغة أن يقوم إلاّ على عدم مطابقته لبقية الأجزاء الأخرى. فالاعتباطية والتخالف صفتان متلازمتان.(**الدروس**، 163)[101].

يتلو ذلك بناء المخطط الأولي للفونولوجيا السوسيرية ـ هذه المرة بالمعنى الحديث للكلمة، وليس بالمعنى الخاص الذي عزاه سوسير إليها (انظر الصفحة 65). وهو يستخدم المثال التقليدي للفونيم /r/: ونعلم أن تحققه الفعلي بالفرنسية يمكن أن يتنوع تنوعاً كبيراً (من الـ [r] «المتكررة» إلى [R] أو إلى [ʁ] اللتين تنطقان كالغين (ملثوغتان)[102]، وإن كان ذلك يتمّ بطريقة مختلفة، وينطبق الأمر نفسه على الـ [خ= X] الألمانية[103] ach إلخ.).

---

(100) التونسية، 179؛ العراقية، 136؛ اللبنانية، 143؛ المصرية، 204؛ المغربية، 149. [المترجم].

(101) التونسية، 180؛ العراقية، 137؛ اللبنانية، 143؛ المصرية، 204؛ المغربية، 150. [المترجم].

(102) اللثغة هي صوت الراء، في الفرنسية، من مؤخر الفم. (المراجع).

(103) يقول سوسير (التونسية، 182): فأنت تستطيع في الفرنسية حتى أن تنطق الراء كالخاء الألمانية التي في نحو Bach و doch وغيرها. ولو رُمتَ نطق الراء خاءً في الألمانية لما استطعت؛ لأن الراء والخاء فيهما عنصران ينبغي التمييز بينهما. قال المترجمان (ص 209 الحاشية 7): كذلك الشأن في العربية فلا ينبغي نطق الراء غيناً ولا خاءً وإلاّ استوت كلمات من قبيل: راب ـ غاب ـ خاب. [المترجم].

مهما يكن من الأمر، هذه التحققات المادية فإن فونيم الراء يتميّز بالطريقة نفسها من كل الفونيمات الأخرى، وله في النتيجة «القيمة» نفسها: إن الميزة المتناقضة للغة هي أنها تطابق وظائفياً بين الأشياء المختلفة مادياً.

إن التأمل في مسألة القيمة في مظهرها المادي هو الذي ولّد، فضلاً عمّا سبق، مظهرين مذهلين من مظاهر الفكر السوسيري، نلمحهما كليهما في مواضع أخرى، وينبغي أن نعرضهما من جديد هنا:

1/ إن الفقرة الوحيدة من **الدروس**، التي تعرض بطريقة واضحة كل الوضوح لمسألة الوضيعة الواعية أو اللاواعية للغة تظهر عندما يُشرع سوسير في تحليل الدال. (**الدروس**، ص 163)[104]. ففي هذه الفقرة الغامضة، إنّ بوجودها ذاته أو بمحتواها، ينظر سوسير إلى العناصر اللغوية، مهما كان نوعها، بوصفها لا واعية باعتبار ما هي عليه. ووحده اختلافها هو الذي يصل إلى الوعي:

> ... إن تغير العلامات اللغوية هو أفضل دليل على ذلك التلازم [بين الاعتباطية والتخالف]؛ فبما أنه يستحيل أصلاً على عنصرين مثل أ ـ و ب ـ أن يبلغا على صورتهما تلك، أي كلٌ على حدة، مجالات الوعي؛ إذ إننا [71] لا ندركهما دوماً إلاّ في صورة مقابلة أحدهما للآخر على النحو التالي أ/ب، لذلك بالذات كان كل عنصر منهما حراً وقابلاً للتغيّر حسب قوانين لا تمتّ بصلة إلى وظيفته الدلالية. (**الدروس**: 163)؛ والنص لم ينطق به سوسير قط في **دروسه**: إنه مُقتطع من بحث سوسير عن ويتني [**كتابات**، 219]، حيث لا نكاد نجد من الفوارق بين النصّين إلاّ الإشارة إلى «القوانين التي ستنتج عن تدخل مستمر للعقل»، وهي إشارة أحلّ الناشران محلها قولهما: «قوانين غريبة عن وظيفتهما الدلالية».

وسنعود في الفصلين الخامس والسابع إلى مسألة اللاوعي السوسيري هذه.

2/ لقد لاحظنا فيما سبق إشكالية مادية الدال أو لاماديته. ففضلاً عن التبعات المهمة التي سبق أن رأيناها له فإنه تسبب بتبعة أخرى لا تقلّ أهميةً: إنها ردُّ الاعتبار إلى الكتابة.

لم يبخل سوسير في «المُقدّمة العامة» **للدروس** بتوجيه النقد إلى الكتابة.

(104) التونسية، 180؛ العراقية، 137؛ اللبنانية، 143؛ المصرية، 204؛ المغربية، 150. [المترجم].

وأساس المسألة أنه يعدّ الكتابة ثانوية بالنسبة إلى الدال الشفوي، الذي يقدّمه في هذا الموضع من النص بوصفه الدال الوحيد:

> إن موضوع اللسانيات لا يتحدد في كونه نتيجة ائتلاف بين صورة الكلمة المكتوبة وصورتها المنطوقة فقط، بل ينحصر هذا الموضوع في الكلمة المنطوقة فقط. (**الدروس**، 45)[105].

ثم تتتالى بعدئذ الآراء الشديدة الفظاظة التي يطرحها سوسير عن الكتابة، والأكثر فظاظةً عن الإملاء، تلك الكتابة التي تتخفى وراء نظام مزيف مستقل[106]. ويصل به الأمر إلى حدّ وصف أخطاء النطق «المعيبة» التي تقتفي أثر الشكل الخطي بالـ «مرَضِيّة»، وإلى حدّ القول إن تأثير الإملاء في النطق هي «تشويهات» ينبغي إرسالها إلى «القسم الخاص بالحالات الممسخية أو المسخيّاتية»[107]. (**الدروس**، 53-54)[108].

إلى أي حدّ كان سيصل استنكاره لو أنه أُتيح له أن يسمع «الوصلات» أمام الصوامت، وهي وصلات بدأت بالانتشار منذ أن أصبح جاك شيراك (Jacques Chirac) يصرُّ على استخدامها؟

ويأتي بغتةً دور نزع الصفة المادية عن الدال: الذي لم يعد يختلط بالمادة الصوتية. إن لنزع الصفة المادية تبعاته الفورية. لم تعد الكتابة هي الخادمة (الطيّعة أو العنيدة) للصوت. بل إن الأمر يصل بها إلى حدّ فَقْد أي احتكاك فوري بالصوت، لأن المدلول الذي تعبّر عنه لم يعد الصوت، لكنه الدال غير الحسي. وهناك اختلاف طفيف بهذا الخصوص بين نص المصادر المخطوطة وبين نص الطبعة النموذجية، طفيف لكنه ذو دلالة. نقرأ في نص الطبعة النموذجية أنه

---

(105) التونسية، 49؛ العراقية، 42؛ اللبنانية، 39؛ المصرية، 54؛ المغربية، 36. [المترجم].

(106) كما رأينا في الفصل الأول، يلتقي موقف سوسير هنا مع مواقف عمه تيودور.

(107) tératologique: مسخياتي؛ متعلّق بمبحث «المسوخ والتشوهات». **قاموس حتي الطبي الجديد**، مكتبة لبنان، ص436. (المراجع).

(108) التونسية، 59؛ العراقية، 49-50 ونقل مترجمها عن باسكن مترجم كتاب سوسير إلى الإنكليزية قوله: تُذكّرنا مصطلحات دو سوسير بالتعابير «البايولوجية» التي استخدمها كبليرون في كتابه **علم أمراض الكلام والشفاء منها** *pathologie et thérapeutique verbales*، المنشور في باريس عام 1921. اللبنانية، 48؛ المصرية، 65؛ المغربية، 45. [المترجم].

لا يوجد «أي علاقة بين صورة حرف t وبين الصوت الذي يشير إليه». (**الدروس**، 165)[109]. إذاً، نعتقد أننا عدنا ثانيةً إلى النموذج السابق [72] للعلاقات بين الصوت والشكل الخطي. وواقع الأمر أن سوسير، حسب المدوّنات المتجانسة تماماً التي دوّنها مستمعوه، لم يتحدث عن «الصوت الذي تشير إليه»، لكن عن «الشيء المُراد الإشارة إليه». (إنكلر، 1968–1989، 269). إننا نرى الفرق: ليس الصوت هو الذي يأخذه الحرف على عاتقه بوصفه مدلولاً، لكنه «شيء». شيء ما لا يمكن تسميته بأي تسمية أخرى غير «شيء»: إننا نرى فيه، بدون جهد، الدال غير الحسي الذي يصعب فعلياً استخراجه من غلافه الصوتي أو الكتابي.

ومنذئذٍ تتبوّأ الكتابة كُلياً مقام نظام العلامات. أما الأقوال الفظّة التي حطّت من قَدْر الكتابة، فإنها توقفت في الحال. وقد بات على وجه الخصوص، شرعياً، تقديم الكتابة بمنزلة اللغة نفسها، فهي منذ الآن نَدُّها بوصفها مجالاً لتدخل مفهوم القيمة:

> لا تعمل قيم الكتابة عملها إلاّ من خلال تقابُلها المتبادل، ضمن نظام معلوم يقوم على عدد مضبوط من الحروف. (**الدروس**، 165)[110].

وهكذا، سواءٌ نظرنا إلى الأشياء من جهة الدال أو من جهة المدلول فإننا ننتهي إلى الخاتمة نفسها:

> ليس في اللغة إلا الاختلافات، بل يمكن أن نذهب إلى ما هو أبعد من ذلك: فوجود اختلاف ما يفترض بصورة عامة وجود مصطلحات إيجابية يقوم بينها ذلك الاختلاف، أما في اللغة فإنك لا تجد إلاّ اختلافات دونما مصطلحات إيجابية. فسواءٌ أخذنا في الحسبان المدلول أو الدال فإننا لن نجد في اللغة أفكاراً ولا أصواتاً وجودها سابق لوجود النظام اللغوي، كما قد يتبادر إلى الذهن، إنما نجد فيها اختلافات مفهومية وأخرى صوتية نابعة من ذلك النظام. (**الدروس**، 166)[111].

إذاً، هل يمكن القول: إنه ليس هناك أي إيجابية لغوية؟ يُصوِّب سوسير ذلك

(109) التونسية، 182؛ العراقية، 138؛ اللبنانية، 145؛ المصرية، 207؛ المغربية، 152. [المترجم].

(110) التونسية، 182. وقول المترجمين في آخر العبارة الحروف المكتوبة ترجمة تأويلية لأن نص **الدروس** يقف عند الحروف. وانظر: العراقية، 138؛ اللبنانية، 145؛ المصرية، 207؛ المغربية، 152. وكلها تقف عند الحروف. [المترجم].

(111) التونسية، 183؛ العراقية، 139؛ اللبنانية، 142؛ المصرية، 207؛ المغربية، 152. [المترجم].

في نهاية الفصل عن القيمة ـ بطريقة هي في الحق مترددة وخجولة(112) ـ الإيجابية التائهة في مستوى «العلامة المنظور إليها في كُلِّيتها»:

> لكن القول بأن كل شيء في اللغة سالب قول لا يصح إلاّ على الدال والمدلول إذا أخذنا كلاً منهما على حدة. وما إنّ ننظر إلى العلامة في كُلِّيتها حتى نجد أنفسنا أمام شيء إيجابي جاء في سياقه. (**الدروس**، 166)(113).

هل من السهل أن نصل «إيجابية» العلامة هذه بـ «سلبية» العناصر التي تكوّن العلامة؟ إن خجل سوسير يدلّ بلا شك على صعوبة العملية. إنه يتصور بوضوح مسألة التناقض بين الزعمَيْن «في اللغة ليس هناك إلاّ الاختلافات دونما عناصر إيجابية» و «التأليف بين الدال والمدلول هو حدَثٌ إيجابيٌ»، لكنه لا يعالج الموضوع [73] بعمق. إنه يكتفي على سبيل التمثيل، بعرض «الحالات العديدة التي يؤدي فيها تغيُّر الدال إلى تغيُّر في الفكرة» والظواهر المعكوسة لاختلاف الدوال بتأثير المدلولات. (**الدروس**، 167)(114). ويعود إلى القارئ أن يعيد بناء فحوى هذا التمثيل: يلمح أن العلاقة بين الدال والمدلول ضمن العلامة له «شيء إيجابي» في النطاق أنها تحدث تعديلاً في أحدهما بتأثير الآخر. وتتضمّن أيضاً التمييز الذي يقيمه سوسير بين «الاختلافات» و «التعارضات». والمثال الذي يختاره هو العلامتان père= أب و mère =أم: وهما «مختلفان» فقط، عندما ننظر إليهما في مظهرهما المفصول للدوال أو المدلولات، وهما «يتعارضان» عندما ننظر إليهما بوصفهما علامات(115): لأنهما يشتملان على إيجابية ما.

---

(112) الطبعة النموذجية لـ **دروس**، أزالت آثار الخجل هذه. وهي تظهر في المصادر المخطوطة عبر صيغ مثل: «لدينا بعض أشياء يمكن أن تشبه (ركِّز على العبارة ميشال أريفيه) مصطلحات إيجابية». (إنكلر، 1968-1989، 272-273).

(113) التونسية، 183 (قارن)؛ العراقية، 139؛ اللبنانية، 142؛ المصرية، 207؛ المغربية، 152. [المترجم].

(114) التونسية، 183؛ العراقية، 139؛ اللبنانية، 142؛ المصرية، 207؛ المغربية، 152. [المترجم].

(115) يبدو لي أن نص الطبعة النموذجية، وخصوصاً عبر عبارته الغريبة «ليس هناك بينهما إلاّ التعارض» (**الدروس**، 167). يعدّل تعديلاً ملموساً العلاقة التي أقامها سوسير بين مفهومَي الاختلاف والتعارض. ومن الواضح في المصادر المخطوطة (إنكلر، 1968-1989، 273-274)، أن التعارض هو نظام العلامات، تعارض يفترض اختلافات الدوال والمدلولات. إذاً، إنه لمن المختلف فيه أن نقوّل سوسير: إنه ليس هناك إلاّ التعارض!

تُساورنا بعض الشكوك ونحن نقرأ هذه الفقرات حول إيجابية العلامة: أليست وظيفتها الوحيدة أن تجعل عملية الاتصال نفسها ممكنة؟ لأنه إذا كان كل شيء في اللغة ـ الدال والمدلول والعلامة ـ خاضعاً لنظام السلبية، بلا أي مصطلحات إيجابية، فإن التواصل يصبح بطبيعته مستحيلاً. والحال أن سوسير يُقرُّه بوضوح، ويُخصّص له تحت اسم «دورة الكلام» حديثاً مستفيضاً، ويُمثّله بترسيمتين متفائلتين (**الدروس**، 27–28)[116]: أعني بما قلته أنه لا يبدو أن تلك (الفقرات) تحتوي على أي صعوبة في إنشاء «الدورة» التي تنشأ بين «شخصين على الأقل». (**الدروس**، 27). لأنه ليس هناك أي تلميح مهما قلّ إلى سلبية «وقائع الوعي، التي سنسميها مفاهيم» وإلى «الصور الأكوستيكية التي تُستخدم للتعبير عنها». (**الدروس**، 28)[117]. وتطرأ من ثمّ مسألة المقاربة الواضحة لمفهوم القيمة ونتيجته المحتومة: إضفاء السلبية على وجهَي العلامة. وهذه النتيجة تُبعد من أول حدوثها إمكانية إقامة «دورة للكلام»: كيف ننقل من متكلم إلى آخر هذه المواضيع التي لم نعد حتى نجرؤ على تسميتها، قائمة كما هي على الاختلافات دونما مصطلحات إيجابية؟ ولن أتحدث هنا عن الصعوبة الإضافية التي يشكّلها واقع أن فرص التطابق بدقة بين نظام الاختلافات بين «الشخصين» تكاد تكون غير موجودة: يكفي مبدئياً حضور علامة واحدة لدى أحدهما، وغيابها عند الآخر لكي يفسد نظام الاختلافات كله. [74] لكي نجعل عمل الدورة ممكناً ـ أي لكي نعطي من جديد للكلام مكاناً، وبالتالي للتعاقبية أيضاً ـ فإن العمل الوحيد الممكن هو أن نعيد ضخ أدنى حد ممكن من الإيجابية. هناك حيث يكون ذلك ممكناً: في الالتقاء بين الدال والمدلول، أي في العلامة نفسها.

علاقات تركيبية وعلاقات ترابطية

إن المقابلة بين هذين النوعين من العلاقات اللغوية قديم في تفكير سوسير: لقد ظهر في واقع الأمر منذ مشروع كتاب **في الجوهر المزدوج للغة** وإن كان بمصطلحات مختلفة في النقاط الجوهرية: فا«النسق، الكلام الحقيقي» يقابله

(116) التونسية، 31-32؛ العراقية، 29-30؛ اللبنانية، 23، الترسيمة الأولى غير موجودة؛ المصرية، 35، الترسيمة الأولى غير موجودة؛ المغربية، 20-21. [المترجم].

(117) المواضع السابقة. [المترجم].

«الموازي أو القول الاحتمالي»[(118)*] (**كتابات**، 61). أما في الدروس كما نطقه سوسير فعلاً فإن المقابلة هي بين الشكل «الخطابي» والشكل «الحدسي» (إنكلر، 1968-1989، 278)، وهي مصطلحية لا تظهر في الطبعة النموذجية. أما في **الدروس** فإن المقابلة قد صيغت بوضوح تماشياً مع تعريف اللغة بأنها نظام من العلامات. هذا التعريف يقتضي أن «يكون كل شيء في حالة لغوية ما قائماً على العلاقات». (**الدروس**، 170)[(119)]. وتلك العلاقات هي ضربان:

1 ـ العلاقات التركيبية

لقد سبق أن عرضناها بمناسبة الحديث عن مسألة الخطية: إنها العلاقات التي تنشأ بين الوحدات المتتالية للخطاب. وبذلك تتشكّل توليفات من الوحدات تسمى تراكيب:

> ويمكن أن تسمي تركيبات هذه التوليفات التي تتخذ لها من الامتداد حاملاً. فالتركيب إذاً يتألف دائماً من وحدتين متتاليتين فأكثر، مثل (أعاد القراءة= re-lire، على الرغم من= contre tous، الحياة البشرية= la vie humaine، الله عطوف= Dieu est bon، إذا كان الطقس جميلاً خرجنا= s'il fait beau temps, nous sortirons، إلخ). والعنصر إذا وقع في تركيب ما لا يكتسب قيمته إلاّ بفضل مقابلته لما هو سابق ولما هو لاحق به أو لكليهما معاً. (**الدروس**، 170-171)[(120)].

نلحظ الاتساع الذي أضفاه سوسير على مفهوم التركيب. وبخلاف سابقيه من الأنساق في تاريخ اللسانيات، يبدأ التركيب بتألف عنصرين، إذا اقتضى الحال، ضمن الكلمة نفسها، ويتسع إلى حدود غير مُعيّنة. وكلمة (إلخ) التي يُختتم بها تعداد [75] الأمثلة كلمة غامضة. هل تشير إلى جُمل أكثر تعقيداً من الجُملة الأخيرة المذكورة؟ أم أنها توحي بأن الوحدات الخطابية التي تتجاوز حدود الجُملة يمكنها هي أيضاً أن تُسمى تراكيب؟ لا شيء واضح يسمح لنا باختبار هذه الفرضية، ولكن لا شيء واضحاً يسمح لنا برفضها...

---

(118) parole potentielle: قول احتمالي أو كاف، يفترضه اللغوي بناءً على قواعد اللغة ولم يصدر حقاً عن قائل ما في سياق ما. (**مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص390). (المراجع).

(119) التونسية، 186؛ العراقية، 142؛ اللبنانية، 149؛ المصرية، 213؛ المغربية، 156. [المترجم].

(120) المواضع السابقة. [المترجم].

2 - العلاقات الترابطية

هي العلاقات التي تنشأ «خارج الخطاب»، بين «الكلمات التي يقوم بينها شيء ما مشترك». «هذه الكلمات تترابط في الذاكرة وتشكل بذلك مجموعات تسود في داخلها علاقات متنوعة كل التنوع». (الدروس، 171)[121]. يسمح هذا «التنوع» في العلاقات الترابطية بإجراء تحليل منتظم. بخصوص كلمة (تعليم) على وجه التحديد، فسوسير يحصي المظاهر المختلفة للعلامة التي يمكن أن تسمح بإقامة علاقات ترابطية: علاقات متنوعة بين المدلولات أو بين الدوال، كلاهما أهل لأن يُحلّل وفق عدة طرق.

هناك فرع خاص في تصنيف تلك العلاقات الترابطية، إنه فرع الترابطات بين الدال البحت. يتصور سوسير في تعاليمه بجلاء - ويضعها مع سواها موضع التساوي - العلاقات القائمة «على مجرد وحدة من الصور السمعية» (إنكلر، 1968-1989، 287)، أي على هوية الدال الذي يعمل حينئذٍ بطريقة مستقلة[122].

ويضرب سوسير مثلاً العلاقة القائمة في الألمانية بين الصفة (أزرق= blau) والفعل (ضرب بقضبان الحديد= durchbläuen). فعلى الرغم من أنهما مختلفان كل الاختلاف بوصفهما علامتين (نقطة وصل في مستوى المدلول بين الأزرقين المتكررين في المثلين)، هاتان الكلمتان هما مع ذلك مترابطتان عبر المتكلمين

(121) التونسية، 187؛ العراقية، 142؛ اللبنانية، 149-150؛ المصرية، 213؛ المغربية، 156. [المترجم].

(122) لقد تبنى الناشران موقفاً غامضاً من هذه الفقرة. لقد رفضاها في الحاشية من جهة، وأخذا على نفسيهما أن يصفا «بغير مألوف» هذا النمط من العلاقة لأن «العقل يستبعد طبيعياً الترابطات التي تتصف بأنها تشوّش فهم الخطاب»: وهو رأي ليس له أي سند مقبول في المصادر المخطوطة. لكنهما من جهة أخرى لم يترددا في إيضاح الآلية التي دخلت الساحة عبر مثال «تورية» يقوم على الخلط العبثي الذي يمكن أن ينتج عن المجانسة اللفظية البحتة والبسيطة: «الموسيقيون ينتجون الأصوات وتجار الحبوب يبيعونها». (ص 174). وعلى الرغم من أن المثال ليس مثال سوسير فإنه يوضح كل الوضوح الآلية. أما فيما يخص «جودة» التورية فإنها في واقع الأمر ضعيفة.. ونعلم أن بين التوريات التي درسها فرويد ما يساوي هذه التورية في الضعف؛ على سبيل المثال التورية التي تعتمد على المجانسة اللفظية بين اسم روسو Rousseau؛ وroux sot أصهب الشعر، أحمق (1905-1998، 79-81). لكن «الضعف» وهو معيار جمالي، لا يُقدّم ولا يؤخّر في الأمر شيئاً: إن الآلية اللغوية هي بيت القصيد.

بتأثير الدال وحده. ونلمح هنا حقاً لقاءً خفيّاً بين فرويد وسوسير: فتحليل Witz أو زلّة اللسان يتمّ كما نعلم حسب هذه الترابطات.

[76] لقد لاحظنا بلا شك أن نمط عمل كل من العلاقتين مختلف. الأولى، تركيبية، تنشأ بين وحدات كلها موجودة في الخطاب. لذلك يتحدث سوسير بخصوصها عن «علاقات حضور in praesentia»؛ والثانية، ترابطية، تجمع عناصر غائبة عن السلسلة الخطابية: ويسميها سوسير «علاقات غياب in absentia». (الدروس، 171)[123]. وقد أعاد جاكوبسون بعد ذلك صياغة هذا التحليل وطوّره. وصرّح بوضوح أنه اعتمد في ذلك على سوسير دون أن يوجه إليه على أي حال أي نقد post mortem. وأن العلاقات التركيبية والاستبدالية لديه تقوم على التوالي على «النظم» و«الاختيار» (1963، 48).

التزامنية والتعاقبية

إن ثنائية التزامنية والتعاقبية هي بلا شك الثنائية التي شهدت اتساعاً كبيراً من بين ثنائيات سوسير كلها في خارج حقل اللسانيات بالمعنى الحصري. ولعله من المناسب العودة في الحديث عنها إلى نص سوسير بحرفيته. إن تفكير سوسير يلتزم في مستوى الإبستيمولوجيا العامة.

ذلك أن مصلحة «العلوم كلها»[124].

> أن يحدّد المهتمون بها، بدقة أكبر، المحاور التي يوجد عليها ما تهتم به من مسائل، وينبغي أن نميّز في جميع الميادين كما يظهر في الشكل التالي:

---

(123) التونسية، 187؛ العراقية، 143؛ اللبنانية، 149-150؛ المصرية، 213؛ المغربية، 156. [المترجم].

(124) إن نص المصادر المخطوطة يدل بوضوح أن سوسير لم يكن يفكر في العلوم «الإنسانية» فقط، لكن أيضاً في علوم «الأشياء». (إنكلر، 1968-1989، 177). ومن بين هذه الأخيرة إن علم الجيولوجيا الذي ذكره سوسير منذ عام 1891م (انظر إنكلر، 1974-1990، ص 5-6) هو المقصود على وجه الخصوص. (إنكلر، 1968-1989، 175). ونعلم أيضاً أن (علم الجيولوجيا) كان محط اهتمام لاكان أيضاً. [انظر: الدروس، 114، 293؛ [التونسية، 126، 321؛ العراقية، 98، 235؛ اللبنانية 101، 258؛ المصرية، 143، 373؛ المغربية، 102، 272. المترجم].

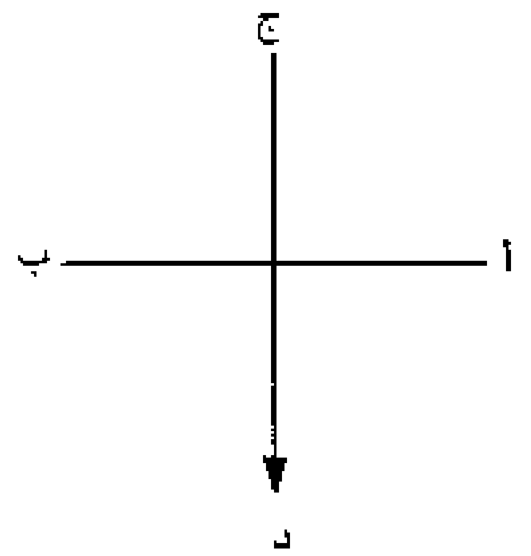

1/ محور المتوافقات (أ ـ ب) المعني بالعلاقات بين الأشياء ذات الوجود المشترك التي لا دخل للزمن فيها ألبتّة.

و 2/ محور المتعاقبات (ج ـ د) الذي لا نستطيع أن نأخذ في الحسبان عليه إلاّ أمراً واحداً في الوقت نفسه، لكننا نجد فيه كل ما يتعلّق بالمحور الأول مع ما يطرأ عليه من تغييرات. (**الدروس**، 115)[125].

إلاّ أن ذلك التميّز بين المحورين ينطبق على العلوم بدرجات متفاوتة. فهو مفيد كل الفائدة في العلوم التي تعمل على القيم (على سبيل المثال: «الاقتصاد السياسي»)، وهي لا غنى عنها للعلوم التي تأخذ «نظام القيم الخالصة» موضوعاً لها (**الدروس**، ص 116)[126]، ونموذجها اللسانيات التي «ليس للمُعطيات الطبيعية مكان فيها». ومن هنا جاءت أهميّة إيجاد مصطلحية خاصة وخصوصاً للسانيات، وقد تمثّلت تلك المصطلحية في ظهور الثنائية المشهورة التزامنية والتعاقبية (**الدروس**، 117)[127].

وفي هذا الموضع يتجلّى مرّة أخرى الربط الوثيق الذي ينشأ بين مفاهيم التفكير السوسيري: إنه لمن المستحيل التفكير في المقابلة بين المحورين دون التفكير في الوقت نفسه في تعريف اللغة بوصفها نظاماً من القيم وبالعكس.

(125) التونسية، 127؛ العراقية، 98-99؛ اللبنانية، 102؛ المصرية، 144-145؛ المغربية، 103-104. [المترجم].

(126) التونسية، 128؛ العراقية، 99؛ اللبنانية، 103؛ المصرية، 145؛ المغربية، 104. [المترجم].

(127) التونسية، 129؛ العراقية، 100، اللبنانية، 104؛ المصرية، 146؛ المغربية، 105. [المترجم].

وستُبدي الملاحظة نفسها ـ لكن بعد مسارٍ ملتوٍ بعض الالتواء ـ عند طرح المسألة التي ذكرتها سابقاً عن العلاقات بين التعاقبية والخطية. وآية ذلك أننا لاحظنا قبل قليل أن اللسانيات هي التي تنظر إلى اللغة على أنها خاضعة لتأثيرات الزمن. وقائع متناقضة: مدمرة كما تبدو ظاهرياً، تخضع لتنظيم يسمح للغة بأن تنجو من كل عمليات البتر والتشويه التي تعتريها وبأن تعيد استخدام الإهانات الموجّهة إليها لإعادة بناء نظامها باستمرار. وهذا ما تمثّله الاستعارة الجُمليّة «للجُبّة المُرقّعة برُقَع مأخوذة من قماشها نفسه». (**الدروس**، 235)(128). لكنْ هل التعاقبية هي الصيغة الوحيدة لتدخل الزمن في اللغة؟ لا ليس كذلك: لقد رأينا فيما سبق أن المبدأ الثاني للعلامة، مبدأ «الصفة الخطية للدال» يطرح أيضاً مسألة الزمن في علاقاته بالموضوعات اللسانية. ومن هنا تنشأ لدينا ملاحظة هي في الوقت نفسه بديهية ـ عند الاختبار الأول ـ وإشكالية. وأستعير من غوديل الصيغة التي صاغها فيها:

> يستخدم سوسير مفهوم الزمن، من منظور التعاقبية أو منظور التزامنية، بطريقتين مختلفتين كل الاختلاف: في الحالة الأولى، الزمن هو الفاعل، وبتحديد أكثر هو الشرط الضروري للتغيير؛ وفي الحالة الثانية هو مجرد فضاء للخطاب. (غوديل، 1957-1969، 207).

وهذا ما يبدو أنه ينبثق من الفصل بين مفهومي التعاقبية والخطية. لكن هذا الفصل هل هو فصل مطلق؟ ألا ينبغي أن نطرح مسألة العلاقة المحتملة ـ أياً كان شكلها ـ بين خطية الدال (غوديل يتبنى الاستعارة المكانية التي جاء بها سوسير [78] وهو يتحدث عن «فضاء الخطاب») والتعاقبية («شرط التغيير» في مصطلح غوديل)؟ يمكن ألا تظهر أهميّة المسألة على الفور لأنها تختفي تحت المظهر التقني البحت للصياغة. ومع ذلك، فليس إلاّ أمر واحد هو مسألة الزمن عند سوسير. ويمكننا إيجازه بالسؤال التالي: هل هناك في **الدروس**(129) مفهومان مختلفان للزمن، زمن التعاقبية، وزمن الخطية؟ أو بعبارةٍ أخرى، هل من الممكن

(128) التونسية، 257؛ العراقية، 194؛ اللبنانية، 208؛ المصرية، 298؛ المغربية، 219. [المترجم].

(129) وأضيف: بل ذلك موجود في تفكير سوسير السيميولوجي كله، أي في رأيي، في الكل المتجانس نسبياً الذي يضمّ **الدروس وبحث الحكاية الخرافية**، باستثناء البحث حول **الجناس التصحيفي** الذي يبتعد على الدوام، في رأيي، عن السيميولوجيا بالمعنى الذي يعطيه إياها سوسير. انظر حول هذه النقطة الفصلين الثالث والسادس.

أن نستشف وجود علاقة بين هذين الزمنين، أي أن نعيد الوحدة للمفهوم السوسيري للزمن؟

ولكي نعرض لذلك سريعاً قبل أن نستفيض في بحثه في الفصل الخامس يمكن أن نبدأ بالقول: إن خطية الدال هي من صفات الكلام، في حين أن التعاقبية تؤثر في اللغة. فيما يخص الخطية تحيل إلى النصوص التي اقتبسناها فيما سبق، وعلى وجه الخصوص نص المصادر المخطوطة. وبخصوص التعاقبية، فالنصوص كثيرة: إن اللغة هي التي تتأثر بها، ولمّا كانت الأولى شرط الثانية فإنها توصف بلا قابلية التحول والتحول في وقت واحد:

> إن العلامة [أساس اللغة، م.أ] قابلة للتحول لأنها متواصلة [في الزمن]. (الدروس، 108-109)[130].

تبدو الأمور حتى هذا الموضع بسيطة. الخطية صيغة تدخل الزمن في الكلام، التعاقبية ـ أو بدقة أكثر، التغيير الزماني ـ هي صيغة تدخل الزمن في اللغة. لكن هل تنشأ علاقة بين صيغتي التدخل المشار إليهما؟ في البداية كل شيء على ما يرام: مفهوم الكلام يسمح بإقامة جسر بين الخطية والتعاقبية، وآية ذلك أنه يتدخل في تعريف الخطية نفسه. أما التغيير الزماني فإنه يجد أصله في الكلام:

> إن كل ما يتصف بأنه تعاقبي في اللغة يكون بسبب الكلام، ولا يكتسب تلك الصفة إلا بوساطة الكلام (غوديل، 1957-1969، 156؛ إنكلر، 1968-1989، 223؛ انظر أيضاً: الدروس[131]، 138 ـ الصياغة مطابقة كل المطابقة لصياغة المصادر المخطوطة ـ 143).

فالتعاقبية إذاً تصبح الشكل المتخذ في مستوى اللغة ما هي عليه الخطية في مستوى الكلام. وبذلك تتأمن الاستمرارية بين صيغتي تدخل الزمن في اللسان: الزمن الذاتي للفاعل الناطق، والزمن الموضوعي للغة بوصفها نظاماً. وتكون الخطية هي شرط التعاقبية.

[79] وينبغي أن نتوقف عند كلمة (شرط). هل شرط الخطية ضروري؟ نعم، بالبداهة: ينبغي جيداً للغة أن يتحدث بها أحدٌ ـ أي أن تكون مكاناً لأفعال كلامية،

(130) التونسية، 120، العراقية، 93؛ اللبنانية، 96؛ المصرية، 129؛ المغربية، 96. [المترجم].
(131) التونسية، 150؛ العراقية، 115؛ اللبنانية، 121؛ المصرية، 170؛ المغربية، 125. [المترجم].

خطية، تدخل في إطار الزمن ـ لكي تتطور. لكن هل هذا كاف؟ بالتأكيد أنه ليس بكافٍ. وينظر سوسير إلى المسألة بشكل تنظير أقرب ما يكون إلى الأسطورة.

> إذا نحن أخذنا في الحسبان اللغة في الزمن، بغض النظر عن جمهور الناطقين ـ متصورين شخصاً عاش منفرداً طوال قرون عديدة ـ فإننا قد لا نلاحظ أي تغيُّر في اللغة، ولا أي أثر للزمن فيها. (**الدروس**، 113)[132].

إن التفكير الذي يصور شخصاً يتكلم منفرداً طوال عدة قرون يبدو لأول وهلة تفكيراً سوسيرياً بحتاً. وقد بيّن إنكلر، 1968–1989، 174، أن هذا التفكير مصدره الناشران. لكنه تفكير يتطابق في رأيي كل التطابق مع حِجاج سوسير. أما بالنسبة إلى (قد= *peut-être*) التي تخفف من حدّة التأكيد فإنها موجودة قطعاً في مدوَّنات من استمعوا إلى دروس سوسير. لكنها لاحقاً تتلاشى عملياً في البراهين الرئيسية التي لم تعد تحسب أقلّ حساب لها.

أما الصيغة «الزمن لا يعمل فيها» فهي صيغة قطعية تماماً. لكن ما الزمن المقصود؟ هل هو الزمن «الذاتي» للخطية التي لا يمكن فصلها عن أي فعل من أفعال الكلام، سواءٌ كان هناك أو لم يكن هناك «جمهور المتكلمين»[133]؟ أم هو الزمن «الموضوعي» للتعاقبية التي تتسبب بالتحولات اللغوية ما إنْ يتدخل «جمهور المتكلمين»؟ أعتقد أنني استطعت في موضع آخر[134] أن أعدّ التأويل القائل بأن الزمن المقصود هو زمن الخطية تأويلاً «بديهياً» ولن أذهب إلى حدّ التناقض باختياري زمن التعاقبية. لكن يبدو لي الآن أن اتخاذ قرار هو ضرب من المستحيل. لأنه في هذه النقطة يلتقي في عقدة ثابتة ثبوتاً نهائياً الزمنان السوسيريان: زمن خطية الفعل الكلامي ـ الضروري لتطور اللغة ـ وزمن التعاقبية الذي ليس في مجمله إلاّ الزمن نفسه منذ أن يتدخل جمهور المتكلمين.

لقد فهمنا: إن ازدواجية المفهوم السوسيري للزمن ليست سوى في الظاهر.

---

(132) التونسية، 124-125؛ العراقية، 96؛ اللبنانية، 100؛ المصرية، 140؛ المغربية، 99. [المترجم].

(133) ينبغي في واقع الأمر أن نلاحظ أن سوسير لا يستبعد ألبتّة فكرة فعل كلام شخصي دون «جمهور المتكلمين». انظر على وجه الخصوص المقطع العائد إلى الملاحظة 23. 6 (إنكلر، 1968-1989، 172)، حيث تم عزلُ «الجزء [اللسان] الموجود في روح جمهور المتكلمين، وهذا ليس حال الكلام». (التركيز على العبارة من ميشال أرّيفيه).

(134) أرّيفيه، 1990، 42.

وإن العامل الوحيد في الفصل بين زمن الخطية والزمن الذي يدخل في التطور التعاقبي هو «جمهور المتكلمين». ويكفي للاقتناع بذلك أن نعيد قراءة الفقرة الواقعة في الصفحة 250 من **الدروس**(135): إن العلاقات التي تنشأ بين النطقين المتتاليين لكلمة (Messieurs= سادتي)(136) عندما تتردد في خطبة واحدة، وتلك التي تقوم بين [80] (الاسم الموصوف) خطوة= *pas* و (أداة النفي) *pas* أو بين كلمتي *calidum*= حار اللاتينية و *chaud*= حار الفرنسية ليست علاقات مختلفة: «وليست المسألة الثانية في الحقيقة سوى امتداد للأولى وصورة متشعبة منها». هناك في الجُملة هوية واحدة للموضوعات اللغوية عبر الزمن، سواء كان ذلك الزمن هو زمن الخطية أو زمن التعاقبية. إذاً، يعني ذلك أنه لا يلزم الفصل بين نوعي الزمن المذكورين.

هل يعني ذلك أن المسألة قد وجدت حلاً نهائياً؟ للأسف: لا! و وندرلي (Wunderli) ـ الذي لا يتصور بوضوح مسألة العلاقة بين الخطية والتعاقبية ـ يطرح بحزم مسألة التطابق التعاقبي l'identité diachronique. وهو يلاحظ بحق مظاهر التردد عند سوسير، ويصل به الأمر إلى حدّ القول: إن الحلّ متى اعتمد ـ المُتمثّل في المماثلة بين التطابق والمنشأ provenance ـ فهو يلامس «الحشو». (1990، ص 54).

لكن ينبغي الذهاب إلى أبعد من ذلك، والتذكير بأن الثقة المفرطة التي تعبّر عنها الفقرة الواقعة في الصفحة 250 من **الدروس**(137) حول تطابق العلامة في خطية

---

(135) التونسية، 271-272؛ العراقية، 204-205؛ البنانية، 222؛ المصرية، 320؛ المغربية، 234. [المترجم].

(136) يقول سوسير (التونسية، 167): «ألا ترى أنك إذا سمعت محاضراً يعيد كلمة messieurs أي («سادتي») مرّاتٍ عديدةٍ خُيّل إليك أنك في كل مرّة تسمع العبارة نفسها»، والحال أن اختلاف سرعة التلفظ بها وتنوع النغمة فيها يضفيان عليها من سياق إلى آخر فوارق صوتية ذات بال، لها من الأهمية ما لتلك الفوارق التي تصلح في مواضع أخرى للتمييز بين كلمات مختلفة... وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الشعور بالاتحاد يبقى قائماً على الرغم من أنه لا وجود كذلك لاتحاد مطلق من وجهة النظر الدلالية بين ما تفيده كلمة Messieurs = سادتي من فقرة إلى أخرى من خطبة خطيبنا... [المترجم].

(137) التونسية، 272؛ العراقية، 205؛ اللبنانية، 221-222؛ المصرية، 320؛ المغربية، 234. [المترجم].

الخطاب مع نفسها هو بعيد كل البعد عن أن يكون ثابتة من ثوابت الفكر السوسيري. وفي الصفحة 150 من **الدروس** يلح سوسير بخصوص التكرار المتتالي لكلمة *Messieurs* في محاضرة ما، ويشدد على الاختلافات التي تفصل بين تلك التحققات، اختلافات هي في بعض الأحيان «على درجة من الوضوح تجعلها تشبه تلك الاختلافات التي تُستخدم في مواضع أخرى لتمييز الكلمات المختلفة». (ص 151)[138]. وهو أكثر وضوحاً أيضاً في التعليقة رقم 10 «إن الموضوع الذي يصلح كعلامة لا يكون ألبتَّة، «هو نفسه» مرتين». (إنكلر، 1974-1990، 21؛ **كتابات**، 203).

وفي الظاهر، يبدو أن الوضع قد انقلب رأساً على عقب. وإذا كانت بعض الفقرات تطرح وحدانية مفهوم الهوية، بينما تنكر فقرات أخرى على العلامات قدرتها على الوصول إلى أي نوع من التطابق تزامنية كانت أو تعاقبية. إن هناك بالتأكيد تناقضاً في الصياغة المفهومية لهوية العلامة. وفي تأثير الزمن في الموضوع اللغوي أيضاً. لأنه (سوسير) في التصور الأول يحتفظ بالتطابق، في حين أنه في الثاني يحول دون طرحه[139].

نلاحظ مع ذلك بغرابة أن ذلك التناقض يترك إمكانية كاملة للمحافظة على وحدانية المفهوم السوسيري للزمن. لأنه يبقى على الأقل بين الموقفين المتناقضين شيء مشترك: إلغاء الاختلاف بين زمن الخطية وزمن التعاقبية. ومهما كان تأثير الزمن على هوية العلامة فإنه يتدخل دون أن يكون ضرورياً [81] (أو ممكناً؟) تقسيم المفهوم إلى زمن لخطية الخطاب وزمن للتعاقبية.

أتساءل وفي نفسي ظلال من الحيرة في اللحظة التي أنهي فيها هذا الفصل. هل خنتُ تفكير سوسير؟ إن هذا في الظاهر محتمل كل الاحتمال، لأن مجرد سكوتي عن مظاهر عديدة لا يمكن إهمالها هو خيانة. بل إن هناك بلا شك ما هو

---

(138) التونسية، 167-168؛ العراقية، 127؛ اللبنانية، 131-132؛ المصرية، 189-190؛ المغربية، 137-138. [المترجم].

(139) هل من الضروري القول، بخصوص هذه المسألة التي يقول عنها سوسير نفسه: إنها تتجاوز حدود اللسانيات لتدخل في مجال «الفلسفة»، وبخصوص مسألة التناقضات (الظاهرة؟) التي يلحظها في تفكير سوسير: إنه من المستحيل هنا ألاّ نقول شيئاً؟.

أخطر من ذلك: لقد كنت بلا ريب، بعد سوسير، ضحية لهذه «المادة الزئبقية» التي هي اللغة بالتحديد.. لكن المقصود بهذا الفصل الافتتاحي مدخل متدرج وتمهيدي في خفايا الكهوف السوسيرية. يبقى علينا الآن أن نكتشف بعناية بعضاً من أكثر تجاويف تلك الكهوف وعورة: وهذا سيكون موضوع الفصل التالي.

[83] الفصل الثالث

السيميولوجيا السوسيرية بين الدروس والبحث عن الحكاية الخرافية

لا أرمي من هذا الفصل الإسهام في تاريخ السيميولوجيا أو السيميائية sémiotique[1][2]. وستمنعني من ذلك على أي حال خصوصية موضوعي. بل سأكون عاجزاً عن ذلك عجزاً مضاعفاً. لأن دور **الدروس** المؤسس في تاريخ هذين المجالين التوأمين هو اليوم في جانبه الجوهري تمّ توصيفه جيداً.

فبعد أن أوضح بارت وغريماس، أفكارهما، بإسهاب نوعاً ما، عما يدين به هذان العلمان **للدروس** ظهرت أعمال كثيرة تناولت الموضوع (بعد هينو، 1992،

---

(1) sémiotique: السيميائية: دراسة خصائص الأنظمة السيمية الطبيعية منها والمصطنعة، من النواحي اللغوية والفلسفية والاجتماعية والنفسية، ولاسيما خصائص النظام السيمي المُستخدم للتواصل بين البشر، أي اللغة. وينقسم هذا العلم إلى ثلاثة أقسام هي: علم الدلالة وعلم الرموز التواصلي وعلم الرموز العلاقي. **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص447. (المراجع).

(2) أثبت ناشرا كتاب سوسير (ص 33، الحاشية) ملاحظة بخصوص هذين المصطلحين ترجمتها ما يلي: (التونسية، 60): ينبغي أن نحذر الخلط بين سيميولوجيا (علم العلامات أو السيميائية) وسيمانطيقا(*)؛ إذ يهتم الأخير بما يطرأ على الدلالة من تغيرات (علم التطور الدلالي)، وهو علم لم يخصه ف. دو سوسير بعرض منهجي مفصل إلا أننا نجده قد تعرض للمبدأ الأساسي الذي يقوم عليه هذا العلم. ص 109 (من **الدروس**). [المترجم].

(*) نخالف المترجم رأيه في اعتماد المصطلح مُعرّباً «سيمانطيقا» مقابلاً لـ sémantique. فقد عدنا إلى أربعة معاجم لغوية حديثة (**مُعجم اللسانيات الحديثة**، ص126؛ **مُعجم اللسانية**، ص186؛ **مُعجم علم اللغة النظري**، ص251؛ و**مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص445)، أجمعت على اعتماد مصطلح «علم الدلالة» في مقابل semantics/sémantique. (المراجع).

انظر آخر هذه المباحث في أرّيفيه، 2000، والفصل الثامن من هذا الكتاب). أما فيما يخصّ بحث سوسير عن **الحكاية الخرافية** ـ سوسير، 1986، طبعة مارينيتي وميلي (Marinetti et Meli)، 1986 ـ فإن الأمر مختلف كل الاختلاف. ذلك لأن التعاليم المخصصة صراحةً للسيميولوجيا تقتصر في هذا البحث الذي لم يُنهه سوسير على بضع عشرات من الصفحات المتفرقة، وتكاد تكون كلها عناصر مشروع أولي. ينبغي نبشها من ركام بحوث طويلة في التاريخ السردي أو التأملات العَلَمية[3]. وليس ذلك بالتأكيد بسبب أن هذه العناصر تخلو من أي علاقة بالمشروع السيميولوجي: لكن لأن تلك العلاقات ـ التي سأعود إليها ـ يصعب التعرف إليها من النظرة الأولى. نظراً عن ذلك، ينبغي التذكير أنه إذا كان يمكن الاطّلاع على **الدروس** ـ بشكلها المُسمّى «نموذجي» منذ عام 1916 فإن البحث حول الحكاية لم يجر الكشف عنه تدريجياً إلاّ منذ عام 1957. وكان ينبغي الانتظار حتى 1986 لكي نقرأ الطبعة غير المكتملة، وغير الناجزة فيلولوجياً، التي بقيت في كل الأحوال محدودة الانتشار؛ وهي الطبعة التي أشرتُ إليها قبل قليل[4]. إن طبيعة العمل نفسه، وتأخُّر ظهوره يفسر ما نراه من أن تأثيره في تأسيس [84] السيميائية وتطورها ظلّ هامشياً. وإذا لم أذكر إلاّ الاسمين المذكورين أعلاه فإنني كما أظن قادر على الزعم بأن بارت وغريماس ـ اللذين كانا يعلمان بوجود هذا البحث ـ لم يعتمدا عليه اعتماداً جاداً في أعمالهما[5].

إذاً، ما دمتُ لن أكتب تاريخاً، فما الذي أنوي فعله؟ سأقوم بعمل هو في الوقت نفسه ضروري وصعب وطموح: متخذاً نقطة انطلاق، على غرار سوسير، هي التفكير في مسألة العلاقات بين اللسانيات والسيميولوجيا. لستُ بالتأكيد الأول، وخصوصاً بالنسبة إلى سوسير. فكتابا كلودين نورمان (2000) ويوهان فهر (2000)

(3) onomastique: عَلَمي أو أعلامي؛ خاص بأسماء العَلَم. (المراجع).

(4) إلاّ أن قسماً كبيراً من هذا البحث أصبح أكثر سهولةً عند الاستعمال بفضل بحث بياتريس توربان (Béatrice Turpin)، 2003.

(5) هذا ما ألمح إليه زيلبيربيرغ Zilberberg (1997) عندما سكت عن الموضوع في بحثه عن غريماس. وزيلبيربيرغ يعرف عمل سوسير عن **الحكاية الخرافية** وإن كان ينعته في ص 165-166 «بالغريب»، شأنها شأن البحث عن **الجناس التصحيفي**.

اتخذا من المسألة محوراً مركزياً لهما، وعادا إلى مسألة سبق أن عرض لها عدد آخر من الباحثين في طليعتهم آركو سيلفيو آفال (Arco Silvio Avalle) (1973)، ورودولف إنكلر (1974–1975 و 1980) وآن هينو (1992 و 2002)، وسونغدو كيم (Sungdo Kim) (1993) وفرانسيس غاندون (2002) ـ وأسماء أخرى نسيتها. وإذا انتدبتُ نفسي لمعالجة الموضوع بعد هؤلاء المؤلفين كلهم فذلك يعني أن الأول قد ترك للآخر شيئاً، سواءً في مسألة الأصل أو في المفهوم المغري، والمُشكِّل «للكائن غير الموجود»: لأن الوضعية الغريبة هي الصفة التي أسبغها سوسير على «العلامة، بالمعنى الفلسفي» في **بحث الحكاية الخرافية**، كما سنرى ذلك.

لعله من الضروري قبل الدخول في المسألة النظرية أن نطرح بعض المعالم في التسلسل التاريخي. يسعى أولها إلى توضيح مكانة السيميولوجيا في التفكير السوسيري الذي اشتهر بأنه تفكير لساني (وليس سيميولوجيا). ثم تُثنّي بتحديد مكانة **بحث الحكاية الخرافية** ـ الذي اشتُهر بأنه سيميولوجي – في مسيرة سوسير العلمية.

إن المكانة التي تشغلها السيميولوجيا في الطبعة النموذجية من **الدروس** محدودة جداً لجهة الكمّ. ولا يحتوي «الكشاف» إلاّ على مدخلين للاسم: سيميولوجيا. يحيل المدخل الأول إلى المقطع المشهور للصفحات 33 إلى 35، التي وضع فيها سوسير أسس السيميولوجيا، وعرض عرضاً يتّسم بالصعوبة مسألة علاقاتها باللسانيات ـ يصف ذلك في الصفحة 34 فيقول: «تدور في حلقة مفرغة»[6]: وهي نزهة معتادة عند سوسير ـ.

أما المدخل الثاني في «الكشاف» فإنه يحيل إلى الصفحة 100 التي يطرح فيها سوسير مسألة انتماء أنظمة «علامات طبيعية كليّاً» إلى السيميولوجيا ـ إن العبارة السوسيرية التسمياتية لا تظهر إلاّ في نص الطبعة المشهورة، وليس في المصادر المخطوطة ـ ويشير النص إلى أن هذا الانتماء لا يمكن أن يكون إلاّ هامشياً. [85] وبعد هذا مباشرةً، يُصدر سوسير حُكماً أُعيدت صياغته بشكل ملحوظ في المصادر المخطوطة:

---

(6) التونسية، 37؛ العراقية، 35 (ترجمة غريبة؟)؛ اللبنانية، 28؛ المصرية، 41 (ترجمة غريبة)؛ المغربية، 26. [المترجم].

يمكن للسانيات أن تصبح نمطاً أساسياً لكل سيميولوجيا على الرغم من أن اللغة ليست سوى نظام خاص، (**الدروس**، 101)[7].

في هذا الموضع تلحُّ المصادر على الصفة الاتفاقية لاختيار اللسانيات «نمطاً أساسياً». مع أنه ليس هناك ذكر لأي نظام آخر بوصفه مرشحاً بديلاً لوظيفة «النمط الأساسي».

لكن السيميولوجيا تظهر في **الدروس** بصيغة الصفة (سيميولوجي) في عدد من المواضع الأخرى التي لا يشير إليها «الكشاف». ففي الصفحة 111 يطرح سوسير بخصوص لغة الإسبرانتو espéranto[8] وتبدلاتها المحتملة مسألة العلامة في الزمن: فالعلامة، كما نذكر، هي في الوقت نفسه متأثرة حسب عنوان الفصل في الطبعة النموذجية، «بالتحول واللا تحول». وستكون هذه المسألة كما سنرى مركزية في بناء العلاقات بين اللسانيات والسيميولوجيا:

إن استمرارية العلامة في الزمن، وتغيُّرها فيه مبدأ من مبادئ السيميولوجيا العامة (تكاد المصادر المخطوطة تتفق كل الاتفاق مع النص النموذجي)[9].

وفي الصفحة 149 من **الدروس**[10] يطرح سوسير مسألة أساسية لن تعالج هنا إلاّ معالجة عَرَضِيَّة: إنها مسألة الاختلاف المحتمل في الوضعية بين وحدات اللغة ووحدات الأنظمة السيميولوجية الأخرى. وقد عالجت هذه المسألة الرئيسية في أرِّيفيه، 1998.

إن المصادر المخطوطة التي تضمّ أيضاً كما تعلم أفكاراً لا تجدها في النسخ

(7) التونسية، 112 (منوالاً عاماً)؛ العراقية، 87 (خير ممثل)؛ اللبنانية، 90 (مشرفاً عاماً)؛ المصرية، 125 (النموذج الممتاز)؛ المغربية، 88 (المثل الأعلى في كل طريق ومذهب) كل ما ذكرناه بين قوسين هو ترجمة لعبارة: Le patron général. [المترجم].

(8) سوسير يعرف هذه المسألة حق المعرفة وخصوصاً عبر منشورات أخيه رينيه، رئيس الجمعية السوسيرية للإسبرانتو espéranto، ومؤلف عدد من الأعمال عن الإسبرانتو espéranto. انظر الفصل الأول من هذا الكتاب. و(الإسبرانتو esperanto: لغة مصنوعة وضعها Zamenhof عام 1887، وتتألف من خمسة صوائت وثلاثة وعشرين صامتاً، ومعظم كلماتها من اللغات الأوروبية الغربية؛ **معجم المصطلحات اللغوية**، ص177). (المراجع).

(9) التونسية، 123؛ العراقية، 95؛ اللبنانية، 99؛ المصرية، 139؛ المغربية، 99. [المترجم].

(10) التونسية، 165-166؛ العراقية، 125-126؛ اللبنانية، 129-130؛ المصرية، 187-188؛ المغربية، 135-136. [المترجم].

الثلاث للدروس التي أُلقيت من 1907 إلى 1911 تخصّ السيميولوجيا بمكانة أكثر أهميّة[11]. ولا يكاد يكون في الإمكان ذكر كل المقاطع التي ذكر فيها المصطلح، لكن أهمها هو التالي: إنكلر، 1968–1989، 147، 148–149، 273؛ إنكلر، 1974–1990، 47. وأكثر المقاطع أهميّة هو بلا شك هذا المقطع:

> إذاً، لا يمكن أن تبدو طبيعة العلامة إلاّ في اللغة، وتتألف تلك الطبيعة من أشياء لا ندرسها إلاّ قليلاً. لذلك لا نرى للوهلة الأولى ضرورة علم السيميولوجيا ولا فائدته العظيمة، عندما يتعلّق الأمر باللغة من وجهات نظر عامة وفلسفية؛ وعندما ندرس شيئاً آخر مع[12] اللغة. (إنكلر، 1968–1989، 51؛ انظر: الدروس[13]، 34، حيث يرفض سوسير هذا الموقف).

[86] نلاحظ منذ البدء التناقض الموجود بين الموقف المُعلن سابقاً والموقف الذي يقرّره هنا: فاللسانيات في المقطع الأول هي النمط الأساسي لأي علم سيميولوجيا ممكن. وفي المقطع الثاني تُقدّم العلامة اللغوية بوصفها نوعية بالضرورة بحيث إن أي علم سيميولوجي محتمل لا يمكن أن يكون سوى ملائم تجاهه. وسنجد هذا التناقض من جديد ـ وربما سنكون حينئذٍ قادرين على تفسيره ـ عندما نتحدث عن الوحدات السيميولوجية **للحكاية الخرافية**.

لكن السيميولوجيا تظهر في اهتمامات سوسير اللسانية في زمن يسبق دروس جنيف الثلاثة بكثير. إنكلر (1980، 4)، ثم فهر (2000، 110، رقم 4) يلاحظان أنه في عام 1894 في مخطط «المقالة عن ويتني» تظهر كلمة سيميولوجيا لأول مرّة. وللكلمة في هذا النص خصوصية تتمثّل في أنها لا تحمل معنى «علم العلامات»، لكن بمعنى «اللسان ـ الموضوع»: عندما يراقب «الطبيعة المعقدة جداً للسيميولوجيا الخاصة المُسمّاة لساناً». (إنكلر، 1968–1989، 197)، يطرح سوسير منذ ذلك

---

(11) والجرد يبدو شاملاً للمواضع التي يستخدم فيها سوسير مصطلح سيميولوجي (وسينيولوجي signologie «علم العلامات»، مصطلح استخدمه سوسير في بعض المواضع، **كتابات**، 260، 265-266)، انظر: إنكلر، 1980.

(12) «مع» تُقابل بالفرنسية avec. وهو المعنى الذي اختاره مؤلف الكتاب لها في نص سوسير لأن معناها في العبارة غير بديهي. ورجح هو أن يكون معناها «مع» يعني أن ندرس شيئاً آخر في وقت واحد مع اللغة وليس دراسة شيء آخر مستخدمين لذلك اللغة.

(13) التونسية، 37-38؛ العراقية، 35-36؛ اللبنانية، 28-29؛ المصرية، 42؛ المغربية، 27. [المترجم].

الوقت خصوصية اللسان بين الموضوعات المحتملة للسيميولوجيا. هذا من جانب، ومن جانب آخر سبق لنا أن رأينا أن سوسير قدّم السيميولوجيا ـ هذه المرة بمعنى «علم العلامات ـ بطريقة واضحة كل الوضوح ومقنعة كل الإقناع لزميله أدريان نافيل لكي يعطيها هذا مكانةً مركزيةً في عام 1901 في كتابه **تصنيف جديد للعلوم** (1901-1991، ص 104، وفي الفصل الثاني من هذا الكتاب، ص 36-37).

أما اهتمام سوسير بـ **الحكاية الخرافية** ـ وببعض أنواع الخطاب ذات النمط المقارب، كالميثولوجيا على سبيل المثال ـ فهو أيضاً قديم العهد. يورد أ. كوني ـ في عام 1937، أي ما يقارب ستين سنة من بعدُ ـ أن سوسير اليافع الذي تأثّر بالإخفاق الذي حلّ بـ «مذكرته» Mémoire في ألمانيا حاول منذ عام 1880 أن يتجه نحو دراسة الملحمة الجرمانية. وليس أقل بُعداً من الماضي، في عام 1894، نراه مندمجاً في مشروع «مقالة عن ويتني»، وهو في واقع الأمر تطور مذهل حول أسماء آلهة الميثولوجيا الهندية والإغريقية. (إنكلر، 1974-1990، 25؛ **كتابات**، 221). وبطريقة ترهص بتأملات سوسير العَلَمية للبحث حول الحكاية يقترح سوسير فصل اسم الآلهة من كل «موضوع ملموس»: وعاكساً الصيغة التقليدية ـ ، «الألوهية، هي اسمها» ويقترح أن

> يرتبط مصير الاسم *nomen* ارتباطاً حاسماً، من ثانية إلى ثانية تقريباً، بمصير الإله *numen*.

يرى سوسير أن الاسم هو الألوهية كما نجدها مُدرجة في نظام العلامة التي تشكّل الأسطورة. وإن [87] تغيير اسمها يفرض عليه تغيُّرات نسبية.

وخشية أن تبدو تافهةً إلى حد بعيد، أشدّد، على التدقيق الزمني المدهش «من ثانية إلى ثانية»: إن مسيرة الاسم في الزمن ـ يعني الألوهية ـ هو بصراحة قضية بارزة. عن أي زمن نتحدث؟ عن الزمن الذي يُعدّل في مسيرة التاريخ أسماء الألوهية؟ لكن هذا الزمن لا يُقاس أبداً «بالثواني». هل من الممكن أن يكون على الأرجح الزمن الذي يُحتمل أن يفصل في الخطاب من «ثانية» إلى أخرى الذِكر المتتالي للاسم نفسه؟ لكن هل له مفعول تعديل الأسماء؟ الحلُّ بلا شك هو أن نقول: إن مظهرَي الزمن هذين، المختلفين ظاهرياً، ليسا في الحقيقة إلاّ زمناً واحداً. ونجد من جديد هنا المسألة التي تتمثّل في **الدروس** عبْر مقارنة تمرُّ غالباً

دون أن ينتبه لها أحد لكثرة ما تبدو متناقضة: بعد أن طرح سوسير الفرق بين استخدام كلمة *Messieurs* مرّتين متتاليتين في محاضرة ما ـ تفصل بين الاستخدامين بضع «ثوان» ـ يقارن سوسير ذلك بالفرق المُلاحظ بين كلمة *Calidum* اللاتينية، وكلمة *Chaud* الفرنسية ـ اللتين يفصل بينهما ما يقارب عشرين قرناً: «المسألة الأولى ليست في حقيقة الأمر إلا امتداداً وتعقيداً للأولى». (**الدروس**[14]، 250)[15]. وأضيف أن مسألة الزمن هذه ستتكرر من جديد، فيما بعد عندما نتحدث عن نمطي العلامة اللذين هما الشخص الأسطوري وحرف الألفباء.

ويُعدُّ عام 1904 عاماً مهماً في مسار تفكير سوسير بخصوص **الحكاية الخرافية**. ففي 15 كانون الأول/ديسمبر، ألقى أمام أعضاء «جمعية التاريخ وعلم الآثار في جنيف» محاضرة عن «البورغونديون (les Burgondes)[16] واللغة البورغوندية في البلاد الرومانية». لقد سمح له تفحص بعض أسماء المواضع في مقاطعة (vaudois)[17] السويسرية التي يعود أصلها كما يبدو إلى اللغة البورغوندية بتقديم فرضية جريئة نجدها في «الملخص القصير» ـ صفحة واحدة، صيغت بضمير الغائب ـ الذي نشرته الجمعية:

> [إذا صح الأصل البورغوندي لأسماء الأماكن هذه] فإنه يحق لنا أن نتساءل عن مقدار إسهام سويسرا Hélvétie[18] البورغوندية في تكوُّن الحكاية

(14) التونسية، 272؛ العراقية، 205؛ اللبنانية، 222؛ المصرية، 320؛ المغربية، 234. [المترجم].

(15) نتثبت في المصادر المخطوطة من أن سوسير لم يستشهد فقط بمثال كلمة Messieurs لكن أيضاً بمثال كلمة guerre (إنكلر، 1968-1989، 244. هل هي ذكرى المعارك التي تدور في أسطورة أغنية بلاد النيبولونجن Nibelungenlied؟)، ثم استخدم بعد ذلك تتالي alka-ok (414).

(16) البورغونديون شعب جرماني من أصل اسكندينافي عاش على شواطئ البلطيق ثم في وادي vislule. وهاجر بعدها إلى le Main حيث أسس مملكة امتدت حتى نهر الرين (Rhin)، في أوائل القرن الخامس. (المراجع).

(17) vaudois: هم أعضاء حركة دينية انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية، وتأسست في نهاية القرن الثاني عشر على يد Pierre Vaudès الذي أسس في العام 1170 مِلَّةً سُمّيتْ «فقراء ليون» ودعت إلى العودة إلى الإنجيل. (المراجع).

(18) Hélvétie: هي المنطقة الشرقية من بلاد الغول Gaule، وهي تشغل تقريباً أراضي سويسرا الحالية. (المراجع).

الخرافية البطولية أغنية بلاد النيبولونجن Nibelungen وذيوعها. (سوسير، 1921–1984، 606).

نرى في هذا الأثر الوحيد المطبوع في حياة سوسير عن تفكيره في **الحكاية الخرافية الجرمانية** أنه يتبنّى الأصل المرجعي: إن الأحداث المروية تشير في الأصل إلى أحداث حقيقية، في بلد حقيقي، مع أن معطيات أسماء الأمكنة [88] لا تسمح بتحديد موضع ذلك البلد تحديداً مؤكداً. وسنرى غير بعيد الإرباكات ـ النظرية وليس التاريخية ـ التي غاص سوسير في لُجّتها بسبب هذه الفرضية، والحلّ الجذري الذي يقدمه لتجاوز هذه العقبة.

وإنه مما لا شك فيه أنه بدءاً من العام نفسه 1904 ـ وهو العام الذي رأينا في الفصل الأول أن سوسير ألقى خلاله محاضرةً عامة حول أغنية بلاد النيبولونجن Nibelungenlied ـ بدأ سوسير بكتابة الصفحات الكثيرة التي خصّصها لبحثه: ليس أقل من 820، حسبما أحصاها فهر، 2000، 247. وحتى لو كانت تلك الصفحات تغصُّ بالتحقيقات التاريخية والتقليبات الأسمائية onomastiques، كما رأينا، فإن السيميولوجيا مذكورة باطراد كما سنرى ذلك في الاقتباسات التي سأسوقها فيما يلي من هذا الفصل.

لنلخّص حول هذه التفاصيل المتعلّقة بالتسلسل التاريخي بالقول: إن البحث السيميولوجي حول **الحكاية الخرافية** يتزامن في قسم كبير منه مع البحث اللساني.

ما الذي يمكن أن نقوله الآن عن العلاقة بين مجالَي البحث المتعاصرين كما يبدوان في المدوَّنتين؟ يمكننا القول بكلمة واحدة: إنها علاقة لا متناسقة تماماً. وآية ذلك أنه من الثابت أن العمل على **الحكاية الخرافية**، ما خلا السهو والغلط، غير مذكور في **الدروس** عند الحديث عن السيميولوجيا. فسوسير يعمد في بعض الأحيان إلى إيراد أمثلة على «أنظمة علامات» أخرى غير اللغة: وهو يختارها حينئذٍ من الصنفين التاليين:

أ) من جهة الأنظمة المتحدرة من اللغة، أو التي يُنظر إليها في كل الأحوال على أنها كذلك في واحد من التصورين اللذين بلورهما سوسير. إنهما كتابة الصم ـ البكم وألفباتهم. نعلم أن تصور الكتابة هذا، وسنعود إلى ذلك فيما يأتي، بوصفها في المحل الثاني بالنسبة إلى اللغة ليس وحيداً في تفكير سوسير.

ب) ومن جهة أخرى، هناك أنظمة محلية مثل الطقوس الرمزية، وآداب السلوك، والإشارات الحربية. وما عدا التحفظ على هذه الأخيرة ـ حول طبيعتها المحددة التي ليس من السهولة أن ندلي برأي حولها: هل هي رايات بحارة؟ أو النفخ في الأبواق؟ ـ فإنها جميعاً أنظمة علامات معللة جزئياً على الأقل: وقد رأينا فيما سبق أن انتماءها إلى السيميولوجيا مشكوك فيه.

مهما يكن من الأمر فإننا لا نستطيع إلاّ أن نلاحظ فقر هذا التمثيل. وإلاّ أن تعترينا الدهشة من أن سوسير لا يترك **الحكاية الخرافية** ولا **علم الميثولوجيا** يظهران في الجرد الذي يُجريه «لأنظمة العلامات عندما يحاول وضع أسس التحليل السيميولوجي **للحكاية الخرافية**». [89] وتتعاظم الدهشة أيضاً عندما نُلقي نظرةً سريعةً على **الحكاية الخرافية**. آية ذلك أننا نرى أن اللغة، على عكس الصمت الذي التزمه سوسير في **الدروس** بخصوص **الحكاية الخرافية**، مذكورة غالباً في التأملات الخاصة بالحكايات الخرافية. لذلك نجد اللغة مذكورة بوضوح في عدد مختلف من المواضع بوصفها موضوعاً للسيميولوجيا، بسبب أواصر «القربى»[19] التي تربطها بـ **الحكاية الخرافية**:

> هذه الرموز[20] [التي تؤلف الحكاية الخرافية] تخضع للتغيُّرات نفسها وللقوانين نفسها التي تخضع لها المجموعات الأخرى من الرموز، على سبيل المثال الرموز التي هي كلمات اللغة. إنها جميعاً قسم من السيميولوجيا. (**الحكاية الخرافية**، 30، انظر أيضاً 191-192 و 307-308).

كيف نفسر عدم التناسق في هذا بين البحثين؟ كيف يحدث أن تكون اللغة شأنها

---

(19) أواصر القربى هذه مذكورة بوضوح على سبيل المثال في الفقرة التالية: «الملمح في هذا المجال وفي المجالات التي تربطها أواصر قربى باللسانيات أن كل عدم تطابق في الفكر مصدره تفكير غير كافٍ فيما هو التطابق». (**الحكاية الخرافية**، 191). وفي مسألة التطابق يكمن كل ما بين هاتين «السيميولوجيتين» اللتين هما اللغة **والحكاية الخرافية** من ارتباط وثيق.

(20) هل من المناسب هنا التذكير بأن كلمة (رمز symbole) مستخدمة هنا بالمعنى الذي تحمله كلمة (علامة) في **الدروس** كما يدل على ذلك استخدامها للإشارة إلى «كلمات اللغة»؟ وإن التجديد المتمثل في تخصيص مصطلح (رمز) لذلك الموضوع العلمي ـ الذي هو مستحيل في اللغة ـ والذي هو العلامة المسوّغة وهو خاص **بالدروس**. في عام 1894، وفي مخطط البحث عن ويتني يستخدم سوسير مصطلح الرمز العرفي والرمز المستقل بالمعنى الذي يعطيه في **الدروس** للعلامة الاعتباطية. (إنكلر، 1968-1989، 23).

شأن **الحكاية الخرافية** موضوعاً للسيميولوجيا هنا في حين أن **الحكاية الخرافية** لم يرد لها ذكر هناك؟ تبدو المسألة تافهةً. لكنني أميل إلى التفكير أنها ليست كذلك: إنها ستسمح لنا بتلمس ما يقرّب الموضوعين وما يجعلهما متعارضين في وقت معاً.

لنعد لحظة إلى أسماء الأماكن كما يقدمها سوسير في محاضرته التي ألقاها في كانون الأول/ديسمبر 1904. إن أسماء الأماكن البورغوندية لكانتون الفود (Vaud) وللمناطق المجاورة تفترض لأغنية بلاد النيبولونجن Nibelungenlied أصلاً جغرافياً ووقائعياً. وهذا الافتراض الذي يعتمد على أسماء الأماكن اتخذه سوسير في بحثه عن **الحكاية الخرافية** فرضية عمل في عدد من مواضع البحث في **الحكاية الخرافية**، وخصوصاً عندما يفكر في عنوان لعمله الذي كان ينوي بلا شك أن ينشره في كتاب. وهذا العنوان دال كل الدلالة في هذا المجال: **التاريخ والحكاية الخرافية**: دراسة حول أصل المرويات الجرمانية المسماة Heldensage (**الحكاية الخرافية**، 183). والبرنامج الذي يستدعيه هذا العنوان تلخصه الفقرة التالية تلخيصاً لا يقلّ عن العنوان دلالة:

> كما نفترض، أن عنوان هذا المجلد يشير إلى رابط تاريخي بين الأحداث التي جرت من 443 إلى 534 في المملكة التي أسسها البورغوند في منطقة السافوا (Savoie) [90] والتي تُعرف باسم مملكة البورغوند الأولى. تلك هي في واقع الأمر فكرتنا وقناعتنا. إنه ليس الـ Gundobadus المتوفى عام 434، ولكن الـ Gundobadus المتوفى عام 516، الذي سيكون بالنسبة إلينا شخصية غونتر (le Gunther) الرئيسية التي تفسر القصة البطولية البورغوندية. (**الحكاية الخرافية**، 130).

لا يمكن أن نكون أكثر وضوحاً، وخصوصاً بشأن الشخصية الخرافية لغونتر Gunther: إنه ـ وصيغة المستقبل المستخدمة في النص المقتبس أعلاه (... الذي سيكون...) ليست بالنسبة إلى سوسير تخفيفاً من صفة الحذر ـ الشخصية التاريخية التي تحمل بالفعل اسم Gundobadus.

إن هذا اللجوء إلى المرجع، الجغرافي خصوصاً في النص الخرافي، يظهر بالقوة نفسها في النص، ويبدو للوهلة الأولى مضلّلاً إلى حدٍّ ما، ملاحظات حول تريستان الذي سيكون في **الحكاية الخرافية** القروسطية انبعاثاً لتيزي (Thésée). إن تطابق الشخصيتين مضمون هنا ليس ضمانة تاريخية وإنما عبْر الأسطورة. أما

المرجع الجغرافي فإنه يظل، وينبغي الاعتراف بذلك، مرجعاً مهماً يؤثر في البطل على الرغم من التبدلات التي طرأت عليه:

> إن الحكاية الخرافية، على الرغم مما يمكن أن يبدو على السطح، هي جغرافية إلى حدٍّ بعيد. إنها حريصة في النقطة الأخيرة عمّا يمكن أن يكوّن رحلة أو انتقالاً (تريستان، 188).

إن تعريف «الشخصية» عبر مرجعها الأصلي، التاريخي أو الأسطوري، ليس فيه أي جانب من الأصالة في البحوث التي كانت تجري في عصر سوسير عن **الحكاية الخرافية**. لكنه سبّب، جدياً، مشكلة خطيرة في إطار السيميولوجية السوسيرية. لأننا لاحظنا للتوّ عبر اقتباس سابق أن مصدر الصفة السيميولوجية للحكاية الخرافية هو ما تمتلكه «الوحدات» التي تحتويها «الشخصيات» شأنها شأن «كلمات اللغة» من «الرموز»، أي من «العلامات» إذا أخذنا في الحسبان المصطلحية السوسيرية. وتظهر لنا العقبة فيما وراء المشكلة المصطلحية: ذلك أن «كلمات اللغة» ـ بقول آخر «العلامات» ـ ليست محددة عبر الشيء الذي يربط بينها في مصادفات الوقائع الكلامية مؤقتاً وإنما عبر العلاقة بين وجهين هما كما يردان في المصطلحية المتعددة التي يستخدمها سوسير[21] تباعاً «المتصور» و«الصورة الأكوستيكية». ولا ينطبق أي شيء من هذا القبيل على شخصية الحكاية الخرافية: إنها «تُفسر» عبر العلاقة الأصلية لاسمها مع الشخصية التاريخية التي تشير في الأصل إليها. وندخل مع هذا الموضوع السيميولوجي الذي هو من نمط خاص في النظام الآدمي للتسمية. وهو نظام نعرف حق المعرفة أن التفكير السوسيري يرفضه بشدة تتفاوت في قوتها في عدة مواضع. وبذلك نجده (سوسير) في واحدة من «الملاحظات [91] الزائدة» ينظر نظرة استهانة «إلى أكثر الأشياء فظاظة في السيميولوجيا: إنها عندما تكون، عبر مصادفة الموضوعات المشار إليها، مجرد عنصر اسمي onymique[22]» ـ أي علاقة بين شيء وبين اسم (إنكلر، 1974-1990، 36؛ كتابات، 106). إلا أننا نلاحظ على أي حال أن استهانة المؤلف بهذه

---

(21) لقد تمّت دراسة هذه التغيّرات المصطلحاتية من باب التسلية، في الفصل الثاني.

(22) onymique: عناصر، مفردة مشتقة من اللغة اليونانية *ónumos, de onoma «nom»* (1311، **Petit Robert 1**). (المراجع).

«الحالات الفظة» لا تؤدي لديه إلى استبعادها من «السيميولوجيا»، لكن تؤدي إلى إفرادها في منطقة هامشية، ومن الآن فصاعداً مهملة، من السيميولوجيا» «التسمية».

وإن سوسير أكثر وضوحاً في شأن ذلك أيضاً في فقرة من فقرات المصادر المخطوطة التي يذكر فيها بجلاء، صورة «أبينا آدم مستدعياً إليه مختلف أنواع الحيوان، وأعطى لكل منها اسماً»، لقد ذكر ذلك لكي ينكر على آدم فعلته تلك طبعاً. (إنكلر، 1968-1989، 147؛ وقد خلت الطبعة النموذجية من أي إشارة إلى «أبينا آدم»).

وبصورة إجمالية، تتصف الوحدة السيميولوجية الخاصة بـ **الحكاية الخرافية** بصفتين مضاعفتين لا يمكن الفصل بينهما: يمكن أن تنسب إليها أصلاً، وهذا الأصل مرجعي. وهي بهذا تبتعد ابتعاداً تاماً عن وضعية العلامة اللغوية. وآية ذلك أن العلامة اللغوية، حتى لو كان لها أصل، فإنها ذات طبيعة تجعل مشكلة ذلك الأصل مشكلة لا ينبغي طرحها.

إن الفقرة الشهيرة من الصفحة 105 من بين فقرات أخرى كثيرة من **الدروس**[23]، وأصول الكلمات étymons[24] التي تمثّل بها سوسير بوضوح أكثر في المصادر المخطوطة، تُظهر من خلال التشبيه الجميل بروافد نهر الرون (Rhône)، ويدلّ ذلك التشبيه على الأهمية التي يوليها سوسير لجغرافية جبال الألب وهو أمر ذكرناه في الفصل الأول ولا داعي لتكراره هنا.

وأُشير هنا عرَضاً إلى ـ جزئية نحتفظ بها في ذاكرتنا لما سيأتي من البحث ـ إنها خصوصية موقف سوسير من مسألة الأصل هذه. وآية ذلك أنه لا ينكر أن يكون للغات أصلاً ما: بل قد يحدث له أن يعرض ولو سريعاً للحديث عن الإنسان «الذي لم يكن له لسان مُبين» (إنكلر، 1974-1990، 16) أو «الذي لا لسان له» (السابق، 4)، أو بوضوح أكثر أيضاً قد يحدث لسوسير أن يفكر في «اليوم الأول الذي تكلّمت به جماعة بشرية». (السابق، 10). لكن تلك اللحظة الأسطورية ليس

(23) التونسية، 117؛ العراقية، 90-91؛ اللبنانية، 93-94؛ المصرية، 132-133؛ المغربية، 93-94. [المترجم].

(24) étymons: أثله؛ أصل الكلمة، جذر الكلمة: صيغة لغوية مفترضة تفسد اشتقاق كلمات متشابهة في عدة لغات من عائلة لغوية واحدة. **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص178. (المراجع).

لها أن تؤخذ في الحسبان لأن مسألة الأصل بالنسبة إلى اللغة تختلط بمسألة النقل:

> إن اللحظة التي تواضع فيها الناس على العلامات لحظة لا وجود لها في الواقع، وليست إلاّ مثالية. ووجودها لا يقتضي أن تؤخذ في الحسبان حقاً إلى جانب الحياة النظامية للغة. (إنكلر، 1968-1989، 160).

لقد بدا واضحاً حتى الآن أن نظام **الحكاية الخرافية** كما أرسى سوسير دعائمه حتى هذه اللحظة ليس له صفات العلامة اللغوية. [92] وإن هذا يُفسر بلا شك، من وجهة نظر فيلولوجية، صمت **الدروس** عن **سيميولوجية الحكاية الخرافية**: ففي الحالة التي لاحظناها للتو هي سيميولوجية خارجة عن المألوف بالنسبة إلى اللسانيات.

وليس ذلك الصمت إلاّ دليلاً نصيّاً مؤشراً على مشكلة أساسية. وتتمثّل تلك المشكلة ـ وتلك هي الحال على الدوام في التفكير السوسيري الجدلي جوهرياً ـ في الوجود المتزامن لوجهتي نظر متقابلتين بخصوص العلاقات بين العلامات اللغوية وعلامات الأنظمة الأخرى، وخصوصاً علامات **الحكاية الخرافية**.

فمن جهة، تُقدّم العلامة اللغوية بوصفها نمطاً من علامات من أنماط أخرى لها نفس طبيعتها. وهذه هي وجهة النظر التي تتبناها الفقرة المشهورة من الصفحة 33 في **الدروس**(25) التي تُطرح فيها القرابة بين اللغة وبين تلك الأنظمة الأخرى للعلامات التي هي على سبيل المثال الكتابة و«الإشارات الحربية».

ومن جهة أخرى، فالعلامة اللغوية ـ التي يُنظر إليها هنا أيضاً بوصفها وحدةً مكوّنة للغة ـ التي تُقدّم بوصفها موضوعاً خاصاً بالضرورة حيث يقول:

> اللسان هو موضوع يقع خارج أي مقارنة، ولا يُصنف لا في أذهان اللسانيين ولا في أذهان الفلاسفة. (إنكلر، 1974-1990، 41).

أو حيث يقول بوضوح أكثر:

> لا يوجد موضوعات يمكن مقارنتها مقارنة تامة باللغة التي هي كائن معقد كل التعقيد، وهذا ما يجعل كل المقارنات وكل الصور تفضي بانتظام إلى إعطائنا فكرة خاطئة في بعض جوانبها. (إنكلر، 1974-1990، 6).

---

(25) التونسية، 37؛ العراقية، 34؛ اللبنانية، 27؛ المصرية، 40؛ المغربية، 25. [المترجم].

ونذكر بلا شك أنه ينتج عن هذه الخصوصية المطلقة للعلامة اللغوية، وبالضرورة للغة، عزل مطلق للسانيات:

> إن كائناً من كان يضع قدمه على أرض اللغة يمكن أن يقول لنفسه: إنه فقد كل ما يمكن أن يُشبِه به أرضها أو سماءها. (إنكلر، 1968-1989، 169).

ينتج عن هذه النظرة المزدوجة للعلامة تباعد divergence سبق أن رأيناه بخصوص الصفحة 34 من **الدروس**، حول مسألة العلاقات بين اللسانيات والسيميولوجيا. ولا تعترينا الدهشة من أن نلاحظ هنا أيضاً ظاهرة من ظواهر عدم الاتساق. إن ملاءمة السيميولوجيا بالنسبة إلى اللغة هي موضع شكٍ في عدد من النقاط: لقد سبق أن رأينا واحداً منها فيما سبق. ويبدو أن سوسير تخلّى هنا عن التفاؤل المؤقت ـ المعتدل كل الاعتدال ـ الذي كان يسود في **الدروس**. لكن على العكس من ذلك، فالملاءمة بين اللسانيات وأنظمة العلامات الأخرى لا تبدو في أي [93] لحظة من اللحظات مشكوك فيها. تظل السيميولوجيا غير فاعلة تجاه العلامة اللغوية، لكن اللسانيات تحتفظ بملاءمتها تجاه أنظمة العلامات الأخرى.

لم ننته تماماً من الدوران وراء سوسير في الدائرة الجهنمية للعلاقات بين اللسانيات والسيميولوجيا. فبعد أن فسرنا صمت **الدروس** عن ذكر **الحكاية الخرافية**، ينبغي الآن أن نعرض لحضور اللغة في البحث عن سيميولوجيا **الحكاية الخرافية**. لقد لاحظنا في ما سبق أن ذلك الحضور هو واضح ومتكرر. وهو يطرح مشكلة عويصة: كيف في الإمكان مقارنة، بل مشابهة، «رموز **الحكاية الخرافية**» بـ«كلمات اللغة» إذا كانت مختلفة كل هذا الاختلاف عنها؟ ـ لعلنا نرى هنا المصطلحات المستخدمة في القطعة التي اقتبسناها من **الحكاية الخرافية** في ما سبق ـ. الجواب بسيط ومتناقض في الآن نفسه: يحتفظ سوسير بمتصور آخر للشخصية، إنه رمز **الحكاية الخرافية**، وهو متصور يجعل فعلياً من الرمز نسخة مضاعفة من العلامة اللغوية. وإذا كنا نتذكر المتصور الأول للرمز فإننا نتوقع أن تتمثل هذه المقاربة الثانية للشخصية في فصله عن أصله ومرجعه في آن معاً.

كيف استطاع سوسير أن يرسي دعائم هذا المتصور الجديد؟ لنرَ ذلك مستعينين بمثال:

نتذكر أن غونتر، في النص الذي ذكرناه سابقاً، يُقدَّمُ لجهة هويته المحددة

والمتطابقة بـ «اقتناع» مع الشخصية التاريخية المسماة Gundobadus لنأخذ الآن شخصية أخرى من **الحكاية الخرافية** ولتكن هوغ ـ ديترتش (Hug-dietrich)، وولف ديترتش (Wolf dietrich) على سبيل المثال ـ الاسم المزدوج هنا ليس أمراً بلا أهمية. هل هو محدد شأنه شأن غونتر عبر مطابقته مع شخصية تاريخية، هي شخصية تيوديريك (Théodéric) المثبتة بالنسبة إليه إثباتاً قطعياً تاريخياً؟ الجواب أن ذلك ليس بصحيح ألبتة. بل إن سوسير يصل إلى حد السخرية بقسوة من أحد المفسرين ـ المدعو سيمون ـ الذي يذهب إلى مثل هذا القول. يقتبس منه ويعلّق على الاقتباس بهذه الكلمات:

> «أن يكون وولف [هوغ] ديتريش Wolf [Hug] dietrich هو تيوديريك بن كلوفيس (théodéric fils de Clovis) فإن ذلك أمرٌ مُسلَّمٌ به ولا يمكن إنكاره». . . سيمون (Symons).

تحتوي هذه الجملة في المقام الأول على ما يوهم بعيداً عن أي حدث، لأننا لا نعرف من وجهة نظر منهجية ماذا تعني في مجال الدراسات الأسطورية. (**الحكاية الخرافية**، 191).

أقطع الاقتباس لحظةً لأعطي لمن يحب من قرائي حرية أن يرفعوا أصواتهم مشيرين إلى التناقض. ولأعطي لنفسي حرية أن أنصّب نفسي مدافعاً عن سوسير. لا، ليس هناك تناقض. أما لماذا فأفسر ذلك. لست من أولئك ـ وهناك من هم كذلك ـ الذين يرفضون رفضاً قاطعاً [94] وجود تناقضات في فكر سوسير. هناك تناقضات عند سوسير: وينطبق ذلك على عدد من معضلات فكره، وربما على كل تفكير لساني و/أو سيميائي.

وتنضوي كما سبق أن رأينا تحت لواء الصفة الجدلية البحث لفكره. ومع ذلك فإن التناقض هنا ليس إلاّ تناقضاً ظاهرياً. وليس التماثل بين شخصية وولف هوغ ديتريش وتيوديريك هو الذي يُوضَع موضع الشك. بل لعله من الدقيق القول: إن سوسير لا يكلّف نفسه في كل الأحوال عناء القول ما إذا كان ذلك التماثل صحيحاً أو خاطئاً. ويبدو أن بعض فقرات البحث عن **الحكاية الخرافية** تحكم عليه بأنه صحيح. وواقع الأمر أنه سواء كان صحيحاً أو خاطئاً فإنه خالٍ خلوّاً تاماً من الملاءمة بخصوص الوضعية السيميولوجية الحقيقية لهذا «الرمز» الذي هو شخصية وولف هوغ ديتريش لأنه ينبغي أن يطلق عليه الاسمان اللذان يُسمّى بهما. ما تلك

الوضعية؟ ومن المناسب هنا أن أستعيد نص سوسير من النقطة التي وقفت عندها:

> وإنه لمن الثابت إذا تعمقنا في النظر إلى الأشياء أننا نلاحظ في هذا المجال كما هو الحال في المجالات التي تَمُتُّ بصلات قُربى للسانيات أن لا مناسبة الفكر، في مجموعها، تتأتى من تفكير ناقص حول الهوية عندما يتعلّق الأمر بكائن غير موجود كالكلمة أو كالشخصية الأسطورية أو حرف أبجدي، والتي ليست إلاّ أشكالاً متنوعة من العلامة بالمعنى الفلسفي (**الحكاية الخرافية**، 191، انظر أيضاً 312-313).

نجد أنفسنا هنا في مواجهة المفهوم الجذاب ـ وهو مفهوم ينبغي الاعتراف بأنه ظاهرياً متناقض في ذاته ـ إنه مفهوم «الكائن غير الموجود»[26]. كيف ينبغي استيعاب ذلك المفهوم؟ وكيف ينطبق على هذه الأشكال «المختلفة» «للعلامات» التي هي الكلمة والشخصية الأسطورية ـ وبالعودة إلى جرد العلامات ـ الحرف الأبجدي؟ وهذا الأخير هو الذي اعتمد عنواناً للمقارنة *Tertium comparationis* بين اللغة و**الحكاية الخرافية** وإن هذه المقارنة هي التي تسمح بالاقتراب من المفهوم الخلافي «للكائن غير الموجود»:

> إن أي حرف من الأبجدية، على سبيل المثال حرف من الألفباء الرونيّة[27] Runique الجرمانية، ليس له بالطبع منذ البدء أي تطابق آخر إلاّ ذلك الذي ينتج عن الاشتراك في:
>
> أ) جانب من القيمة الصوتية،
>
> ب) جانب من الشكل الكتابي،
>
> ج) عبر الاسم أو الكُنى التي يمكن أن تُسبغ عليه، عبر موضعه (رقمه) في الألفباء.

---

(26) هناك ما يُغري بالتفكير في الباتافيزياء (علم الحلول الخيالية) الذي يقول عنه الدكتور لويس إيرينى ساندومير Dr. Louis Irénée Sandomir إنه «يستغني عن الوجود لأنه ليس في حاجة للوجود لكي يكون موجوداً». (ساندومير LXXXVI، ص 151). وذلك يدعونا إلى التفكير في النفي اللاكاني «ليس هناك لغة واصفة» (لاكان، 1966، مواضع مختلفة)، الذي يُسلِّم عبر الصياغة التي يصوغ بها عبارته بوجود الكائن نفسه الذي ينكر وجوده. ويبدو أن مفهوم «الكائن غير الموجود» حيّر كثيراً من المفسرين بدءاً بآفال Avalle وإنكلر وفهر وكوماتسو.

(27) حرف الألفباء المستخدم في اللغات الجرمانية القديمة. [المترجم].

[95] إذا تغيّر عنصران أو ثلاثة عناصر كما يحدث ذلك في أي لحظة بالسرعة نفسها التي يسبّب فيها تغيُّر تغييراً آخر، لم نعد ندري حرفياً ومادياً ما يُفهم من ذلك، أو بالأحرى... (المصدر السابق).

لنقف بادئ ذي بدء قليلاً لنعرض لتردد مصطلحَي الكتابة والألفباء الرونيّة في جرد موضوعات السيميولوجيا. فالكتابة متصورة هنا حسب النموذج الذي يجعل منها ليس تابعاً للغة وإنما نظاماً من العلامات في أوج عمله. ففي **الدروس**(28) هذا النظام هو المستخدم ص 165 لتمثيل مفهوم القيمة الذي يؤثّر في اللغة أيضاً عبر تحليل حرف T =ت وتنوعاته المختلفة. إن الكتابة مستخدمة هنا بالطريقة نفسها لتكون مثالاً ملموساً عن المُعطيات التي تؤثر في سيميولوجيا الحكاية الخرافية وإن كانت تمسُّ سمات أقلّ ظهوراً. أما فيما يتعلّق باختيار الألفباء الرونية فإنه محدد بالتضافر بين جانبين. فمن جهة، هي كتابة جرمانية تُستخدم استخداماً فعلياً في كتابة بعض الروايات الإسكندنافية لأغنية بلاد النيبولونجن Nibelungenlied(29). ومن جهة أخرى، كانت الألفباء الرونية عُرضةً في تاريخها لتغييرات كثيرة انصبّت فعلياً على عدد الحروف (24، ثم 16، ثم 23)(30)، وبالضرورة على ترتيب الحروف وعلى الأسماء وعلى أشكالها(31). لقد كانت تلك التبدلات سريعة نسبياً: إذْ لم تستغرق التغيُرات المذكورة أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن، حسب مارسيل كوهن (Marcel Cohen) (1958، 197).

نرى من تحليل سوسير أن العلامة التي هي الحرف ليس لها وجود مادي. ولهذا توصف بأنها «كائن غير موجود». ولأن تلك الصفة، على عكس ما يقوله

---

(28) التونسية، 182؛ العراقية، 138؛ اللبنانية، 145؛ المصرية، 207؛ المغربية، 152. [المترجم].

(29) يُلمح سوسير إلى استخدام الألفباء الرونية هذا في منظور يُذكّر بمسألة الجناس التصحيفي التي لا تغيب تطبيقاتها عن البحث في الحكاية الخرافية (**الحكاية الخرافية**، 326).

(30) يخالف **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص435 هذا الرأي. فهو يشير إلى أن هذه الألفباء تُسمّى الفوثورك وتتميز بحروفها المزادة؛ وعددها الأصلي أربعة وعشرون، زيدت إلى ثمانية وعشرين، ثم إلى ثلاثة وثلاثين. (المراجع).

(31) انظر كوهن Cohen 1958–1959. إلاّ أن المعلومات التي يعطيها سوسير ص 30-31 من بحث **الحكاية الخرافية** عن الألفباء الرونية «التي تُسمّى مجازياً بالزان Zarn» لم يوافق عليها كوهن تماماً. ينبغي البحث عن المصادر التي استقى منها سوسير معلوماته عن الألفباء الرونيّة.

آفال (1973، 43)، لا تمنعها من الوجود. لكنها لا تكتسب وضعيّتها إلاّ من أنها «تربط» بين عدد محدد من السمات. وإذا كان ذلك الربط مهدّداً بالانحلال في أي لحظة فإنه أيضاً يعيد بناء نفسه في كل لحظة عبر تغيير السمات التي يحتويها. فيكفي على سبيل المثال أن يغيّر الحرف اسمه لكي يخسر هويته، ويكتسب هوية أخرى. إن أي حرف لا يطابق نفسه ألبتّة. والأمر نفسه ينطبق على تلك العلامة الأخرى ـ أو الرمز الذي هو شخصية **الحكاية الخرافية**: ونتذكر هنا أن المصطلحين متعادلين ـ تلك الشخصية التي هي مكوّنة في كل حين عبر الربط بين بعض السمات المتنوعة:

> [...] إن كل شخصية من شخصيات الحكاية الخرافية هي رمز تستطيع تنويعه ـ والأمر نفسه ينطبق انطباقاً تاماً على اللغة الرونية ـ أ) الاسم، ب) الموقع بالنسبة إلى الشخصيات الأخرى، [96] ج) الصفة، د) الوظيفة، الأفعال. وإذا غيّر مكان أي اسم فينتج عن ذلك أن قسماً من الأفعال يتغيّر مكانه والعكس صحيح، أو أن الدراما كلها تتغيّر إذا وقع حادث من هذا القبيل. (**الحكاية لخرافية**، 31).

ويتغيّر جرد «العناصر» قليلاً في سياق البحث. ويضيف إليه سوسير في بعض الأحيان «الشعار» (**الحكاية الخرافية**، 194)، بل «الخوذة» (**الحكاية الخرافية**، 195). والاسم ـ على خلاف ما يحدث للحرف ـ هو إن لم يكن في ذلك خطأ ـ يُذكر على الدوام في المقام الأول. ذلك لأن له بالنسبة إلى الشخصية الخرافية وضعية خاصة. وهذا ما تفسره فقرة تُعَدُّ ذات أهميّة نظرية كبيرة:

> نورد هنا ملاحظة عن العناصر المكوّنة للكائن في الحكاية الخرافية. ليس للإسم أهميّة تفوق أو تقلّ عن أي عنصر آخر. ليس له كما هي الحال لدى الشخص الحي سمة خاصة تسم شخصه، لكنها سمة تسمه كما تسمه الأشياء الأخرى، وهو من وجهة النظر هذه الأكثر أهميّة؛ إن ما يميّزه فقط هو أن أي سمة من سمات الكائن في الحكاية الخرافية يمكن أن تتبدد عند أول هزة بسهولة كبيرة تساوي السهولة التي يتبدل بها اسمه، في حين أن الصفات الأخرى للفرد لا تنفصل عنه ومن هنا [...] (**الحكاية الخرافية**، 142؛ والجُملة لم تنته).

يتضح لنا أن الاسم في سيميولوجيا الحكاية الخرافية لا ينتسب إلى «التسمياتية» التي سبق ذكرها، تسمياتية يكتفي فيها الاسم، حسب طريقة آدم في وضع مدوّنة التسميات، بالإشارة إلى كائن. إن الاسم ليس كذلك هنا، إنه واحدة من السمات

التي تكوّن نظام الشخصية بوصفها رمزاً. وهو شأنه شأن كل واحدة من تلك السمات مُهيأً لاحتمال كل التغيّرات التي يمكن أن يفرضها عليه نقله. وتضعه بوضوح فقرة من التعاليق حول تريستان في قائمة «السمات» المُهيّأة لأن «تتلاشى»: «فبعد أن ينكر سوسير إنكاراً مطلقاً أن تستطيع أي سمة البقاء أكثر من السمات الأخرى بما في ذلك الاسم» يقول: إن تلك السمة تستفيد مع ذلك من «ثبات متوسط» شأنها شأن «طبيعة الأشخاص والاختلاف بين الأب والابن»». (تريستان، 210).

وبذلك فإنه ليس للعلامات التي هي شخصيات **الحكاية الخرافية** ـ وفي شروط تختلف بعض الاختلاف، ليس لحروف الألفباء ـ أَلْبَتّةَ أيّ تماسك مادي. ووجودها هو في جوهره وجودٌ عابرٌ وغير مستقر. «هل هي أشباح؟» أم «فقاعات صابون»؟ إنها ليست كذلك أيضاً ؛ ففقاعات الصابون «تمتلك على الأقل وحدتها الفيزيائية والرياضية». (**الحكاية الخرافية**، 192). أما العلامة فليس لها وجود في أي شيء. ولا تتحقق إلا باللقاء المؤقت والعرَضِيّ بين عدد من السمات المهيئة في كل لحظة للتفرّق. لكن هذا التفرّق يُفضي بلا تأخير إلى تكوين علامة أخرى.

وينبغي هنا أن نلتزم جانب الحذر ونلتزم به في الفصل الخامس. ويخص هذا الحذر «الزمن» الذي لا يمكن الاستغناء عنه في تحولات العلامة هذه [97] ـ كيف يمكن أن نتصور تحولاً خارج الزمن؟ ـ أو تحولاً ليس الزمن سببه:

> يبدو واضحاً أن العجز عن الاحتفاظ بهوية مؤكدة لا ينبغي أن نُحمّل وقائع الزمن مسؤوليته ـ وهذا هو الخطأ الفادح لأولئك الذين يهتمون بالعلامات، لكنه خطأ موجود من قبلُ في الكائن الذي نتعهده بالعناية، وننظر إليه على أنه تنظيم في حين أنه ليس إلاّ توليفاً عابراً لفكرتين أو ثلاث أفكار. (**الحكاية الخرافية**، 192).

وإن ذلك «الكائن غير الموجود»، «فقاعات الصابون» تلك، ذلك «الشبح» هو، وهذا تناقض جديد، نخصُّه بالحب. ولا أظن أنني أحمّل فكر سوسير أكثر مما يحتمل إذا استخدمتُ كلمة الحب التي لم يستخدمها سوسير. إنه يكتفي بأفعال مثل «دلّل، تعهّد بالعناية» وهي أفعال لاحظناها في المقطع السابق، أو حتى فعل «أحبَ chérir» كما في قوله:

> إن الاشتراك ـ الذي نحبّه بعض الأحيان ـ ليس إلاّ فقاعة صابون. (**الحكاية الخرافية**، 192).

لم نفرغ بعدُ من الحديث عن التناقضات المتعلّقة بعلامة **الحكاية الخرافية**: يحدث في بعض الأحيان لذلك الكائن الذي هو في الوقت نفسه «غير موجود» و«محبوب» أن يحصل على ضرب من الحياة، بل حالة من الوعي وحتى التفكير. وهذا ما يظهر في عدد من المواضع عبر بعض طُرق التعبير في الجُمل وإن كانت صيغة تلك الطُرق صيغة سلبية: كقول سوسير: «لا يساور الشكّ» الرمزَ أبداً في انتمائه إلى السيميولوجيا (**الحكاية الخرافية**، 30)، أو قوله: «ليس له (للرمز) وسيلة لإثبات أنه يبقى هو نفسه». (**الحكاية الخرافية**، 192). ما الأمر في تلك الظاهرة الغريبة التي هي شخصنة الرمز في الكتابة السوسيرية؟ أليست علامة رغبة في المادة، بل في مادة مفكرة، لهذا «الكائن غير الموجود»؟ أترك من باب الحذر هذا الموضوع معلّقاً...

ما الأمر الآن مع النمط الثالث من العلامات، أقصد علامات اللغة؟ إنه نمط يُذكر في بحث **الحكاية الخرافية**، لكنه لا يحلل. ولكي نلمح وضعيته من المناسب أن نواجه بين نصين هما بلا شك متباعدان في الزمن. الأول قطعة من بحث **الحكاية الخرافية** تسعى بتفاؤل حذر ـ نعلم أن سوسير نادراً ما يصل إلى حد الحماسة ـ إلى وصف كل التغيّرات القادرة على التأثير في علامة الحكاية الخرافية:

> إذاً، ينبغي من حيث المبدأ أن تتخلى تماماً عن المتابعة بما أن جملة التغيّرات لا يمكن إحصاؤها. (**الحكاية الخرافية**، 31).

في عام 1894، في مخطط «المقالة عن ويتني»، أجرى سوسير تشخيصاً مطابقاً تماماً بخصوص اللسان:

> إن ما أقلت هنا من الفلاسفة وعلماء المنطق هو أنه منذ اللحظة التي يكون فيها نظام رموز مستقلاً عن الأشياء المسماة به فإنه يكون من جانبه، عبر فعل الزمن مُعرّضاً لتحمل التنقلات التي لا تُحصى لدى صاحب المنطق. (إنكلر، 1974-1990، 23؛ **كتابات**، 209).

[98] إذاً، إن التغييرات في العلامات اللغوية وفي علامات **الحكايات الخرافية** موصوفة بأنها «لاتُعدّ». وذلك لأنهما من نسيج واحد. لذلك لا يدهشنا أن نرى أن العلامات اللغوية لا توصف بأنها «كائنات غير موجودة»، لكنها موصوفة ـ وهذا معادل لذلك في رأيي ـ بأنها «مصطلحات لا قيمة لها في ذاتها»: ونجد هذا الوصف في واحدة من «الملاحظات الزائدة»، ضمن شروط هي والحق يقال مُفاجئة:

ملاحظة زائدة. هناك خطأ في القياس بين اللغة وبين كل الأشياء الإنسانية الأخرى لسببين:

1) انعدام القيمة الداخلية للعلامات.

2) قدرة عقلنا على التعلّق بمصطلح هو في ذاته لا قيمة له. (إنكلر، 1974-1990، 38).

ويتابع سوسير بتبكيت ضمير محزن و متردد parenthétique و غامض:

(لكن ليس هذا ما أردت قوله في بادئ الأمر. لقد انحرفت عن الطريق).
(المصدر السابق، وانظر أيضاً: **الحكاية الخرافية**، 313-314).

ينبغي الاعتراف بأن هذا النص هو متاهة عويصة. ينسب سوسير إلى العلامة اللغوية وضعية تطابق وضعية رمز **الحكاية الخرافية**: لأننا لا نرى بوضوح الفرق الذي يمكن أن يكون بين عبارتي «كائن غير موجود» فيما يخص **الحكاية الخرافية**، و «ليس له قيمة في ذاته» بخصوص العلامة اللغوية. ناهيك عن أنه يحرص على تثبيت «التعلّق» المتناقض الذي يكنّه العقل لهذه الأخيرة: إنه المعادل الدقيق للحُب الذي يحمله العقل للرمز في **الحكاية الخرافية**. وفي هذه اللحظة نفسها يطرح الوحدة المطلقة للغة مُعرضاً كل الإعراض عن **الحكاية الخرافية** ـ والكتابة أيضاً. هل ينبغي أن نحاول التشبث بتبكيت الضمير الذي جعله يضع العبارة بين قوسين، ونراهن على ما كان سوسير ينوي كتابته قبل أن «ينحرف عن الطريق» كما يقول؟. إن المراهنة على ذلك هي بلا شك مُتنازع فيها. ولعله من المناسب أن تقترح حلاً آخر. وأن «تحفز» التفكير السوسيري الذي ظلّ في هذه النقطة صامتاً أو على الأقل غير مباشر. أُغامر بفعل ذلك. رأينا قبل قليل أن سوسير يصف تغيّرات رمز **الحكاية الخرافية** في الزمن، شأنها شأن العلامة اللغوية، بأنها «لا تُحصى». لا تُحصى؟ بالتأكيد. لكن ليس ألْبَتّة بالدرجة نفسها. ينتهي الأمر بسوسير بخصوص رمز **الحكاية الخرافية**، محققاً انتفاضة تفاؤل إبستيمولوجية سبق أن رأيناها، إلى أن يقبل أنه بعد كل حساب، «يمكننا أن نأمل نسبياً بأن نساير تلك التغيّرات، ولو من مسافة زمنية ومكانية بعيدة» (**الحكاية الخرافية**، 31). أما بخصوص العلامة اللغوية فلا ينطبق عليها شيء من ذلك: فعدم قابلية «التنقلات» للحصر تبقى مُطلقة. لماذا كان بينهما هذا الفرق؟ هل له علاقة بالعناصر التي يكوّن منها الاتحاد العارض والمؤقت الرمز والعلامة؟ لا. لأن عدد تلك «العناصر» [99] متعادل تقريباً، وقليلاً جداً

أيضاً[32]. ولا يكمن الفارق تقريباً إلاّ في سمة يذكرها سوسير عَرَضاً، وهي تخصّ واحداً من الموضوعَيْن المُقارنَيْن فقط: إنه العدد نفسه من العلامات. لأنه بالنسبة إلى الحكاية الخرافية ـ كما هو بشأن الألفباء، في شروط مختلفة ـ عدد محدود: ما يقارب عشرين علامة للألفباء، وأكثر من ذلك بقليل للحكاية الخرافية إذا أخذنا في الحسبان دورة النصوص. لا يبلغ كل ذلك المائة بلا شك. لكن عدد العلامات في اللغة هو غير محدود. خصوصاً أن كل واحدة من تلك العلامات تكون في كل يوم، وبلا انقطاع موضعاً لآلاف الاستخدامات. أقتبس من سوسير للمرة الأخيرة:

> ينبغي أن نضيف هنا أن ذلك الشيء [اللغة] لا يمكن له أن ينقطع؛ حتى لو كان ذلك خلال 24 ساعة، وكل عنصر من عناصره يُعاد نشره آلاف المرّات في ذلك الزمن. (إنكلر، 1974-1990، 21).

إن تعدّد العلامات التي هي بعبارة دقيقة لا يمكن إحصاؤها، وخصوصاً استخدام كلٍّ منها، هو الذي يجعلها في أي لحظة «من ثانية إلى ثانية»، لكي نعيد استخدام عبارة استُخدمت في الحديث عن اسم اللّه، انظر ما سبق ـ أهلاً لقبول الانتقالات والتغييرات. ولا ينطبق ذلك على **الحكاية الخرافية**، التي تنتقل أيضاً عبر الزمن، ولكن الرموز فيها أقلُّ من سابقتها بكثير، وتترك مجالاً لعدد من التغييرات يمكن في آخر الأمر عدُّها. إلاّ أنه ينبغي الاعتراف بأننا نجد وجهة النظر هذه مقلوبة رأساً على عقب في الفقرة التالية:

> إن هناك بين حالة اللغة état de langue والحالة التي تليها بفارق ثلاثمائة أو أربعمائة سنة، فضلاً عن العناصر التي لا يمكن عدُّها في تغيّراتها، شيئاً ثابتاً على الأقل هو الشكل المادي للعلامات الصوتية التي لا تقبل التحول إلاّ تبعاً لترسيمة ثابتة عبر القرون (Phonétique). وليس هناك على العكس

(32) لقد استشفينا ما تشكّله تلك العناصر بالنسبة إلى الشخصية والحرف في **الحكاية الخرافية**. أما فيما يخص العلامة اللغوية فإن سوسير يظل في مجال التلميح. إنكلر (1974-1975، 71). لقد حاول أن يوضحها، ولكنه انتهى إلى نتائج احتمالية، ليس أكثر؛ توصل إلى تعداد أربعة عناصر (المدلول، والدال، و«البارابسيما» [وضعية قائمة على الاشتراكات الاختيارية، التي لها صلة قربى «بالتوازي» المذكور في الفصل الثاني]، والنظمية). والعدد هو نفسه المذكور بخصوص الحرف (أربعة) وقريب جداً من العدد المنسوب للشخصية (من أربعة إلى ستة حسب المقاطع).

بين حالة من الحكاية الخرافية وبين حالة أخرى تأخذ مكانها بفارق ثلاثمائة أو أربعمائة سنة أيّ عنصر ثابت أو مخصص لأن يكون ثابتاً. (**الحكاية الخرافية**، 314؛ تريستان، 168).

نرى أن سوسير يظلّ في حيرة كبيرة. عندما يأخذ في الحسبان تعدد الاستخدامات فإنه يرى أن اللغة هي الأكثر خضوعاً للتطور بطريقة «لا يمكن إحصاؤها». ولكن عندما يتفحص القيود التي تفرضها على اللغة مادة الصور الصوتية، فإنّهُ يخلص بطريقة معاكسة إلى أن الحكاية الخرافية هي التي [100] تتعرّض بطريقة موغلة في عدم التوقع للمصادفة البحتة في التغيّرات. لقد فهمنا أنه في مثل تلك الحالة من المناسب أن يحبس المرء نفْسه نهائياً في مثل الحيرة التي حبس سوسير نفْسه فيها.

أعي في اللحظة التي أُنهي فيها هذا الفصل أنني ربما بالغتُ في الخوض في الفيلولوجيا السوسيرية، في ما يمكن أن يكون فيه بعض عناصر النفور. لقد أجبرني على ذلك شكل النص السوسيري نفسه. ويظلّ تفكير سوسير ـ وسيبقى على الدوام بحكم طبيعة الأشياء ـ في حركة وتحول. وربما يكون بسبب تلك السمة نفسها صورة للمشاكل التي يعالجها: مشاكل العلاقات بين اللسانيات والسيميولوجيا.

[101] الفصل الرابع

الكلام، الخطاب وملكة اللسان في تفكير دو سوسير

سبق أن درستُ في الفصل الثاني مسألة العلاقات بين اللسان واللغة والكلام. ومن الضروري الآن أن أتناول قضية العلاقة بين الكلام ومختلف أنواع بدائله أو ما يرتبط بها بصلة قربى: وخصوصاً الخطاب وملكة اللسان. وسيكون ذلك وسيلةً لطرح مسألة رئيسية طرحَ العارف بموضوعه معرفة كاملة: إنها مسألة مكانة الخطاب في التفكير السوسيري، أي كما سنرى «فاعلية اللسان عند الفرد» ـ. إنه أمر أساسي بذاته. وهو أيضاً أساسي عبر الأهميّة التي اكتسبها مؤخراً في بعض الكتابات اللسانية اليوم، وبسبب علاقاته بمجالات أخرى، وخصوصاً التحليل النفساني.

لقد أضفيت على عنوان هذا الفصل مسحةً معجمية. وأنا حريص على هذا الشكل. لأن المقصود لديّ منه محاولة معاينة العلاقات التي تنشأ في النص السوسيري بين المصطلحات الثلاثة المذكورة في العنوان: الكلام، الخطاب، ملكة اللسان. والمقصود في الجُملة أيضاً تحديد وضعية كلٍ من تلك المصطلحات بالنسبة إلى المصطلحين الآخرين، أو إذا أردنا التعبير بلغة سوسير نقول: استخراج قيمة كلٍ منها. وقارئ سوسير النبيه يعلم أن ذلك ليس مهمةً سهلةً. لكن الإجراء المُعجمي ليس بالنسبة إليّ إلاّ وسيلة للعودة بمزيد من العناء[1] إلى مسألة من الغريب أنها عولجت غير مرّة ـ لكنها نادراً ما وجدت لها حلاً ـ والأخطر أيضاً أنها في الغالب وجدت لها حلاً دون أن تُعالج: إنها مسألة المكانة التي يعطيها

---

(1) لقد سبق لي أن عالجتُ هذه المسألة في فرصتين سابقتين. انظر: أرّيفيه، 1998 و 1999.

سوسير للكلام في مشروعه العلمي من جهة، وفي التحقق الفعلي الذي يَستخدم فيه هذا البرنامج في تعليمه من جهة أخرى (**درسه** أو بالأحرى **دروسه في اللسانيات العامة**)، وفي **الكتابات** ـ أحتفظ الآن بمصطلح الكلام الذي أصبح تقليدياً بفضل الاستخدام الذي يستخدمه به سوسير في **الدروس**.

[102] يجيب عن هذا السؤال المزدوج حالياً رأيان متعارضان تماماً:

1/ الأول قديم. ولعله من المهم أن نتقصّى أصله، وهو بلا شك أصل مبتسر، وأن نؤرخ له. لكن هذا يخرج بي عن موضوع هذا الكتاب. يقول هذا الرأي الأول: إن سوسير يُقصي من مخططه النظري أي اهتمام بنشاط الفاعل المتكلم، وبالضرورة أي اهتمام بنتاج ذلك النشاط مهما كان الاسم الذي يطلق عليها: كلام، أو خطاب، أو أي تسمية أخرى نُطلقها عليه. ونعلم أن هذا الرأي شائع مُستحكم. ولن أضرب عليه إلا مثالاً واحداً من بين عشرات الأمثلة الممكنة. ولستُ أبالغ عندما أقول ذلك:

> [يميّز سوسير] ما هو جوهري (اللغة) وما هو عَرَضِيٌ (الكلام). وبمجرد إجراء هذا التمييز فإن موضوع اللسانيات هو اللغة، وليس الكلام (موشلير (Moeschler) وريبول (Reboul)، 1994، 47-48).

إن هذا الحكم مصوغ هنا على الأقل صياغةً محايدةً، خاليةً من الانتقادات القاسية على وجه العموم التي تتفق عليها بعض الملاحظات التي تغرف من الدنّ نفسه. وأنا لن أذكرها هنا من باب الرأفة[2].

وآخر مظاهر هذا الرأي التي لم يُصلحها إصلاحاً كافياً واحد من العارفين معرفةً عميقةً بعمل سوسير: هو تعريف اللغة ـ كما عرّفها سوسير بالطبع ـ عند بيرغونيو:

> إن اللغة، إذا عُرِّفت دون الإحالة إلى الأشخاص أو التحققات الملموسة [...] مُكوّنة بوصفها منتجَ تحليلٍ قائماً بتمامه على اتحاد الدال والمدلول اللذين لا يفترضان أي شيء من جهة التفكير (المدلول ليس المفهوم) أو من جهة التلفظ[3] العضوي (الدال هو نفسي). (بيرغونيو، 2004، 55).

(2) والقول الحق إنه سبق لي أن ذكرتُ واحداً من هذه الآراء، إنه رأي سيرفوني في الفصل الثاني.

(3) articulation: تلفظ؛ نطق، **مُعجم اللسانية**، ص20؛ **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص56. (المراجع).

أُقِرُّ راضياً بأن هذا الوصف يُعدّ وصفاً دقيقاً لبعض مظاهر فكر سوسير. لكننا سنرى فيما سيأتي كيف يمكن للمفهومين المطروحين في كتابات سوسير في **اللسانيات العامة**، اللغة الخطابية واللسان الخطابي أن يعدلا، ومن الصحيح القول إن العملية تحدث بشكل عابر بعض الشيء، ذلك التعريف ـ أو ربما أن يستبدلا به تعريفاً آخر. والفقرة الموجودة في **كتابات**، 129–130، تطرح وجهة نظر تعاكس معاكسةً واضحةً كل الوضوح التحليل الذي قدمه بيرغونيو:

> إن سوء الفهم الذي وقعتْ فيه في البداية المدرسة التي أسسها فرانتز بوب (Frantz Bopp) سببه أنها تنسب إلى اللغات جسداً ووجوداً مُتخيلاً خارج نطاق الأشخاص المتكلمين. (**كتابات**، 129).

ثم يقول بعد ذلك:

> إن إنجاز السنوات الأخيرة تمثّل في أن سوسير وضع في نهاية المطاف كل ما ينتمي إلى اللسان، وكل ما ينتمي إلى اللغة في موضعه الحقيقي، لدى الشخص المتكلم حصراً، سواءٌ كان كائناً بشرياً أو كائناً اجتماعياً. (**كتابات**، 130).

[103] وفي الإجمال، يصف بيرغونيو وصفاً دقيقاً أحد مُكوّنات فكر سوسير. لكنه يخفي تماماً مُكوّناً آخر. وبالطبع، فإن لتسلسل الأحداث تاريخياً طَرَفاً من المسؤولية في هذا الإخفاء: إذ نشر بيرغونيو في عام 2004 كتاباً كان بكل تأكيد موضع تأمل منذ شهور طويلة، و**الكتابات** ـ التي يذكرها في قائمة مصادره ـ لم تصدر مع ذلك إلا منذ عام 2002[4].

يبقى أن نطرح مسألة الوجود المتزامن لهذين المُكوِّنين. فثمّة ظاهرة مطّردة في تفكير سوسير وهي الوجود المتزامن للتناقض الظاهرية أو الواقعية التي تتلاقى في عدد من المواضع. ونُضلُّ طريقنا إذا لم نأخذ في الحسبان إلاّ واحدةً من تلك النقائض (وسنتثبّت فيما بعدُ أن هذه هي حال تشومسكي (Chomsky) عندما يتحدث عن النحو السوسيري)، أو إذا رفعنا صوتنا مشيرين إلى عدم الانسجام أو «عدم التناسق» عندما نلمح النقائض، (وسنرى في الفصل الخامس ما يفعله هلمسليف).

(4) هل ينبغي مع ذلك أن نذكّر بأن عدداً كبيراً من النصوص التي جُمعت في **كتابات** عام 2002، كانت متوافرة منذ سنوات طويلة في المجلد الثاني (1974-1990) من الطبعة المُحقّقة من الدروس التي قام بها رودولف إنكلر؟

2/ الرأي الثاني، هو عكس سابقه، على وشك الولادة. لكنه اكتسب من قبلُ أهمية. ويمكنني أن أضرب عدة أمثلة ـ لا تبلغ بالتأكيد العشرات، لكن هذا لن يتأخر. وإليكم شاهد على ذلك، إنه شاهد مهم خصوصاً أنه يشير من طرف خفي إلى الرأي الأول لينفيه:

> إذا كان سوسير ما انفك يتأمل في القواعد واستطاع أن يمهّد الطريق للفكرة القائلة إن عليها أن تُصنّف في الحقل المنطقي ـ القواعدي فإن أعمال سيمون بوكيه و ف. راستييه (F. Rastier)، اليوم، تجهد على العكس لتُظهر أن أكبر إسهامات أستاذ جنيف تكمن في الحقل البلاغي التأويلي (المفسّر للكتب القديمة)[5]. إن مفهوم الكلام الذي استنبطه سوسير استُبدل به اليوم مصطلح الخطاب.

نلاحظ في هذا النص عدداً من التقريبات[6] (وخصوصاً حول مصطلحَي كلام وخطاب، انظر ما سيأتي) والافتراضات التي أُسيء فهمها، والتي يستنكرها أحد ضحايا ذلك الرأي. أعني أندريه غرين (2003، 273–274)، المحلل النفساني المشهور[7] الذي يعترف هو نفسه في عدد من المرّات، خصوصاً عام 1997 بأنه لا يملك كفاءةً خاصةً في اللسانيات، وكفاءةً أقل بخصوص سوسير: وهو يشير دون أن يرغب في ذلك إلى تمكّن الشائعة الثانية. لقد سبق لهذا الرأي أنْ [104] أثّر فيه، وهو الجاهل باللسانيات، هل من الضروري ذكر ذلك؟

أما اللسانيون الذين هم أصل الرأي الشائع فإنهم بلا شك أقلّ براءة من غرين. ولن أذكر منهم إلاّ سيمون بوكيه، الذي يتحدث في مجلة موجّهة إلى «الجمهور العريض»:

(5) herméneutique: مفسّر لكتب مقدسة؛ تفسيري، (**الكامل الكبير**، ص584). (المراجع).

(6) approximation: تقريب؛ والصفة approximative: تقريبي؛ **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص54. (المراجع).

(7) نعلم أن خطاب أندريه غرين يتصف بعدائه الشديد للاكان. وأنه مما لا شك فيه أننا نكتشف الأثر غير المباشر لذلك العداء عندما نراه يحاول بغير مهارة أن يُنكر ما يسمّيه «الحقل المنطقي ـ القواعدي» في تفكير سوسير: لأن هذا الجانب من تعاليم سوسير هو بالتحديد القسم الجوهري الذي أخذه لاكان. وبذلك تنكسر هالة المجد التي تضيفها، كما يقول بعضهم ـ الإحالة إلى سوسير إلى مآثر لاكان. ويصبح لاكان المذكور ناهيك عما سبق متهماً بسوء فهم سوسير. وعلى مثل هذه التخمينات يقوم في بعض الأحيان الخطاب النظري...

> لقد اعتقدنا بعد أن قرأنا الجملة الأخيرة من الدروس، وهي جملة متحولة تماماً، أن سوسير ينظر إلى اللسانيات بوصفها «علم اللغة المأخوذ لذاته ومن أجل ذاته» ـ وبعبارة أخرى، بوصفها قواعد مجردة من الماديات ـ في حين أن الأمر معكوس تماماً: كل الجانب الاجتماعي والبيشخصي[8] ـ ذاتي (أي حقل الخطاب، وهو مصطلح جوهري عند سوسير حظر عليه من قِبَل من نسمّيهم الناشرين) لا يمكن فصله، كما يقول سوسير، عن «لسانيات اللغة». إنه برنامج واسع يقلب الفكرة الشائعة عند عدد لا بأس به من اللسانيين المعاصرين حول لسانيات معزولة في بُرجها العاجي القواعدي. (بوكيه، 2005).

يستحق هذا النص تعليقاً طويلاً ينْصَبُّ بالقدر نفسه إن على حرفية تقويم نص **الدروس** نفسه وعمل من «يُسمَّوْن» بالناشرين[9] حسب عبارة بوكيه، أو على تأويل فكر سوسير. لكنني لا أنظر إلى النص في هذه اللحظة إلاّ بوصفه شاهداً من الشواهد المميّزة على أحد الرأيين: وبوكيه هو في طليعة من نشروا ذلك الرأي الشائع كما يلاحظ ذلك بسذاجة واضحة أندريه غرين.

ما مدى مصداقية هذين الرأيين الشائعين؟ هل يقترب أحدهما من نص سوسير الصحيح؟ هذا ما يمكن أن يظهره لنا التحليل المُعجمي الذي قرّرتُ الخوض فيه.

لنقل بادئ ذي بدء بضع كلمات عن وضعية المصطلحات الثلاثة في الطبعة النموذجية. ولن أركّز إلاّ على الوقائع التي تبدو لي قليلاً أو كثيراً محجوبة.

1/ الكلام هو على وجه الخصوص الموضوع الجزئي للفصل الرابع من «مُقدّمة **الدروس**»، ونجده في القسم الثاني من عبارة عنوان ذلك الفصل: «لسانيات اللغة ولسانيات الكلام». وينبغي إعادة قراءة هذا العنوان قراءةً هي في الوقت نفسه جديدة وغير مُتصنّعة. ولم تتضح بجلاء لمن قرأوا ذلك الفصل الصفات البلاغية فيه بالمعنى الدقيق لمصطلح بلاغة. وآية ذلك أن سوسير في **الدروس**، في الفصل السابق (فصل 3: «موضوع اللسانيات») عرّف اللسانيات تعريفاً قريباً كل القرب من الوضوح المطلق بوصفها علم اللغة. والصيغة ليست موجودة في **الدروس** حرفياً لكنْ يكفي أن نعارض بين الجُمل propositions المختلفة في

---

(8) intersubjectif: بيشخصي: بين شخصين، **مُعجم اللسانية**، ص114. (المراجع).

(9) سنرى فيما يأتي القول الفصل فيما يتعلّق «بالحظر» الذي كان ضحيته مصطلح خطاب في **الدروس**.

النص (خصوصاً ص 31 و 33) ليطلّ ذلك التعريف برأسه. ويترتّب على تعريف [105] اللسانيات هذا بوصفها علم اللغة نتيجتان:

1.1. إن تركيب «لسانيات اللغة» هو تحصيل حاصل، لأنه يعيد الحديث بلا فائدة عن الموضوع الذي نسبه بوضوح قبل قليل إلى اللسانيات.

2.1. وبالعكس، إن تركيب «لسانيات الكلام» هو تركيب تسمياتي: ينسب إلى اللسانيات موضوعاً قيل قبل قليل إنه مستحيل.

إن هذا التوصيف البلاغي المزدوج يظهر أيضاً المظهر الاستفزازي، الذي يكاد يكون فضائحياً، والعائد إلى عنوان الفصل الرابع من **الدروس**. إنه في الجملة يعكس الموقف الذي وضع أسسه في الفصل الثالث. وهو يفرض علينا أن نحتاط من أن هناك أيضاً إلى جانب لسانيات اللغة لسانيات أخرى هي لسانيات الكلام. ليس ذلك بمستحيل. بل إنه على العكس وجود شرعي ولا غنىً عنه، شأنه بالضبط شأن لسانيات اللغة. لأن الموضوعين لا يمكن الفصل بينهما. وهذا ما هو مُعلن بوضوح في الفقرة التالية:

> هناك تبعيّة بينيّة بين اللغة والكلام؛ فاللغة هي في الوقت نفسه الأداة التي يستخدمها الكلام ومُنتَجه produit. (**الدروس**، 37)[10].

2/ أما مصطلح الخطاب فإنه كما قرأنا قبل قليل بقلم سيمون بوكيه «محظور» في **الدروس**. والحق أنه لا يرد في الكشّاف. لكن كشاف **الدروس** فيه ثغرات كبيرة، سواءً في المداخل، القليلة العدد، أو في النقص الذي تعانيه في ذكر مواضع وجود المداخل التي وقع الاختيار عليها. فمصطلح الخطاب موجود في نص **الدروس** نفسه، ويكاد عدد مرات وجوده فيها يقارب عدد مرّات وجوده في **كتابات**، وأكثر من وجوده في كتاب **«في الجوهر المزدوج للسان»** الذي يغيب فيه، إن لم أكن مخطئاً، مصطلح الخطاب غياباً تاماً[11]. والمرّتان الحاسمتان اللتان أُشير

(10) التونسية، 41؛ العراقية، 38؛ اللبنانية، 32؛ المصرية، 44؛ المغربية، 29. [المترجم].

(11) وفي كل الأحوال إن أيّاً من الإحالات السبع الموجودة في الكشّاف لا تُحيل في خصوص مصطلح الخطاب إلى الصفحات التي يشغلها في طبعة كتابات نص «في الجوهر المزدوج للسان» (15-88). تحيل الإحالة الأولى إلى الصفحة 95 إلى واحدة من الملاحظات الزائدة التي اكتُشفت مجدداً.

فيهما إلى مصطلح خطاب في **الدروس** هما بالطبع قسم من الإحالات التي ترد على الدوام في التحليل. إحداهما، (ص 170) سبق أن علّقتُ عليها في الفصل الثاني. (ص 61). والأخرى، (ص 250) سأُعلّق عليها في الفصل الخامس. وتكتمل الإحالتان بثالثة على الأقل: وذلك عندما يقابل سوسير بين العلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية فيقول في (ص 171): إن العلاقات الترابطية تتموضع «خارج الخطاب». وسنرى فيما يأتي أن مصطلح الخطاب يُستخدم في بعض الأحيان استخداماً للإشارة إلى «مُنتَج فعل الكلام نفسه».

[106] 3/ المصطلح الثالث، ملكة اللسان، هو أقل المصطلحات الثلاثة مكانةً مميّزةً في **الدروس**. ومع ذلك فإن له مدخلاً في الكشاف، فيه إحالتان. إحداهما، تقع في الصفحة 25 وتنطوي في أسوأ الأحول على سوء فهم، وفي أفضلها نقص خطير. يقول واقع النص: إن «اللغة هي مُنتَج اجتماعي لملكة اللسان»[12]. وليس ذلك في الجهاز المفهومي السوسيري بخطأ تام. لكنه لا يتوافق، كما سنرى بوضوح فيما سيأتي، إلاّ مع واحد من مظهرَي ملكة اللسان. المظهر الآخر هو الذي يرمي إليه بالتحديد سوسير في رأيه الذي دوّنه قسطنطين: «اللغة ستكون بالنسبة إلينا المُنتَج الاجتماعي الذي يسمح وجوده للشخص بممارسة ملكة اللسان». (كوماتسو، 276).

أما الإحالة الثانية، التي نجدها في كشاف **الدروس** لمصطلح ملكة اللسان فإنها تحيل في الصفحة 26 وما بعدها، إلى مسألة الصفة الطبيعية في «اللسان الذي نتكلمه»[13]. ونعلم أن تلك الصفة الطبيعية قد أنكرها سوسير مقتفياً بذلك خطى ويتني. وهذه المسألة مدروسة في الفصل التاسع من هذا الكتاب.

ونلاحظ في الجُملة أن وضع فاعل الكلام في الحسبان ليس غائباً تماماً في **الدروس** في طبعتها النموذجية. فالمفاهيم الموجودة فيها تنضوي تحت لواء الصيغة الثلاثية لمصطلح كلام ـ الذي يظهر بوضوح على أنه موضوع اللسانيات شأنه شأن اللغة والخطاب وملكة اللسان[14].

(12) التونسية، 29؛ العراقية، 27؛ اللبنانية، 21؛ المصرية، 31؛ المغربية، 18. [المترجم].

(13) التونسية، 30؛ العراقية، 28؛ اللبنانية، 22؛ المصرية، 32؛ المغربية، 19. [المترجم].

(14) يتوصل كريستيان بويش Christian Puech، دون أن يدخل في تفاصيل التحليل الذي =

أصل الآن إلى الأمر الجوهري: وضعية المصطلحات الثلاثة في الكتابات وفي المصادر المخطوطة.

1/ يُستخدم مصطلح كلام Parole ثلاثة استخدامات مختلفة:

1.1. يُستخدم غالباً بمعنى «التصويت». وأكتفي بإيراد عدد من المواضع التي جاء فيها بهذا المعنى في **كتابات** (32، 81، 245، 256)، أو في **الدرس الثالث**. (كوماتسو، 268، 284). ومع ذلك أقتبس واحدة من الفقرات التي يرد فيها المصطلح بالبداهة بهذا المعنى:

> كلما أصبح علم الأصوات phonétique أكثر دقةً وأكثر تحديداً بين تغيرات الصوت في المدرسة الإنكليزية والمدرسة النرويجية مع بيل (des Bell) وإيللي (des Ellis) وسويت وستورم (des Sweet et des Storm)، فإنه ينسى تماماً أن يولي انتباهه لشروط تجاور الفونيمات في الكلام، أي للشروط الطبيعية للمقطع، وهي شروط لا يمكن تجاوزها. (**كتابات**، 245).

[107] 2.1. يُستخدم مصطلح كلام أيضاً بمعنى «الفعل الواعي والمدرك لتسلسل الوحدات في تسلسلية متحققة واقعياً». وهذا في الإجمال ما سيشير إليه في المستقبل بنفينيست (1974، 288–289) بمصطلح التركيبية، كما يظهر بوضوح في فقرة سبق ذكرها: إنها الفقرة التي يقابل فيها سوسير بين تركيب/ تواز، وهي فقرة سبق ذكرها عند الحديث عن المقابلة بين العلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية:

> نُسمي تركيباً الكلام الفعلي ـ أو توليفة العناصر المتضمّنة في شريحة من الكلام الواقعي ـ، أو النظام الذي تجد فيه العناصر نفسها يرتبط بعضها ببعض بما يتبعها ويسبقها. (**كتابات**، 61).

نصادف مجدداً مسألة «الصفة الخطية للدال/ للغة» التي عرضنا لها في الفصل الثاني، وسنعود إليها بالتفصيل في الفصل الخامس عن الزمن. ونلحظ بوضوح أن الكلام هو الذي يضفي على اللغة تلك الصفة الخطية.

= ليس موضوعه، إلى نتيجة من النمط نفسه: «يمكننا في واقع الأمر أن نتوقع [سوسيراً غير بنيوي] من قبلُ في **الدروس المطبوع**». (2005، 94). وحتى لو كان في إمكاننا التساؤل عن مدى صحة عبارة «سوسير غير البنيوي» ـ ما الذي يمنع البنيوية من أن تتخذ الخطاب موضوعاً لها؟ ـ والملاحظة فيها قدْرٌ عالٍ من نفاذ البصيرة.

وينسب سوسير هذا المعنى الثاني إلى مصطلح كلام في عدد من المواضع في **كتابات** (خصوصاً، ص 117، حيث يفسر بالتركيب التسمياتي للغة الخطابية، وهو تركيب سبقت الإشارة إليه) أو في **الدرس** الثالث. (كوماتسو، 279).

3.1. وأخيراً يجمع مصطلح كلام في بعض الحالات القيمتين اللتين ميّزنا بينهما قبل قليل. وهذا ما نلاحظه في فقرة من محاضرة جنيف الثانية 1891 على وجه الخصوص. ويأتي ذلك بخصوص التمييز بين التغيير الصوتي والتغيير القياسي، حيث يصوغ سوسير الملاحظات التالية:

> يمكننا أن نقابل تحت لواء كثير من وجهات النظر المختلفة هذين العاملين الفاعلين في التجديد اللغوي بأن نقول على سبيل المثال: إن الأول يمثّل الجانب الفيزيولوجي والفيزيائي للكلام، في حين أن الثاني يميل إلى الجانب البسيكولوجي والعقلي للفعل نفسه-أن يكون الأول لا واعياً والثاني واعياً. (**كتابات**، 159).

إنها فقرة غنية كل الغنى، وصعبة كل الصعوبة. ويطل برأسه منها مفهوم «فعل اللسان "acte de langage"»[15]، ومفهوم الفصل الحاصل بين الفعل «اللاواعي» والفعل «الواعي»: وهذا موضع من مواضع الصعوبات الكبيرة سنعرض له في الفصل السابع. وأكتفي الآن بالقول: إن القيمة التأليفية لمفهوم الكلام تسمح لسوسير بأن يطرح مفهوم فعل الكلام الذي رأيناه قبل قليل ومفهوم ممارسة الكلام أيضاً. (**كتابات**، 146).

وفي الإجمال، فإن الكلام على الأقل في القيمتين الأخيرتين اللتين لاحظناهما هو «قوة فاعلة، ومصدر حقيقي للظواهر التي نلاحظها بعد ذلك شيئاً فشيئاً في النصف الآخر من اللسان. [أي **اللغة**، م. أ.]». (**كتابات**، 273).

[108] لنبقَ مُدةً يسيرةً أيضاً في جانب الكلام لنسجل أن تعدد معاني المصطلح هو بلا شك واحد من أسباب تهميش الناشرين له في عام 1916: لعلهم فهموا المصطلح بمعنى «التصويت»، وهو أمر في الجُملة مشروع، وفي كل الأحوال مقبول لأنه يحمل غالباً هذا المعنى في النص السوسيري. لقد كان لهم انطلاقاً من ذلك سبب وجيه لمحاولة استبعاده من الحقل اللساني: لقد سبقهم سوسير إلى ذلك

---

(15) العبارة بحرفيتها هي عبارة سوسير كما سترى في نص **الكتابات**، 129، الذي سيذكر لاحقاً.

عندما استبعد «الفونولوجيا»، بمعنى وصف عملية التصويت من مجال اللسانيات.

2/ الخطاب هو أيضاً في **كتابات** وفي المصادر المخطوطة عُرضة لتعدد المعاني. لكنه تعدد أقل كثرة من تعدد معاني الكلام. فالخطاب لا يُستخدم في واقع الأمر إلاّ بمعنيين، هما في الحق كنائياً متقاربان. هل قلت: كناية؟ لكنها ضرب من المجاز. ونعلم إلى أي حد كان سوسير في خطابه النظري ينكر ملاءمة مفهوم المجاز:

> ليس هناك من فرق بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي للكلمات (الكلمات ليس لها معنى مجازي أكثر من المعنى الحقيقي) لأن معناها هو سلبي للغاية. (**كتابات**، 72).

لكننا نعلم أيضاً ـ لأننا رأينا ذلك في الفصل السابق، وسنراه من جديد بطريقة واضحة لاحقاً ـ أن سوسير يلجأ غالباً إلى المجاز ـ الكناية، وأكثر أيضاً الاستعارة ـ في ممارسة الخطاب. إذاً، لن أتردد في الحديث عن الكناية عندما أرى أن للخطاب استخدامين: فمن جانب، يُستخدم المصطلح كما هو الحال في **الدروس** للإشارة إلى نتاج نشاط الفاعل، المتكلم. ومن جهة أخرى، يكتسب المصطلح في عدد من المواضع معنى الكلام للإشارة إلى النشاط نفسه. وهذا ما يلاحظ ملاحظة نموذجية في القطعة المشهورة الموجودة في الصفحة 277 من **كتابات**، حيث يُستخدم مصطلح الخطاب، وخصوصاً في الموضع الأخير بمعنى «سيرورة إنتاجية»[16] وليس بمعنى «المنتج»:

> لم تُخترع اللغة إلاّ في سبيل الخطاب، لكن ما الذي يفرّق الخطاب عن اللغة، أو ما الذي يسمح في بعض الحالات بالقول: إن اللغة تدخل حيّز الفعل بوصفها خطاباً؟. (**كتابات**، 277).

إن المفهومين المتناقضين ظاهرياً، بل اللذين يردان للتسمية فقط oxymoriques «اللسان الاستدلالي» (**كتابات**، 95) و«اللغة الاستدلالية» (**كتابات**، 117) يستندان إلى المفهوم الحيوي للخطاب الذي يعرضه النص السابق. ونعتقد أننا نشهد مع هذين المفهومين انبثاق مشروع لسانيات أخرى تسمح بتدخل الخطاب ضمن اللغة. وسيكون علينا فيما يأتي أن نتساءل هل يتمتع إقرار هذين المفهومين بالصفة البرمجية أم لا.

(16) processus productif: سيرورة إنتاجية. (المراجع).

[109] 3/ يبقى أن نتفحص في كتابات في المصادر المخطوطة المصطلح الثالث الأكثر غموضاً: ملكة اللسان. إن الأمور في هذا الشأن معقدة.

3 ـ 1. ننسى غالباً أن اللغة لا تقابل بالكلام في الصياغة «الأصلية» للدرس الثالث، لكن بملكة اللسان. وعلى هذا المنوال دوّن قسطنطين والمستمعون الآخرون أيضاً آراء سوسير:

> عندما فرّقنا اللغة عن ملكة اللسان فإننا فرّقنا: 1/ ما هو اجتماعي عما هو فردي. 2/ ما هو جوهري عما هو عَرَضيّ بعض الشيء (إنكلر، 1968-1989، 41؛ كوماتسو، 189؛ وقد دوّن المستمعون جميعاً مصطلح ملكة اللسانية عدا فرانسيس جوزيف الذي كان أقلّ انتباهاً فتناهى إلى سمعه مصطلح اللسان. لكن هذا الغلط العائد إلى عدم الانتباه يكفي للدلالة على أن مصطلح كلام لم ينطق به سوسير).

وفي المحاضرة الثانية نفسها من الدرس الثالث، أعطى سوسير تلامذته «التقسيم العام للدرس: 1/ اللغات. 2/ اللغة. 3/ ملكة اللسان وممارستها عند الفرد». (كوماتسو، 187).

إن الملكة والممارسة هما هنا مقترنتان، وهذا ينطبق بلا شك على المحتمل (الملكة) والحالي (الممارسة). أما مفهوم «طريقة اشتغال اللسان jeu du langage» (كوماتسو، 193)، فإنه يشتمل في نهاية المحاضرة نفسها على هذين المظهرين الإضافيين للسان في حالة الفعل.

ومع ذلك، فإن هذا الاستخدام لمصطلح ملكة اللسان ليس مطّرداً: يستخدم سوسير في مواضع أخرى مصطلح الكلام كما رأينا ذلك للتو في الاقتباس أعلاه. أو كما يظهر من الفقرة التالية:

> عندما نطرح من اللسان كل ما هو ليس بكلام، يمكن أن يحمل الباقي بوضوح اسم اللغة، ويجد نفسه لا يحتوي إلاّ على مصطلحات نفسانية، الانعقاد النفساني بين الفكرة والعلامة، وهذا لن يصدق على الكلام (إنكلر، 1968-1989، 172؛ وانظر الدروس[17]، 112؛ وإن لمصطلح

(17) التونسية، 123؛ العراقية، 95؛ اللبنانية، 99؛ المصرية، 140؛ المغربية، 99. [المترجم].

علامة في هذه القطعة المعنى الذي سيُعطى لمصطلح مفهوم ثم لمصطلح المدلول. وتأخذ العلامة معنى الصورة الأكوستيكية، ثم الدال).

يمكن القول من خلال الفقرة السابقة: إن مصطلح الكلام حلّ هنا محلّ مصطلح الملكة اللسانية بدون أي فرق. إذاً، نشعر أن سوسير تردد بين جهازين مصطلحيين تمثلهما الترسيمتان التاليتان:

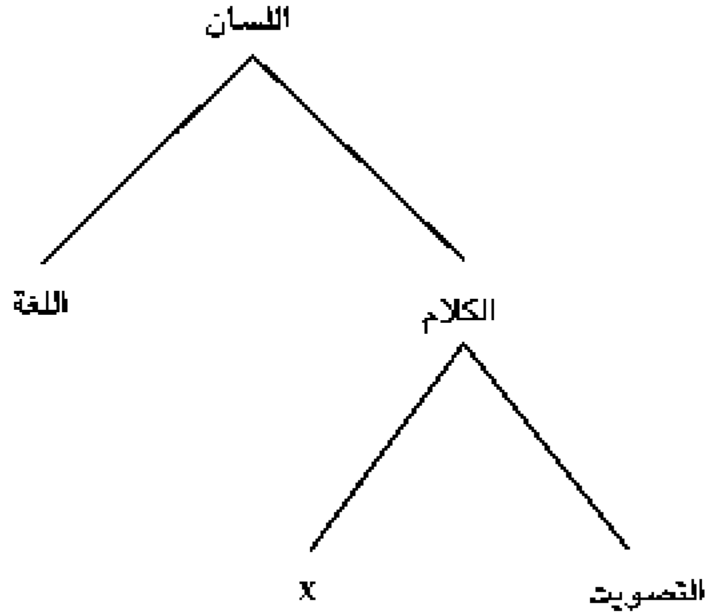

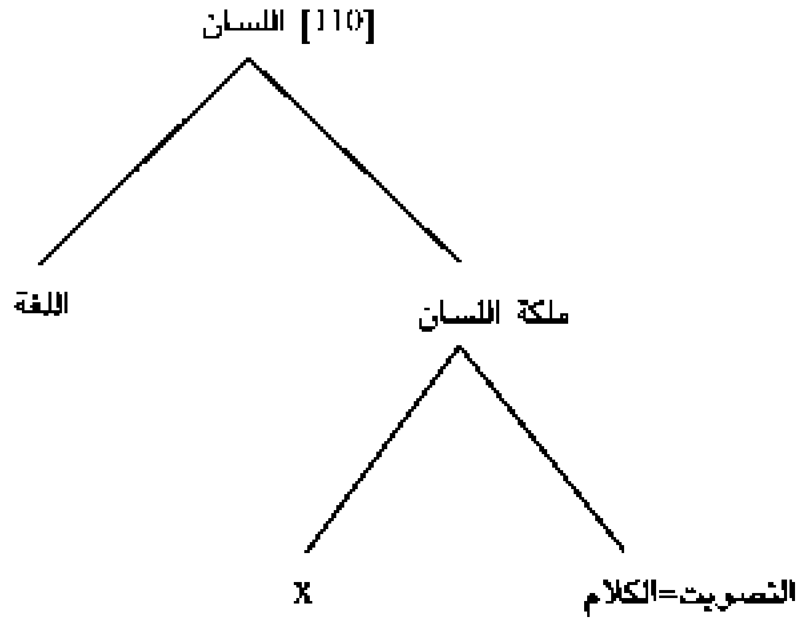

نُلاحظ في هاتين الترسيمتين أن هناك مصطلحاً آخر يُرمز إليه بـ X وليست له تسميةٌ خاصةٌ. إنه بالبداهة «الجانب العلمنفسي والعقلي للفعل نفسه» ـ فعل الكلام،

videlicet اقترحتُ في مكان آخر (أرّيفيه، 1998 و 1999) أن هذا المصطلح غير المُسمّى، الذي يمثّل نقطة الضعف في المصطلحية والمفهومية السوسيرية في الوقت نفسه، ليس شيئاً آخر إلاّ ما سيُسمّى بعد نصف قرن من الزمن التلفظ *énonciation* وأتمسك كل التمسك بهذا الاقتراح. وإنه لمن نافلة القول إنني لن أقوم هنا بأي شيء عدا الإشارة إلى سؤالين دون أن أتبناهما: الأول، عن أسباب الصمت السوسيري عن هذه النقطة؛ والثاني، فيه قدْر أكبر من التأمل أيضاً، هو التساؤل عن مظاهر التبدل والتطور التي كان يمكن أن تدخلها التسمية المحتملة لهذا الشيء الذي ظلّ بلا اسم.

3.2. هل يعني ذلك أن ملكة اللسان ليست إلاّ اسماً آخر للكلام؟ القول بذلك أمر مفرط في البساطة. ملكة اللسان هي أكثر اتساعاً من الكلام. إنها تضمّ بالتأكيد أفعال الكلام التي تسبّب اللغة كما هي محددة بوصفها مؤسسة اجتماعية. ولكي أستخدم، متحملاً كل التبعات، الاستعارة الجغرافية التي يعلي سوسير من شأنها، والمتمثّلة في الينبوع وروافده فإنني أقول: إن ملكة اللسان ترد في الوقت نفسه بوصفها منبع اللغة ومصبّها أو مهبطها[18]. فهي (ملكة اللسان) عالية[19] لها (اللغة) بغية تكوينها بوصفها مؤسسة اجتماعية، وهي سافلة[20] لها لتسبّب أفعال اللسان التي تجيزها، أي إنتاج الخطاب. ولن أتردد في أن أقتبس من جديد، وقبل أن أشرحها عبر وجهة نظر جديدة، هذه الفقرة الجميلة جداً:

> ملاحظة زائدة. أن نتأمل في اللغة ونتساءل في أي لحظة محددة «بدأ» الشيء الفلاني، هو أمر فيه من الفطنة كما في النظر إلى ينبوع الجبل، والاعتقاد بأننا إذا مضينا صعداً فإننا سنجد المكان المحدد الذي ينبع منه. وتُثبت أشياء لا حصر لها أن النبع موجود في أثناء قولنا، إنه يولد، وإنه عكسياً لا يفعل أي شيء آخر إلاّ أنه يولد في أثناء [لم يُكمل سوسير العبارة، م. أ.].

يمكن أن نتجادل للأبد حول هذه الولادة، لكن صفتها الكبرى أنها هي نفسها ولادة النمو. (**كتابات**، 94).

---

(18) تشبيهاً لها بالنهر منبعاً ومصبّاً. [المترجم].

(19) amont: عالية [للنهر، جهة المصدر الذي ينبعُ منه]، **قاموس لاروس المحيط**، ص35. (المراجع).

(20) aval: سافلة النهر، مصبّ النهر، **قاموس لاروس المحيط**، ص60. (المراجع).

[111] لنحدد طريقة عمل استعارة الينبوع. إنّ ما يحدث في المنبع ليس شيئاً آخر إلاّ سيرورة تكوين اللغة نفسها. وقد قيل بتسرع هنا وهناك: إن سوسير استبعد هذا المنبع. وكما هي العادة، إن الوقائع أكثر تعقيداً من ذلك. توجدُ السيرورةُ حركةً مزدوجةً. وآية ذلك أن سوسير يرسي بادئ ذي بدء أساس تلك السيرورة. وهذا ما نلاحظه في الفقرة التالية التي لا يتورع فيها سوسير عن تصور الإنسان الذي ما زال محروماً من الكلام المُبين:

> نعدُّ اللسان باستمرار باعتباره موجوداً لدى الكائن البشري. وجهة نظر خاطئة. فالطبيعة تعطينا الإنسان المُهيّأ للسان، لكن دون لسان مُبين. (**كتابات**، 178).

والحق أن القول الصحيح هو: أن المسألة ما إنْ تُطرح حتى يسارع سوسير إلى استبعادها، أو بعبارة أدق ينقلها إلى سيرورة أخرى، إنها السيرورة التي تجري في المصبّ.

إذاً، ما طبيعة تلك السيرورة الثانية؟ إنها ليست شيئاً آخر إلاّ السيرورة التي تُطلق اللغة إلى العمل منتجاً الخطاب بوساطة فاعل الكلام. والتماثل بين السيرورتين تدل عليه بوضوح هذه الفقرة الجميلة جداً من **الكتابات**، وهي فقرة تظهر فيها من جديد بخفاء استعارة الينبوع:

> نرى اليوم[21] أن هناك تعاكساً مستمراً، وأن اللغة تستمد من فعل اللسان تطبيقها ومنبعها الوحيد والدائم في وقت واحد، وأن اللسان هو في الوقت نفسه التطبيق والمولد الدائم للغة [بياض في النص، م. أ.][22]، إعادة الإنتاج والإنتاج. (**كتابات**، 129).

لقد فهمنا أن استعارة المنبع لم يستخدمها سوسير إلاّ لينكرها تواً. ممّا يجعلها مُضلّلة، وهذه هي بالتحديد العملية التي تجمع بين سيرورتَي تكوُّن اللغة و«تطبيقها» ـ وهذه السيرورة الأخيرة ينبغي بلا شك أن نفهمها على أنها «تفعيل لها».

---

(21) إن قول سوسير «اليوم» يقابل بين تفكيره وتفكير «مدرسة بوب» التي يستخدمها سوسير ثانيةً على مبدأ «والضِدُّ يُظهر حُسنه الضِدُّ».

(22) لعل تتمة الكلام كما يوحي به السياق: [في عملية إعادة الإنتاج والإنتاج = dans la fonction de la reproduction et la production]. [المترجم].

يبقى لنا بالطبع أن نتساءل عن البياض الذي يترك فجوات في نص سوسير بعد كلمة «اللغة». إن العملية محفوفة بالمخاطر. ليس لأن محاولة تحفيز - وبمصطلح هلمسليف "ترميم" - الحلقة الناقصة محاولة لا عقلانية. لكن لأن البياض الذي يحتل مادياً مكانه ليس له من وظيفة إلاّ أن يذكرنا بالتردد المحفوف بالقلق عند سوسير في مواجهته مع اللسان.

يعزف سوسير في مواضع أخرى عن استخدام الاستعارة، ويعرب عن الفكرة نفسها إعراباً نظرياً «خالصاً». وتجسد هذا الفقرة التالية التي نجد فيها أن مصطلح (حياة) ينبغي أن يُفهم بالمعنى المعقد - أو [112] إذا أردنا - المزدوج، تقليداً لسوسير - ، إنه «العمل (الآني) الذي يسبّب تغييرات (تعاقبية)»:

أصل اللسان: يقوم بطلان المسألة عند من لديه فكرة صحيحة عمّا هو نظام سيميولوجي وعمّا هي شروط حياته قبل أن يأخذ في الحسبان شروط تكوّنه، ص. 000 [يحيل سوسير إلى نفسه، وهي إحالة يصعب بالطبع العثور عليها! م. أ.]. وليس هناك أي لحظة يختلف فيها التكوين في صفاته عن حياة اللسان، والجوهري هو فهم الحياة. (**كتابات**، 228؛ انظر أيضاً 47 و 159).

نرى أن ملكة اللسان ليست مزدوجةً إلاّ ظاهرياً. إن «التمرين» نفسه هو الذي ينتج بلا انفكاك اللغة - إلى حدّ جعل مسألة الأصل «باطلة» - والذي يجعل في الإمكان إنتاج الخطاب هو، بعبارة أخرى، الكلام. ومن هنا جاءت واقعة إمكانية التبديل في عدد من الحالات بين مصطلحَي الكلام وملكة اللسان.

لقد انتهيتُ من القسم المُعجمي لبحثي: وقد اتضحتْ بعدها بعض الوضوح بلا شك مسألة العلاقات بين المصطلحات الثلاثة المدروسة سواءً في **الدروس** أو في **الكتابات** أو في **المصادر المخطوطة**. إذاً، أصبح في الإمكان من الآن فصاعداً محاولة استعراض ما يتعلّق بلسانيات الكلام - لكي تحافظ على اسمها التقليدي - في المخطط النظري لسوسير كما أرسى دعائمه على وجه التقريب سوسير في **الكتابات** في المصادر المخطوطة **للدروس**.

إن مما لا شك فيه أن مشروع لسانيات للخطاب - أو حسب صياغة **الدرس** الثالث «طريقة اشتغال اللسان عند الفرد» (كوماتسو، 193) - قد أُرسيت دعائمه

واكتسب صفة الشرعية، وأصبح ضرورياً. وأصبح له مصطلحية خاصة. إنها مصطلحية لا تتصف بصفة الكمال: لأن الغموض وتعدد المعاني ليسا غائبين عنها. لكن هاتين الظاهرتين مرتبطتان بالمفاهيم نفسها التي تود المصطلحات الدلالة عليها. وفي الجملة، إن كل شيء معدٌ لكي تتطور لسانيات سوسيرية «لطريقة اشتغال اللسان عند الفرد»، خاليةً من الصياغات المهينة والفظّة التي تُلصق بمشروع «لسانيات الكلام» في الرواية النموذجية لـ **الدروس**، وكما هو الشأن في بعض آراء سوسير التي لا خفاء فيها.

لكن ينبغي الاعتراف بأن هذه اللسانيات المبرمجة بجلاء لن تتحقق عند سوسير كما كنا نشتهي لها أن تتحقق. هناك بالتأكيد من بعيد لبعيد بعض الملاحظات الواعدة. نجد بعضها في مخطط كتاب **في الجوهر المزدوج للسان**.. من ذلك أن عبارة يضعها سوسير بين قوسين عرضيين، وكأن فيها شيئاً من الوقاحة تأتي لتقول: إن مفهومَيْ اللغة وفاعل الكلام مفهومان متطابقان: «اللغة (أي فاعل الكلام)» (**كتابات**، 39).

وإن أهم تلك [113] الملاحظات بلا شك هي التعريف الذي يجمع بين السيميولوجيا التي نذكر من تأثيراتها أنها تقيم ارتباطاً متبادلاً بين مجالَي الخطاب ـ البلاغية والأسلوبية ـ ومجالات اللغة:

> سيميولوجيا- مورفولوجيا، قواعد، نحو، مترادفات. بلاغة، أسلوبية، مُعجمية، إلخ، كل تلك مجالات لا يمكن الفصل بينها. (**كتابات**، 45).

إن هذه الجملة بكل ما فيها من أهميّة، تتجلى أيضاً في المصادفة التي يمثّلها القوسان، لها بالطبع صفة برمجية حصراً. إذ تكمن، في رأيي، الفائدة الأساسية لمشروع كتاب **في الجوهر المزدوج للسان** في مكان آخر: إنها تكمن بالتحديد في التفكير الجوهري حول الاختلاف والسلبية.

ويظلّ أيضاً في حيّز الوعود النصوص التي ذكرتها سابقاً من **الكتابات** (خصوصاً 129-130)، وكذلك البرنامج المُشار إليه سريعاً في **الدرس** الثالث الذي يدعو إلى دراسة «طريقة اشتغال اللسان عند الفرد». (كوماتسو، 193).

وهناك مع ذلك منطقة من اللغة تقتضي من سوسير تفكيراً خاصاً في الطريقة التي تتوزع فيها الوقائع اللغوية بين اللغة والكلام...: إنها علم النحو. فعلى

العكس مما يُشاع غالباً، وعلى وجه الخصوص، وبطريقة تكرارية عند تشومسكي[23] يقع علم النحو في مركز اهتمامات سوسير. إنه يغوص به في لُجّة عميقة من الاضطراب. وإن تفحص جوانب القلق في تلك اللُّجّة يسمح بقياس الأهميّة التي يخصّ بها سوسير مُكوِّنَي اللسان بدقةٍ أكثر.

وإنه لمن المناسب في المقام الأول أن نحترس في فهم المعنى الخاص الذي يعطيه سوسير لمصطلح التركيب **syntagme**. إنه يتسع لديه اتساعاً يوازي اتساعه في الاستخدام المعاصر:

> والحال أن مفهوم التركيب هذا يمكن أن ينطبق على وحدات من أي حجم كان، ومن أي نوع كان. يمكننا أن نعدّ تركيباً الكلمات البسيطة والجُمل < والكلمات المركّبة مثل[24] *hippotrophos* = حصان ضخم >. وبذلك يكون لتشكّل الكلمة بالنسبة إلى الكلمة البسيطة علاقة بالتجمع التركيبي: يراودني الشعور نفسه ـ ربما ليس بالدرجة نفسها ـ بما يتعلّق بالوحدات المتتالية التي هي: **désir-eux** = راغب. وفي جُملة مثل: **Que vous dit-il?** = ما يقول لك؟ نجد التركيب نفسه الذي نجده في **désir-eux** و**hippo-trophos** ـ حصان ضخم (على الرغم من أنهما ليسا من النوع نفسه).
> (إنكلر، 1968–1989، 283، تعليقات ريدلنيجر؛ **الدروس**، 170 و172).

[114] نرى أن التركيب السوسيري يضمّ كل التسلسلات المؤلفة على الأقل من وحدتين (أو «وحدات صغيرة») من المشتقات ذات اللواحق من نمط **désir-eux** ـ ومن الغريب أنها تسمى «كلمات بسيطة» ـ حتى الجُمل المتفاوتة في التعقيد، مروراً بالكلمات المركّبة (من نمط **hippo-trophos**). وإنه يبدو أن كلمة «إلخ».

(23) «يُعبّر سوسير في بعض المرات عن فكرة مفادها أن إجراءات صياغة الجُمل لا تنتمي ألبتّة إلى اللغة، وأن نظام اللغة يقتصر على وحدات لغوية كالأصوات والكلمات، وربما في بعض الجُمل الجامدة وعدد قليل من الأنماط العامة جداً [...] والنحو من وجهة النظر هذه مسألة ثانوية». (1968–1970، 37؛ انظر أيضاً تشومسكي، 1971، 14 وبارّيه (Parret) (1974) (31). يلاحظ تشومسكي شأنه شأن بورغونيو مظهراً من مظاهر التفكير عند سوسير. لكنه في حالة عجزٍ مُطلق عندما يتعلّق الأمر بحضور المظهر المعاكس.

(24) Hippos صيغة يونانية تعني «الفرس» حلّلها سوسير في الدروس، في تذييله على القسمين الثالث والرابع بعنوان «التحليل الذاتي والتحليل الموضوعي». انظر التونسية، 275 وما بعدها؛ والعراقية، 206 وما بعدها؛ واللبنانية، 222 وما بعدها؛ والمصرية، 321 وما بعدها؛ المغربية، 234. [المترجم].

التي تجدها في **الدروس**[25]، 170، محرومة من أي أصل اشتقاقي متفق عليه في المصادر المخطوطة، تُوسِّع حقل التركيب إلى ما وراء الجُملة. إن موضوع النحو هو التركيب مهما كان نوعه:

> إن مسألة تنظيم الوحدات الصغيرة في الكلمات تفضي بالضبط إلى مسألة موضع الكلمات في الجُملة: ذلك هو النحو حتى عندما يتعلّق الأمر باللواحق؛ ذلك هو نوع آخر من النحو، لكنه نحو على أي حال (إنكلر، 1968-1989، 278، ملاحظات ريدلنيجر؛ الدروس، 170؛ ونجد عند إنكلر، 1968-1989، 307 جُهْداً، لم يجد من يتابعه، للفصل بين التركيبية والنحو).

ثم تظهر الصعوبات في قوله:

> إن للتراكيب، مع أنه ينبغي البحث عنها في توليفات ليست جُملاً، نمطاً بديهياً محضاً هو الجُملة نفسها. كل جُملة تشكّل تركيباً؛ والحال أن الجُملة تنتمي إلى الكلام وليس إلى اللغة. وهنا يبرز اعتراض: ألا ينتمي التركيب إلى الكلام، ولا ينبغي أن نخلط بين فَلَكَيّ اللغة ـ الكلام، لنميّز بين فَلَكَيّ التركيب ـ الترابط؟ (إنكلر، 283-284، ملاحظات قسطنطين؛ **الدروس**، 172)[26].

إذاً، سيكون علينا أن نلجأ إلى هذا الموقف المتناقض المتمثل في أن نلقي في لسانيات الكلام ليس دراسة الجُملة وحدها، لكن أيضاً ظواهر التشكيل النحوي الذي هو ذو طبيعة تركيبية وينتمي إلى النحو أيضاً.

ولتذليل هذه الصعوبة يعرض سوسير في آنٍ واحدٍ عدداً من الحلول. ويتمثّل أول تلك الحلول في جعل الحدود التي تفصل بين اللغة والكلام نفوذة[27]:

> لكن هل يمكن الفصل فصلاً حاسماً بين وقائع الكلام ووقائع اللغة؟ وبذلك تكون سلسلة قواعدية ما منتمية إلى اللغة، لكن التوليف يبقى

---

(25) انظر التونسية، 186؛ العراقية، 142؛ اللبنانية، 149؛ المصرية 213؛ المغربية، 156-157. وهي قول سوسير: «إن النسق يتركّب دائماً من وحدتين متتاليتين فأكثر مثل (relire, contre tous, la vie humaine, Dieu est bon, s'il fait beau. nou sortirons, etc.)»، أي أعاد القراءة، ضد الجميع، الحياة البشرية، الله كريم، إذا كان الجو جميلاً خرجنا، إلخ). [المترجم].

(26) التونسية، 188؛ العراقية، 143؛ اللبنانية، 151؛ المصرية، 215؛ المغربية، 158. [المترجم].

(27) poreuse: نفوذة [صفة لما يوجد فيه ثقوب بحيث يمكن أن يخرقه الماء]، **قاموس لاروس المحيط**، ص567. والاستخدام مجازي بالطبع. (المراجع).

للفرد، التوليف الذي يترك لاختيار كل فرد ليعبّر عن تفكيره في جُملة. هذا التوليف هو في الكلام، وليس في اللغة. وفي الإجمال، فإن التمييز بين ما هو في اللغة وما هو متروك للحرية الفردية لا يتمّ إلا في علم النحو. وينبغي الاعتراف هنا بأن الكلام واللغة اللذين هما واقعتان إحداهما اجتماعية والأخرى فردية، إحداهما تنفيذية والأخرى ترابطية ثابتة يستطيعان في علم النحو التداخل قليلاً أو كثيراً. (إنكلر، 1968-1989، 285-286، تعاليق ديغاليبه؛ **الدروس**، 173)[28].

نستطيع هنا أن نترك العنان لأنفسنا لنقول: إن سوسير استثنائياً يستسهل الأمر: فالصفحتان 172-173 من **الدروس** اللتان يرفض فيهما سوسير أن يكون هناك أي «حد قاطع» (ص 173)، هما بلا شك من أقلّ صفحات **الدروس** إقناعاً.

[115] أما الحل الثاني الذي يقترحه سوسير، فقد جرى التفصيل فيه في الفصل الثاني من هذا الكتاب. ويتمثّل في أن نرفع لسانيات الكلام إلى مستوى لسانيات اللغة نفسه. وقد رأينا الحدود التي تحدُّ من فاعلية هذه العملية. ترى أن هذين الحلّين يتموضعان في مستوى اللغة الواصفة النظرية الذي يؤثّر في وضعيّة مفهومَي اللغة والكلام.

أما الحل الثالث، فهو أكثر أصالة لأنه يتموضع في مستوى مُعطيات وقائع اللغة. ويتمثّل في أن تدمج في اللغة من جديد الظواهر التركيبية المتموضعة قبْلياً في الكلام. هذه العملية الصعبة ـ وهي بالتحديد العملية التي لم يلمحها تشومسكي ـ تسمح بإرساء قواعد مفهوم «الكيان التركيبي المجرد» في إطار المقابلة بين العلاقات الخطابية والعلاقات الحدسية ـ الممحوة من **الدروس** حيث نجد بديلاً تقريبياً لها في المقابلة بين العلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية. والفارق بين كل من الزوجين هو فارق جوهري: العلاقات الخطابية يمكن أن تكون حدسية، في حين أن العلاقات التركيبية هي في جوهرها غير مؤهلة لتكون حدسية. ونجد هنا من جديد بالضرورة مسألة الصفة الخطية التي لم تعد، كما رأينا في الفصل الثاني، صفةً للدال، بل للغة. لكن تتابع العناصر هذا عندما يكون ذا طبيعة نحوية يكون له خاصية ينفرد بها:

(28) التونسية، 188-189؛ العراقية، 144؛ اللبنانية، 152؛ المصرية، 216؛ المغربية، 159. [المترجم].

يبدو أنه من السخف الحديث عن أي تركيب يستند إلى مبدأ بسيط كل البساطة: إنه الصفة الخطية للدال، أي استحالة النطق بعنصرين لغويين في وقت واحد. وهذا ما يجعل كل شكل يحتوي على قبل وبعد. وهذا المبدأ موجود في طبيعة الأشياء نفسها: لا أستطيع تمثُّل الكلمة إلاّ عبر خط واحد يتشكّل من أقسام متتابعة: -/-/-/-/-/، سواء في الداخل (داخل الدماغ)، أو في فَلَك الكلام. وأرى أن هناك في داخل الفلكين تنظيمين يتفقان مع نوعين من العلاقات: من جهة هناك تنظيم استدلالي، هو بالضرورة تنظيم كل وحدة في الجُملة أو في الكلمة: يدلّ ـ لُ= signi-fer، ثم إن هناك تنظيماً آخر هو التنظيم الحدسي، الذي هو تنظيم الترابطات (مثل يدل، signifer, fero إلخ.) اللذين ليسا في النظام الخطي، لكن العقل يتلقفها دفعة واحدة. شكل معزول مرتبط بالزمن، أي له بداية وله نهاية: لا يمكن أن يكون لدي عنصران يتآلفان على نقطة واحدة في الخط. ويرتبط بهذا المبدأ نظام كامل من العلاقات ينتمي عدد منها إلى النحو (إنكلر، 1968-1989، 278، تعاليق ريدلينجر؛ وهذه القطعة ليست موجودة بنصها في الدروس).

وبذلك تفلت الظواهر النحوية، مهما كان حجم الوحدات التي تظهر بينها ووضعيتها، من الصفة «المحسوسة» «للتنظيم الخطابي» لتُصنّف في «التنظيم الحدسي» حيث تنضمّ إلى ميزة الكيانات التركيبية المجردة. [116] إن هذا «التنظيم الحدسي» الذي يفرض *signifier* = يدل أو *désireux* ويستبعد *fer-signum* = يدل و*eux-désir*، وهي كلمات حوشية ساقها بالفعل سوسير. (إنكلر، 1968-1989، 313؛ الدروس، 190[29])[30]. لا يعمدنّ أحدٌ ليقول لي إن هذه التحليلات لا تنصبّ إلاّ على «التراكيب» المكوَّنة من كلمات ذات لواحق أو مركّبة. بلى، إنها تنصب أيضاً على «التراكيب الممتدة» (إنكلر، 1968-1989، 316)، أي الجُمل، بأكثر معاني مصطلح الجُملة دقةً: هل تشهد لذلك أمثلة المقابلة بين (ينبغي = *Je dois*) و (هل ينبغي = *dois-je*)؟ أو مثال بنية الجُملة الفرنسية (أقطف وردة =

---

(29) لكننا سنرى فيما يلي ـ الفصل السادس ـ أنه يمكن في «الموضوع الشديد الخصوصية» لـ **جناس التصحيفي**، لكلمة *Clitus-Hera* أن تساوي كلمة *Heraclitus* بالضبط كما لو أن *eux- désir* تساوي *désireux*: وهذا مؤشر لا يخطئ على أن ممارسة **الجناس التصحيفي** هي ممارسة منحرفة بالنسبة إلى أكثر قواعد اللغة جوهرية.

(30) التونسية، 207؛ العراقية، 158؛ اللبنانية، 168؛ المصرية، 241؛ المغربية، 176. [المترجم].

(*Je cueille une fleur*) «مع موقع الاسم الموصوف بعد الفعل المتعدي» (إنكلر، 1968-1989، 313؛ **الدروس**، 190-191؛ ومثال أقطف وردة لم يُستخدم في **المصادر المخطوطة** التي تُخصّ بشروح طويلة، مختصرة كل الاختصار في **الدروس**، الحالات التي يكون غياب المصطلح فيها ـ «العدم» ـ هو الذي «يبدو أنه يعبّر عن شيء معيّن»).

وفي خاتمة المطاف، نسأل ما مدى مصداقية الرأيين الشائعين اللذين وصفناهما في بداية هذا الفصل؟ نرى بجلاء أن كليهما خاطئ: فالأول، يغض الطرف عن المشروع الذي أرسى سوسير دعائمه بوضوح لتأسيس «لسانيات للكلام»، وهي لسانيات ستنظر في «اللغة الخطابية» وفي «فاعليتها» الإنتاجية. لكن الرأي الثاني ليس أقلّ خداعاً من الآخر: فهو يتظاهر بتقديم هذا المشروع على أنه منحقق. والظاهر أنه ليس كذلك، وبعض الصيغ التي تجدها هنا أو هناك في **الكتابات** أو في **المصادر المخطوطة** لا تتجاوز ألبتّةَ حدّ البرنامج المُغري كل الإغراء والواعد كل الوعد، لكن الذي لا يُفضي إلى شيء. أما ما يعمد إليه سوسير من معالجات في النحو فإنها تتميّز، في أكثر جوانبها أصالة، بأنها محاولة لإعادة إدماج الظواهر النحوية في اللغة، وليس في الخطاب.

ليطمئنّ الجميع: لن أغامر في التأملات المفرطة، الخطرة بديهياً، التي نستطيع من خلالها الالتزام بتفسير الصمت الذي التزم به سوسير عند الحديث عن لسانيات الخطاب، مع أنه وعد بأن يعالجها. إنه لمن المناسب دوماً أن نلزم الصمت إذا أردنا الحديث عن الصمت.

[119] الفصل الخامس

الزمن[1] في تفكير سوسير

طالما كان الحديث عن سوسير صعباً. وهو كذلك اليوم: والقارئ الذي تابعني حتى هذا الفصل الخامس مقتنع بلا شك بذلك. وتعود تلك الصعوبات إلى الخصوصية التي يتمتع بها تفكيره اللساني: تنتقل من المفارقة إلى التناقض الظاهري غالباً، الواقعي في بعض الأحيان؛ وهو تناقض لاإرادي حيناً ومقصود عند الحاجة. ويُفضي به الأمر في بعض الحالات إلى تجاوز ذلك التناقض عبر السمة الجدلية لفكره. وقد يحدث مع ذلك أن يُمكّن ذلك التناقض لنفسه، ويظلّ قائماً بسلام.

وإن صح القول: إن تلك السمات لا تُفسد ألبتَّة في نظري ملاءمة التفكير، فإن السؤال الذي يطرح نفسه: ألا تجعل التحليل محفوفاً بالمخاطر؟ في كل الأحوال يراودنا شعور بأننا نسير باستمرار في حقل من الألغام. والصعوبات والمخاطر تزداد اليوم. وآية ذلك أن هناك، ناهيك عن الأسباب التي سبق ذكرها، سمات أخرى، وخصوصاً واقعة الظهور المتدرج للنصوص السوسيرية، وتكاثر الأعمال التي تُخصَص لمعالجة تلك النصوص وتنوعها.

إن الحديث عن الزمن ـ الذي نكتبه بحرف كبير في أوله T، وهو حرف سوسيري بالأصالة كما سنرى فيما سيأتي ـ في فكر معلم جنيف يعني بلا شك أن ثمّة ما هو أكثر صعوبة في الصعب نفسه. حتى إن مشروع معالجة المسألة في

---

(1) يستخدم أريفيه، شأنه شأن سوسير كلمة الزمن= Le "T" emps بالتاء الفرنسية الكبيرة بين هلالين. [المترجم].

فصل قصير يدخل في باب المخاطرة: ينبغي لمعالجته تخصيص كتاب كامل كما اقتنع بذلك كُلٌ من شوا (Choi)، 2002، وبيتروف (Pétroff)، 2004. واتضح لنا من ذلك أنني لن أستطيع هنا إلاّ المرور بالمسائل مروراً سريعاً، وهي مسائل سبق لي، في الحقيقة مقاربتها في الفصل الثاني.

والسبب الرئيسي في الصعوبة الفائقة للمسألة هو أن الزمن Temps، على عكس ما أشاعته مفارقة تمكّنتْ خلال زمن طويل[2]، [120] هو في مركز تفكير سوسير. لقد سبق لي القول مراراً وتكراراً، وفي ظروف عديدة (أرّيفيه، 1990، 1993، 1994–2005، 1995، 2001)، على الرغم من أنه لم يسبقني إلى ذلك إلاّ عدد قليل من الباحثين (وخصوصاً إنكلر، 1988 و وندرلي، 1990) فإني لم أتّبع في ذلك إلاّ قليلاً (شوا، 2002؛ بازيه، 2002، وخصوصاً ص 53–66، وبالطبع، بيتروف، 2004، وهذا الأخير يطرح في رأيي المسائل طرحاً دقيقاً، لكنه ما يلبث أن يضلّ طريقه في التأويلات التي لا تتفق في بعض الأحيان إلاّ قليلاً مع حرفيّة نص سوسير).

ولكي نطرح المسألة في كل تعقيداتها، من المفيد أن نميّز بين ثلاثة مظاهر من مظاهر تفكير سوسير، دون أن نعتدّ بمصداقية ذلك التمييز[3]:

1/ المظهر اللساني الخالص، كما يظهر في **الدروس** ـ في شكلها النموذجي في المصادر المخطوطة ـ في النصوص المُلحقة.

2/ المكوّن السيميولوجي لتفكير سوسير: **البحث عن الحكاية الخرافية**، والنصوص المُلحقة، وبالطبع الفقرات المتعلّقة بالسيميولوجيا في **الدروس** والنصوص الملحقة. ـ لقد لاحظنا بداهةً لدى تعداد المصادر النصيّة أن الفصل الحاصل بين "تفكير لساني" و"تفكير سيميولوجي" هو فصل مصطنع كل

---

(2) توصف تلك المفارقة على وجه العموم بأنها "بنيوية". وليس هذا في الجملة خاطئ، أو إنه بدقة أكثر صحيح في سياق أن أكثر من قالوا بهذه المفارقة ينتسبون إلى "البنيوية". إنه إطار هو بالبداهة متنوع حسب الحالة. ونذكر على وجه العموم ممن روجوا لهذه المفارقة بنفينيست وجاكوبسون (1973، 22)، ومارتينيه وآخرين. وتعترينا الدهشة من وجود بنفينيست في هذه القائمة لأنه قارئ حاذق من قراء سوسير: "اللسان [كما يتصوره سوسير] في ذاته لا يحتوي على أي بُعد زمني؛ إنه تزامنية وبنية، ولا يعمل إلاّ بفضل طبيعته الرمزية". (1966، 5).

(3) حاولت تقييم تلك المصداقية في الفصل الثالث.

الاصطناع: وأن تفعيله هنا ليس إلاّ لأهداف تعليمية بحتة. إن تفحص النصوص سيكون له أثر في توضيح العلاقة المتينة التي تنشأ بين هذين المستويين من التفكير السوسيري، ربما إلى حد جعل ذلك الفصل اعتباطياً ولا طائل من ورائه. وقد سبق أن أوضحنا هذه المسألة بعض التوضيح ـ أو جعلناها غامضة؟ ـ في الفصل الثالث.

3/ البحث عن **الجناس التصحيفي**. والفصل هنا أقل اعتباطية على الرغم من أن مسألة الزمن، كما سنرى، تمنح سوسير فرصةً نادرةً ليحيل في عمله عن **الجناس التصحيفي** إلى المفاهيم التي أرسى دعائمها في **الدروس**.

[121] 1. الزمن في التفكير اللساني لسوسير

تبدو الأمور من النظرة الأولى واضحة في التفكير اللساني الخالص لسوسير. إن الزمن يتدخل بطريقتين منفصلتين تماماً في **الدروس** (وفي النصوص المُلحقة بها):

1/ يحدد تدخل الزمن واحداً من «المبدأين»، «الثاني» بعد الاعتباطية، الذي يتحكم في العلامة: «الصفة الخطية للدال»:

> لما كان الدال ذا طبيعة سمعية فإنه يجري في الزمن وحده، وله بالتالي خصائص الزمن: أ) فهو يمثّل امتداداً، ب) ويمكن أن نقيس هذا الامتداد من بُعْد واحد هو الخط.
>
> وهذا المبدأ بديهي، لكن يبدو أن الدارسين أهملوا ذكره دائماً اعتقاداً منهم بدون شك ـ بأنه مبدأ بسيط مفرط في البساطة، لكنه مع ذلك مبدأ أساسي لا تُحصى نتائجه، وهو مبدأ يضاهي الصفة الأولى أهمية [صفة «اعتباطية العلامة» م. أ.]. وعمل اللغة بأكمله يعتمد عليه. (انظر ص170)[4]. فخلافاً للدوال المرئية (مثل الإشارات البحرية وغيرها...) التي قد تمثّل تشعبات متزامنة ذات أبعاد متعددة ليس للدوال الأكوستيكية ما تتصرف فيه عدا خط

(4) هذه الإحالة إلى الصفحة (170) (التي مصدرها ناشرا الدروس بالطبع) تعلن عن الانتقال الذي نراه حقاً في هذه الصفحة من «الصفة الخطية للدال» إلى «الصفة الخطّية للدال». [مترجمو التونسية جعلوا الإحالة إلى ص 186، وحذفها مترجم العراقية وأثبت مكانها: «أنظر الجزء الثاني، الفصل الأول»، وجعلها مترجما اللبنانية إلى الصفحة 149، ومترجم المصرية إلى الصفحة 112 وما بعدها. المترجم].

الزمن فتأتي عناصرها الواحد تلو الآخر مكوّنةً بذلك سلسلة. وتبرز هذه الخاصية للعيان بمجرد أن تُرسم تلك العناصر بالكتابة، وتُعوّض التتابع في خط الزمان بالتتابع في خط المكان بواسطة علامات الكتابة (**الدروس**[5]، 103؛ والنص في جوهره متطابق مع الآراء الفعلية التي يطرحها سوسير في ما كان يعلمه).

يبدو أن صيغة تدخُّل الزمن الأولى هذه لم تؤثر إلاّ في **الكلام**. وهنا **المصادر المخطوطة** أكثر وضوحاً من **الدروس**. لقد سبق ذكر هذا النص في الفصل الثاني، وينبغي أن نعيده هنا:

> لدينا هنا صفة رئيسية للمادة الصوتية لم يجر التركيز عليها: ذلك أنها تظهر لنا وكأنها سلسلة أكوستيكية مما يستدعي على الفور الصفة الزمنية التي تعني أنه ليس هناك إلاّ بُعد واحد. نستطيع القول: إن ذلك صفة خطية: **سلسلة الكلام تمثل لنا بالضرورة على شكل خط** (التركيز على العبارة من م. آ). وإن لذلك أثراً كبيراً في كل ما ينشأ بعد ذلك من علاقات. ولا نستطيع الفوارق النوعية[6] (الفرق بين صائت وآخر، والفرق في النبر) أن تعبّر عن نفسها إلاّ متتالية. لا يمكن أن يكون لدينا في الوقت نفسه صائت منبور و غير منبور؛ كل شيء يشكّل خطاً، كما هي الحال في الموسيقى أيضاً. (غوديل، 1957-1969، 205-206؛ إنكلر، 1968-1989، 234).

نلاحظ التعادل المطلق الذي ينشأ بين عبارتي صفة زمنية وصفة خطية، والثانية ليست في الجملة إلاّ حالة استعارية مكانية للأولى[7].

[122] 2/ نمط التدخل الثاني للزمن في اللسان يفتح المجال للاعتبارات التالية:

> لا يبدو أن واقعة تدخل الزمن لتغيّر اللغة، كما يتدخل لتغيّر <أو يغيّر> كل شيء، هي في المقام الأول واقعة خطيرة جداً على الشروط التي يوضع فيها العلم اللساني. وينبغي عليّ أن أضيف أنني لا أرى إلاّ طائفة قليلة من اللسانيين، أو ربما لا أرى أياً منهم، مُهيّأً هو نفسه للاعتقاد أن

(5) التونسية، 114-115؛ العراقية، 89؛ اللبنانية، 92؛ المصرية، 128؛ المغربية، 90. [المترجم].

(6) qualitative: نوعية.

(7) أُقرّ بأن الدهشة تعتريني من رؤية بلانش ـ نويل غرونيغ Blanche-Noëlle Grunig تعرض لمسألة «إنتاج الكلام الذي يتسجل بالبداهة في الزمن» في بحثها «الزمن في [اللسان]» (2005، 104-105)، ضمن اعتبارات هي في المحصلة معقولة جداً، دون أن تفكر في ذكر ولو اسم سوسير.

> مسألة الزمن هي للسانيات مصدر صعوبات من نوع خاص...، بل يعتقد أنها مسألة مركزية، يمكن أن تفضي إلى شطر اللسانيات إلى علمين. (إنكلر، 1968–1989، 175).

هذا النص ينبغي مقارنته بالنص الذي حلّ محلّه في الطبعة النموذجية من **الدروس** (**الدروس**، 114)[8]: نص **الدروس** مختصر، مسخ، لقد فقد تماماً «مركز الثقل» الذي خصّه به في الأصل سوسير. يبدو أن خجلاً من طراز غريب دفع الناشرين إلى حظر كل ما هو تأمل حول الزمن ـ وليس فقط حول «العامل زمن» ـ بتواتر وتكرار. وعبارة «العامل زمن» عبارة ليست بذات معنى واضح. (وأنا أعزل عامداً حرف التاء الكبير من كلمة الزمن بالفرنسية بين مزدوجين «T» emps لأن سوسير استخدمها هكذا، والناشران حذفاها).

وإن هذ التدخل الثاني للزمن هو الذي يُحدّد إرساء أُسس المقابلة الأساسية بين «اللسانيتين»: وبعد أن استعرض عدداً من الإمكانات المصطلحية يطرح سوسير في **الدروس** في نهاية الأمر ثنائية التزامن والتعاقب:

> ولكي تزداد هذه المقابلة وهذا التقاطع بين هذين الضربين من الظواهر المتعلّقة بالموضوع نفسه جلاءً ووضوحاً فضّلنا استعمال عبارتَي لسانيات تزامنية linguistique synchronique ولسانيات تعاقبية linguistique diachronique ويُعدّ تزامنياً كل ما يتعلّق بالمظهر السكوني[9] من علمنا هذا، ويعدّ تعاقبياً كل ما له مساس بالتطورات. وسنطلق كذلك اسم synchronie أي تزامنية وdiachronie أي تعاقبية ـ على الترتيب ـ على أي حالة من حالات اللغة، وعلى أي مرحلة من مراحل تطورها. [**الدروس**، 117][10].

إن مما لا تخطئه العين في النص الذي اقتبسناه أن اللغة هي المتأثّرة بزمن التعاقب. اللغة وبالضرورة مُكوّنها الجوهري، العلامة:

---

(8) نص **الدروس في** التونسية، 126: «فقليلون هم اللسانيون الذين تفطنوا إلى أن تدخل عامل الزمن من شأنه أن يوجد في اللسانيات صعوبات من نوع خاص، وأن يجعل علمهم أمام اتجاهين متباينين كل التباين». العراقية، 98؛ اللبنانية، 101؛ المصرية، 143؛ المغربية، 102. [المترجم].

(9) statique: سكوني، **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص471. (المراجع).

(10) التونسية، 129؛ العراقية، 100؛ اللبنانية، 103؛ المصرية، 146؛ المغربية، 104-105. [المترجم].

العلامة [عنصر من اللغة، م. أ.] هي قابلة للتغيير لأنها متواصلة [في الزمن] [**الدروس**، 108-109)[11].

إذا نظرنا إلى الأمور بهذه الطريقة فإن الأشياء تبدو بسيطة: الزمن الذي يحدد «الصفة الخطية» (أي الزمنية) للدال يؤثر في الكلام. والزمن الذي هو في أصل التغيير اللغوي يخصّ اللغة. كذلك تتمفصل بطريقة يبدو أنها مُرْضية ثنائيتان أساسيتان للتعاليم السوسيرية. وقد أقرَّ هذا التقسيم منذ زمن طويل، وأقرّه على وجه الخصوص روبير غوديل الذي وصفه بانسجام.

وأعتقد [123] أن اقتباس نصه مرّةً أخرى أكثر فائدةً من إحالة القارئ إلى الفصل الثاني:

> يستخدم سوسير مفهوم الزمن بطريقتين مختلفتين كل الاختلاف، حسبما يتصور منظور التعاقبية أو منظور التزامنية: في الحالة الأولى، الزمن هو الفاعل، وبتحديد أكثر هو الشرط الضروري للتغيير؛ وفي الحالة الثانية هو مجرد فضاء للخطاب (غوديل، 1957، 207؛ تلاحظ باهتمام ما فعله المؤلف عندما أحلّ عبارة «الشرط الضروري» محل «سبب»[12]: وسنرى فيما يأتي أن هذا التردد حول وضعية السببية أو عدم السببية في تدخل الزمن في اللغة هو مظهر من المظاهر الأساسية لمسألة الزمن في تفكير سوسير).

نتنبأ بلا شك بأن الوقائع ليست سهلةً. لنَعُدْ إلى مبدأ «الصفة الخطية للدال». في الفقرة المشهورة التي تقع في الصفحة 103 من **الدروس** يقول سوسير إن المبدأ «بديهي»، وإذا كان لم يعلن عنه ألْبَتَّةَ فلهذا السبب بلا شك. وهاتان الملاحظتان عُرضتان لاعتراضٍ قويٍّ، وسيشير إلى ذلك هلمسليف في النص الذي سنورده فيما بعدُ. لكنهما عنده نزهتان يمكن الإعراض عنهما: فالبداهة هي في الغالب ذاتية، وليس هدف **الدروس** الجوهري أن تقوم بجرد للآراء التي يضمّها تاريخ اللسانيات. بل يكمن الجوهري في عقبة نظرية خطيرة. ومبدأ تلك العقبة يظهر بوضوح في الفقرة المذكورة في الصفحة 103 ـ عبر الاسم الذي يُطلق عليها

---

(11) التونسية، 120؛ العراقية، 93؛ اللبنانية، 96؛ المصرية، 136؛ المغربية، 96. [المترجم].

(12) في قول غوديل: «هو الشرط الضروري للتغيير»؛ إذ لم يستخدم «السبب الرئيسي للتغيير». [المترجم]

نفسها، وهو اسم يقابل المبدأ الثاني بالأول («اعتباطية العلامة») وعبر تلميح إلى «المقطع»[13] ـ لكي لا يتحكم إلا في الدال.

لكن عندما يصل سوسير في **الدروس** إلى الموضع الذي يطرح فيه مسألة التمييز بين العلاقات التركيبية والعلاقات الترابطية فإن مبدأ «الصفة الخطية» يُطرح لتوضيح مفهوم العلاقات التركيبية. ونلاحظ عندئذٍ أمراً مُفاجئاً وهو أنه يغيّر اسمه ليصبح الاسم الجديد «الصفة الخطية للدال» هل هو تغيير جذري؟ هذا ما ننتظر الإشارة إليه وشرحه: إن متصور الدال لا يختلط بالبداهة مع مُتصوَّر اللغة التي تفترض العلامة، ومن جراء ذلك تفترض بالضرورة مُتصوَّر المدلول. ناهيك عن الحديث عن النظام. لكن **الدروس**، بطريقة هي بصريح القول مُفاجئة، لا تعرض الوقائع على هذه الشاكلة: فالإشارة إلى «الصفة الخطية للدال» تفتح المجال، في ص 103 من **الدروس** إلى الإحالة على الأُسس المُرساة «للصفة الخطية للدال» كما لو أن التسميتين تسعيان مبدئياً [124] إلى الواقع نفسه: ليس هناك أي فارق بين الصفة الخطية للدال والصفة الخطية للغة.

وقد يقال لي: إننا مع هذا المرجع الداخلي نظل في مجال التلميح. ونجد التوضيح في فقرة من ملاحظات ريدلينجر من الدرس الأول (غوديل، 1957-1969، 22؛ إنكلر، 1968-1989، 218) حيث تُعرَّف بوضوح «الصفة الخطية للدال» عبْر ما يُسمى الصفة الخطية للدال: «استحالة نطق عنصرين من اللغة في الوقت نفسه».

نرى الصعوبة الأساسية التي يطرحها استبدال «اللغة» «بالدال» في وضع أُسس «الصفة الخطية». إذا أثّرت الصفة الخطية في اللغة فإن ذلك لا يقتصر على الدال فقط وإنما على المدلول أيضاً. ومن هنا يأتي هذا التناقض البادي للعيان بين المُتصورين السوسيريين للخطية.

(13) في هذا الموضع لا يرد في **الدروس** أمثلة. لكن في الصفحة 64 تترافق كلمة برباروس BARBAROS (في المصادر المخطوطة، المثال المختار هو الكلمة اللاتينية: FENESTRA)، بترسيمة تأخذ شكل شبكة، وينتج عنها التحليل التالي: «الخط الأفقي يُمثل السلسلة الصوتية، والشرطات العمودية تُمثل الانتقالات من صوت إلى آخر». ولا تُمثل الصفة الخطية إلا عبر تتابع الأصوات في داخل الكلمة دون تلميح إلى أي تتابع آخر: أعني تتابع الكلمات في التركيب.

ولعل واحداً من أوائل الذين لاحظوا هذا التناقض هو - في القول الصحيح - هلمسليف[14]. فمنذ عام 1939، وفي نص أظهره زينًا (Zinna) في عام 1995 صاغ هلمسليف بنفاذ بصيرته ووضوحه المعتادين الملاحظات التالية:

> إن الصفة الخطية حسبما جاء في **دروس في اللسانيات العامة** خاصة بالدال وحده. وظاهر نص **الدروس** أن المدلول ليس خطياً، وليس ذلك ضرورياً حتى في الحد الأدنى. لكن هل يمكن القول بهذا الفارق بين مستويي اللغة؟ فما إنْ نأخذ في الحسبان، ويبدو أن ذلك لا يمكن تلافيه، الفارق بين محور نظمي ومحور استبدالي[15] l'axe syntagmatique et l'axe paradigmatique فإننا نواجه صعوبة في قصر الخطية على الدال وحده. لأن المحور النظمي هو مجال عمل المدلول والدال بالقدْر نفسه، ولا نرى إمكانية الاكتفاء بنظمية المدلول دون أن نلتقي في الوقت نفسه بتسلسل للوحدات. (هلمسليف، 1939، في زينًا، 1995، 254).

ينصبُّ هذا النقد كما نرى على مُتصوَّر الصفة الخطية المذكور في الصفحة 103 من **الدروس**، في الفصل المُخصَّص «لطبيعة العلامة اللغوية». ويعترف هلمسليف مباشرةً بعد الفقرة أعلاه بأنه «حسبما جاء في **الدروس**، ليس الكلام وحده - الذي يُستخدم هنا بمعنى "الدال الصوتي"، انظر الفصل 4 - هو الخطي» (السابق، 255). ولا يمنع ما ذكرناه هلمسليف من الحديث عن ملاءمة[16] «ترتيب الكلمات في الجُملة»، الذي لا يقلّ «أهمية» عن «تنظيم الفونيمات في المقطع» (السابق، 255): فكلمتا «*Kuhhorn* و *et Hornkuh* = قرن [125] البقرة، وبقرة لها قرنان»

(14) ولا تنقضي في واقع الأمر دهشتي من أن بعضاً من أكثر قراء سوسير براعةً لم يتنبهوا لهذا التناقض. فميلنير (1989، 385-386) يوافق على الانتقادات التي صاغها جاكوبسون، لكن يبدو أنه لم يلاحظ المسألة التي يطرحها ازدواج تسمية «الصفة الخطية». بل إن الأمر يصل به إلى حد أن يضيف بطريقة إشكالية عالية (لا تكاد على أي حال تنتسب إلى سوسير في شيء) تسمية ثالثة: الصفة الخطية للسان. وعندما تحدث ميلنير عن فوكو Foucault عاد بإصرار إلى مسألة الخطية، لكنه مع ذلك لم يلاحظ ملاحظةً واضحةً بما فيه الكفاية ما وقع فيه فوكو (بعد سوسير في حقيقة الأمر) من خلط بين متصورَيْ الخطية. (2005، 72).

(15) اعتمدنا لترجمة Syntagmatique و Paradigmatique المقابلين الرائجين لدى اللسانيين العرب: «نظمي» و«استبدالي». انظر: **مُعجم اللسانية**، ص25؛ و**مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص357. (المراجع).

(16) Pertenence: ملاءمة؛ **مُعجم اللسانية**، ص156. (المراجع).

[تتميّزان في الألمانية بترتيب الكلمات حصراً، أي تتابعها في الزمن]، إنها أمثلة قديمة استعارها هلمسليف من بُوهلر(Bühler)[17]، تمثّل الملاءمة بين الدال والصفة الخطية، لكنها تمثّل بالتأكيد الملاءمة بينها وبين المدلول أيضاً. والمسألة كما نعلم معقدة كل التعقيد. وهلمسليف في «قول موجز» (ص 251) يمرّ عليها مرور الكرام دون أن يتفحص الخصوصيات المختلفة للخطية عندما تؤثر في ترتيب الفونيمات في المقطع أو ترتيب الكلمات في التركيب والجُملة. وهو لا يشير إلى الفوارق الكثيرة التي تخصّ بها اللغات استخدام الخطية[18]: إن الملاءمة بين العلامات المتنوعة في تتابعها ليس له ألبتّة الثبات المطلق الذي تمتلكه خطية الدوال، التي يقصد بها هنا الفونيمات. إن فرضية أن «الصفة الخطية تسيطر على الدال والمدلول المسيطرة نفسها، وهذا يعني بعبارةٍ أخرى أنها تسيطر على العلامة» هي الفرضية التي يطرحها هلمسليف (ص 257)، على عكس سوسير، طرحاً سريعاً، لكنه حازماً. وهلمسليف في نهاية الأمر يلمح بإصرار إلى واقع أن زمن الخطية لا يؤثّر في الكلام وحده لكنه يؤثّر في اللغة أيضاً.

وحقيقة القول: إن سوسير يتحدث في **الدروس** أيضاً عن «الصفة الخطية للدال»، وهي صياغة سوسيرية خالصة تكفي للدلالة على ذلك، أو كما تستمر بالدلالة على ذلك الأمثلة التي يضربها عن الملاءمة بين ترتيب الكلمات في التحليل الذي يجريه على سبيل المثال للمقابلة في الفرنسية بين عبارتي *je dois* و *dois-je* = ينبغي عليَّ وهل ينبغي عليَّ؟ (**الدروس**، 190)[19]. لكن ما يشين موقف سوسير هو التناقض ـ وهلمسليف يتحدث (ص 254) بقسوة أكبر عن «عدم الاتساق» ـ المتمثّل في المطابقة الخالصة والبسيطة بين «الصفة الخطية للغة» وبين «الصفة الخطية للدال».

---

(17) كارل بُوهلر (1879-1963م)، عالم نفس نمساوي. [المترجم].

(18) لقد لاحظنا بما لا يمكن غض البصر عنه أن اللغة الفرنسية تعكس ترتيب العناصر بالنسبة إلى الألمانية، وتنجأ فضلاً عن ذلك إلى التقابل، الذي لا طائل من ورائه في الألمانية، لحرفي الجر *de*، و *à* [في الكلمتين الألمانيتين المذكورتين قبل قليل وترجمتهما الفرنسية: corne *de* vache et vache *à* cornes]. والعربية تتعامل مع الحالة الأولى بالإضافة ومع الثانية باستخدام حرف الجر «اللام=لها». [المترجم].

(19) التونسية، 207؛ العراقية، 158؛ اللبنانية، 168؛ المصرية، 241؛ المغربية، 176. [المترجم].

هل في ذلك «عدم اتساق» في تفكير سوسير؟ أليس من المناسب أن نلاحظ مرّة أخرى أيضاً في هذه النقطة الصفة الجدلية لفكره؟

وآية ذلك أنه لم يعد في الإمكان قصر تأثير شكلي تدخل الزمن السوسيري في الكلام وفي اللغة: لأن زمن الصفة الخطية يؤثّر في اللغة أيضاً ـ التي هي نظام علامات ـ كما يؤثّر في الكلام. وإنه لمن المشروع بلا شك أن نتساءل إن لم يكن زمن التعاقبية يؤثّر على العكس في الكلام وفي اللغة بالقَدْر نفسه. لكن ما الحال إذا لم يكن هناك، حسب عبارة لاكان التي يبدو أنها جريئة كل الجرأة، «تعاقبية للخطاب» (لاكان، 1981، 66): وسنرى في ما سيأتي ما تؤول إليه هذه الفرضية.

[126] وخاتمة القول إن ازدواجية الزمن السوسيري هي التي وُضِعت موضع الشك. هل هي مجرد وهم، انعكاس مضلل للثنائية التي اعتمدها سوسير بين اللغة والكلام؟ وهل لتلك الثنائية نفسها صفة الفصل الحاسمة بين طرفَيها كما تنسب ذلك إليها بعض فقرات الدروس؟ أليس هناك في الواقع بعض التواصل بين المفهومين؟

أحس وأنا أطرح هذه التساؤلات بأنني أقترب أكثر فأكثر من عناصر النظام السوسيري، «الصارم» كل الصرامة ـ والكلمة لسوسير ـ، وهو نظام يستحيل أن تلمس عنصراً منه دون أن تلمس في الوقت نفسه بقية العناصر. لكن لنطمئن على أي حال: فالنظام السوسيري متماسك ويدافع عن نفسه بامتياز ضد كل الهجمات. إلاّ أنه ليس من المستحيل أن يبني نفسه بطريقة تختلف عن الطريقة التي تظهر في أكثر النصوص شهرةً، وأكثرها اقتباساً على أي حال، مع احتفاظه «بصرامته».

إذاً لننظر من جديد في الوقائع المتعلّقة بالزمن. هناك موقفان ممكنان:

1/ يتمثّل الموقف الأول في الفصل بين مُتصوَّرين للزمن السوسيري: الزمن «الذاتي» للكلام، تظهره «الصفة الخطية للدال»، والزمن «الموضوعي» للتعاقبية، الذي يؤثّر في اللغة.

2/ ويتمثّل الموقف الثاني في افتراض أن الزمن نفسه موضع الخلاف في الصفة الخطية ـ التي تتسع في هذه المرة لتشمل المدلول، وبالتالي اللغة ـ وفي التعاقبية.

والحل الذي يبدو لي أنه يفرض نفسه هو الثاني. إنه يستند إلى مجموعة من مقترحات سوسير الواضحة كل الوضوح. وأنا أذكر أكثرها أهميةً.

إن أكثر تلك الاقتراحات إثارةً مأخوذ من الدروس. يُقدّم سوسير فيها مع إحالة إلى فقرة سابقة في الصفحة 150 التوضيحات التالية. وهي توضيحات سبق ذكرها في الفصل الثاني، لكن من وجهة نظر أخرى:

> (. . .) إنه لمن المهم بالقَدْر نفسه أن نعرف كيف تتطابق العلاقات التي تنشأ بين شكلَي نطق متتاليين لكلمة (Messieurs = سادتي)[20] عندما تتردد في خطبة واحدة، وأن نعرف لماذا تتطابق(أداة النفي) (pas) مع (الاسم الموصوف) خطوة= pas أو، وهذا يرجع إلى الأمر نفسه، لماذا هناك تطابق بين كلمتي (*calidum*= حار) اللاتينية و (*chaud*= حار) الفرنسية (الدروس، 250)[21].

لا يمكن أن يكون الأمر أكثر وضوحاً من هذا. إنه الزمن نفسه الذي يفصل بين المواضع المتتالية التي يظهر فيها المنادى! *Messieurs* في خطاب أحد المحاضرين، وبين الاستخدامات المتتالية أيضاً، وإن كان بوضوح أكثر بُعداً لكلمتي *calidum* اللاتينية و *chaud* =حار الفرنسية. ويبرز هنا اعتراض مفاده أن مرّات التكرار المتتالي لكلمة !*Messieurs* لدى المحاضر هي متطابقة فيما بينها، في حين أن [127] *chaud* مختلفة كل الاختلاف عن *calidum*. لكن سوسير في نص الدروس توقع هذا الاعتراض. ففي الحالتين: حالة كلمة !*Messieurs* التي تتكرر لدى المحاضر لا تتطابق فيما بينها إلا ظاهرياً:

> (...) ألا ترى أنك إذا سمعت محاضراً يُعيد كلمة *Messieurs* أي «سادتي» مرّات عديدة خُيّل إليك أنك في كل مرة تسمع العبارة نفسها، والحال أن اختلاف سرعة التلفظ بها، وتنوع النغمة فيها يضفيان عليها من سياق إلى

---

(20) يقول سوسير (التونسية، 167): «ألا ترى أنك إذا سمعت محاضراً يُعيد كلمة messieurs أي (سادتي) مرّات عديدة خُيّل إليك أنك في كل مرّة تسمع العبارة نفسها، والحال أن اختلاف سرعة التلفظ بها وتنوع النغمة فيها يضفيان عليها، من سياق إلى آخر، فوارق صوتية ذات بال، لها من الأهمية ما لتلك الفوارق التي تصلح في مواضع أخرى للتمييز بين كلمات مختلفة. . . وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا الشعور بالاتحاد يبقى قائماً على الرغم من أنه لا وجود كذلك لاتحاد مطلق من وجهة النظر الدلالية بين ما تفيده كلمة *Messieurs* من فقرة إلى أخرى من خطبة خطيبنا. . . [المترجم].

(21) التونسية، 271-272؛ العراقية، 204-205؛ اللبنانية، 222؛ المصرية، 320؛ المغربية، 234. [المترجم].

آخر فوارق صوتية ذات بال، لها من الأهمية ما لتلك الفوارق التي تصلح في مواضع أخرى للتمييز بين كلمات مختلفة كما في قولهم في الفرنسية (pomme =تفاحة، و paume =راحة اليد، و goutte =قطرة و je goûte= أذوق و fuir= هرب و fouir= حفر للحيوان، إلخ)؛ ناهيك عن أن هذا الشعور بالتطابق يظلّ قائماً على الرغم من أنه لا وجود أيضاً للتطابق من وجهة نظر دلالية بين ما تفيده كلمة Messieurs من فقرة إلى أخرى من خطبة خطيبنا. (**الدروس**، 150)[22].

إنّ كلمتَي *calidum* و *chaud* هما والحالة هذه متطابقتان بطريقة ما، حتى لو أن «تطابقهما» يوصف بأنه «غامض»:

إن الرابط في هذا التطابق التعاقبي الذي يجعل كلمتين تتغيّران تغيّراً تاماً (calidus: chaud; aiwa: je)[23]، ومع ذلك نؤكد أنهما متطابقتان هو رابط غامض. ما طبيعة ذلك الرابط؟ (إنكلر، 1968-1989، 413؛ وانظر أيضاً، السابق، الشرح حول sevrer =يفطم و separare= يفصل: «التطابق عبر الزمن هو الذي نقول بموجبه إن sevrer هي separare». ونجد هذه الآراء مرّة أخرى لكن بمصطلحات مختلفة في **الدروس**، 249)[24].

ويترك سوسير الموضوع مُعلّقاً، وليس ذلك بغريب عليه، ويكتفي من الجواب باستخدام المصدر على وجه التحديد، وهو في هذا الموضع استخدام مخيّب للآمال. لأن جدليّة تطابق[25] وعدم تطابق الموضوع اللغوي مع نفسه هي واحدة من تلك المتاهات الجهنميّة (لكن لا مَحيدَ عنها بالمعنى الحرفي البحت للكلمة...) التي يطيب لسوسير أن يتسكع فيها تسكعاً لا نهاية له، مُظهراً بذلك صفة المسألة التي لا حلّ نهائياً لها بلا شك.

ونعجب هنا بالرصانة (المتصنعة؟) التي يلبس بها سوسير لباس المفارقة؛ فهو يطرح أن كلمات: *calidum* و *chaud* أو *separare* و *sevrer* هي متطابقة بالبداهة

---

(22) صحة الإحالة: (**الدروس**، 150-151). التونسية، 167-168؛ العراقية، 127-128؛ اللبنانية، 131-132؛ المصرية، 189-190؛ المغربية، 137-138. [المترجم].

(23) ليس المقصود بالطبع الضمير أنا = *je* بالفرنسية، لكن ظرف الزمان الألماني *je*.

(24) التونسية، 270-271؛ العراقية، 204-205؛ اللبنانية، 221؛ المصرية، 318-319؛ المغربية، 232-233. [المترجم].

(25) identité: تماثل؛ تطابق، **مُعجم اللسانية**، ص104. (المراجع).

نفسها وأن *Messieurs*: سادة أو *guerre* حرب المتتاليتين في حديث الخطيب نفسه مختلفتان. وهذا ما يسمح بلا شك باستنتاج أن المفهوم اللاكاني المذكور فيما سبق عن «تعاقبية الخطاب» يجد حقاً عند سوسير جذرَهُ الذي ظلّ في الحقيقة ضمنياً.

إن الاقتباسات التي أوردناها هي باستثناء الأخير مأخوذة من **الدروس**. وإن مما لا يمكن إنكاره إنكاراً قطعياً أن الناشرَين غرضا تفكير سوسير في بعض الأحيان عَرْضاً فيه شيء من الجفاف. لكن **المصادر المخطوطة** تُظهر مداخل أخرى لا تختلف إلاّ اختلافاً طفيفاً عن تأملات سوسير المحزنة. ومثال ذلك هذه الفقرة من **الدرس** الثالث:

> في الوقت نفسه الذي شقّ علينا التعرف إلى ما هو كيان، وشقّ علينا كذلك التعرف إلى ما هو تطابق. إننا نجري على الدوام تطابقات من هذا النوع: إن القطار الذي ينطلق كل يوم في الساعة الخامسة وخمس وعشرين دقيقة من كورنافان Cornavin، هو بالنسبة إلينا [128] متطابق. وخطيب يتحدث عن الحرب ويكرّر خمس عشرة أو عشرين مرّة كلمة حرب، نحن نعلن أنه متطابق. والحال أن هناك أفعالاً منفصلة في كل مرّة تُنطق فيها الكلمة (إنكلر، 1968-1989، 246؛ وهذه هي تعاليق قسطنطين: والغريب أن ملاحظات من كانوا يستمعون إلى دروس سوسير مختلفة كل الاختلاف في هذا الموضع. وكورنافان هو اسم محطة القطار في جنيف).

إن «الأفعال» التي تؤدي كل مرّة إلى ظهور نُطْقٍ جديد، هو في الوقت نفسه متطابق ومختلف للكلمات، هي أفعال كلام[26]. وبهذا تكتسب هذه القضية السوسيرية كل معناها: التغيير التعاقبي يجد أصله في الكلام:

> إن كل ما هو تعاقبي في اللغة هو كذلك عبر الكلام وبوساطته (غودبل، 1957-1969، 156؛ إنكلر، 1968-1989، 223؛ وانظر أيضاً: **الدروس**، 138 ـ الصياغة هي بالضبط الصياغة التي نجدها في المصادر المخطوطة ـ و143)[27].

---

(26) لقد عولجت مسألة «أفعال الكلام»، وبعبارة أخرى «أفعال اللسان» (العبارة استخدمها سوسير، **كتابات**، 129) في الفصل الرابع.

(27) التونسية، 150؛ العراقية، 115؛ اللبنانية، 121؛ المصرية، 170؛ المغربية، 125. ولم أجد في الصفحة 143 التي ذكرها المؤلف ما له علاقة بالفكرة التي يذكرها هنا. ولعل الصواب ص 134. [المترجم].

ويتشكّل عبر هذا الرابط الذي لا انفكاك له بين اللغة والكلام مفهومان هما، إن لم أخطئ أو أنسَ، غائبان من **الدروس**، لكنهما يظهران في عدد من المواضع في **المصادر المخطوطة** وفي **كتابات في اللسانيات العامة: اللغة الخطابية (كتابات، 117)** ـ وهذا التركيب الذي يبدو أنه مجرد تركيب اسمي يرد بوضوح معادلاً لمصطلح الكلام ـ واللسان الخطابي (**كتابات**، 95): وفي هذا اللسان الخطابي «حصراً» «تحدث كل التغييرات، سواءٌ كانت صوتية أو قواعدية (قياسية)».

ويصل التفكير السوسيري في النهاية، بخصوص مثال من نمط *calidum* و*chaud*، إلى حد إنكار مُتصوَّر الموضوع في اللسانيات:

> لنأخذ في الحسبان على سبيل المثال أن كلمة *alka* التي أصبحت بعد ردح من الزمن، وبعد أن كثر استخدامها *ok*، ولنلاحظ، تبسيطاً للأمور، أننا لن نعدل ألْبَتّةَ عن جعل القيمة الدلالية لـ *alka* أو *ok* تتدخل، دون أن يكون هناك بدء لواقعة لسانية بالمعنى الحقيقي للكلمة. إذاً، إن كلمة *alka*، وجدت نفسها بوساطة عامل الزمن، قد أصبحت *ok*. ولنا في حقيقة الأمر أن نتساءل عن الرابط بين *alka* و *ok*؟ وإذا سلكنا هذه الطريق، وهي طريق يبدو أنه من الضروري سلوكها فإننا سنرى تَوّاً أنه ينبغي أن نتساءل عن العلاقة بين *alka* و *alka* نفسها. وفي هذه اللحظة نعلم أنه لا يوجد في أي مكان شيء هو *alka* بوصفه واقعة أساسية (ولا أي شيء): لكننا نعلم أن هناك بادئ ذي بدء نوعاً من العلاقات التي نُقيمها، على سبيل المثال بين *alka* و *ok*، وهذا النوع يقدح في أذهاننا فكرة وحدة من نوع ما، ما زال من الصعوبة بمكان تحديدها. (إنكلر، 1968–1989، 414؛ **كتابات**، 200–201).

إن هذا النص مفرط في الصعوبة، و يفضي في نهايته إلى إنكار الموضوع اللساني ـ الذي يُشار إليه هنا «بالشيء» *alka* ـ بحد ذاتها. ويستبدل به «وحدة من نوع ما، ما زال من الصعوبة بمكان [129] تحديدها»، قائمة على العلاقة بين «الأشياء». وهذه في الإجمال مسألة تطابق الموضوع اللغوي مع نفسه هي التي تجد نفسها مطروحةً هنا: ونرى أن مسألة هذا التطابق تطرح نفسها بالطريقة نفسها في تعاقبية تاريخ اللغة وفي التزامنية الظاهرة للخطاب. وآية ذلك أن سوسير يطرح التكافؤ بين «الرابط» الذي يربط *alka* بـ *ok* ـ اللتين تفصل بينهما عدة قرون ـ و«الرابط» الذي يربط *alka* بنفسها في التوارد المتتالي، إذ يفصل بينهما بضع ثوانٍ في الخطاب نفسه. هل يصل الأمر بـ «الشيء» *alka* إلى أن يتلاشى، إلى أن ينتقل إلى وضعية «فقاعة

الصابون» من أن يكون «كائناً غير موجود» التي هي كما رأينا في الفصل الثالث وضعية «تلك الرموز» المجاورة التي هي عناصر **الحكاية الخرافية**؟ وهذا ما يبدو لي أنه يقترحه عبر الإنكار بوصفه واقعة أساسية للشيء في ذاته.

لقد فهمنا أن التفحص الواعي للنصوص يظهر بلا لَبْس كما يبدو أن المُتصوَّر السوسيري للزمن واحد على الرغم من بعض المظاهر التي تُبرزه غير ذلك. إنه الزمن نفسه الذي يتدخل في خطاب الفاعل وفي اللغة. الفارق الوحيد بين الزمنين، لكنه فارق جوهري، يكمن في الدور الذي يسند إلى «جمهور المتكلمين» عند تدخل الزمن في اللغة.

لكن الرأي المُعارض ـ الذي يتبنّى حلَّ ازدواجية الزمن السوسيري ـ يجد على الدوام من يناصره. بل إنه وجد في عام 2004 من يجدده، إنه كتاب بيتروف الذي يطرحه طرحاً واضحاً كل الوضوح:

> [نرى] الفارق الجوهري بين الزمن الذي يُعدّ إطاراً [الزمن الذي يحدّد الصفة الخطية، م. أ.] والزمن الذي يُعدّ فاعلاً [زمن التعاقبية، م. أ.]. «فالزمن ـ الإطار» يُقاس، بعيُر، واستمراره طويل نسبياً. أما قياس «الزمن ـ الفاعل» فإنه على العكس ليس الاستمرار، إنه اطّراد الأحداث التي تسبّب بظهور أنظمة جديدة. الزمن الأكوستيكي، زمن الخطاب وزمن التعاقبية هي أزمنة ذات طبيعة مختلفة. (2004، 178).

ما حجة بيتروف؟ إنها بسيطة، وربما يكون هذا ما جعلها مُقْنعة: «الزمن ـ الفاعل» للتعاقبية يعمل بوصفه سبباً[28] [130] للتغيير اللغوي، على عكس «الزمن ـ الإطار» للخطاب. وبعبارة أوضح، إن الزمن ـ الفاعل يعمل بوصفه سبباً وحيداً.

---

(28) لنطمئن: سأترك مسألة معنى مفهوم السبب مُعلّقة. ولي هنا ضامنٌ هو سوسير نفسه. إنه يطرح بوضوح المسألة عندما يتحدث عن «قانون الجهد الأقل» في علم الأصوات فيقول: «ما الذي نسميه سبباً؟». (إنكلر، 1968-1989، 340). لكن الجواب الذي يعطيه هو في الواقع رفض للإجابة، إنه في الوقت نفسه جواب لهو واستسلام ودوران في حلقة مفرغة: «إنه الفرصة المناسبة، والمعبر الذي نمر عبره فجأة إلى مبدأ الجهد الأقل: تتدخل الظاهرة الصوتية في لحظة محددة؛ فخلال أربعة أو خمسة آلاف سنة على سبيل المثال، نطقنا بالكسرة "I" bref وفي خلال جيلين تولد التغيير إلى ي "I" long كما في (sieben > siben) والأمر نفسه ينطبق على الفتحة، إلخ). لماذا كان ذلك، وما السبب فيه؟».

ولكي يوضح هذه الوظيفة السببية للزمن بجلاء يستعين بيتروف بالتعاكس بدور الزمن في الديناميّة التي يرى بتروف أن سوسير جانَبَ الصواب في ذكرها:

> يخطئ سوسير عندما يقارن التعاقبية بالآلية الديناميّة. إن دور الزمن في الديناميّة يختلف كل الاختلاف عن الدور الذي يؤديه في التعاقبية. في الديناميّة ليس هو إلا إطار تجري ضمنه الظواهر المدروسة، ونظام مرجعي. أما زمن سوسير فهو على العكس فاعل، الفاعل الوحيد في التغيير (2004، 182).

وهنا تنشأ عقبة كأداء لم يلحظها إن لم أُخطئ بتروف. وتتمثّل في واقع أن سوسير لا يطرح ألْبَتَّة قضية الزمن بوصفه «فاعلاً» (سبباً؟) وحيداً للتغيير اللغوي. بل يبدو أن لديه بعض النفور من أن ينسب إليه أي وظيفة سببية مهما كان نوعها. ويجدر في هذا الخصوص أن نستعيد من جديد فقرة من أكثر فقرات **الدروس** صلة بالموضوع:

> وإن نحن أخذنا في الحسبان اللغة في الزمن بغض النظر عن جمهور المتكلمين ـ كأن نتصور شخصاً عاش منفرداً طوال قرون عديدة ـ فإننا قد لا نلاحظ أي تغيّر في اللغة ولا أي عمل للزمن. (**الدروس**، 113)[29].

لقد رأينا في الفصل الثاني أنه من المستحيل أن نقرّر فيما إذا كان «الزمن» المذكور في هذه الفقرة هو زمن «الصفة الخطية» أو زمن التعاقبية. ذلك أنه في هذا الموضع يتلاقى في عقدة مُحكمة العقد الزمنان السوسيريان: زمن الخطية، بعبارةٍ أخرى: زمنية فعل الكلام ـ فعل لا يمكن الاستغناء عنه لتطور اللغة ـ وزمن التعاقبية الذي يصبح الزمن نفسه بمجرد تدخل جمهور المتكلمين.

وأرى أن النص يقول بوضوح: إن الزمن لا يتدخل ألْبَتَّة بوصفه «فاعلاً وحيداً» للتغيير لأنه غير قادر على تحقيق ذلك التغيير ما دام فاعل الكلام واحداً. والحق أن التحولات يمكن أن تظهر مع الزمن بمجرد تدخل «جمهور المتكلمين». لكن هل من المشروع والحالة هذه القول: إن الزمن «فاعل»؟ أليس من الأفضل القول: إنه الشرط الذي يفترضه مُتصوّر التغيير نفسه قَبْلياً؟ لأنه هل في الإمكان تصور

(29) التونسية، 124-125؛ العراقية، 96؛ اللبنانية، 100؛ المصرية، 141؛ المغربية، 100. [المترجم].

التغيير دون أن نفترض وجود قبلُ وبعدُ؟ أما فاعل التغيير فإنه بالبداهة «جمهور المتكلمين»، أي، بعبارة فيها أكبر قدْر ممكن من الحرفية، «جمهور» الفاعلين المتكلمين الذين يتناقلون التجديدات التي ينتجونها في «أفعالهم» الكلامية. وسنرى أن ذلك يحدث بالطريقة نفسها تماماً فيما سيأتي. [131] سنرى في **الحكاية الخرافية** أن «الروايات» المتتابعة للنص تفضي إلى التغيير(30). ويبدو سوسير في موضع آخر من تفكيره أنه مستعد ظاهرياً لأن يذهب إلى أبعد مما ذكرنا. إذ نراه مراراً وتكراراً يترك لنفسه العنان لكي يحصر التغيير التعاقبي في المظهر الصوتي حصراً. ونلاحظ آثار ذلك على سبيل المثال في هذه القطعة من مشروع صناعة «كشاف» يطرح فيه «التكافؤ» بين التعاقبي والصوتي.

> تعاقبي: يُقابَل بـ تزامني أو نمط ـ تزامني. لهذا هو معادل لصوتي. (**كتابات**، 227).

وفي موضع آخر، يوضح سوسير هذا التكافؤ:

> بناءً عليه، فأصل قدْر كبير من الوقائع التزامنية ليس إلاّ صوتياً، وبالنتيجة تعاقبي، والتمييز يظلّ بيّناً. ينبغي أن نتذكر ذلك لكي لا نسارع إلى القول: إننا نغادر مجال علم الأصوات، وإننا في مجال القواعد التاريخية: إننا موجودون في مجالين: أحدهما، يمتد في عدد من الأشياء، وهو تزامني؛ والآخر، في الزمن. (إنكلر، 1969-1989، 324؛ وانظر مصير هذه الفقرة في **الدروس**، 195)(31).

وبذلك يمتد المظهر الصوتي للظاهرة اللغوية ـ وينبغي أن نفهم من كلمة (يمتد): أنه لا يمتد إلاّ ـ في الزمن، وهو بهذا يعارض وقائع «القواعد» التي «تمتد في عدد من الأشياء التزامنية»، وهي من هنا لا تمتد في الزمن.

---

(30) في مقطع من «مخطط» كتاب **في الجوهر المزدوج للسان** (**كتابات**، 55)، يتفحص سوسير مسألة التغيير التعاقبي في المصطلحية التي يستخدمها عموماً في بحثه عن **الحكاية الخرافية**: «في الواقع، إن كل ما في اللغة مصدره غالباً عوارض تحولها، لكن ذلك لا يعني أننا نستطيع أن نستبدل بدراسة اللغة دراسة ما تصبح عليه بعد التحول؛ ولا يعني على وجه الخصوص أنه ليس هناك في كل لحظة، كما نؤكد ذلك، شيئان من نمط متمايز كلياً، في تلك اللغة من جهة، وفي تلك الرواية من جهة أخرى».

(31) التونسية، 215-216؛ العراقية، 165؛ اللبنانية، 174؛ المصرية، 249؛ المغربية، 181. [المترجم].

وفي هذا الموضع بالتحديد تجد أنفسنا من جديد في الآلية «الصارمة» كل الصرامة للتفكير السوسيري، وهي واحدة من نتائج مبدأ اعتباطية العلامة. ويسمح ذلك التفكير بتوضيح خصوصية التغييرات اللغوية (وبعبارة أخرى: التغييرات الصوتية، على الأقل في المنظور الذي كان سوسير يتبناه في تلك المدة):

> وعبر الواقعة نفسها التي تقضي بأنه ليس في اللغة ألبتة ترابط داخلي بين العلامات الصوتية والفكرة، بين الفكرة وأداتها، تلك العلامات متروكة لحياتها المادية الخاصة بطريقة مجهولة تماماً في المجالات التي يستطيع فيها الشكل الخارجي المطالبة بأقل درجة من التواصل الطبيعي مع الفكرة. (**كتابات**، 214؛ هذا النص مقتبسٌ مرّة أخرى من التعليقات المرتبطة بالبحث عن ويتني: في ذلك العصر، 1894، كان سوسير ما زال يستخدم علامة وفكرة بالمعنى الذي سيسبغه بعد ذلك على الدال والمدلول).

[132] تلك «الطريقة المجهولة تماماً من «حياة» العلامات ـ التي ينبغي فهمها هنا بمعنى تطورها ـ هناك اسم لتسميتها: المصادفة، وبالتحديد، «مصادفة الأحداث الصوتية وغيرها»، ويستبدل بها في بعض الأحيان المصطلح الجديد الجميل العَرَضِيَّة:

> إن الإجراء في تكوينه ينشأ من أي مصادفة كانت [بياض أحدث في النص فجوة يؤسف لها]، والتحليل المقارن لبعض التطورات «العرضية» التي تقرّب بنية اللغة الفرنسية القديمة من العبرية: بيت ـ الله *Hôtel-Dieu*، وبيت لله «*hôtel de Dieu*» تماثل *tsedek Yahweh* «عدالة الله»] وحينئذ يكون من الواضح كل الوضوح أن عرضية من النوع نفسه تمكّن للنموذج السامي فيما يبدو أنه سمة من أكثر سماته ثباتاً. (**كتابات**، 215).

نلحظ في هذا الموقف أن الأمر يصل بالمصادفة التي تسهم في تطور اللغات إلى حد التشكيك في تصنيف تلك اللغات، سواءٌ كان تصنيفاً تاريخياً أو نموذجياً:

> لكن ما قيمة أن تُصنَّف اللغات، أيّاً كان نوع ذلك التصنيف، حسب الإجراء الذي تستخدمه للتعبير عن الفكر؛ أو بأي شيء يتصل هذا؟ لا يتصل بشيءٍ ألبتّة، إلاَّ بحالتها الآنية التي هي باستمرار متبدلة [هذا بخصوص التصنيفية، م. أ.]. وليس لسابقاتها ولا لمجاوراتها [هذا بخصوص التاريخ، م. أ.]، وبدرجة أقل ليس للنوع الذي يتكلمها أي علاقة ضرورية مع ذلك الإجراء الذي هو عرضةٌ لأبسط عارض من صائت أو نبرة تتشكّل في اللحظة التالية في اللغة نفسها. (**كتابات**، 216).

عندما يقترح سوسير إخراج اللغة الألمانية من جردة اللغات الهندو ـ أوروبية فإنه يُحرز تقدماً أخيراً، يقول:

> [...] إن تراكيب مثل Bet-haus = بيت الصلاة وSpring-brunnen مضخة ـ بئر، (وهي كلمات تعبّر الكلمة الأولى منها عن فكرة فعلية) يمكن أن تُستخدم للقول: إن الألمانية ليست لغة هندو ـ أوروبية. (**كتابات**، 215).

وفي هذا الموضع من تفكير سوسير نجد واحدة من أشهر استعاراته سوسير: إنها استعارة لعبة الشطرنج. لقد ظهرت باستفاضة منذ عام 1894 في مخطط «المقالة عن ويتني». (**كتابات**، 206–208 و 217). وقد أعاد استخدامها بعد أكثر من عشر سنوات في عدد من المواضع في **الدروس**. إن التماثل بين «نظامي القيم» اللذين هما لعبة الشطرنج واللغة لمن يعرف قواعد لعبة الشطرنج، حتى لو لم يمارسها، هو في واقع الأمر تماثل مدهش. وسوسير يصوغها ببراعة في التصين دون أي خلل. وبيت القصيد هو أن كلاً منهما نظام، والتبدل لا يطال الْبِنْيَةَ مباشرةً إلاّ قطعةً واحدةً في كل مرّة:

> إن كل نقلة في لعبة الشطرنج لا تحرّك إلاّ قطعةً واحدةً؛ والأمر نفسه ينطبق على اللغة إذ إن التغييرات لا تنصبّ إلاّ على عناصر منعزلة. (**الدروس**، 126)(32).

[133] لكن لذلك التغيير الموضعي نتائج غير متوقعة على النظام كله:

> وعلى الرغم من ذلك فإن للعملية تأثيراً في النظام كله؛ ويستحيل على اللاعب أن يتنبأ بالضبط بالحدود التي يقف عندها ذلك التأثير [...] ويمكن لمثل تلك العملية أن تُحدث انقلاباً في سَيْر المباراة بأسرها، وأن يصيب تأثيرها حتى القطع التي كانت لوقت ما خارج نطاق انعكاسات اللعب. وقد رأينا منذ حين أن هذا الأمر ينطبق تماماً على اللغة (السابق)(33).

ويكمن في هذه الجدلية العائدة إلى الموضعي والنظامي مظهرٌ من مظاهر ازدواجية اللغة. وهو يظهر للعيان بطريقة أكثر درامية فيما يحتويه هذا النص هذا المأخوذ من مخطط «المقالة عن ويتني» من **تأملات**:

---

(32) التونسية، 138؛ العراقية، 106؛ اللبنانية، 111؛ المصرية، 157؛ المغربية، 114.[المترجم].
(33) المواضع السابقة من الترجمات. [المترجم].

> ليس هناك في واقع الأمر أيُّ تماثل في العقل بين وضعية أحجار الشطرنج وبين نقل قطع الشطرنج [...] ناهيك عن أنه من المستحيل معرفة أي من هذين الشيئين، المختلفين كل الاختلاف، هو الجانب الأكثر تمثيلاً من الآخر للكل بطريقة تجعلنا نصنّفهما في مكانٍ ما. (**كتابات**، 208).

وعلى الرغم من ذلك فإن هناك بين نظام لعبة الشطرنج ونظام اللغة اختلافين على الأقل:

الأول لا يشار إليه بوضوح إلاً في واحدةٍ من «الملاحظات الزائدة»:

> تعليقة زائدة: هناك في مقارنة اللغة بلعبة الشطرنج جانبٌ من الصواب يجعل الوظيفة (القيمة) تواضعية. أما فيما يخص ما هو بنية فإن تلك المقارنة لا تُقدّم أساساً يمكن الاتكاء عليه، بسبب أن كل قطعة من قطع لعبة الشطرنج غير قابلة للفك، ولا تحتوي كما هي الحال في وحدة الكلمة على أجزاء مختلفة، لها وظائف مختلفة. (**كتابات**، 114).

إن قطعة لعبة الشطرنج «غير القابلة للفك» تتميّز على الكلمة التي هي تجميع «لأجزاء مختلفة». ولا يُحدّد سوسير ما يريده بهذه «الأجزاء المختلفة». هل يُلمّح إلى لواحق الكلمات مثل *désireux*، أو إلى عناصر التأليف في *signi-fer* أو *hippo-trophos*؛ وهي أمثلة مذكورة في **الدروس** (170، 172، 190؛ إنكلر، 1968–1989، 283، و 313)؟ أم إنه يفكر، كما هو الحال في **بحثه عن الحكاية الخرافية**، «بالفكرتين أو الأفكار الثلاث» التي يكوّنُ فيها «التأليفُ المتباعد» (**الحكاية الخرافية**، 192) «العلامة» أياً كانت «السيميولوجيا» التي تنتمي إليها؟ والحق أن صمت سوسير قليل الأهميّة. لأنه، مهما كانت وضعية «الأجزاء» المذكورة فإن تعددها نفسه هو أصل التغيير التعاقبي، حتى إن التباعد[34] الثاني بين لعبة الشطرنج واللغة يمكن في نهاية الأمر أن يكون هو التباعد الوحيد في **الدروس**: ذلك أنه ليس في حقيقة القول إلاً نتيجة للتباعد الأول:

> ولا نجد إلاً نقطة واحدة تختل فيها صحة وجه الشبه بين اللغة ولعبة الشطرنج؛ فلاعب الشطرنج يعمد إلى نقل القطع وإحداث تأثير في النظام؛ في حين أن اللغة لا تسمح بشيء من ذلك؛ لأن أجزاءها وعناصرها تنتقل ـ أو تتغيّر ـ تلقائياً وبحكم المصادفة والاتفاق [134] [...] ولكي تشبه

(34) divergence: تباعد. (المراجع).

مباراة الشطرنج اللغة شبهاً كلياً ينبغي أن نفترض وجود لاعب لا وعي له ولا ذكاء. (**الدروس**، 127)[35].

وبذلك تكون اللغة في تطورها، بتأثير خصوصية تلك العلامات، خاضعة خضوعاً مطلقاً «لمصادفة الأحداث الصوتية وغيرها». (**كتابات**، 207). وهذا من جزاء الأثر الذي لا يمكن تلافيه لوضعية الكلمة بوصفها جمعاً لأجزاء مختلفة. هل هناك بصريح العبارة لاعب لهذه اللعبة؟ ربما. لكنه «لا واعٍ» (**الدروس**، 127) أو «عيِي ولا ذكاء له». (**كتابات**، 207). وإن «قوة غامضة هي التي تقف في وجه التنظيم الذي يتسم به نظام ما للعلامات». (**الدروس**، 127)[36].

يبقى أن نقول: إن للتغيير، وإن كان عَرَضيّاً، سبباً. ونذكر أن في **الدروس** حديثاً مستفيضاً عن دراسة «أسباب التغييرات الصوتية» (202-208)[37]. يُفرِط نص **الدروس** في تعداد عدد من الأسباب التي يذكرها اللسانيون عادةً: منها «القابليات المحددة سلفاً» في الأعراق (وقد مرّ بنا في الفصل الأول عند الحديث عن ليوبولد دو سوسير، ثم فيما اقتبسناه من الصفحة 216 من **الكتابات** وجهة نظر سوسير في ذلك)؛ ومنها «ظروف التربة والمُناخ»؛ ومنها «قانون الجَهْد الأقلّ» (انظر النص الذي اقتبسناه في ما سبق)؛ ومنها «التعليم الصوتي الذي تلقيناه في طفولتنا»؛ ومنها الاستقرار أو عدم الاستقرار السياسي؛ ومنها «اللغة الأساسية السابقة»[38]. بل إن الأمر يصل بسوسير إلى حدّ تصور تفسير أخير بطريقة لا تخلو من الحيرة: إنه «المشابهة بين التغيّرات الصوتية والموضة» (**الدروس**، 208)، وقد سبق له أن ذكر مثل ذلك في مخطط «مقالة عن ويتني». (**كتابات**، 211). ومهما كانت جوانب النقص التي يشكو[39] منها هذا التفسير الأخير فإن له ميزات كبيرة، فهو:

---

(35) التونسية، 139؛ العراقية، 106؛ اللبنانية، 111-112؛ المصرية، 158؛ المغربية، 114-115. [المترجم].

(36) قارن بالترجمات الواردة في المواقع المذكورة في الحاشية السابقة. [المترجم].

(37) التونسية، 223-229؛ العراقية، 170-174؛ اللبنانية، 179-184؛ المصرية، 257-262؛ المغربية، 187-193. [المترجم].

(38) substrat linguistique: لغة أساسية (حلّت محلّها لغةٌ أخرى)، **مُعجم اللسانية**، ص195. وقد ورد في **مُعجم المصطلحات اللغوية** معنىً قريب: لغة مغلوبة؛ لغة أساسية، ص482. كما ورد أيضاً في الصفحة ذاتها: طبقة سفلى. لكن المقصود هنا هو «اللغة الأساسية». (المراجع).

(39) وآية ذلك أن تغيُّرات الموضة، وإن كانت مُفرطة في «مزاجيتها»، فهي تظلّ محكومةً =

> يُدرج المسألة في نطاق مسألة أعم وأشمل. إنها مبدأ أن التغيّرات الصوتية هي ظاهرة نفسية بحتة (**الدروس**[40]، 208؛ وقد زاد ريدلنيجر الصفة نهائي *final* بعد الاسم مبدأ *principe*، إنكلر، 1968-1989، 343).

لعله من المناسب أن نزعم بحذر أن التغيّرات الصوتية هي بطبيعتها غير واعية: ولقد لاحظنا فيما سبق أن اللاعب في لعبة الشطرنج المُفرطة في الخصوصية التي هي اللغة هو لاعب «لاواع». ويبدو من الثابت بوضوح هنا أن سوسير يطرح مسألة النفسانية غير الواعية، المُنتجة للتغيّرات اللغوية.

[135] نرى أن الزمن لا يتدخل في أي وقت في تعداد أسباب التغيّر الصوتي.

هل في الإمكان أن نتقدّم خطوةً أكثر؟ يكفي لهذا أن نستشهد بمقطع من **الدروس** حيث يقول سوسير بجلاء، ص 164: إن الصوت في ذاته لا ينتمي إلى اللغة[41]. وأكثر وضوحاً من هذا هذه الفقرة من **كتابات**، وهي فقرة آسف لأنها توصف تاريخياً وصفاً مخيباً للآمال فيقال: إنها تنتمي في تصنيف «الوثائق الجديدة» إلى «وثائق BPU 1996»:

> إن كل ما يصنع وحدات اللغة ذو طبيعة لا جسدية كما شأن أي قيمة. وليس المادة الصوتية، الجوهر الصوتي الذي []. لا نستطيع في أي لحظة معالجة اللغة دون أن نهتم بالصوت وبالأصوات، وإن تغيّر الأصوات هو عامل رئيس، لكن هذا لا يمنع الصوت في بعض الحالات أن يكون غريباً عن الطبيعة، إلخ. (**كتابات**، 287).

إذاً، إذا كان الصوت وحده هو الذي يتأثّر بالتغيير فإن اللغة لا تتغيّر. هل أبالغ في دفع تفكير سوسير في طريق المفارقة؟ ربما. مع ذلك، فإن النص الآتي

= «بالمُعطيات الطبيعية لنسب الجسد البشري». (**كتابات**، 211). وإذا كنا نذكر فإن ما يُبعدها عن الحقل السيميولوجي عندما نفهمها بالمعنى الدقيق للمصطلح (**الدروس**، 100) هو أن تلك التغيُّرات تتميّز بهذا من الظواهر التي تؤثّر في اللسان الذي هو متحرّر من كل رابط يربطه بأي مُعطيات طبيعية مهما كان نوعها، وهي، على الأقل في هذه المدة من التفكير السوسيري، متروكة في تطورها للمصادفة المطلقة.

(40) التونسية، 229؛ العراقية، 174؛ اللبنانية، 184؛ المصرية، 262؛ المغربية، 193. [المترجم].

(41) التونسية، 181 «على أنه يستحيل أن ينتمي الصوت ـ ذلك العنصر المادي ـ بذاته وحده إلى اللغة»؛ العراقية، 137؛ اللبنانية، 144؛ المصرية، 205؛ المغربية، 150. [المترجم].

نص مغرٍ ـ عبر صفته بوصفه تأملاً معزولاً، لا يهتم اختيارياً بمؤشرات التناقض الظاهرية ـ إنه نص مخطط «المقالة عن ويتني» حيث نجد الرأي التالي:

إن الطريقة التي يمكن فيها للعقل أن يستخدم رمزاً من الرموز (باعتبار أن الرمز لا يتغيّر) هي علم متكامل، علم لا علاقة له ألبتّة بالاعتبارات التاريخية. (كتابات، 209)[42].

فلنحذر: إن الرمز المقصود في هذا النص الذي يعود إلى عام 1894 هو الشيء الذي سيُسمى في الدروس علامة ـ وهو يحمل هذه التسمية أيضاً في بعض فقرات ذلك المخطط. وتُسمى اللغة في هذا النص باسم نظام من الرموز. كيف تتغيّر اللغة إذا كان الرمز لا يتغيّر، وبما أن تغيّر عنصر من العناصر هو الذي يتولّد منه بتأثير آخر تغيّر في النظام؟

والقول الحق إن سوسير لا يحبس نفسه باستمرار في هذا المُتصور المتطرف للغة الذي يبدو أنه لم يكن إلاّ إغراءً مرحلياً. ذلك أنه يطرح بجلاء، في مواضع أخرى، نمطين من التغيّرات يفلتان من الجانب الصوتي دون أن يخرجا [136] من التعاقبية ـ أو على الأقل يُظهران أنهما يبقيان فيه، عكس ما يوحي إليه التساوي بين التعاقبي والصوتي. إن المقصود هو «التغيّر القياسي» (انظر على سبيل المثال إنكلر، 1968-1989، 371-372 وكتابات، 159) ومختلف ظواهر التأويل الجديد، وخصوصاً التأثيل الشعبي l'étymologie populaire (انظر على سبيل المثال إنكلر، 1968-1989، 390-393 وحول التأثيل الشعبي على وجه الخصوص، مثال كلمة[43] *courtepointe*= غطاء سرير، 396-397). هل يفرض القياس أو التأويل

(42) لكي أُظهر إلى أي حدّ يقع تفكير سوسير هنا في حيّز المفارقة والتناقض الظاهري فإنني لن أتردد في الاستشهاد بالكلمات الأولى للمخطط: «إن الشيء الذي يستخدم علامة لا يكون ألبتّة هو الشيء نفسه مرتين». (كتابات، 203). كيف يستطيع في الوقت نفسه أن يظلّ غير متغيّر وليس هو ألبتّة الشيء نفسه مرّتين؟ حلّ ممكنٌ: إن أفعال الكلام للمتكلم هي التي تسبغ عليه في كل واحد من الاستخدامين اختلافاً ما، كما رأينا ذلك في كلمة !*Messieurs* التي تتكرر في خطاب المحاضر. إلاّ أنه يظل تعاقبياً متطابقاً طالما أنه لم يتأثر إلاّ بمؤثرات «عَرَضية» ـ هذا مصطلح سوسير: انظر كتابات، 206 ـ صوتية: وهذا ما ينطبق على ***calidum*** و ***chaud***.

(43) يقول سوسير في الدروس، التونسية، 260: «قد يتفق لنا أن نحرف الكلمات التي تُعتبر صيغتها ومعناها غير مألوفين لدينا كثيراً، وقد يقرّ الاستعمال هذه التحريفات في بعض الأحيان. من ذلك أن كلمة ***coute-pointe*** من الفرنسية القديمة مُتكوّنة من coute وهي بديل من ***couette*** ومعناها =

الجديد تغيّرات؟ بالتأكيد. لكن هل يتدخل الزمن بوصفه سبباً في هذه التغيّرات؟ يبدو أن الجواب الذي يعطيه سوسير بخصوص القياس هو بالنفي:

> إننا نرى رأياً قاطعاً هذه المرّة. إن هذا البناء الفوري (القياس) لا يقوم إلاّ في الكلام. فالشكل الجديد يثبت في اللغة بعد أن يكون قد أُلفي غالباً في الكلام، ويصبح شكلاً ثابتاً. (إنكلر، 1968-1989، 378).

وفي هذا النص أيضاً تنتشر المصاعب بوفرة. إن الظروف الزمانية للظاهرة هي بالتأكيد واضحة، خصوصاً عبر الحال غالباً souvent. لكن المقصود هنا ليس إلاّ الإطار الزمني للإجراء. وما يزال فيه أيضاً غموض بالغ: كيف يمكن أن يقال عن ظاهرة من الكلام أنتجها القياس: إنها فورية؟ أليست بالضرورة خاضعة لزمنية الخطاب؟ مهما يكن من الأمر، فإننا نرى أن الزمن حتى لو افترضناه كما يفعل بيتروف مقسوماً إلى زمن الخطاب وزمن التعاقبية فإنه لا علاقة له ألْبَتَّة بالتغيّر القياسي.

حينئذٍ نفهم كيف يخرج إلى العيان إغراء آخر في خطاب سوسير، إغراء مفارق، بل إذا رغبنا مستفز. ويتمثّل ببساطة في نقل القياس وظواهر التأويل الأخرى، مع أنها مصدر تغيّرات تاريخية، من التعاقبية إلى التزامنية: وبعد أن يحلّل التشكّل «المُرتجل» للمصطلح الجديد ـ في حينه ـ (*Indécorable*= لا يمكن تزيينه) يلاحظ سوسير أن هذه الكلمة «موجودة من قبلُ بالقوة في اللغة [...] وتحققها في الكلام واقعةٌ لا وزن لها قياساً بإمكانية صياغتها». (**الدروس**، 227)[44]. ومن هنا تأتي الخاتمة التي صاغها سوسير بحزم قائلاً:

> والخلاصة أن القياس، إذا نظرنا إليه في ذاته، ليس سوى وجه من وجوه ظاهرة التأويل، وصورة يتجلّى فيها ذلك النشاط اللغوي العام الذي نميّز به بين الوحدات قصد استعمالها فيما بعدُ. ولذلك نقول: إن القياس بتمامه وكماله ظاهرة قواعدية تزامنية. (**الدروس**، 227-228)[45].

= «غطاء» ومن pointe وهي اسم المفعول من الفعل poindre بمعنى «نخز» فقد انقلبت إلى courte-pointe كما لو كانت كلمة مُركّبة من الصفة court ومن الاسم pointe. إن هذه الاستدعاءات مهما تكن غرابتها لا تحدث بمحض المصادفة وكيفما اتفق، وإنما هي محاولات لتفسير كلمة من الكلمات المُحرجة تفسيراً تقريبياً بإلحاقها بشيء معلوم. [المترجم].

(44) التونسية، 250؛ العراقية، 189؛ اللبنانية، 202؛ المصرية، 289؛ المغربية، 212. [المترجم].

(45) المواضع المذكورة في الحاشية السابقة. [المترجم].

لقد فهمنا أنه إذا كان القياس «القواعدي» في هذا الواقع «تزامنياً» فإنه لم يبق في نهاية المطاف «للتعاقبي» إلاّ «الصوتي» الذي يخضع للمصادفة خضوعاً تاماً.

[137] لم يلق هذا الموقف غالباً القبول المناسب. وما تعرّض له من إهمال ظهر على شكل ظواهر عدم فهم واقعية أو متصنعة. إن واحدة من مزايا كتاب بيتروف ـ الذي انتُقدت في مواضع أخرى، كما رأينا، بعض مواقفه الأخرى ـ أنه يصف تلك القراءات بأنها قابلة للنقاش على الرغم من السلطة التي يتمتع بها بعض مؤلفيها. إلاّ أنه ينبغي، كما هو المعتاد بخصوص مواقف سوسير النظرية، أن نكتشف في الوقت نفسه عن تعارضهما والانقلابات الغريبة التي تنتج عنها. أين يكمن التعارض؟ يكمن هنا في أن «العَرَضية» لا تؤثّر، كما هو مذكور بجلاء في **كتابات**، ص 216، إلاّ في التغيّرات الصوتية. لكن التغيّرات القياسية لا تدين بأي شيء للمصادفة: فكلمة *indécorable* (=غير قابل للتزيين) محددة بالضرورة في «شكلها ومعناها» بالعلاقات القياسية التي تتحكم في صياغتها انطلاقاً من *décorer* (= زخرف؛ زيّن؛ جمّل) على نمط *pardonner-impardonnable* (سامح ـ لا يمكن التسامح به). وأين تكمن الانقلابات؟ إنها تظهر مرتين: فمن جهة، كما رأينا سابقاً، يستجيب سوسير في بعض الأحيان، انقلاب أول، لإغراء عدم فهم التغيّرات التعاقبية إلاّ بوصفها صوتية. لكن يحدث أيضاً ـ انقلاب ثانٍ ـ أن يرسل سوسير ظواهر القياس إلى التزامنية. ويتمم كل هذا بالتأرجح بين صفة «الوعي» (**الدروس**، 226) ـ من يقل قواعدي يقل بعبارة أخرى تزامني ـ وبين صفة «اللاوعي» (**الدروس**، 227) ـ وبسبب ذلك تعاقبي ـ في القياس. ينبغي عموماً كما نرى أن تتوافر لدينا في أدنى الحدود موهبة للبهلوانية النظرية لنكتشف في هذا المجموع من الآراء شيئاً يشبه «التزامنية الدينامية».

وإذا صحّت تحليلاتي فإنه من المستحيل أن ننسب إلى الزمن وضعية سبب التغيير اللغوي. والحال أن هذا المعيار بالتحديد هو الذي يستخدمه بيتروف ليقابل بين الزمن «الذاتي» للخطاب، المحروم من أي أثر سببي، وبين الزمن «الموضوعي» للتعاقبية، المقترن بذلك الأثر. وبهذا نرى الحُجّة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها لدعم هذا التفريق تتهاوى: ويجد المُتصور السوسيري للزمن وحدته التي ضلّت طريقها مُدةً من الزمن.

وتظل مع ذلك من بعيد لبعيد بعض جوانب الغموض، وخصوصاً استخدام

سوسير في عدد من المواضع عبارة «عامل الزمن»، وهي عبارة سبقت الإشارة إلى أنها مُحيِّرة. ألا تترك تلك العبارة المجال لانبثاق مُتصور سببي للزمن انبثاقاً لا شرعياً في المصطلحية؟ إن إحدى الوسائل الممكنة لإيجاد بداية جواب لهذه المسألة تكمن في استنطاق التفكير السيميولوجي عند سوسير.

[138] 2. الزمن في التفكير السيميولوجي عند سوسير

من المناسب بادئ ذي بدء أن نذكِّر بالملاحظات التي أبديناها في الفصل الثالث: إن العلاقة بين المظهر اللغوي والمظهر السيميولوجي في تفكير سوسير تظهر بطريقة غير متماثلة على الإطلاق:

1/ إن الإحالة إلى السيميولوجيا في **الدروس** هي بالتأكيد إحالة واضحة ورئيسة: ونجد ذلك في الفقرتين المشهورتين في الفقرات الواقعة في الصفحات 33-35 و 100. لكنها مع ذلك إحالة مختصرة: ونتذكر أن غريماس يلاحظ الاختصار ويأسف له[46]. وينبغي فضلاً عما ذكرنا أن نلاحظ، سواءً كان ذلك في **الدروس** أو في **المصادر المخطوطة** أو في **كتابات** أن أمثلة «السيميولوجيا»[47] المأخوذة من غير مجال اللغة هي في الجُملة قليلة جداً. والمقصود في واقع الأمر هي الأنظمة المشتقة من اللغة ـ أو على الأقل القادرة على أن تتصف بتلك الصفة: كتابة الصم البكم وألفبائهم من جهة، والأنظمة الهامشية التي تقتصر على وظيفة موضعية قطعاً: الرتب العسكرية، والطقوس الرمزية، وآداب السلوك من جهة أخرى. وينبغي أن نسجل أيضاً أن سوسير يطرح بوضوح بخصوص بعض من تلك الأنظمة مسألة انتمائها إلى «السيميولوجيا». والأنظمة المشكوك فيها يفسدها في واقع الأمر «التعليل»[48]، مما يجعل أمر ارتباطها بالسيميولوجيا إشكالياً (**الدروس**، 100)[49]. وليس هناك ألبتّة ـ إن لم أُخطئ أو أسهُ ـ على أي حال أي إحالة إلى

---

(46) في م. أرّيفيه و ج. ك. كوكيه، 1987، 306.

(47) لاحظنا أنني لا أستخدم هنا مصطلح «سيميولوجيا» بمعنى «علم العلامات»، لكن بمعنى «اللسان الموضوع». وهذا الاستخدام الخاص مُستعار من سوسير الذي يلاحظ على سبيل المثال «الطبيعة المعقدة جداً للسيميولوجيا الخاصة التي تُسمّى: لسان». (إنكلر، 1968-1989، 197). ونذكر أن هلمسليف هو أيضاً استعار من سوسير استخدام السيميولوجيا بهذا المعنى.

(48) الذي هو عكس الاعتباطية. [المترجم].

(49) التونسية، 112؛ العراقية، 87؛ اللبنانية، 90؛ المصرية، 124؛ المغربية، 88. [المترجم].

سيميولوجية **الحكاية الخرافية** والأسطورية[50]. ـ وإذا كنت من المهتمين بالسيرة العلمية لسوسير فإنني ستعتريني الدهشة من هذا الصمت: لأن التفكير في المسألتين كان، حسبما نستطيع معرفته (انظر الفصل الأول)، يجري في وقت واحد عند ابن جنيف.

2/ عكس ذلك، فإن الإحالة إلى «اللسانيات» مطّردة في النصوص المتعلّقة **بالحكاية الخرافية الجرمانية**. لقد رأينا فيما سبق، بخصوص التأمل في وضعية «الشيء» *alka*» إلى أي حد يحكم سوسير على مسألة التطابق بأنها مسألة أساسية في اللسانيات. وإنه بالتحديد بخصوص الوضعية المجاورة لوحدات الحكاية الخرافية يرى أنه من الضروري توضيح صلة القربى بين المجالين [139] في النص الذي سبق لنا أن ذكرناه في الفصل الثالث، والذي ينبغي ذكره مرّة أخرى هنا:

> نلاحظ في هذا المجال كما هو الحال في المجالات التي تمتُّ بصلة قربى لِلسانيات أن أي عدم تطابق في الفكر يتأتى من نقص التفكير في ما هو التطابق عندما يتعلّق الأمر بكائن غير موجود كالكلمة أو كالشخصية الأسطورية أو حرف الألفباء التي ليست إلاّ أشكالاً متنوعة من العلامة بالمعنى الفلسفي. (**الحكاية الخرافية**، ص191).

كيف يمكن أن نعلل وجود عدم التناسق الغريب هذا؟ مصدره في رأيي أن سوسير في حديثه عن العلاقات بين اللغة والسيميولوجيا غير اللغوية يتأرجح بين وجهتي نظر متعارضتين:

1/ نجده تارةً يقول: إن اللغة والأنظمة الأخرى متشابهة: وهذا ما يُفهم من مواضع عدة منها الاقتباس الذي أوردناه للتوّ.

2/ ونجده تارةً أخرى بالعكس، وبطريقة معاكسة تماماً يجعل من اللغة صيغةً نادرةً، لا يمكن بأي شكل من الأشكال مقارنتها بأي شيء آخر:

> لا وجود لشيء يمكن مقارنته تماماً باللغة، اللغة التي هي كائن معقد كل التعقيد، وهذا ما يجعل كل الصور تُفضي بانتظام إلى إعطائنا فكرة خاطئة في جانب من الجوانب. (إنكلر، 1974-1990، 6).

(50) هناك استثناء واحد: في مخطط «البحث عن ويتني»، كما أن هناك في (**كتابات**، 220-221) استفاضة في معالجة موضوع «الكائنات الأسطورية» وأسمائها.

ويتضح هذا الموقف في الفقرة التالية التي تستحق هي أيضاً أن نوردها مرّة أخرى:

> لا يمكن إذاً أن تبدو طبيعة العلامة إلاّ في اللغة، وتتألف تلك الطبيعة من أشياء لا ندرسها إلاّ قليلاً. لذلك لا نرى من النظرة الأولى ضرورة قيام علم سيميولوجي ولا نرى فائدته العظيمة، عندما يتعلّق الأمر باللغة بوجهات نظر عامة وفلسفية؛ عندما ندرس شيئاً آخر مع[51] اللغة (إنكلر، 1968–1989، 51؛ انظر: **الدروس**[52]، 34، حيث يرفض سوسير هذا الموقف).

يتضح مما سبق أن سوسير عندما يتحدث عن اللغة يُقصي، ما أمكنه ذلك، أي إحالة إلى أي سيميولوجية أخرى، ونجده بالعكس يتحدث باستفاضة عمّا يربط اللسانيات من «صلة قربى» بسيميولوجيا الحكاية الخرافية أو سيميولوجيا الأسطورة عندما يعرض للحديث عن هذه الأخيرة.

والآن ما طبيعة تدخل الزمن في سيميولوجيا **الحكاية الخرافية**؟ يبدو بادئ ذي بدء من الممكن أن نتلمس تمييزاً يشبه التمييز الذي ظهر عندما عارض زمن «الصفة الخطية» وزمن التعاقبية. لنأخذهما ونعكس التنظيم المذكور سابقاً:

1/ إن الزمن الذي يذكّر بزمن التعاقبية هو الزمن الذي نكتشف في إطاره التطور التاريخي لنص **الحكاية الخرافية**:

> [...] إن كل شخصية من شخصيات الحكاية الخرافية هي رمز تستطيع تنويعه ـ والأمر نفسه ينطبق انطباقاً تاماً على اللغة الرونية ـ أ) الاسم، ب) الموقف من الشخصيات الأخرى، [140] ج) الصفة، د) الوظيفة، الأفعال. وإذا غيّر مكان أي اسم فيستتبع ذلك أن قسماً من الأفعال يتغيّر مكانها والعكس صحيح، أو أن الدراما كلها تتغيّر إذا وقع حَدَثٌ من هذا القبيل. (**الحكاية الخرافية**، 31).

وبذلك يكون هذان النمطان المتشابهان من «الرموز» ـ بمعنى «العلامة وبالمعنى الفلسفي» ـ التي هي شخصيات الحكاية الخرافية، ورونيّة الألفباء

---

(51) «مع» تقابل بالفرنسية avec. وهو المعنى الذي اختاره مؤلف الكتاب لها في نص سوسير لأن معناها في العبارة غير بديهي. ورجّح هو أن يكون معناها «مع» يعني أن ندرس شيئاً آخر في وقت واحد مع اللغة وليس دراسة شيء آخر مستخدمين اللغة.

(52) التونسية، 37-38؛ العراقية، 35-36؛ اللبنانية، 28؛ المصرية، 42؛ المغربية، 26-27. [المترجم].

الجرمانية القديمة (أو أيضاً «الكلمة»، التي يلفّها الصمت هنا) ـ تخضعان لتبدلات فردية. وإن تلك الرموز التي تكتسب في الغالب صفة «عَرَضيّة» ترتدّ على العناصر التي تُشكّل بها الرموز المتغيّرة نظامها. ومن هنا يأتي في نهاية الأمر تحول النظام كله: وهذا إجراء يشبه كل الشبه الإجراء الذي يقع على اللغة.

2/ يجد زمن الصفة الخطية مُعادِله أيضاً في سيميولوجيا **الحكاية الخرافية**: إنه الزمن الذي يمرُّ عندما «نردد» نص **الحكاية الخرافية**، وهذا إجراء لا يمكن الاستغناء عنه لأنه موجود بوصفه موضوعاً سيميولوجياً.

مع ذلك، فإن هذه المقابلة بين نوعين من الزمن ليست، سواءٌ بالنسبة إلى **الحكاية الخرافية** أو إلى اللغة، إلاّ تبسيطاً لأغراض تعليمية: وآية ذلك أن الزمنين في هذه السيميولوجيا أو تلك يتداخلان: إن لزمن «الروايات» المتتالية للقصائد ـ أي أفعال الكلام التي تُظهرها وتُحوّلها على الدوام ـ تأثيراً يتمثّل في «تغييرها»، أي تطويرها.

يمكن أن نتحدث عن تخفيض عدد الأحداث وعن نسبتها أو توسعها بعد مُضيّ زمنٍ ما، أي عن عدد غير محدد من الروايات المتحولة.

بل إن الأمر يصل بسوسير إلى حدّ إرساء أُسس مخطط تجربة في التعاقبية القصيرة، التي ترمي إلى توضيح أصل تحولات سيميولوجيا **الحكاية الخرافية**:

> إن تخيّل أن **حكاية خرافية** تبدأ بمعنى هو نفسه منذ أصوله الأولى المعنى الذي تكتسبه اليوم، أو بالأحرى إن تخيّلَ حكاية خرافية لم يكن لها ألْبتّة أي معنى كائناً ما كان، هي عملية تتجاوز قدراتي. يبدو أنها تفترض واقعياً أن أي عناصر مادية لم تنتقل ألْبتّة إلى تلك **الحكاية الخرافية** عبر القرون؛ لأن صفة المادية ما دامت تنطبق على خمسة أو ستة من تلك العناصر فإن المعنى يتبدل خلال بضع دقائق إذا أُسندت أمر توليفها لخمسة أو ستة أشخاص يعملون منفصلين. (تريستان، 212).

لن أُفيض هنا في الحديث عن الجرأة الفائقة لهذا التحليل الذي تحدّث للتوّ عن البطلان المُطلق لأي بحثٍ عن الأصل، وعُدَّ ذلك واحداً من الأمور البديهية. ونظن أننا نجد فيها من جديد تأملات سوسير الصافية الموازية لهذه في الحديث عن تفاهة أي بحث [141] عن أصل اللسان (انظر على سبيل المثال إنكلر، 1968-1989، 160 أو **كتابات**، 93-94). ولن أذكر هنا إلا ما طُرح عن الزمن في مسار التحول هذا، سواءٌ كان مختصراً كل الاختصار كما هو الحال في التجربة التي

بدت للعيان، أو كان متسعاً كل الاتساع، كما نلاحظ ذلك عموماً بخصوص النصوص المثبتة تاريخياً: ليس هناك بالبداهة أي وظيفة سببية. وهذا ما هو مؤكد تأكيداً واضحاً كل الوضوح في قطعة أخرى:

> يبدو واضحاً أن العجز عن الاحتفاظ بهوية مؤكدة لا ينبغي أن تُحمَل وقائع الزمن Temps مسؤوليته ـ وهذا هو الخطأ الفادح الذي يقع فيه أولئك الذين يهتمون بالعلامات، لكنه خطأ موجود من قبلُ في الكائن الذي تتعهده بالعناية، وتنظر إليه على أنه تتظم في حين أنه ليس إلاّ توليفاً عابراً لفكرتين أو ثلاث أفكار. (**الحكاية الخرافية**، 192).

لقد اتضحت الأمور، وإذا كان قد بقي ظلٌّ من الشك في حالة اللغة فإنه لم يبق شيء من ذلك بخصوص **الحكاية الخرافية**: فالزمن ـ الذي أكتبه على الدوام مبدوءاً بحرف كبير ـ خالٍ من كل أثر سببي في العلامات والنظام الذي تكوّنه. إنها، الأنظمة، تتطور في الزمن، لكن ليس بتأثير الزمن.

إن هذه الأنظمة هي أنظمة سيميولوجيا **الحكاية الخرافية**. هل من المشروع أن نعمم على تلك السيميولوجيا الأخرى التي هي اللسان النتيجة التي تنطبق على تلك الأنظمة؟ ينبغي لفعل ذلك أن نتساءل إلى أي حدّ تكون صفات السيميولوجيتين بالضرورة متطابقة. لقد رأينا فيما سبق أن سوسير لا يضع حلاً نهائياً لهذه المسألة بسبب عدم التناسق الذي يتركه قائماً في علاقتها حسب الاتجاه الذي يوجّهها فيه. ويبدو أنها بعيدة كل البُعد عن موضوع هذا الكتاب. إذاً، أكتفي بالقول في شأنها: إن البحث ينبغي أن ينصبَّ على جانب الدراسة التصنيفية للوحدات والعلامات والرموز، وكل هذه المصطلحات بمعنى واحد، حسب تنوعات المصطلحية السوسيرية. لقد سبق لنا التساؤل عن المفاهيم المُغرية «الكائن غير الموجود» و«فقاعات الصابون» و«الأشباح»: وكلها تسميات «للعلامة بالمعنى الفلسفي». وهي تسميات فيها غرابة أكثر من غرابة الكائنات التي تؤثر فيها، لكنها في الوقت نفسه كائنات ينبغي «تعهدها بالعناية» و «تدليلها»: لأن هذه هي الكلمات التي خصّها بها سوسير (**الحكاية الخرافية**، 192). كما لو أنها مادية، تكاد تكون ذات جسد ملموس، في حين أنها ليست إلاّ توليفات عابرة من السمات الصورية. لقد شرعتُ في هذا البحث في مكان آخر. (أرّيفيه، 2001). وقد عرضتُ لهذا الموضوع الجوهري في الفصل الثالث وسأعرض له من جديد في الفصل السادس.

[142] 3. الزمن في بحث الجناس التصحيفي

نلج هنا في عالم مفهوماتي هو في رأيي غريب كل الغرابة عن العالمين اللذين عالجناهما للتو. ولن أعطي مثالاً عن ذلك إلا المؤشر المصطلحي: إن المُعجم التقني الذي يستخدمه سوسير في بحث الجناس التصحيفي مختلف كل الاختلاف عن المُعجم الذي يضع أسسه في أعماله اللسانية والسيميولوجية. وإذا أردنا مثالاً واحداً فإن القضية، إن لم أُخطئ أو أسهُ، ليست في بحث الجناس التصحيفي قضية علامة أو رمز.

ولتصور مسألة الزمن في هذا البحث فإنه سيكون من المفيد أن ننطلق من التمييز بين زمن التعاقبية وزمن الصفة الخطية. وإنه لمن السهولة بمكان إبداء بعض الملاحظات:

1/ إن ممارسة **الجناس التصحيفي** لا يعنيها في شيء الزمن التعاقبي. إنها تكوّن تزامنية غريبة تمتد بلا تغيير خلال ألف عام: والقواعد التي يحاول سوسير تأكيدها تظل صالحة كل الصلاحية من هوميروس في القرن الثامن قبل الميلاد إلى جيوفاني باسكولي (Giovanni Pascoli) في السنوات الأولى من القرن العشرين (انظر الفصلين السادس والسابع).

2/ أما فيما يتعلّق بالخطاب الخاص الذي يكوّنه نص **الجناس التصحيفي** فإنه لا يتأثر بالزمن الذي يظهر في الخطاب اليومي عبر «الصفة الخطية للدال». ونحيل هنا إلى النص المذكور في الفصل الثاني، ص 67. (ستاروبنسكي، 1971، 46-47).

نتذكر أنه في هذا الموضع من بحث **الجناس التصحيفي** - وفي هذا الموضع وحده (على كل الأحوال في النصوص التي ظهرت حتى اليوم) - يظهر بجلاء أن هناك علاقة بين **بحث الجناس التصحيفي** وبين التفكير السيميولوجي و/أو اللساني. واللسانيات مذكورة بتصريح دون تلميح **في بحث الجناس التصحيفي**. وبالطبع إن مسألة الصفة الخطية للدال (بالمعنى الدقيق للمصطلح كما تشير إلى ذلك عبارة «العناصر التي تشكّل كلمة») هي المسألة التي يجري الحديث عنها. إن «التتابعية» تحل، بطريقة هي في القول الحق مُرْضية كل الرّضا، محل «الصفة الخطية» وإن كان ذلك يحدث بمصطلحية مختلفة: وبذلك نجد أن الاستعارة المكانية الحاضرة في الخطية قد أُزيلت بمهارة. ونرى في هذا النص تكوُّن سيميولوجيا خطاب

الجناس التصحيفي ـ هذه المرّة بالمعنى العلمي، وليس بالمعنى الغيري للمصطلح ـ. إن «الكلمة» ـ التي ينبغي وضعها هنا بين هلالين ـ تنبني وتُفهم، في تباين مطلق مع الخطاب العادي، انبناءً وفهماً لا انفكاك بينهما في نص **الجناس التصحيفي** «خارج التنظيم في الزمن الذي تتخذه العناصر». وهي [143] تقترب بهذه السمة من السيميولوجيات البصرية التي مسّها سوسير مسّاً رقيقاً في **الدروس** بمصطلحات قريبة مما ذكرناه (انظر ص 63). وأُضيف مُعرِّضاً بحثي لخطر الاستطراد، لكن لبعض الوقت، أنها تقترب أيضاً من كلمات الحُلْم كما حلّلها فرويد في **تفسير الأحلام**. لنفكّر على سبيل المثال في الشاهد المشهور «لكلمة» Autodidasker(53) ـ وهنا أيضاً

(53) «أوتوديداسكر»: كلمة من كلمات الحُلم التي خصّها فرويد بفصل مستقل (السادس) في كتابه **تفسير الأحلام**.

قال فرويد في كتاب **تفسير الأحلام**، الترجمة العربية، ص 311-313: (وحلمتُ في مرّة حُلماً تركّب من جُزءَيْن منفصلين: الجزء الأول كلمة علقت واضحة في ذاكرتي هي كلمة *Autodidasker*، وأما الجزء الثاني فكان بعيد ـ إعادة أمينة ـ تخييلاً قصيراً، لا ضرر فيه، طاف بذهني منذ بضعة أيام. وكان مؤدّى هذا التخييل أنني أقول للأستاذ ن. في أول فرصة أراه فيها: «إن المريض الذي كنت استشرتك في أمره أخيراً يعاني بالفعل عصابياً، على ما خمنته أنت!». ولا بد إذن لهذه الطرفة اللفظية *Autodidasker* من أن تحقق شرطين: الأول، هو أن تحمل ـ أو أن تصور ـ معنىً مضغوطاً. والثاني، هو أن يكون لهذا المعنى رباط مقبول يربط بينه وبين تلك النيّة المكررة في الحُلم بعد اليقظة، وأعني بها نيّة تقديم هاته الترضية إلى الأستاذ ن.

لننظر إذن في كلمة *Autodidasker* هذه: إن من السهل أن نقسمها إلى Autor [مؤلف] و*Autodidact* [متعلم عصامي] و Lasker ـ وهو اسم يرتبط في الذهن باسم Lasalle [فرديناند لاسال مؤسس الحركة الاشتراكية الديمقراطية في ألمانيا، الذي ولد في مدينة برسلاو عام 1825 ومات عام 1864. أما إدوارد لاسكر (1829-1884)، فقد ولد في ياروتشين على مقربة من برسلاو، وكان أحد مؤسسي حزب الوطنيين الأحرار في ألمانيا. وكلاهما من أصل يهودي]. وتسوقني أولى هذه الكلمات إلى مناسبة الحُلم ـ وهي مناسبة لها مغزاها في هذه المرة ـ: **فقد كنت أعطيتُ زوجي عدة مجلدات لمؤلف معروف كان** صديقاً لأخي، وكان ـ على ما علمتُ ـ من أبناء البلد الذي ولدت فيه (ي.ي. دافيد). وفي ذات مساء، حدّثتني زوجي عن الأثر العميق الذي تركته في نفسها قصة فاجعة قرأتها في أحد مجلدات دافيد عن رجل موهوب ساء مآله. وعرّج بنا الحديث إلى المواهب التي نرى أماراتها في أطفالنا. وهنا أعربت زوجي ـ وهي ما تزال متأثرة بما قرأت ـ عن تخوفها في ما يتصل بالأطفال، فرفّهتُ عنها ملاحظاً أن تلك على التحقيق هي المخاطر التي يمكن أن نتلافاها بالتنشئة الحسنة. لكنني واصلتُ تلك الخواطر خلال الليل، فأخذت عن زوجي =

ينبغي وضع مصطلح «كلمة» بين هلالين ـ وهي كلمة يظهر فيها، ناهيك عن **الجناس التصحيفي**، ظواهر اتهام الخطية (انظر أرْيفيه، 2003).

هل من الممكن حقاً إنهاء هذا العرض الموجز لمسألة الزمن في تفكير سوسير؟ لقد اتضحت لنا بلا شك عقبات المهمة. إذ لا يكفي بالطبع تسجيل الحضور المطلق للزمن في التأمل الطويل عند سوسير حول الموضوعات السيميولوجية. ليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة: فالموضوع السيميولوجي ـ «العلامة» بالمعنى الفلسفي» مهما كانت طبيعتها: كلمة أو حرفاً من حروف الألفباء، أو شخصية من شخصيات **الحكاية الخرافية**، إلخ ـ لا تبلغ وضعيتها ولا تحافظ

مخاوفها ونسجت حول هذه المخاوف أشياء أخرى من كل صنف. وكان لهذا المؤلف رأي في الزواج أفضى به إلى أخي؛ ولقد ساق هذا الرأي خواطري في طريق جانبي يمكن أن نبلغ منه إلى التصور في الحُلم: هذا الطريق قد أدى إلى برسلاو حيث تزوجت ـ وأقامت ـ سيدة كان بينها وبيننا صداقة متينة. ووجد الخوف من أن تضيع الحياة من أجل امرأة ـ هذا الخوف الذي كان مدار أفكاري في ذلك الحلم ـ مثالين في برسلاو مكّنتاني من أن أصوّر في وقت واحد كلتا الطريقتين اللتين ينفذ بهما هذا التأثير المنحوس: لاسكر ولاسال [مات لاسكر من شلل تدريجي، أي من جراء عدوى نقلتها إليه امرأة (المفلس)، وأما لاسال فقد مات ـ كما نعلم ـ في مبارزة من أجل امرأة]. هذه الخواطر تتلخص جميعها في: «ابحث عن المرأة»، وهذه العبارة تقودني بدورها ـ وقد أخذتها بمعنى مختلف ـ إلى أخي الذي لم يتزوج بعدُ، واسمه ألكساندر. إني ألحظ الآن أن Alex يكاد يجانس لاسكر مقلوباً، وأن هذا العامل لا بد أنه شارك في التعريج بأفكاري جهة برسلاو. لكن هذا اللعب بالأسماء والمقاطع الذي كنت أسترسل فيه ههنا كان يضمر بعدُ معنًى آخر؛ فهو يُعرب عن رغبتي في أن أرى أخي ينعم بحياة أسرية سعيدة، وكان ذلك من الطريق الآتية: نعلم أن زولا قد وصف نفسه ووصف حياته الأسرية في بعض مشاهد الرواية التي ألّفها عن حياة فنان L'œuvre، وهي رواية لا بد أن محتواها قد قرّب بينها وبين أفكار هذا الحُلم. وهو يظهر في هذه الرواية باسم ساندوز، وأغلب الظن أنه قد توصل إلى تعديل اسمه على هذا النحو من الطريق الآتية: إذا كتبنا اسم زولا معكوساً (وهو الشيء الذي يصنعه الأطفال عادةً في ولع كبير) خرج لنا آلوز. لكن لا شك في أن ذلك كان يكون تنكراً غير كافٍ. وعلى ذلك رفع زولا آل ـ وهو المقطع الأول من ألكساندر ـ ووضع مكانه ساند ـ وهو المقطع الثالث من هذا الاسم عينه ـ وبذلك خرج ساندوز. وعلى نحو جدّ شبيه بذلك انشأتْ أيضاً كلمتي «أوتوديداسكر»). وقد ناقش أرْيفيه في بحثه «Freud et L'Autonymie» «فرويد وذاتية الدلالة»، المنشور على موقعه على الشبكة الإلكترونية كون «أوتوديداسكر» علامةً لغويةً بالمعنى السوسيري للعلامة وتساءل عن وجود دال ومدلول لها. [المترجم].

عليها إلاّ عبر تطورها في الزمن. وقد عالجنا هذه المسألة باستفاضة في الفصل الثالث. لكن ينبغي هنا أن نذهب أبعد قليلاً، وأعمق مما فعلناه هناك. ويبدو أن هناك ملاحظة أولى تفرض نفسها. وهي ملاحظة ليس فيها إلاّ أنها تعكس الرأي الذي صغناه للتو: إن الممارسة **الجناسية التصحيفية** تطرح نفسها على أنها استثناء تام - «مجال خاص بما لا نهاية له» - من قواعد «السيميولوجيا الخاصة المسماة لساناً» عبر نظام عملها الذي هو لا زمني ألْبَتَّةَ. هل جئتُ على ذِكْر اللسان؟ لكن ألا تسعى هذه الحالة بالتحديد «خارج الزمن» عبر تأثيرها وبتأثيرها إلى إبعاد الممارسة الجناسية التصحيفية من طبقة الألسنة؟ وهي بهذا تتعارض مع «السيميولوجيات» الفعلية للغة **وللحكاية الخرافية** التي هي بالعكس خاضعة حتماً لسطوة الزمن. خضوع ليس هو إلاّ انعكاساً لوضعيتها الخاصة: أنها غامضة، وفي الوقت نفسه مادية عبر ظهورها، وصورية عبر بنيتها. مع ذلك، وهذه ستكون ملاحظتي الأخيرة، إن ذلك الخضوع للزمن ليس له أثر في جعل الزمن فاعلَ تغيير في الموضوعات السيميولوجية. نعلم أن الزمن يُصوَّر اعتيادياً على شكل سهم. وسوسير يلجأ في عدد من المواضع إلى هذا التصوير سواءٌ فيما يخص زمن التعاقبية (**الدروس**، 113 و115)، أو بالنسبة إلى زمن الصفة الخطية. (**الدروس**، 146). هل «انكسر» ذلك السهم؟ إن الاستعارة صعبة المعالجة. إن السهم يظل في الواقع سليماً ما دام الأمر لا يتعلّق إلاّ بتسجيل اتجاه يمتدّ مما قبلُ إلى ما بعدُ، وهو أمر حاضر على الدوام في تفكير سوسير. لكن السهم يفقد كل فاعليته - ينكسر إذا شئنا - عندما يتعلّق الأمر بتدخله هو نفسه بصفته سبباً في هذا الاتجاه وفي التغييرات التي ترافقه.

[145] الفصل السادس

سوسير في مواجهاته مع الأدب

أرغب في أن أفتتح هذا الفصل بالاعتراف بأنني متردد. لقد انقضت سنوات عديدة ـ ما يقارب ثلاثين عاماً إن لم أكن مخطئاً ـ وأنا أفكر في المسائل التي يعلن عنها هذا العنوان العدواني. وأظن أنني خصصت لمعالجته ما يقارب عشرة أبحاث. وكلما تقدمت في العمل أصبحت أرى بوضوح أقل. حتى إن هذا الفصل لن يكون بقليل أو كثير إلاّ عرضاً منظماً ومتسلسلاً إلى حدٍّ ما لمظاهر ترددي.

التردد الأول:

تحدده الصعوبة التي أجدها في تبيان أفكاري، والصعوبة الأكبر التي أجدها في التوفيق بين ملاحظتين أعلن عنهما مبدئياً منذ البداية قبل أن أوضح كلاًّ منهما:

1/ يحتل مفهوم الأدب في **الدروس** مكانة هامشية جداً.

2/ الخطابات التي يتمحور حولها اهتمام سوسير، في أبحاثه الأخرى هي في المقام الأول، وبطريقة تكاد تكون حصرية ذات نمط أدبي: وأعني نصوص **الجناس التصحيفي** ونصوص **الحكاية الخرافية**.

كيف يمكن لهذا الإعلان عن هاتين الملاحظتين أن يسهم في توضيح ذلك التردد؟ أليس المقصود هنا ببساطة الفصل المشروع الذي لاحظه سوسير بين حقلي بحث منفصلين، حقل اللغة وحقل اللسان في **الدروس**، وحقل النصوص، وخصوصاً النصوص الأدبية في أعماله الأخرى؟

لا يستقيم هذا الحل المتعسف لسبب بديهي هو أن النصوص الأدبية تنتسب إلى «الخطاب» (**ستاروبنسكي**، 1971، 14) وأن [146] الخطاب مفترضاً في أساسه

«اللغة»، تدخل لهذا السبب في الحقل الذي يُجري فيه الباحث اللساني، أو على الأقل السيميولوجي، تقصياته. وسنرى أيضاً لاحقاً أن سوسير يطرح بجلاء انتماء بعض النصوص إلى السيميولوجيا.

إذاً، يظل التردد مشروعاً. وإنه لمن المناسب لتوضيح فائدته أن نتفحص ببعض التفصيل الاقتراحين اللذين يتسببان في ذلك التردد:

1/ هل مكانة الأدب في **الدروس** هامشية فعلاً؟

إنه لمن المؤكد أن مفهوم الأدب ليس غائباً غياباً تاماً من **الدروس**. إذ يظهر فيها الاسم **أدب** ـ الغائب من الكشاف، إلاّ ما كان تحت عبارة «اللغة الأدبية والإملاء» ـ ثلاث مرّات على الأقل (ص 41، 267، 278). لكن الأدب لا يُذكر ألبتّة لذاته في **الدروس**. وليس فيها، إذا كنتُ قد قرأتها جيداً، إلاّ مثالان أدبيان. ناهيك عن أن هذين المثالين ليس لهما إلاّ وظيفة متواضعة تتمثّل في تمثيل واقعتين مُعجميتين: التجديد القياسي عند روسو (Rousseau)، الذي يستخدم *traisait* بدلاً من *trayait* بوصفها الماضي الناقص للفعل *traire* = حلَب (ص 231)[1]. والصياغة التي تجدها عند لاكتانس[2] (Lactance) الذي يكتب *meridionalis* بدلاً من *meridialis* (أي جنوبي). (ص 233)[3]. أما في ما يخص الفقرة القصيرة عن **علم العروض**[4] (ص 60)[5] فإن لها هي أيضاً هدفاً لسانياً بحتاً: فالمؤلف يعدّد في **علم العروض** ظواهر تعطي مؤشرات عن حالات مضت من لغة ما (على سبيل المثال

(1) التونسية، 253؛ العراقية، 191؛ اللبنانية، 205؛ المصرية، 193؛ المغربية، 215. [المترجم].

(2) هو من المدافعين عن العقيدة المسيحية. ولد عام 225 أو 230 في إفريقيا أو في إيطاليا. توفي حوالى 325. عن حواشي التونسية، 272. [المترجم].

(3) التونسية، 255؛ العراقية، 193؛ اللبنانية، 207؛ المغربية، 218. [المترجم].

(4) نعلم أن سوسير ألقى خلال عدة أعوام (من 1900 إلى 1907) درساً حول «علم العروض الفرنسي؛ دراسة لقوانينه من القرن السادس عشر حتى اليوم». وهناك تعاليق تخص على الأعم الأرجح هذا الدرس محفوظة في مكتبة جنيف تحت رقم مخ. فر. 3970/ ف. وحسبما أعلم فإنها ظلت حتى اليوم (أيار/مايو 2006) غير منشورة. وإن المنشورات السوسيرية بلغت من الكثرة حداً يجعل من الممكن أن نشرة لهذه التعاليقات لم يصلني خبرها، ومع ذلك فإنني أظن أنه من المفيد أن أورد ملحقاً لهذا الفصل يحتوي على أجزاء من ذلك النص.

(5) التونسية، 66-67؛ العراقية، 55؛ اللبنانية، 53؛ المصرية، 72-73؛ المغربية، 51. [المترجم].

اليونانية أو «الفرنسية القديمة»). ونرى من خلال ذلك إلى أي حد يغيب الحديث عن الخصوصية الأدبية البحتة للنصوص. وليس للتلميحات المقتضبة إلى الأدب أي وظيفة أخرى عدا تسجيل ما تسهم فيه في تكوين «اللغة الأدبية». وهو في القول الحق إسهام غير حاسم، لأننا نلمح أن «اللغة الأدبية» لا تختلط «بلغة الأدب»:

> فاللغة الأدبية تتجاوز من جميع النواحي الحدود التي يبدو أن الأدب يسطرها لها: ولنفكر مثلاً في تأثير الصالونات والبلاطات والمجامع اللغوية. (الدروس، 41)[6].

إن اللغة الأدبية عند سوسير هي ـ كما يقول ذلك بوضوح في (ص 267) ـ «اللغة المثقفة». وإن «ثقافة» اللغة تلك ـ بمعنى الاعتناء بالنبتة التي تحملها كلمة ثقافة ـ تعمل جوهرياً عبْر الكتابة وفيها. حتى إنه يبدو، في بعض المواضع، أننا نصل إلى حدّ [147] الخلط بين مفهومَي الكتابة والأدب، كما لو أن أدب *littérature* تُستخدم بمعناها التأثيلي كتابة *écriture*، وكلمة أدبي *littéraire* بمعنى حرفي *littéral*. وبذلك يتحدث سوسير في الصفحة (53) عن «التعبير الاصطلاحي الأدبي بامتياز، الذي تؤدي فيه الوثيقة المكتوبة دوراً كبيراً». وإن النتيجة الحتمية لهذه العلاقة بين اللغة الأدبية والكتابة هي وضعية مشكلة للغة أدبية بلا كتابة. وسرعان ما يشير سوسير إلى المسألة (ص 268-269)[7]، بخصوص قصائد هوميروس.

وبذلك يكون الأدب غير مذكور في **الدروس** ذِكراً عارضاً إلاّ بوصفه عنصراً من عناصر «اللغة الأدبية»، التي ترتبط هي نفسها بالكتابة، وعبر هذا «بالتصنع»، و«بالتكلف»، و«بالخارجي» (انظر: **الدروس**، 42 و 46)، وبالتعارض مع الصفة «الطبيعية» «اللغة الشعبية»، وهي اللغة الوحيدة التي تنتمي إلى «النظام الداخلي». (**الدروس**، 192 و 267).

2/ هل نصوص **الجناس التصحيفي** ونصوص **الحكاية الخرافية** هي نصوص

---

(6) التونسية، 45؛ العراقية، 39-40؛ اللبنانية، 36؛ المصرية، 48؛ المغربية، 32. [المترجم].

(7) يقول سوسير (التونسية، 292): «هل يعني اتخاذ لغة مشتركة عامة استعمال الكتابة بالضرورة؟ يبدو أن قصائد الشاعر اليوناني هوميروس تُثبت العكس. فبالرغم من أنها نشأت في عصر لم تكن فيه الكتابة مستعملةً أو تكاد، فإن لغتها ذات طابع مُتواضع عليه، وتتسم بجميع خصائص اللغة الأدبية». [المترجم].

أدبية؟ إنه لمن المثبت أن القارئ المعاصر يعدّهما كذلك. لكن هل ينطبق ذلك على سوسير؟

يجعل سوسير من النصوص «الأدبية» التي تصلح أمثلة **للجناس التصحيفي** طبقة فرعية خاصة. مؤلفوها «أدباء بالمعنى الحقيقي للكلمة» (ستاروبنسكي، 1971، 26)، بل إن بعضهم كانوا من «أشهر أصحاب الأقلام بين الأدباء». (ص 116). وتتميّز تلك النصوص من نصوص **الجناس التصحيفي** الأخرى التي هي على سبيل المثال دينية أو جنائزية والتي ليس مؤلفها «أديباً» وإنما واحد من المُتنبئين، مؤلّف النبوءة *Vaticinia*.

وعلى الرغم مما سبق، فإن الفارق التصنيفي بين الطبقتين الفرعيتين لنصوص **الجناس التصحيفي** ليس محدداً تحديداً دقيقاً. يفكر سوسير بوضوح في نصوص «أدبية في جانب منها، كنصوص أندرونيكوس[8] (Andronicus) ونافيوس[9] (Nævius)» (ص 21)، دون أن يبيّن رأيه في السمات التي تميّز هذا القسم، أو في المظاهر الأدبية لهذه النصوص من مُكوّناتها غير الأدبية.

إن نصوص **الجناس التصحيفي**، مهما كان نوع خصوصيتها، تتصف كلها «بارتباطها بالكتابة». (ستاروبنسكي، 1971، 38). ونلمح هنا نقطةً مشتركةً بين تعاليم **الدروس** وبين **بحث الجناس التصحيفي**: إنه الارتباط الذي لا تنفصم عراه بين الكتابة والأدب. ولا نستطيع هنا أن نمنع أنفسنا من التفكير في عبارة جازي المشهورة: «إن الكتابة وحدها هي التي تكوّن أدباً».

والآن ما مكانة الأدب ـ بالمعنى السوسيري ـ **في بحث الحكاية الخرافية؟** في عدد من المواضع في هذا البحث توصف النصوص المدروسة بأنها «أعمال أدبية». وهنا أيضاً يتردد صدى العلاقة بين الأدب والكتابة. ومن ذلك ما نجده في

---

(8) ليفيوس أندرونيكوس: إغريقي اقتيد إلى روما بوصفه أسير حرب عام 272 ق.م. ترجم في منتصف القرن الثالث الميلادي أوديسة هوميروس إلى اللاتينية مسجلاً بداية أدب لاتيني جديد. استأجر بعد إصابته بالخرس بعد عام 240 ق.م ممثلاً كي يلقي قصائده بالنيابة عنه فيما كان يواصل هو أداء الجانب الإيمائي متأثراً بفن التمثيل. [المترجم].

(9) غنويوس نافيوس (270-190 ق.م): أول شاعر لاتيني كتب في موضوع روماني (الثالث قبل الميلاد)؛ إذ كتب قصيدة ملحمية حول الحرب البيونية التي شارك فيها. أما مسرحياته الأخرى فكانت إعادة كتابة لأصول إغريقية. وله مسرحيات أخرى تستلهم الأساطير الرومانية والتاريخ الروماني. [المترجم].

عنوان مخطط فصل حول حكاية ديتريش الخرافية *La légende de Dietrich* (ص 250) إذ تفسر الصفة أدبية بأنها مكتوبة. ويجد سوسير الحاجة أيضاً إلى [148] مزيد من التوضيح عبْر عنوان فرعي طويل: «تقسيم الروائع المكتوبة بوصفها أعمالاً مكتوبة». (السابق). وتطل برأسها هنا إحدى العقبات: يوحي سوسير بوضوح نسبي إلى أن **الحكاية الخرافية** لا تكون أدبية إلاّ عندما تعبر إلى رحاب الكتابة. وبما أنها لا يُنظر إليها إلاّ في مظهرها الشفوي، فهي لا يكون لها ـ على الرغم من بعض التردد المصطلحي هنا وهناك، الصفحة 198 على سبيل المثال ـ وضعية أدبية. ويظلّ تركيب «الأدب الشفوي» عند سوسير، إذا كنت قد قرأته جيداً، تسمية ممكنة. إن التمييز الذي يصطنعه سوسير بين **الحكاية الخرافية** في مظهرها الشفوي ـ الذي يوصف بأنه بطبيعته متطور ـ وبين «التكوُّنات الأدبية، بل «التغيُّرات الأدبية» (ص 283) التي تعرضت لها عندما ثُبِّتت كتابياً. ويبدو أنه ينشأ بين هذين الموضوعين تسلسل يماثل التشابه الذي لمحناه في **الدروس** بين «اللغة الطبيعية»، الشفوية، و«اللغة الأدبية» التي تثبّتها و «تقعّد لها» الكتابة. والحالة الخاصة للحكاية الخرافية أغنية بلاد النيبولونجن *Nibelungenlied* في التفكير السوسيري على الأقل[10]، هي أنها تثبت الحكاية الخرافية في حالتها الأصلية، حتى إن طرفي المقابلة بين **الحكاية الخرافية** والأدبية في هذا النص، وفي هذا النص وحده من بين النصوص التي يُعْمِل سوسير فكره فيها، يُبطل أحدهما مفعول الآخر: إنه في الوقت نفسه نص **حكاية خرافية** ونص أدبي. كذلك على الأقل هو تأويلي لهذه الفقرة الناقصة والملغزة الواردة في الصفحة 441:

> إن ما يمنح أغنية بلاد النيبولونجن *Nibelungenlied* قيمتها الفائقة وعظمتها ليس سبقها الأدب بزمن طويل كما هو الحال في نصوص هوميروس، لأنه يمكن القول إن نصها يعود إلى عام 1190 ولا يكاد يسبق إلاّ بقليل أعمالاً أخرى مثل ملحمة بيترولف[11]، لكنها تستمد ذلك من أن نصها يمثل **الحكاية الخرافية** في شكلها الأصلي، ويُنظر إليها على أنها **حكاية خرافية** تعرب عن نفسها بصدق.

إن كلمة «الصدق» التي كُتبت بحروف كبيرة تمثّل **الحكاية الخرافية** بالتقابل

---

(10) هل من الضروري أن نوضح هنا أن المسألة ليست التساؤل عن مدى «دقة» هذا التحليل؟

(11) قصيدة ملحمية من القرن الثالث عشر الميلادي عنوانها الكامل: Biterolf und dietleib. [المترجم].

مع «الأدب». ويظل أن نتساءل عما يعنيه سوسير بكلمة «صدق». هل هي إحالة إلى الحدث التاريخي الأصلي؟

جملةُ القول، إن ترددي الأول لا يزال بكُليته قائماً. بل إنه يصبح أكثر وطأةً عندما أقارن تعداد الموضوعات المُمكنة «للسيميولوجيا» في **الدروس** وفي بحث **الحكاية الخرافية**.

ففي **الدروس**، 33، تلك الموضوعات هي «الكتابة، وألفباء الصم والبكم، والطقوس الرمزية، وصيغ آداب السلوك، والرتب العسكرية». والحق أن «إلخ» التي ترد بعد ذكر الموضوعات السابقة مزدوجة تدل على أن قائمة تلك الموضوعات ليست مغلقة. لكن الطبعة المحققة **للدروس** التي أنجزها رودولف إنكلر (ص 46–47)، شأنها شأن **المصادر المخطوطة** التي أشار إليها غوديل (ص 66) و **دفتر قسطنطين** [149] الذي نشره كوماتسو (ص 324–325) تورد القائمة نفسها مع بعض صياغة مقاربة في الجزئيات، ولا تظهر فيها كلمة «إلخ» الموجودة في الطبعة النموذجية. ولم يظهر ألَبتَّةَ في ما عدده سوسير لا الأدب ولا حتى أي موضوع خطابي سواءٌ كان أدبياً أو غير أدبي. وبالعكس فإن **الحكاية الخرافية** ترد في بحث سوسير عنها بوصفها موضوعاً «للسيميولوجيا»، شأنها بالضبط شأن «كلمات اللغة»:

– تتألف **الحكاية الخرافية** من سلسلة من الرموز تحمل معنىً يلزم تحديده.

– وتلك الرموز خاضعة، ولا مجال للشك في ذلك، للتغيّرات نفسها وللقوانين نفسها التي تخضع لها كل سلاسل الرمز الأخرى، الرموز التي هي كلمات اللغة على سبيل المثال.

– وتنتمي كل تلك الرموز إلى السيميولوجيا (**الحكاية الخرافية**، 30؛ ويبدو أن كلمة «كل» تغطي «رموز» الحكاية الخرافية «وتلك الرموز الأخرى التي هي كلمات اللغة»).

وإنه لمن المناسب هنا أن نذكّر بالاحتياطات المصطلحية التي اتخذت في الفصل الثاني على وجه الخصوص: إن سوسير في مسيرته العلمية كلها كان يتردد بين تسميتَي علامة ورمز. ولم يضع التقابل الثنائي[12] بينهما إلاّ في **الدروس** بمعيار اعتباطية العلامة

(12) dichotomie: تفرع ثنائي. (المراجع).

الذي يقابل تعليل الرمز (انظر الفصل الثاني). ولم يأت سوسير بمثل هذه، التنوع في بحث **الحكاية الخرافية**. ومصطلح رمز ـ الذي يقول سوسير: إنه مصطلح ينبغي «تحديد» معناه ـ ينبغي أن تعطى له، بعد إجراء جميع التغييرات الضرورية، القيمة التي تحملها العلامة في **الدروس**. وهذا يبدو غريباً لقارئ طبعة **الدروس** النموذجية وحدها؛ لأن استخدام مصطلح الرمز هذا يتيح الفرصة في مخطط «المقالة عن ويتني» لظهور ضرب من التصنيف يعزل ضمن الرموز نوعاً منها يسمى الرموز المستقلة:

> نفهم من قولنا الرمز المستقل فئات الرموز التي تتصف بصفة رئيسية تتمثل في أنها ليس لها أي نوع من الرابط المرئي مع الشيء المُراد الإشارة إليه، وبالنتيجة أنه (الشيء المراد الإشارة إليه) لم يعد يستطيع أن يرتبط بها (فئات الرموز) فيما يتبع من مصائرها حتى لو كان ذلك ارتباطاً غير مباشر. (**كتابات**، 209).

إن **الحكاية الخرافية** التي تتكوّن من «سلسلة من الرموز» تندرج في حقل السيميولوجيا. إذاً، لم يكن الاعتراف الذي تضمنه أول مظاهر ترددي بلا فائدة؛ آية ذلك أنه سمح بملاحظة نقطتين مشتركتين بين ثلاث مجموعات من النصوص السوسيرية:

1/ تكرار العلاقة القائمة وقوتها، بالطريقة نفسها والقَدْر نفسه في البحوث الثلاثة، بين مفهومي الأدب والكتابة. ولنتحدث من الآن فصاعداً مستخدمين مصطلحاً غير سوسيري أدبية الأدب.

2/ تلمُّس خصوصية الأدب، وهو تلمُّسٌ يظهر في النصوص الثلاثة أيضاً، وإنْ بأشكال مختلفة هذه المرة. [150] يوجد في رأي سوسير نوع خاص من الخطاب، يتميّز تصنيفياً من أنواع الخطاب الأخرى، حتى لو أن الفارق التصنيفي لا يتضح بجلاء. تلك الخطابات الخاصة هي بمصطلح سوسير **«الأعمال الأدبية»**. وللإشارة إلى خصوصيتها أسمح لنفسي هنا أيضاً باستخدام مصطلح غير سوسيري، ناهيك عن أنه يأتي في غير أوانه، إنه مصطلح الأدبية(13) la littéRarité.

ما شأن أدبية الأدب وحرفيته عند سوسير؟ ستكون هاتان المسألتان موضوعاً

(13) هكذا يكتبها أرّيفيه بالفرنسية، بحرف كبير في الوسط. [المترجم].

لبقية الفصل. وإنّي أخشى ما يخشى منهما أنهما ستأخذان شكل اعترافات جديدة بالتردد. وإنه لمن الممكن أيضاً أن تلتقيا: فليس هناك على الجملة بين المفهومين إلاّ فرق واحد... حرف[14].

التردد الثاني:

وهو يخص حرفية الأدب عند سوسير. ما هو بالتحديد شكل العلاقة بين الأدب والكتابة؟ وإنه لمن الضروري هنا أن أعرّج لبعض الوقت نحو مسألة وضعية الكتابة في التفكير السوسيري. إنه لمن المعروف أننا نجد في **الدروس** موقفين مختلفين، بل، بوجه من الوجوه، متعارضين بخصوص الكتابة:

ترد الكتابة أساساً في بعض المواضع من **الدروس** في المرتبة الثانية بالنسبة إلى المظهر الشفاهي. والفقرة المشهورة في الصفحتين 44 و 45 هي التي تقول: إن «الموضوع اللغوي لا يُتعرف عبر تآلف الكلمة المكتوبة والكلمة الملفوظة: بل إن هذه الأخيرة وحدها هي التي تكوّن ذلك الموضوع»، حتى إن «الكتابة هي في ذاتها غريبة عن النظام الداخلي». وتنحدر من هذا التحديد للعلاقات بين كِتابي وشِفاهي الأحكام التي تغضّ من شأن الكتابة في الصفحات 51-53، وخصوصاً تحليل حالة «المسخ» في نطق كلمات لوفيفر ولوفيبفر ولوفيبور =Lefèvre, Lefébure, Lefèbvre. (ص 53-54)[15].

إن إحدى المسلمات البديهية لهذه العلاقات بين المكتوب والشفاهي هي تجريد مُتصوَّر الدال بوصفه مجهوراً حصراً. وما يكفي أن نذكّر به هنا أن مصطلح الدال يحلّ هنا محلّ المصطلح المطروح من قبلُ فقط، وهو الصورة الأكوستيكية، وذلك عندما يرسي سوسير في موضع وحيد أساس مفهوم العلامة.

لكننا نعلم أن وجهة النظر هذه حول وضعية الشفاهي، وبالنتيجة حول علاقاته بالمكتوب تتبدل كل التبدل في مواضع أخرى من **الدروس**. «إن الدال اللغوي ليس في جوهره أمراً صوتياً، إنما أمرٌ مجردٌ لا يتجسد»، وهو بعيدٌ كل

(14) يريد الراء في littéRarité واللام في littéralité. [المترجم].

(15) التونسية، 58؛ العراقية، 50؛ اللبنانية، 48؛ المصرية، 64؛ المغربية، 45. [المترجم].

البُعد عن أن يكون مُكوَّناً من المادة الصوتية ومن مظهرها الأكوستيكي (**الدروس**، 164)(16). [151] أما **المصادر المخطوطة** للدرس الثاني فإنها تطرح بوضوح مسألة «عدم الاهتمام بوسيلة الإنتاج»:

> إن ما ليس بالبديهي تماماً هو التساؤل هل من الضرورة بمكان أن تُنطق اللغة بالعضو الصوتي؟ لا: يمكن للكلمات أن تنتقل بالكتابة. ليس للأداة أهمية في ذلك. وبذلك تسمح لنا المقارنة بين اللغة وبين أي نظام علامات آخر بالوصول إلى النتيجة التي توصلنا إليها، تأكيد أن وسيلة الإنتاج ليست جوهر اللغة. (غوديل، 1957-1969، 193-194؛ إنكلر، 1968-1989، 270)(17).

وبذلك يتلاشى مفهوم «ثانوية» الكتابة و«خارجيتها». تبلغ الكتابة بجدارة وضعية «نظام علامات» وتسوِّغ بهذا انتماءها إلى الموضوعات السيميولوجية.

ومن هنا جاء استخدام مثال الحرف ـ خصوصاً التاء T وتحققاته المختلفة ـ لتمثيل مفهوم القيمة(18).

سألزم الصمت حول الصعوبات التي تطرحها هذه الازدواجية في التفكير السوسيري. وسأتبنى المُتصوَّر الثاني للكتابة، المُتصوَّر الذي يجعل منها نظام علامات «يماثل نظام اللغة». ويبدو أن السؤال الذي أطرحه على نفسي يدخل في باب المماحكة، لكنه في الواقع جوهري: ما وضع الدال الكتابي بالنسبة إلى «المبدأ الثاني» الذي يتحكم في العلامة، إنه «الصفة الخطية للدال». (**الدروس**، 103)(19)؟ وسيُطرح هذا السؤال بالتتابع بخصوص ثلاثة أنماط من الخطابات:

---

(16) التونسية، 181؛ العراقية، 137-138؛ اللبنانية، 144؛ المصرية، 205-206؛ 150-151. [المترجم].

(17) نُحيل في هذه النقطة إلى الفصل التاسع الذي يأتي فيه أدالبير ريبوتوا **Adalbert Ripotois** بعناصر جديدة في مسألة عدم اهتمام اللغة بالأداة التي تُكسبها مظهراً.

(18) يبدو أن هناك انبثاقاً غير متوقع للمُتصوَّر الأول في الصفحة 165 في عبارة «الصوت الذي يشير إليه الحرف». لكن **المصادر المخطوطة** تبيِّن أن سوسير قال بالفعل «الشيء الذي ينبغي الإشارة إليه» أو «الشيء الذي نريد [العلامة الكتابية] أن تشير إليه». (غوديل، 1957-1969، 193؛ أنجلر، 1968-1989، 269). وهذا يُغيِّر كلَّ شيء: لأن هذا «الشيء» ليس الصوت، لكن «الدال المادي» نجده بالتناوب يظهر عبر الصوت وعبر الحرف، وهو بسبب هذه الواقعة يكتسب وضعية تطابقية.

(19) التونسية، 114؛ العراقية، 89؛ اللبنانية، 92؛ المصرية، 128؛ المغربية، 90. [المترجم].

«خطاب اللغة الطبيعية»، وخطاب نصوص **الجناس التصحيفي** وخطاب نصوص **الحكاية الخرافية**.

ولعله في أضعف الإيمان من المناسب قبل أن نشرع في تفحص أنماط الخطاب الثلاثة أن نشير إلى ضرب من اللُبْس يظهر بمظهر سؤال: ما الذي يتأثر حقاً «بالصفة الخطية» في **الدروس**؟

هل هو الدال وحده ـ كما يبدو أنه يشير إلى ذلك الفارق بين «مبدأي»: «اعتباطية العلامة»/ «الصفة الخطية للدال»؟ أم هو تسلسل العلامات في الخطاب، كما يبدو أنه يشير إلى ذلك الاحتجاج العقلي الواقع في الصفحة 170 (من **الدروس**)[20] لتأسيس مفهوم التركيب؟ وفي هذا الموضع يُظهر سوسير مبدأ «الصفة الخطية للدال»، مميِّزاً بالبداهة من «الصفة الخطية للدال».

[152] لعله من الأفضل هنا، بدلاً من التأمل من جديد في هذه المسألة الصعبة[21] ـ وآية ذلك أننا استفضنا في الحديث عنها في الفصلين الثاني والخامس ـ أن نستقر بارتياح في الغموض السوسيري، وأن نعمد إلى تفحص المسألة التي ذُكرت للتوّ حول كل نمط من أنماط الخطاب الثلاثة:

1/ الخطابات المكتوبة «اللغة الطبيعية». ليس في هذا أي مجال للتردد: إنها خاضعة تماماً للخطية. ويشير سوسير إلى ذلك بجلاء منذ الصفحة 103 (من **الدروس**) عندما يلاحظ أن «الصفة [الخطية] تظهر مباشرةً ما إنْ نمثِّل [الدوال] الأكوستيكية عبْر الكتابة، وما إنْ نحلّ الخط المكاني للعلامات المكتوبة محلّ التتابع في الزمن». ويضرب سوسير أمثلةً في الصفحة 190:

> فمعنى[22] الكلمة الفرنسية *désir-eux* أو اللاتينية *signi-fer* متعلق بموقع الوحدات الفرعية التي تكوّنها: إذ لا معنى لقولك: *eux-désir* أو *fer-signum*.

لعلنا لاحظنا أننا بين القطعتين المقتبستين انتقلنا من خطية الدال («العلامة

---

(20) التونسية، 186؛ العراقية، 142؛ اللبنانية، 149؛ المصرية، 213؛ المغربية، 156. [المترجم].

(21) يصل الأمر بميلنير (1989، 385، 389، 391) إلى حد الحديث عن «خطية اللسان» وكأنها مفهوم سوسيري، وهذا ما يطرح مسألة عويصة (بالنسبة إلى سوسير، بالتأكيد، لكن بصفة عامة أيضاً).

(22) يأتي مترجما التونسية، 207 بمثال عربي من عندياتهما يضعانه في متن الترجمة هو كلمة: بحر ـ ي، ولا معنى لقولك: ي ـ بحر. [المترجم].

الكتابية») إلى خطية العلامات في تسلسل التركيب: لأن *désir* و *eux* هما علامتان بقدْر ما *signum* و *fer-* هما علامتان. لكن ليس هذا التناقض - إذا كان هناك تناقض[23] - هو الذي يهمّنا للتوّ. وأكتفي لمرّةٍ واحدةٍ بالخلوص إلى نتيجة مؤكدة: نعم، الخطابات المكتوبة «للغة الطبيعية» تخضع للخطية دون أن تتخيل أي استثناء من ذلك الخضوع[24].

2/ أما بخصوص نصوص **الجناس التصحيفي**، فإنه سيكون من الضروري الدخول في تفاصيل التقليب السوسيري للدال وسأضرب مثلاً يعرفه قرّاء ستاروبنسكي، 1971، (ص 65). والمبدأ هو نفسه بالضبط الذي مثّلنا له في المُقدّمة بخصوص اسم سيبيو Scipio. لكن ناتج **الجناس التصحيفي** هذه المرّة هو اسم إله. إنه البيت الساتورني:

DONOM AMPLOM VICTOR AD MEA TEMPLA PORTATO

المأخوذ من[25] قصيدة «**التنبوءات**» التي مطلعها «أيها الرومان، يا سكان منطقة الماء الأبيض «Aquam albanam» الذي اقتبسه تيت - ليف[26] (Tite-Live) واستخدمه سوسير من جديد بالمظهر «القديم» الذي يبدو أنه كان عليه زمن صياغته عام 397. إن الظواهر التي يُقدّمها للدراسة هي ظواهر يستمرّ البحث فيها كما رأينا ذلك من قبلُ عبْر المثال الذي قدّمناه في المُقدّمة، وعبْر ما ستراه أيضاً في مثال [153] سيرد في الفصل السابع.. وسنحيل أيضاً إلى غاندون (2002 و 2006).

فيما يخص نص الظاهر، ذلك الذي يكوّن ظاهر البيت ليس فيه أي مشكلة: إنه، شأنه شأن أي مقطع من مقاطع لغة طبيعية ما، يخضع للخطية. ما حال نص **الجناس التصحيفي**؟ وكما هي العادة غالباً[27]، يُختصر هنا باسم علم، إنه اسم أبولو

(23) استفضتُ في الحديث عن هذه المسألة في الفصل السابق.

(24) لقد مرّ بنا مع ذلك في الفصل الثاني الاستعارة الجميلة كل الجمال، لكن الغامضة كل الغموض أيضاً «استعارة الفانوس السحري»، وهي استعارة تطرح مسألة «ربط» العلامة (خارج الزمن؟).

(25) مؤلفها ماركيوس فاتيس Marcius Vates (250-200 ق.م). [المترجم].

(26) اسمه اللاتيني Titus Livius. وُلد عام 59 ق.م، وتُوفي عام 17م: مؤرخ روماني قديم كتب تاريخ روما منذ تأسيسها حتى موت دروسوس Drusus عام 9 م. يتألف التاريخ من 142 كتاباً لم يصل إلينا منها إلاّ 35 كتاباً. [المترجم].

(27) ... لكننا نعلم أن الأمر ليس كذلك: يحدث في بعض الأحيان أن يأخذ **الجناس التصحيفي** شكلاً له علاقة بالجملة. انظر أرّيفيه (1986 a).

Apolo، الذي يقبل سوسير طريقة كتابته القديمة بلام واحدة. ثم يُشرع بادئ ذي بدء في تفحص الشطر الثاني. والاسم الذي يبحث عنه يجده متوارياً بالطريقة التالية[28]:

AD MEA TEMPLA PORTATO
A PL O O

نرى أن حروف كلمة APOLO تظهر «غير مرتبة»: ينبغي نقل الـ O الأولى قبل الـ L التي تسبقها. ويكتفي سوسير بخصوص هذا الشطر بملاحظة أن الـ L تحتك بـ APO لكن «من الجانب غير المناسب» ولا يبدو أن ذلك يقلقه كثيراً.

ويبدو موقف سوسير أكثر وضوحاً فيما يتعلّق بالشطر الأول، وقد درسه بعد الثاني لأنه في رأيه «أقل جودة». (ص 71):

DONOM AMPLOM VICTOR
A PLO O

ويبدو سوسير هنا مضطراً إلى الإشارة بوضوح إلى ما تتعرض له الخطية من خرق. يقول سوسير: «تبدو لنا الـ A في البدء ثم تأتي بعد ذلك PLO التي يمكن أن تقبل على أنها POL». (ص 71).

ألحّ على هذه الصياغة: يحدث كل شيء كما لو أن PLO تصلح لتكون POL. كما لو أن TUG في لغة أخرى تعادل GUT. ولا أضرب هذا المثل مصادفة: إنه أحد الأمثلة التي يذكرها فرويد في تأمله الشهير المستوحى من كارل أبيل (Carl Abel) حول «المعاني المتقابلة للكلمات البدائية» (فرويد، 1910 [1971]، 66)، حيث يحتلّ الإبدال الذي يتمّ دون أي عارض دلالي ـ أي دون أي قطع للخطية ـ مكانة توازي في أهمّيتها التضاد. (انظر فرويد، 1910، 67 و م. أرّيفيه، 1986 ب).

هل مثل هذه الأمثلة هي أمثلة منفردة في بحث **الجناس التصحيفي**؟ الجواب بالنفي قطعاً: إنها تنتشر بكثرة، عملياً في كل الصفحات، ولا يعدم سوسير إلاّ نادراً الإشارة إليها، لكنه في الغالب يذكرها دون [154] أن يبدو قلقاً من ذلك. فنراه يكتفي بالاشارة إلى «الجوازات» التي تقع في تمثيل اسم أفروديت *Afrodite* في قصيدة «في طبيعة الأشياء» *De reum natura*:

(28) ترجمة البيت:

ليقدّم المنتصر قرباناً عظيماً لمعبدي. [المترجم].

ROD تأتي من ORD [...] و RO من OR دون مشقة. (ستاروبنسكي، 81، ثم 85).

وفي موضع آخر:

RO ـ: من جديد مُدوَّنةً دون مشقة على أنها من or ـ (غاندون، 2002، 217).

والأمثلة من هذا النمط كثيرة: ولا نستطيع الامتناع عن العودة إلى التفكير في فرويد وعلى تأملاته في الإبدال التي نجد فيها *tug* تأتي من *gut*:

FRO ـ: إن التصوير يستند في الجملة إلى *flores* التي يُنظر إليها على أنها *fro-les*. (ستاروبنسكي، 82).

بل إن الأمر يصل بسوسير في بعض الأحيان إلى حد أنه يشير بتسامح إلى الصفة «اللطيفة» للضرورة الشعرية[29]:

pr-T أو T-pr لـ tr-P هو نقل ذو طبيعة لطيفة. (ستاروبنسكي، 87).

لكنه (سوسير) يبدو في مواضع أخرى مضطرباً، بل ربما يمكن القول: إنه غير موافق. فهو لا يعدم على سبيل المثال استخدام عبارة «باب من الشعوذة»، (ص83)، وهي صيغة حاولتُ فهمها بحرفيتها: الحروف يمرّ بعضها أمام بعضها الآخر، على الرغم من أي خطية مهما كانت.

هناك ما هو أكثر إثارةً أيضاً: إذ يمكن لعنصرين من عناصر كلمة من الكلمات المركّبة أن يكونا «معكوسين في تنظيمها المتتالي». (ستاروبنسكي، 52). وبذلك نجد أنّ اسم العلم المركّب هيراقليطس HERACLITUS ـ الذي ينظر الهيلّينيّ واللاتيني المثقف أيضاً إلى عنصرَي تركيبه HERA و CLITUS على أنهما عنصران محددان بوضوح بوصفهما علامتين مميّزتين ـ نجد هذا الاسم يرد مرتباً على الشكل التالي: CLITUS-HERA. وإن سوسير يعطي هنا في الإجمال مثالاً يشبه المثالين اللذين سبق ذكرهما DÉSIREUX و SIGNIFER. والفارق أنه في نص **الجناس التصحيفي** يصبح من الممكن ـ فضائحياً ـ ترتيب الوحدتين في ترتيب غير مهم: فـ HERA-CLITUS و CLITUS-HERA هو الشيء نفسه.

وفي هذا الموضع يجد سوسير نفسه مدفوعاً، بطريقة أُلحّ على اعتبارها استثنائية، إلى مواجهة المُعطيات التي يُفعّلها في بحث **الجناس التصحيفي** وتلك التي توفرها له مبادئ اللسانيات. ومثال ذلك الفقرة المشهورة في الصفحة 46، وهي

(29) licence: ضرورة شعرية، **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص283. (المراجع).

فقرة لن أذكرها من جديد مكتفياً بالإحالة إلى الصفحة 63 من الفصل الثاني. لكنني لن أمنع نفسي من تفسيرها تفسيراً يختلف عما سبق. فمنذ ما يزيد على عشرين عاماً اكتشفت بفضل ستاروبنسكي هذا النص، وما زلت منذ ذلك الحين أقرؤه بإعجاب وبانفعال تقريباً، مصدوماً في الوقت نفسه من عدم اكتماله ـ كما لو أن الفكر يتردد أمام حدوده القصوى ذاتها ـ [155] ومن الإتقان الصوري لبعض القطع، مثال ذلك البيت الإسكندري من النمط الملارمي حسب عبارة المأسوف عليه توماس آرون (1970): «خارج التنظيم في زمن العناصر». مهما يكن من الأمر، فإنه يبدو لي بالبداهة أن نص **الجناس التصحيفي** هنا هو محاكاة دقيقة لما في **الدروس**. آية ذلك أننا نجد «الصفة الخطية للدال» مذكورة بدقة، وفي الوقت نفسه معكوسة. وليس في اللسانيات استثناء من مبدأ «التتابع»، وهو اسم يُطلق في بحث **الجناس التصحيفي** ـ وبطريقة أكثر اتساقاً ـ على ما يُسمى في **الدروس** «الخطية». وفي المقابل، يُطرح السؤال نفسه «في المجال البالغ الخصوصية» الذي هو **الجناس التصحيفي**: إذ لا يبدو أن التتابع المكاني ـ الزماني مطّرد فيه. ومن هنا جاءت هذه المقارنة البارعة بموضوعات سيميولوجية جدولية: فحروف نص **الجناس التصحيفي** تكون «مختلطة خارج الزمن» على غرار الألوان غير المتناغمة (وليس المتتابعة) للوحة ما. ونعلم أن هذا النمط من الموضوعات السيميولوجية هو أيضاً مذكور في **الدروس** (ص 103)، لكنه مذكور بالتحديد لمقابلته بطريقة عمل الدال اللغوي.

لقد رأينا للتوّ المظهر الحرفي لخصوصية نص **الجناس التصحيفي**: فالحرف وبالضرورة الفونيم ليسا خاضعين لما يقتضيه التتابع من قيود. هل يكون هذا النظام النوعي من حرفية **الجناس التصحيفي** الأدبي المحتمل لهذا النمط من النصوص؟ وأُشير على سبيل الاستباق إلى أن ذلك النظام النوعي هو عنصر من عناصر أدبية النص. لكنه ليس الوحيد: وينبغي، بعد قليل طرح مسألة المظاهر الأخرى النوعية ـ التي ليست حرفية حصراً ـ لنص **الجناس التصحيفي**. وسأفعل ذلك عندما أتحدث عن المظهر الثالث من مظاهر ترددي. ولعله من المناسب قبل أن أصل إلى ذلك، أن أطرح مسألة الخطية ـ أو التتابعية في نص **الحكاية الخرافية**، وقد رأينا للتوّ أنهما شيء واحد. وعلى وجه الإجمال، فإن هذه المسألة تُفضي إلى الأخرى: هل لنص **الحكاية الخرافية** علاقة بممارسة **الجناس التصحيفي**؟ وهنا أيضاً يكون الوضع مشوّشاً بامتياز، من وجهة نظر فيلولوجية (من أجل حرفية النصوص ومن أجل

نشرها) ومن وجهة نظر نظرية. ولكي يتضح الأمر أكثر في هذه القضية، أُميِّز بين مرحلتين في تحليلي. وأُشير مُقدَّماً إلى أنهما قد يبدوان أنهما يتيحان المجال لخطر التوصُّل إلى نتائج متناقضة.

1/ نلتقي في كل مرّة في نص **الحكاية الخرافية** بتداولات لشكل أسماء الأعلام التي تذكُر بقليل أو كثير بطريقة عمل **الجناس التصحيفي**. ففي الصفحة 240 على سبيل المثال، يتساءل سوسير حول أسماء مدن مذكورة في نص **الحكاية الخرافية**:

> يمكن أن تكون فريساش Freisach هي فريساش في كارينثي Freisach en Carinthie [...] إلاَّ أنها تذكّر أيضاً ببريساش Breisach مقرّ هارلونغ Harlung من جهة، وبفريدسايلا Fridsaela (فيرساي Verceil) من جهة أخرى عبْر الموقع الجغرافي وعبْر الاسم.

[156] يمكن أن توصف، على سبيل الاتساع، العلاقة بين أسماء هذه المدن الأربع بأنها جناسية تصحيفية. وينطبق الأمر نفسه بطريقة فيها بلا شك قَدْر أكثر من الدقة بقليل على الأشكال الأربعة الأخرى لاسم «آداوكارو Adaocaro» (ص 244)، «الذي ينبغي بلا شك أن يُقرأ آدواكارو» (مع مثال جميل عن العكس الحرفي)؛ إنه «ربما يكون بالضبط هو اسم أودواكر Odoacre»، الذي «يذكُر على أي حال بغرابة باسم جودكر Jodakr».

وهناك في بحث **الحكاية الخرافية** عشرات الأمثلة لِمُلَح أدبية من هذا الطراز. لن أذكُر منها إلاَّ مثالاً واحداً سيُسرّ له بلا شك قرّاء فرويد. يهتمّ سوسير في واقع الأمر بالعلاقة بين اسمي سيغموند *Sigmund* وسيغيسموند *Sigismund*. ويعود إلى الحديث عنهما في عدد من المواضع ـ دون أن يعرف بلا شك أنهما الاسمان الأولان المتتابعان لفرويد. وهو صاحب هذه العبارة الجميلة في شأنهما على وجه الخصوص: «يُسمى الأب على سبيل المصادفة سيغموند، وهو الاسم نفسه الذي يحمله قاتل أبيه سيغيسموند». (**الحكاية الخرافية**، 72).

لنترك لمن يرغب التأمل في المظاهر الأوديبية أو الفرويدية ـ أجرؤ على القول: بالمعنى الحرفي للمصطلحين ـ لهذه الملاحظة السوسيرية. ولن آخذ منها هنا إلاَّ الجانب الشكلي: إن اختفاء الـ -is- المُلاحَظة في Sigismund يُفضي إلى sigmund الذي ما زال من بعيد يشبه الممارسة الجناسية التصحيفية.

ولعلنا فهمنا من الحذر الذي التزمته في صياغاتي أنه سيكون من التسرع والعجلة أن نرى عملاً جناساً تصحيفياً خالصاً في هذه التحليلات الحرفية[30] الأدبية لأسماء الأعلام في **الحكاية الخرافية**. ولعله ينبغي بالطبع لكي نُصدر حكماً بارعاً كل البراعة أن نُلزم أنفسنا بمهمة ـ مذهلة ـ تتمثّل في دراسة كل نمط من هذه المُلَح دراسةً مفصلةً في 450 صفحة، هي عدد صفحات بحث **الحكاية الخرافية**؛ ناهيك عن الصفحات التي ما زالت غير منشورة. وإن عمليات السبر التي أجريتها تسمح لي بالمغامرة في تسجيل ثلاث ملاحظات:

1.1. يبدو أن العلاقات الحرفية لهذا النمط الأول في **الحكاية الخرافية** لا تظهر إلا بين أسماء الأعلام، بعكس تلك التي نلاحظها في النصوص التي هي جناسية تصحيفية فعلاً، حيث تتمّ بين خطابين، واحد منهما فقط ـ وهو الخطاب الذي هو **جناسي تصحيفي** ـ يمكن أن يُختصر في اسم علم. ولهذه الواقعة كانت العلاقات الحرفية، بغض النظر عن عددها، أقلَّ تردداً بما لا نهاية له في **الحكاية الخرافية** منها في **الأدب الجناسي التصحيفي** حيث هي بطبيعتها موجودة باستمرار.

2.1. إن العلاقات الحرفية في **الحكاية الخرافية** مطردة بكثرة بين اسمين هما أيضاً مذكوران في النص الظاهر. وهذه هي على سبيل المثال حالة سيغموند وسيغيسموند، وهما اسمان يشيران على الرغم من «تطابقهما» إلى شخصين مختلفين، وهما بذلك يظهران بالتناوب في ظاهر النص. وهنا أيضاً تتعارض هذه الصفة مع العمل الجناسي التصحيفي بمعناه الخالص، وهو [157] «عمل مرموز»، أي أنه «يحيل إلى أسماء أو إلى كلمات ليست منطوقةً عبر القطعة». (ستاروبنسكي، 1971، 69).

3.1. حتى عندما يبدو أنّ التقاليب manipulations الحرفية التي لاحظها سوسير ـ أو بناها ـ تُذكّر بالممارسة **الجناسية التصحيفية** فإن ظواهر التشكيك في خطية الدال هي استثنائية، بل، كما يبدو، عرضية. والمثال الواضح الوحيد هو آداوكارو/ آدواكارو/ أودواكر، وهي أسماء ينبغي على الأرجح أن نأخذ في الحسبان بشأنها التحريفات النصيّة المرتبطة بظروف انتقال النصوص.

(30) littéral: لفظي؛ حرفي، **المنهل**، ص619. (المراجع).

2/ وإلى جانب هذه التلاعبات [اللفظية] Jeux التي تمتّ بصلة قربى بعيدة للممارسة الجناسية التصحيفية، هناك على الأقل في وصف سوسير بعض أمثلة **للجناس التصحيفي** لا يمكن إنكارها. لقد نشرها شيبرد (Shepeard) (1986) وفسرها كيم سونغدو (1991، 274). فنجد اسم هاجينيه[31] Hagene مقلوباً ومُبدَّلاً بالطريقة نفسها تماماً التي رأيناها في اسم أبولو Apolo في قصيدة «**التنبوءات**» التي مطلعها:

«أيها الرومان يا سكان منطقة الماء الأبيض»، عبر البيت التالي[32]:

HOUBERT ZE GIBE TRUËGE [...] DEN EZELN[33]
H[A] G E GE EN E

وليس من المدهش مبدئياً وجود **الجناس التصحيفي** في الشعر الجرماني. فهذا في رأي سوسير أمر مطّرد في الشعر الهندو ـ أوروبي القديم من جهة، وإن الدراسة المشهورة عن «شعر المجانسة الصوتية الجرماني» وعن الاسم الألماني للحرف (*Buchstabe*، ستاروبنسكي، 38-40) توضح من جهة أخرى إمكانية حصول مثل تلك التقاليب الحرفية. إلا أنني ألاحظ أن سوسير لم ينظر إلى هذا الاشتغال[34] **الجناسي التصحيفي** على أنه أساسي في بحث **الحكاية الخرافية**: فهو لا يخصّه إلا ببضع صفحات، وإنه لمن المستغرب ألاّ يكون أي تفسير لعدم ظهوره ألبتّة في بحث **الحكاية الخرافية**[35]، ص 300. لقد كثرت عملية البحث عن

---

(31) اسم شخصية الخائن في أغنية بلاد «النيبولونجن». سبق التعريف بها. [المترجم].

(32) بيت من أغنية بلاد «النيبولونجن» la Chanson des Nibelungen بالفرنسية وبالألمانية: Nibelungenlied ترجمته كالتالي: هوبير يخادع [...] انزلن
ويبدو أن هوبير اسم آخر من أسماء «هاجينيه»، الخائن في أغاني النيبولونجن. والشاهد هو استخراج اسم هاجينيه من **الجناس التصحيفي** في البيت المذكور باللغة الألمانية الوسيطة. [المترجم].

(33) نلاحظ باهتمام أن هاجينيه Hagene ليس الشخص المشهور الوحيد الذي نجد اسمه مقلوباً ومُبدَّلاً في هذا البيت، بل إننا نكتشف أيضاً اسم هاجيج Hagège.

(34) fonctionnement: إشتغال، إشتغالية.

(35) تكتفي صيغة مارينيتي وميلو Marinetti et Melo بالإشارة إلى الاستبعاد «الصفحات الباقية تستبعد عملية **الجناس التصحيفي** من نيبلونغنليد». ومهما بدا ذلك الاستبعاد اعتباطياً فإنه يبدو لي مع ذلك أنه يستجيب لتحليل تُرك للأسف ضمنياً، وهو تحليل يشبه تحليلي في قولي: لم يعدّ سوسير الممارسة **الجناسية التصحيفية** ممارسة جوهرية في «نيبلونغنليد». لكن كان ينبغي على الأقل إعطاؤه التفسير **الضروري**.

الجناس التصحيفي في الأعمال الإغريقية ـ اللاتينية حتى إنها أصبحت استحواذية، لكنها حذرة وهامشية في بحث **الحكاية الخرافية**.

وبذلك يلاحظ سوسير في آنٍ معاً وجود الممارسة الجناسية التصحيفية في أغنية بلاد النيبولونجن Nïbelungenlied، ولا **يخصُّها** إلاّ [158] بجانب بسيط من تفكيره. ما الطريق الآمنة التي يمكن أن يسلكها ما يظلّ في نظري مسألة خطيرة؟ إنها تتمثّل بلا شك في أن يُقال: إن خطاب **الحكاية الخرافية** لا يكتسب تميُّزه عبر ممارسة **الجناس التصحيفي**. ولهذا فإن الاشتغال الذي ينسبه إليه سوسير، لا يشكك جوهرياً في مبدأ خطية الدال: حتى لو أنه يتضمن جناساً تصحيفياً فإنها لا تُقرأ بوصفها كذلك. ولا يُنظر إليها إلاّ في اشتغالها الظاهري القريب كل القرب من خطاب اللغة الطبيعية. ويتعارض المجموع الذي يكوّنه هذان النمطان من الخطاب مع الأدب **الجناس التصحيفي** الذي يستفيد من نظام حرفي هو بالضرورة «خاص» ـ وإذا أردنا أن نعيد استخدام الصفة التي استخدمها سوسير نقول: التشكيك في التتابعية.

هل من الممكن التأمل في الأسباب التي دفعت سوسير إلى اتخاذ مثل هذا الموقف الذي يدعو ظاهرياً إلى الدهشة؟ أُخاطر في طرح فرضية تتصل بهذا الشأن. لكن ينبغي الانتظار حتى تتضح بعض المظاهر الأخرى.

لقد انتهيت من المظهر الثاني من مظاهر ترددي. ولعله ينبغي الاعتراف بأن النتيجة التي يُفضي بنا إليها مزدوجة التشويش. لأنه يبدو أن لها في المقام الأول تأثيراً تخضع بموجبه للنظام نفسه النصوص «الأدبية» ـ نصوص **الحكاية الخرافية** التي تُقدَّم، على الرغم من بعض الاحتياطات المصطلحية، على أنها كذلك ـ والنصوص غير الأدبية: وهي خطابات اللغة الطبيعية. وكلاهما يختلف عن نصوص **الجناس التصحيفي** التي توصف عموماً بأنها «أدبية».

وينبغي في المقام الثاني أن تُعدَّل تلك النتيجة بسبب الوجود الواقعي لبنى **الجناس التصحيفي** في نص **الحكاية الخرافية** مع أنه (الوجود) مُهمَلٌ غالباً في وصفنا لها.

لقد فهمنا بسهولة أن مظهر ترددي الأول لم ينقشع عندما تفحصت المظهر الثاني. بل إنه ازداد وطأة. ما زال هناك كثير من مناطق الظل الخفيف فيما يخص

الحرفية. أما فيما يخص جانب الأدبية فإن الظلمة تظل عامة. إذاً سأحاول طرح هذا السؤال الثالث والوحيد.

المظهر الثالث من مظاهر ترددي:

إن المسائل التي رأيناها تنبثق من ذاتها هما مسألتان اثنتان، مرتبطتان كل الارتباط:

1/ هل يكفي النظام النوعي للحرفية التي تتصف بها نصوص **الجناس التصحيفي** لتمثيل أدبية تلك النصوص.

[159] 2/ هل يُلاحظ أيضاً وجود الانفصال الذي لاحظه سوسير(36) من وجهة نظر الاشتغال الحرفي بين نصوص **الجناس التصحيفي** ونصوص **الحكاية الخرافية** في مظاهر أخرى من مظاهر عملهما؟

المسألة الأولى

إن النظام الحرفي لنصوص **الجناس التصحيفي** هو نظام نوعي: فدالها لا يخضع خضوعاً مستمراً للخطية. وهل لهذه النوعية مضاعفات على مستوى المدلول؟ بالبداهة نعم: إذا كان النص يتضاعف في مستوى الدال فإنه بالضرورة يتضاعف في مستوى المدلول. ويلحّ سوسير في مواضع عِدّة على هذا الموضوع. بل إنه يمضي إلى حدّ التمييز بين وجهة نظر «الشاعر» ووجهة نظر «القارئ»: وكلاهما واعٍ بذلك الازدواج في معنى النص. يحرص الشاعر «قبل أي شيء آخر على ولوج مقاطع وتوليفات صوتية من كل الأنواع، وهي مقاطع وتوليفات يصادف أنها تكوّن موضوعه». (ستاروبنسكي، 1971، 23). وعلى وجه الإجمال، يسعى الشاعر إلى أن ينثر في ظاهر النص عناصر الموضوع الذي هو في الواقع نص آخر حتى لو أنه غالباً يقتصر على اسم علم واحد. حتى إن تلك «اللعبة استطاعت أن تصبح السمة المعتادة لدى كل فرد لاتيني من أهل القلم في الشكل الذي يعطيه لفكره في اللحظة التي ينبثق فيها من دماغه تقريباً، وفي اللحظة التي يفكر فيها

(36) أوضح مع ذلك أن ذلك الانفصال لا يُلاحظ كما رأينا في الموضوع نفسه، وإنما في المعالجة التي يخضع لها.

بوضعه شعراً أو نثراً». (ستاروبنسكي، 1971، 120-121). أما القارئ فإنه مذكور ـ في ما قرأته ـ ذِكْراً خفيّاً في حديث سوسير عن الشاعر نفسه عندما يقرأ شاعراً آخر. ويبدو ذلك في حديثه عن الطريقة التي قرأ فرجيل (Virgil) بموجبها هوميروس:

> لقد كان يسهل على شاعر مثل فرجيل أن يرى **الجناس التصحيفي** ينتشر في نص هوميروس، ولم يكن على سبيل المثال ليراوده الشك في أننا نستطيع أن نستخرج اسم آغاممنون[37] (Agamemnon) من مقاطع البيت الذي تحتويه القطعة التي تتحدث عن آغاممنون[38]:
>
> Le sinistre souffle des vents terribles [lui] troubla l'esprit?
>
> (ستاروبنسكي، 1971، 127).

بل إن هناك ما هو أكثر من ذلك. ففي موضع آخر يلمح سوسير إلى «مصاحبة نفسية عميقة ولا يمكن تفاديها» (ستاروبنسكي، 1971، 120) لممارسة **الجناس التصحيفي**. ولكي يكون هناك «مصاحبة نفسية» ينبغي أن يكون هناك عقد قائم بين [160] «جماعة المتكلمين» ـ وأنا أُدرج بوعي هنا **مصطلحات الدروس** ـ ليعترف الجميع بالتعددية الصوتية في النص الأدبي. يتضح مما سبق أن خصوصية **الجناس التصحيفي** من وجهة نظر الأدبية تكمن على الدوام في نظام دالها وفي تعدد الأصوات الذي يفرضه ذلك النظام.

وأشير إشارة عابرة وخجولة إلى اتجاه آخر للبحث. وهو اتجاه لم يُشر إليه سوسير إلاّ إشارة سريعة. لقد رأينا للتوّ أن الممارسة، الإيجابية أو السلبية، **للجناس التصحيفي** تفترض «مصاحبة» كتلك التي نجدها في نظام سيميولوجي. كتلك التي تمتلكها على سبيل المثال لغة ما. لنحاول الذهاب في المقارنة إلى أبعد من ذلك. إن إحدى السمات النوعية للغة في **الدروس** هي صفتها التطورية: ليس هناك لغة لا تكون في كل لحظة خاضعة للتغيير التعاقبي. ما شأن الممارسة

---

(37) ملك اليونان وقائد جيوشهم في حرب طروادة. [المترجم].

(38) البيت في الأصل باللغة اليونانية القديمة، وأثبت الترجمة الفرنسية التي زوّدني بها مشكوراً السيد ميشال أزيفيه. والمعنى أننا يمكن أن نستخلص من مقاطع البيت اليوناني بوساطة **الجناس التصحيفي** اسم آغاممنون الذي تتحدث القطعة عنه. والترجمة العربية للبيت انطلاقاً من الترجمة الفرنسية هي كالتالي:

«إن عصف الرياح الصرصر العاتية أفقده صوابه». المقصود: آغاممنون. [المترجم].

الجناسية التصحيفية في ذلك؟ يلاحظ سوسير ذلك فيما يُمكن أن أُطلق عليه ظلَّ المفاجأة: إنها (الممارسة الجناسية التصحيفية) لا تتطور، إنها تظلّ متطابقة مع نفسها دون أدنى تغيير، عبر عدة قرون، بل عدة آلاف من السنين:

> لم يكن هناك منذ عهد أقدم الروائع[39] الساتورنية وحتى الشعر اللاتيني الذي صاغه الشعراء عام 1815 أو 1820 طريقة أخرى لكتابة الأشعار اللاتينية إلاّ طريقة تفسير كل اسم علم على أنه يقع تحت شكل من الأشكال المضبوطة للجناس المنحوت (ستاروبنسكي، 1971، 133؛ وانظر أيضاً، ص 119، تلميحاً إلى النقل غير المتغيّر للممارسة «عبر القرون والأوساط المختلفة كل الاختلاف للثقافة اللاتينية»).

وبذلك يكون **الجناس التصحيفي** استثناء ليس من الخطية فقط، وإنما أيضاً من التطور التعاقبي، أي بالطريقتين السوسيريتين لتدخل الزمن في موضوعات اللسان. ونحيل في هذه النقطة إلى الفصل الخامس.

المسألة الثانية

لم يبقَ لنا إلاّ أن نتساءل عن الأسباب التي تفسر الانفصال الذي لاحظه سوسير في المعالجة بين نصوص **الجناس التصحيفي** وبين نصوص **الحكاية الخرافية**. ويبدو في هذه المرة أن هناك إجابةً تفرض نفسها. وقد سبق أن لمحنا بعضاً من مظاهرها. ذلك أن نص **الحكاية الخرافية** أدبي عَرَضياً بعكس نص **الجناس التصحيفي**. إنه (نص **الحكاية الخرافية**) لا يقوم إلاّ لاحقاً بتحديد نص حكاية خرافية سابق وتثبيته بكل ما تعنيه الكلمة. ويمثّل ذلك النص نفسه كل المظاهر السيميولوجية للغة ـ وخصوصاً القابلية الحتمية للتغيير التعاقبي. وهو يتميّز بهذا جوهرياً من النص الأدبي، النص الأدبي الذي هو محدد منذ نشوئه بشكله النهائي، مما يعيقه عن التعرف إلى «تجربة [161] الزمن وعلى تجربة اكتساب الصفة الاجتماعية» (**الحكاية الخرافية**، 193) لأن هاتين التجربتين هما عند سوسير لا تنفصلان. (انظر **الدروس**، 113)[40]. وبهذا تتضح المفارقة الظاهرة في استبعاد النص «الأدبي» من حقل السيميولوجيا: فإذا لم يكن نص **دون كيشوت** لسرفانتس

---

(39) les monuments: روائع؛ بدائع. **المنهل**، ص679. (المراجع).

(40) التونسية، 124-125؛ العراقية، 96؛ اللبنانية، 100؛ المصرية، 140؛ المغربية، 99. [المترجم].

(Cervantes) ـ المذكور باسمه ص 193 ـ موضوعاً سيميولوجياً فذلك لأنه ثابت إلى الأبد، دون أي إمكانية ألبتّة لاكتساب الصفة الاجتماعية ولا للتطور التعاقبي. ولهذا السبب لن يكون النص الأدبي مقارناً باللغة. والأمر على خلاف ذلك بالنسبة إلى نص **الحكاية الخرافية** الذي يتساوى مع اللغة في «سُمُوِّها» ومن هنا مصدر تلك المقارنة التي يبدو لي أنها تُقدّم أفضل خاتمة لهذه النقطة الفريدة من الفصل:

> إن ما يصنع سُمُوَّ الحكاية الخرافية واللغة هو أنهما محكومتان بألاّ تُستخدما إلاّ عناصر موجودة قبلهما، ولها أي معنى كان، ثم تقومان بجمع تلك العناصر وتستخرجان منها باستمرار معنىً جديداً. ويسود فيهما قانون خطير، وهو قانون ينبغي أن تمعن النظر فيه قبل أن ننتهي إلى القول بخطأ هذا التصور للحكاية الخرافية: لسنا نرى في أي مكان ازدهار شيء لا يكون توليفاً بين عناصر داخلية، ولسنا نرى في أي مكان أن المادة هي شيء آخر غير الغذاء < الدائم > الذي يهضمه الفكر، وينظمه، ويدبره، لكن دون أن يستطيع التخلي عنه. (**الحكاية الخرافية**، 307).

يمكننا في هذا الموضع الأخير أن نخاطر بالتأمل. إذ ربما تكون هذه التطورية الأساسية في **الحكاية الخرافية** هي التي توضح المصير الذي خصّ به سوسير ما يمكن أن يُلاحظ من ممارسة جناسية تصحيفية في النص الأدبي الذي ينشأ عنها. لأن **الجناس التصحيفي** يفلت كما رأينا للتوّ من التطور التعاقبي: كيف يمكن له أن ينشأ، وعلى الخصوص، أن يستمر في خطاب هو في حركة مستمرة، وله «أي معنى كان [...] ويكتسب باستمرار معنىً جديداً»؟ سيكون هناك في الجملة تعارض نظري بين **الحكاية الخرافية والجناس التصحيفي**. ومن الصحيح أن **الحكاية الخرافية** ينتهي بها الأمر إلى أن تصبح مكتوبة، وتفسح في المجال لتكوُّنِ نصٍّ أدبيٍّ يُثبتها لكنْ في نهاية المطاف. وحينئذٍ يُمكن **للجناس التصحيفي** أن يطلّ برأسه. لكنه لا يؤثّر إلاّ في «التكوُّن الأدبي» وليس في **الحكاية الخرافية** التي هي ركيزته الأساسية: ولهذا يشير سوسير على استحياء إلى وجودها. إلاّ أنه يحتاط من الإلحاح على سمة لا تصف بذاتها الموضوع الذي أسبغته (**الحكاية الخرافية**) على نفسها، لكنها تصف الشكل الوحيد الذي أسبغته الكتابة عليها عَرَضياً.

تعليقة تلخيصية:

لقد تركت سوسير يختم بنفسه. وكل ما يبقى عليَّ أن أفعله بتواضع هو

محاولة تلخيص النقاط التي لاحظتها إبّان تعداد مظاهر ترددي. وإنه لمن المؤكد أن عدداً من المسائل تظلّ [162] معلّقة: ويرجع هذا بلا شك في جانب منه إلى أثر حالة عدم الإنجاز التي تتصف بها النصوص السوسيرية. وينبغي في بعض الأحيان الوصول إلى جعل صمت سوسير يتكلم... وقد سمحت لنفسي بتهور بلا شك أن أفعل ذلك في موضع أو موضعين. ومع ذلك تظهر بعض نقاط الارتكاز التي تحمل في ظاهرها ظلالاً من التأكيد:

- الرابط الذي لا انفكاك له بين أدبي وحرفي؛

- الطبيعة التطورية جوهرياً للموضوعات السيميولوجية الأصيلة، مثل العلامة اللغوية والرمز في **الحكاية الخرافية** اللذين يمتُّ أحدهما للآخر بروابط قُربى متينة؛

- بالعكس، عدم تأثر النص «الأدبي» بالزمن. وهذا النص لا يخضع على وجه العموم للتعاقبية. وهو في شكله **الجناسي التصحيفي** يفلت ليس من التطور في الزمن فقط وإنما من الخضوع للتتابعية أيضاً. وهو بذلك يتبنى بوصفه موضوعاً هائلاً يضع موضع الشك مبادئ السيميولوجية نفسها، وبالتالي يفلت منها.

ملحق

نظمُ الشعر الفرنسي
مخطوطات فرنسية 3970/ف

Ms. Fr. 3970/f

لن أعمد إلى وصف منهجيٍّ في دراسة هذه المخطوطة التي هي في حالة يُرثى لها. ويُظنّ أنه مسوّدة للدرس الذي كان يلقيه سوسير في الموضوع نفسه. وتحتوي المخطوطة على شروح منفصلة عن النص، مُسْتَخْدَمَةً في عدد من المواضع المتتالية. وقد كانت تلك هي الحالة بلا شك لأن سوسير ألقى عدة مرات درساً عن نظم الشعر الفرنسي. وإنه لمن المرجح أن الاستخدام المتكرر ـ الذي لا يمكن للأستاذ أن يتجنّبه كما ألاحظ ذلك عَرَضاً ـ يفسر حالة تلف بعض الصفحات. أما الكتابة، فعلى الرغم من أنها كتابة سريعة فإنها على وجه العموم تُقرأ بوضوح فيما عدا بعض الإضافات.

ونلاحظ هنا وهناك تقسيمات إلى فصول. لذلك تحتوي الصفحة الثالثة (باعتبار أن الصفحتين 1 و 2 ناقصتان) على عنوان فصل: «تعاقب مصوتين». لكن المؤلف أضاف بخط أكثر دقة ونعومة الشرح التالي: «ليس مكان هذا الفصل هنا».

ونميّز العناصر التالية:

1/ اعتبارات تاريخية حول خصوصيات مختلفة لنظم الشعر الفرنسي: تعاقب مصوتين («الفصل» الذي يبدأ في الصفحة 3 يبدو أنه يستمر على ورقة غير مرقمة، من قياس مختلف)، [163] الحرف e الذي لا يلفظ، انكسار الوزن في البيت، القافية، «فك الإدغام» (ترد الكلمة على الدوام بين هلالين)، التقديم والتأخير، إلخ.

2/ موضوعات تمارين مُعدَّة للطلاب، ومُقدَّمة استثنائياً بعناية فائقة: تتناول رباعية بيلاّي (Bellay)، والسؤال الذي يطرحه سوسير هو التالي:

> أشر في الأبيات التالية لجواكيم دو بيلاّي إلى ما هو ليس بصحيح بحسب القواعد التي نشأت في القرن التالي، والتي أصبحت قواعدنا الكلاسيكية.

3/ اقتباسات طويلة مشروحة لعدد من شعراء العصور المختلفة: منهم فيللون (Villon)، مارو (Marot)، رونسار (Ronsard)، لافونتين (La Fontaine) الذين كانوا شعراء مميزين. ومن الغريب أن نجد في هذا النص عن نظم الشعر الفرنسي صفحتين مخصصتين لتحليل عروضي لبيت مأخوذ من الأسطورة الألمانية أغنية بلاد النيبولونجن Nibelungenlied.

4/ بعض الملاحظات في تاريخ اللغة، وخصوصاً حول *ne* التي كانت حتى القرن السادس عشر علامةً حصرية للنفي، وقد أصبحت من جرّاء ذلك مصدر سوء فهم للقراء المعاصرين.

5/ ونجد في هذه المخطوطة الخاصة بنظم الشعر الفرنسي شيئاً غير منتظر، إنهما حكمان قاسيان كل القسوة على بوسّويه (Bossuet)، وباسكال (Pascal).

أ/ بوسّويه: إذا جمعت في حقيقة الأمر بين محام من الطبقة الأولى بين المحامين المعاصرين، وخصوصاً إذا كان مسكوناً بمثالية كاثوليكية، وبين سكولائي تافه من القرن الثالث عشر فإنك ستحصل على بوسّويه الذي ساعده الحظ على أن يعيش في عصر بلغت فيه البراعة اللغوية أوْجها واستغل ذلك. ليس لديه من صفات التفوق إلاّ أنه خطيب، وهي صفة لم تكن لتزعج ذلك الراهب الطيب الذي كان في داخليته مُهيّأً شأنه شأن رابليه (Rabelais) ليقول كل ما يجول في رأسه إذا لم يكن فيها عدم ملاءمة خطيرة. إننا، وبعد أن نأخذ في الحسبان عجز عقلية مثل بوسّويه في العالم أو في تتابع الأفكار الإنسانية، نستطيع عبر تفكير صائب قياس ما ينتمي بالفرنسية إلى الشكل في حين أن ذلك الشكل نفسه لا يترافق كما هو الأمر في حالة أسقف ميو (Meaux) بأي نوع من أنواع التفكير المهم. إن الأعمال التي لا قيمة لها ليست مُبجّلة فقط، لكنها أنتجت في أيامنا هذه ضرباً من التقديس الأعمى المضاعف حول هذا الاسم. ولقد سمعت أحدهم ينطق بهذا الكلام المريع: «ربما يكون (بوسّويه) أعظم عقل عرفناه». وقد اختص م. برونونيير

(M. Brunetière) في مناكفة كائناً من كان لا يفهم إلاّ نصف أعمال بوسّويه، أما النصف الثاني فقد اختص بها هو وحده. وعندما لا أعرف عدمية بوسّويه عبر بوسويه نفسه فإنني سأكون متأكداً من ذلك عبر الاستئثار الذي يمارسه م. برونوتيير. إن الفراغ يجتذب الفراغ في الطبيعة على الدوام [؟] وفي الأدب على وجه الخصوص. إن بوسّويه الخطيب المتصنع، ذا المآثر السامية كان محط أنظار نمط غريب من الخطباء المتصنعين في القرن العشرين، وهو نمط بدأ في القرن التاسع عشر، خطباء يتصورون أن البلاغة تحمل الخلاص للشعوب. وإذا كان هناك في المستقبل شيء محكوم عليه بالنسيان فإنه لن يكون عمل بوسّويه وإنما عمل خَبْره الأعظم برونوتيير.

ب/ باسكال: لقد حاولت مرّات ومرّات، بنيّة صادقة كل الصدق وفي أفضل الطبعات، أن أُعجب بأفكار باسكال. وتنقسم أفكاره عندي [164] إلى نمطين: تلك التي لا أجد فيها أيّ سموّ لأنها أولية نعرفها منذ سن الطفولة: على سبيل المثال المراهنة على [].

أو أيضاً تلك التي تؤكد استمرارية الفكر الصبياني لدى المؤلف حتى سن متقدمة نسبياً (54 سنة[1]) إذا لم أكن [].

إن باسكال مثال عظيم للرعب الثيولوجي من الجحيم الخارج مباشرةً من القرون الوسطى، لكنه لا يعدم أن يكون له تأثير في فكر فلسفي ما لأنه من البديهي أن ذلك التفكير [كلمتان غير مقروءتين].

والحقيقة التي هي على أقلام كل الناس، ولا يريد أحد قولها هي أن باسكال عقل متميّز في الحالات الرياضية، وقد أبدع في هذا المجال عدداً من الأشياء مثل مفارقة باسكال، المتعلّقة بتوازن سائلٍ ما في وعاء. ولعله من المرجح أن ما نحمله من تبجيل كبير لباسكال بوصفه مبدعَ تلك الحالات الرياضية [مصححة بكلمة: فيزيائية] هو الذي يدفعنا إلى تخيل أن قدراته العقلية لا مثيل لها عندما يريد أن يهتم بالحقائق الإنجيلية أو بالمذهب المسيحي. إن العقلية الرياضية تكاد تكون

(1) يبدو أن سوسير غاب عنه أن باسكال مات في التاسعة والثلاثين وليس في الرابعة والخمسين.

بانتظام، [ومهما كانت القدرة على التمييز لديها]، أبعد ما تكون عن العالم من وجهة فلسفية، حتى لو كانت بسيطة.

6/ تقويم عام قاسٍ كل القسوة حول الشعر الفرنسي منظوراً إليه من وجهة نظر صورية:

> أُسمّي شخصيّاً كل الشعر الفرنسي من وجهة نظر شكله نظماً وليس شعراً، ولا أخفي أنني لا أكنّ إلاّ احتراماً بسيطاً لذلك الشكل. وإنه لممّا يثير الشفقة أن نرى شاعراً عبقرياً مثل راسين (Racine) يصارع قوانين يعدُّها عقبة لا يمكن تجاوزها في حين أن دفقة واحدة من شيطان شعره كان يمكن لها أن تكسر النماذج وتعطينا شيئاً آخر. ويبدو لي في كل الأحيان و أنا أقف أمام بعض روائع راسين أنني سأشهد تفجر البيت الشعري الفرنسي، وأن التيار سيخرج في النهاية عن مجراه محطماً الحواجز، لكنني عندما أرى ما يأتي أكتشف أي خطأ ارتكبته. هل هناك في الواقع ما هو أكثر مناسبةً وعقلانيّةً ورضىً من رؤية استمرار هذه الأبيات الشعرية الباردة في الشعر الفرنسي التي تصلح أنموذجاً لكل الإنتاج الشعري البارد للقرن الثامن عشر الذي أضع ضمنه في المقام الأول مجموع مسرحيات فولتير (Voltaire).

لقد كانت هناك فرصة ثانية لتغيير البيت الشعري الفرنسي عندما انفجرت ثورة الرومانسيين الفرنسيين الذين كانوا بالتأكيد بلا رحمة تجاه جانبٍ واحد من جوانب التقليد، وظنوا أنها تقاليد مخيفة. [تنتهي القطعة دون علامات ترقيم].

[167] الفصل السابع

ما شأن اللاوعي[1]
عند فردينان دو سوسير؟

يأخذ عنوان هذا الفصل شكل تساؤل. وإنه لممّا لا غنى عنه قبل أن نحاول الإجابة عن السؤال الذي يطرحه العنوان أن نطرح سؤالاً آخر، يتعلّق بمشروعية طرح السؤال الأول نفسه. ويمكن أن نصوغ هذا السؤال كما يلي: هل يمكن الحديث عن مسألة اللاوعي عندما نتحدث عن سوسير؟

وأرى أن هناك إجابتين مُمكنتين متناقضتين عن هذا السؤال الأساسي:

تتمثّل الأولى في القول: إن المسألة ليست مطروحة. إن سوسير يستخدم باطراد الصفة (لاواعي = inconscient) والحال (لاواعياً =inconsciemment). لكن المقصود بهما كما سنرى المعنى «الوصفي» للكلمتين، حسب الاستخدام الفرويدي للمصطلح. ويظهر الاسم (ما تحت الشعور = subconscient) مرّةً واحدةً في الطبعة النموذجية من **الدروس** (ص 178)[2] أما الاسم المؤنث «لاوعي = inconscience»

---

(1) نُشر هذا الفصل ضمن أعمال:

Genève-Colloque Révolutions Saussuriennes 07/

بعنوان:

Qu'en est-il de l'inconscient dans les réflexions de Saussure?

كما ورد على موقع ميشال أريفيه michel.arrive@wanadoo.fr. [المترجم].

(2) التونسية، 194، وفيها يُقابل باللاشعور؛ العراقية، 148، وبصورة لاشعورية؛ اللبنانية، 156 تحت الشعور؛ المصرية، 223 ما دون الوعي؛ المغربية، 165 مستوى ما تحت الشعور. [المترجم].

فقد ورد مرّةً واحدةً في **كتابات في اللسانيات العامة** (ص 159). وإذا لم أخطئ أو أسهُ فإن الاسم المذكر (لاوعي = inconscient) لا يظهر لا في **الدروس** ولا في **كتابات في اللسانيات العامة**. ويخلو منه كشافا النصين على أي حال.

وكما يبدو أنه يتضح بجلاء من هذه التفصيلات المُعجمية، يمكننا أن نظن بعد تفحص سريع أن إشكالية اللاوعي ليست مطروحةً طرحاً جليّاً ولا دالاً في أعمال سوسير اللسانية. وهذا على أي حال ما يبدو أنه يفسر الصمت الذي التزمه حول هذه النقطة الأعم الأغلب من المختصين بسوسير. (أقصد هنا سوسير اللساني)[3]: فباستثناء ما نجده عن ميلنر (خصوصاً 1978) وعند آخرين من بعض الإشارات السريعة، وفي بعض أعمالي السابقة (خصوصاً [168] أرْيفيه 1986 و1994–2005)، لست قادراً على ذكر إلاّ آكاتان سويناغا (Akatane Suenaga) (2005) وإيزابيل فيليلا (Izabel Vilela) (2005).

وهناك عن سؤالي الأوّلي إجابة أخرى، معاكسة للأولى تماماً. وتتمثل في القول: إن سوسير منظر للاوعي شأنه شأن فرويد تماماً. وهذا صحيح صحة غير مباشرة. وهذه الإجابة الثانية هي كما فهم الجميع إجابة لاكان. وهو يصوغها صياغة تتفاوت في الوضوح في عدد من المواضع في الآراء التي يطرحها في كتاباته حتى بداية السبعينيات. وأكتفي باقتباس واحدة من أحدث إجاباته نشراً. ونجدها في أول اللقاءات الثلاثة التي ظهرت منذ تشرين الأول/أكتوبر عام 2005 في كتابه المعنون: **تعاليمي** Mon enseignement. قال لاكان في شهر تشرين الأول/أكتوبر عام 1967 بخصوص كتاب **تفسير الأحلام** لفرويد الكلام التالي:

> افتحوا على أي صفحة من صفحات الكتاب عن الأحلام، الذي وصلنا أولاً، فلن تجدوا فرويد فيه يتحدث إلاّ عن قضايا الكلمات. ترونه يتحدث عنها بطريقة تجعلكم تلاحظون أنها مكتوبة بكل تفاصيلها تماماً كما كُتبت قوانين البنية التي أشاعها سوسير عبر العالم. ولم يكن سوسير بدوره هو أول من ابتدعها، لكنه كان ناقلها المتحمس لتكوين ما هو اليوم أكثر جوانب اللسانيات تماسكاً. (2005، 40).

(3) ولا ينطبق هذا على السوسيريين الذين اهتموا ببحث سوسير عن **الجناس التصحيفي**. ويبدو أن ستاروبنسكي (1971) و وندرلي (1972) كانا رائدَيْن في هذا المجال.

ولعله من المناسب أن نُبدي تحفظَيْن على ما يطرحه قول لاكان. فهو من جهة لا يَعدّ سوسير إلاّ مجرد «ناقل متحمس»، وليس «مبتدعاً» «القوانين البنية»: وهذا خطاب مطرد لدى لاكان الذي يحيل بذلك ضمنياً في هذه الفقرة إلى الرواقيين، وإلى القدّيس أغسطينس[4] وإلى تقاليد البلاغة دون أن يسعى إلى توضيح ما يميّز تعاليم سوسير. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لا يكاد لاكان يرى فيما جاء به سوسير ـ دون أن يدري ـ إلاّ تكملةً لِما جاء به فرويد. وهذا التحفظ المزدوج سيوضحه لاكان نفسه بعد ست سنوات في نص «L'Étourdit= الطائش»: إننا اليوم في عام 1973، ولاكان ابتعد منذ زمن عن اللسانيات ليقول:

> من يستطيع في واقع الأمر عندما يقرأ ما كتبته أو يسمع ما أقوله بوضوح ألاّ يفهم أن المحلل النفسي منذ فرويد متقدم في شأن ذلك على اللساني، على سوسير على سبيل المثال؛ سوسير الذي يظلّ متمسكاً بالمدخل الرواقي، المدخل نفسه الذي استخدمه القدّيس أغسطينس؟. (1973، 46؛ 2001، 489).

إن التحفظَيْن المذكورَيْن اللذَيْن اعتدنا عليهما عند لاكان، واللذَيْن يزدادان تمكّناً مع الزمن يتعارضان مع التبجيل الذي كان لاكان يخصّ به سوسير في السنوات السابقة، 1957 على سبيل المثال، عندما كتب «**حكم الحرف في اللاوعي**». لكن التحفظ لا يخفي الجوهري: إن ما يقوله سوسير عن **اللسان** يتوافق [169] مع ما يقوله فرويد عن اللاوعي. إذ إن سوسير دون أن يدري يقول ما يقوله فرويد (قبله أو بعده لا أهمية لذلك)[5] عن قوانين اللاوعي.

---

(4) أغسطينس (354-430م) لاهوتي وفيلسوف كاثوليكي، ولد في شمال إفريقية لأب وثني وأم مسيحية، وكانا مواطنَيْن رومانيين، يتحدثان اللاتينية. تلقى تعليمه في قرطاجة وغيرها من مدن الشمال الإفريقي. وقام بتدريس فن البلاغة والبيان في قرطاجة وروما وميلانو. وبعد أن تحول إلى المسيحية سنة 386م، عاد إلى وطنه، وأخذ في دراسة اللاهوت المسيحي والفلسفة الأفلاطونية، بغرض التوفيق بين الدين والفلسفة؛ ثم استُدعي ليكون أسقف البلاد، وظلّ في كرسيه حتى وفاته. وهو من أشد المدافعين عن حاجة الإنسان إلى الله، والاعتماد عليه في كلّ شيء، ومن أشدّ المؤمنين بالجانب العملي للدين. انظر: **موسوعة الأدب والنقد**، تأليف مجموعة من الكتّاب، تقديم وترجمة وتعليق، د. عبد الحميد شيحة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة (84)، مصر، 1999م: ج1، ص 158. [المترجم].

(5) إن لاكان مقتنع ـ أو إنه يريد أن يقنع نفسه؟ ـ بسبق فرويد على سوسير. وذلك لأنه لم يكن ـ وكيف نلومه على ذلك؟ ـ يعرف أعمال سوسير التي نشرها رودولف إنكلر عام 1974، وخصوصاً «مخطط المقالة عن ويتني».

إذاً، يجيب عن سؤالي الأولي اتجاهان متناقضان. وينبغي في مثل هذه الحالة ألاّ ننحاز إلى أي من الرأيين، إن صح القول، وأن نمسك العصا من منتصفها.

إن الصفة (لاواعي) والحال (لاواعياً) يُستخدمان غالباً كما رأينا للتوّ في طبعة **الدروس** النموذجية. وأنطلق من مثال يُمكّننا من رؤية المسألة بوضوح. إذ نجد في الفصل المخصص «للاتحول والتحول في العلامة» مقارنةً بين التغيّرات التي تحدث في اللغة وبين تلك التي تحدث في المؤسسات الاجتماعية الأخرى: مثل الطقوس الدينية، وآداب السلوك، وأنظمة الزواج، وموضة الثياب، إلخ. على سبيل المثال. ونص **الدروس** في هذا الموضع يجعل للتحولات اللغوية خصوصيةً ليست لغيرها: وتتمثّل في أنها في الواقع، وخلاف ما هو ملاحظ، تختلف حسبما يقوله سوسير عن التحولات في المؤسسات الأخرى، «إن أصحاب لغة من اللغات هم إلى حدٍّ كبير لاواعين بقوانين تلك اللغة». (**الدروس**، 106)[6]. ألاحظ بسرعة أن ظاهر كلام سوسير يوحي إلى أنه يَعدّ التغيّرات التي تصيب المؤسسات الاجتماعية هي تغيّرات «واعية» كل الوعي: وأُلقي على عاتقه مسؤولية هذا الموقف، الذي يخالف ما أطرحه اليوم (ومن المرجح أنه قابل للنقض على الأقل بخصوص بعض المؤسسات التي ذكرناها)، وأهتمُّ بما نطق به سوسير فعلياً في تعاليمه الأصلية عن اللغة. لقد عبّر بطريقة مختلفة كل الاختلاف إذ قال:

> يمكننا أن نذكّر تلك الواقعة التي لا نطبّقها على التفكير في اللغة (التمييز بين الوعي واللاوعي) وأن نحدّد درجة الوعي التي تتحكم عموماً في وقائع اللسان. (إنكلر، 1968–1989، 162).

لقد سمح الناشران لنفسيهما كما نرى أن يُغيّرا تغييراً ملحوظاً حرفية الآراء التي يطرحها سوسير في درسه الشفاهي. لقد عَدَلا عن الاستخدام الاسمي للصفتين واعٍ ولاواعٍ. مع أن هذا الاستخدام يبقى موغلاً في الغموض: والمقصود في

(6) التونسية، 118، وقد يضيف بعضهم أن لا دخل للتفكير في استعمال الناس للغة ما، أي أن الذين يستعملونها لا يدركون قوانين تلك اللغة إلى حدٍّ كبير؛ العراقية، 91؛ اللبنانية، 94، كما أن الأفراد لا يشعرون إلى حد بعيد بقوانين اللغة؛ المصرية، 133؛ المغربية، 94، ولا يكون الأشخاص المتكلمون واعين وإلى درجة كبيرة بقوانين اللسان. ومن الملاحظ أن المترجمين العرب لم يقيموا وزناً لاستخدام سوسير كلمة *inconscient* = لاوعي التي هي موضع الشاهد في كلام أرّيفيه. [المترجم].

نظري أن سوسير يستخدم الصفتين استخداماً ذاتي الدلالة، وليس بوصفهما اكتسبا وضعية المفهوم. مهما يكن من الأمر، فإن نص **الدروس** سواء [170] في نسخته الشفاهية أو في تلك التي أظهرها الناشران للناس في عام 1916 يسجل بوضوح أن هناك في رأي سوسير الذي كان يتحدث في تلك اللحظة تدرجاً في الانتقال مما هو لاواعٍ ـ الذي ينبغي أن يُفهم، وألح على ذلك، بوصفه آنياً غير واعٍ ـ إلى ما هو واعٍ ـ وينبغي أن نفهم قوله: واعٍ بمعنى الخضوع «للتفكير اللغوي». وإن ما يقوله لنا سوسير هنا في الجُملة هو أننا عندما نستخدم عنصراً، أي عنصر كان، من اللغة فإننا نفعل ذلك دون أن يكون موضوعاً لتفكير واعٍ: لسنا، والحمد لله، بحاجة إلى أن نولي انتباهنا لبرمجة تتابع الأصوات في خطابنا. لكنه على الرغم من ذلك فإنه يكفي أن يتوافر جُهدٌ ممكنٌ في كل لحظة لكي تنتقل تلك الوقائع إلى الوعي: وهذا ما يجعل النشاط اللغوي ممكناً مهما كانت درجة التقنية. إن الطفل الذي يُهجّي بصعوبة حروف كلمة ما يمارسها شأنه شأن اللساني الذي يصفها وصفاً صوتياً.

إن مُتصوّر «درجات» الوعي اللغوي يظهر ظهوراً يتفاوت في الوضوح من فقرة إلى أخرى من **الدروس والكتابات**: لذلك نشهد ظهور المفهومين المهمين «الوعي الكامن *Conscience latente*» و «اللاوعي *inconscience*».

و«الوعي الكامن» ـ الذي سيحوّله ناشرا **الدروس** (ص 178) إلى «ما تحت الوعي *subconscience*» ـ هو الذي يميّز العلاقات الترابطية في تقابلها مع العلاقات النسقية:

> يمكن أن نمثل لهذين المبدأين، لهذين النشاطين اللذين يظهران تزامنياً على محورين، تركيبي وعلى محور آخر يوجد ذهنياً كما لو أنه يغشاه السحاب [التفكر في وعي كامن] بكل الإمكانات الأخرى التي يمكن للترابط أن يجمع بينها. (إنكلر، 1968-1989، 293).

أما بخصوص «الوعي الخالص»، فإنه بغرابة معروف بطريقة تفاضلية بوصفه «درجة ما من الوعي»:

> [...] إن مفهوم الوعي هو مفهوم نسبي للغاية، حتى إن المقصود به هو درجتان فقط من الوعي، أعلاهما ما تزال في اللاوعي الخالص مقارنة بدرجة التفكير التي ترافق أغلب أفعالنا. (**كتابات**، 159).

لقد فهمنا أنّ قائمة درجات الوعي الموجودة في هذه الفقرة تتحدث عن درجة ضعيفة من الوعي تُسمّى بالتتالي «وعي كامن» أو «لاوعي». لكن ذلك «اللاوعي»، حتى عندما يوصف بأنه «خالص»، ليس ألبتّة إلاّ واحداً من [171] مستويات الوعي، المُهيّأ هو بدوره لينطبق عليه وصف «عالٍ» بالنسبة إلى درجات أخرى هي أكثر انخفاضاً.

ليس في هذه التحليلات شيء من التناقض مع التحليلات التي يقدمها فرويد في مقاله المشهور المنشور عام 1915 والمعنون بالتخصيص «اللاوعي». إنه يطرح بخصوص بعض الأفعال الفيزيائية «اللاواعية» آراءً قريبةً كل القرب من آراء سوسير، حتى في الجانب المصطلحي (الذي ينبغي التعامل معه بحذر بسبب الترجمة)(7). ومع ذلك فإنه ينبغي التزام الحذر بخصوص تفريق أساسي أجراه فرويد: فهو يسجل بوضوح أن هذه الصفة اللاواعية للأفعال لا تؤثر فيها لتجعلها تنتمي إلى اللاوعي «بالمعنى النظامي»:

> [...] إن صفة اللاوعي(8) ليست إلاّ علامةً مميّزةً للفعل الفيزيائي، وهي صفة لا تكفي على أي حال لتمييزه. هناك أفعال فيزيائية من درجات مختلفة كل الاختلاف، وهي درجات تتفق مع ذلك في أنها غير واعية. واللاوعي يتضمّن من جهة أفعالاً هي ببساطة كامنة، غير واعية مؤقتاً، لكنها من جانب آخر لا تختلف في شيء عن الأفعال الواعية، ويتضمّن من جهة أخرى سياقات مكبوتة إذا أصبحت واعية فإنها لا تستطيع إلاّ أن تطبع بطابعها الدامغ بقية السياقات الواعية. (1915-1988، 211).

وإن هذا «الوعي الكامن» هو الذي يكتسب بعد هذا التحليل مباشرةً اسم «اللاوعي الوصفي». وإن ذلك التمييز بين الوعيين، أحدهما وصفي والآخر نموذجي هو الذي دفع فرويد إلى إرساء قاعدة التقابل بين الوعي واللاوعي عبر الاختصار *Bw* من *Bewusste* و *Ubw* من (*Unbewusste*) (التي انتقلت إلى الفرنسية بـ *Cs* و *Ics*). يختص المختصر *Ubw/Ics* باللاوعي النموذجي، وهو لهذا السبب يفلت من الغموض الذي نجده في الاسم.

---

(7) يقصد ترجمة أعمال فرويد إلى الفرنسية. [المترجم].

(8) inconscientialité.

ونعلم أن لاكان يتبنّى هذا التمييز الفرويدي الأساسي تبنّياً واضحاً ومتكرراً. ولن أقتبس من جديد إلاّ فقرة من اللقاء العلمي لعام 1967:

> ليس من المستغرب أن يكون اللاوعي لا واعياً. لأن اللاوعي ليس صفة سلبية. (2005، 20).

وإذا حكمنا اعتماداً على نصوص سوسير التي استخدمناها حتى الآن فإنه لمن البديهي أن السياقات اللاواعية التي يحللها تنتمي إلى اللاوعي الوصفي الذي يصف سوسير عمله بمصطلحات قريبة كل القرب من مصطلحات فرويد. أما بخصوص اللاوعي النموذجي، أو لنقل، لكي نغيّر في الأدوات: بخصوص لاوعي نموذجي، فإنه يبدو واضحاً أن هذه النصوص لا تعرض له ألبتّة.

وكما يحدث في الغالب عند سوسير، الذي هو في طبيعته كما نعرف مؤلف مفارقات، إن في واحد من مقاطع نصه استثناء [172] مما انتهيت من وصفه للتوّ. ويظهر هذا المقطع في الطبعة النموذجية من **الدروس** (ص 163)، ظهوراً يختلف بعض الاختلاف عما كتب سوسير فعلاً. أقتبس والحالة هذه من **المصادر المخطوطة**:

> كل قاعدة، أو كل جملة أو كل كلمة تخصّ أشياء اللسان تذكّر بالضرورة بالعلاقة بين أ/ب أو أيضاً بين أ/آ، تحت طائلة عدم الدلالة على شيء إذا حللناها.

ويكون ذلك كذلك بالتحديد لأن المصطلحين أ و ب هما عاجزان جذرياً عن الوصول كما هما إلى مناطق الوعي، الذي لا يلحظ باستمرار إلاّ التباين بين أ/ب، وإلا أن كل واحد من هذين المصطلحين يظلّ معرّضاً (أو يصبح حراً) في ما يخصه لأن يتغيّر حسب قوانين أخرى غير تلك التي تنتج عن تدخل عقلي مستمر (إنكلر، 1968-1989، 266؛ **كتابات**، 219؛ والنص الذي يأتي منه هذا المقطع هو المخطط الشهير المُنجز في عام 1894 **للبحث عن ويتني**، وهو الذي لم يتممه سوسير).

ألح معرّضاً نفسي لخطر أن أبدو مماحكاً على الأصل المكتوب لهذه القطعة من **الدروس**. في هذا الموضع سوسير لا يتحدث، ولم يتحدث. لماذا؟ لا نستطيع إلاّ أن نُعْمل عقلنا. ولن أمتنع عن ذلك. وأتساءل إذا لم تكن الجرأة في فرضيته هي التي أفضت به إلى الصمت في أثناء درسه. وآية ذلك أنه يصح لدينا أن المسألة

في هذا الموضع لم تعد مسألة درجات الوعي أو اللاوعي: بل إن ما يُطرح هو وعي نموذجي بالمعنى الحقيقي للكلمة. والأشياء التي تكوّنه هي «عاجزة تماماً عن الوصول كما هي إلى مناطق الوعي». وتلك الأشياء خاضعة لقوانين ليس لها أي علاقة بالقوانين التي تنتمي إلى الوعي، والتي تنتج عن تدخل مستمر للعقل. إذاً، ما طبيعة قوانين اللاوعي تلك؟ إنها القوانين التي تحدّد، بعيداً عن أي تدخل واعٍ لفاعل الكلام، تطور الموضوعات اللغوية، أو على الأقل تطور قسم منها: وهذه المسألة هي مسألة التمييز بين التغييرات الصوتية، اللاواعية، وبين التغييرات القياسية الواعية التي سبق أن عرضنا لها بتوسع في الفصل الخامس.

وإنه لمن المناسب أن نحذر من المقارنات السهلة. وألاحظ ببساطة أن هذه التحليلات ـ التي تعود إلى عام 1894 ـ تتفق عن قرب مع التحليلات التي قدّمها فرويد في عام 1915، مع فارق طفيف، وأساسي: مفاده أن اللاوعي السوسيري هو لاوعي لغوي، لغوي حصراً. والأشياء التي يتكوّن منها هي حصراً أشياء لغوية. لكنها مثل أشياء اللاوعي الفرويدي خاضعة «لإجراءات» تتمايز بالنسبة إلى الإجراءات الواعية.

يصبح الآن على وجه التقريب في الإمكان أن نجيب، عن عِلْم، عن السؤال الذي يتعلّق باللاوعي في التفكير اللساني عند سوسير. والإجابة كما فهمنا ينبغي أن تكون مجزأة. [173] فمن جهة، يلجأ سوسير باستمرار، لكن دون أصالة مميّزة، إلى مُتصور درجات الوعي، وهو مُتصور يتفق كل الاتفاق مع الأوصاف الفرويدية للاوعي الوصفي. ويظهر اللاوعي النموذجي في موضع واحد ووحيد ـ إنه على أي حال لا تنطبق عليه صفة وحيدة تماماً كما رأينا في الفصل الخامس ـ من التفكير السوسيري. إن ازدواج الموقف السوسيري هذا يعدُّ في واقع الأمر مشكلة. والحل المتصور يكمن في رأيي في إطار المقابلة بين التزامن والتعاقب. يتدخل اللاوعي الوصفي في العمل التزامني للغة. أما اللاوعي النموذجي فيعمل في التعاقبية.

ويمكن عند هذا الموضع أن نعقد النية على التفكير في مسألتين: الأولى، هي مسألة الالتقاء الذي يبدو أنه لم يحصل بين المتعاصرَيْن سوسير وفرويد. والثانية، هي مسألة استخدام لاكان جدول «الخوارزميات» algorithme السوسيري في نظريته عن «اللاوعي المبني بوصفه لساناً».

———　———　———

سألزم الصمت الكامل تقريباً حول النقطة الأولى لأنها بلا شك قد قُتلت بحثاً. وإنه لمن الحق أن غياب أي علاقة، ليس شخصية فقط (فالرجلان لم يلتقيا ألبتّة تقريباً)، لكن نصيّة أيضاً، (إذ يبدو أن سوسير لم يذكر ألبتّةَ اسم فرويد ولا ذكر فرويد اسم سوسير، ونقصد بالطبع فردينان)، ذلك يبدو أمراً غريباً. وهذا ما لاحظته على سبيل المثال إيزابيل فيليلا، 2005، 119-122. وهي تمتلك الشجاعة اللازمة لمتابعة البحث عن الآثار التي ما زالت حتى اليوم كامنةً للقاء محتمل.

وواقع الأمر أن جهل أحدهما بالآخر ليس مدهشاً إلى الحدّ الذي يبدو لنا عليه في عام 2006. لقد مضى على ذلك قرن من الزمن، ولم تكن العلاقات تنشأ بالسهولة التي تنشأ فيها اليوم، كما أنه ينبغي التمييز بين الرجلين في تسلسل الأحداث التاريخية. فحتى عام 1913، سنة وفاة سوسير، لم يكن معلم جنيف مشهوراً إلاّ في أوساط اللسانيين المُغلقة تماماً، وخصوصاً العاملين في مجال الدراسات الهندو ـ أوروبية. ويحق لفرويد أن يجهل مؤلفاً مغموراً، ما زال إنتاجه بسيطاً (المذكرة، الرسالة، وسلسلة من المقالات غير السائرة)، وفيه جانب تقني يصعب معه الوصول إليه. كما أن شهرة فرويد التي كانت بالتأكيد أكثر شهرة من سوسير، لم تكن مع ذلك قد بلغت حدّاً يجعل سوسير يعبر الحدود، ليس اللغوية، لأن سوسير كان يُتقن الألمانية بامتياز، لكن في حدود الاختصاص. وقد يكون مع ذلك من المحتمل أن بعض أخبار المؤلف الڤييني (نسبة إلى مدينة ڤيينا) لكتاب عنوانه **تفسير الأحلام** قد تناهت إلى أسماع سوسير [174] ـ خصوصاً عن طريق فلورنوا، زميله في جامعة جنيف.

وبعد عام 1920 تغيّر كل شيء. لقد عرف فرويد واقتبس وشرح أعمال واحد من آل سوسير: إنه ريمون بن فردينان، الذي درس التحليل النفسي مع فرويد، وخصص رسالته لتقديم تفكير فرويد، وكان له شرف الحصول على تقديم من فرويد. والكتاب الذي قدّم له فرويد يحتوي على إحالة مختصرة، لكنها واضحة وموحية إلى كتاب **دروس في اللسانيات العامة** لفردينان دو سوسير[9].

إذاً، إنه لمن المحتمل والممكن أن يكون فرويد قد عرف ولو معرفةً عابرةً

(9) يرى ريمون دو سوسير في واحدة من حواشي رسالته (1922، ص 83) إمكانية تطبيق مناهج **الدروس** على وصف بعض زلأت اللسان. ويذكر ريمون كتاب أبيه بعنوان **دروس في اللسانيات**، والتاريخ 1915.

بوجود كتاب **الدروس** ومؤلفه. وعلى الرغم من اهتمامه المستمر والمتحمس بمسائل اللغة لم يظن على ما يبدو أنه من الضروري أن يعكف على دراسة عمل والد تلميذه. وسيكون من التهور المزايدة على الأسباب التي دعته إلى هذا الإهمال.

وسيكون حديثي مختصراً كسابقه عن النقطة الثانية لسببين:

الأول: هو أن النقطة الثانية قُتلت بحثاً أكثر من الأولى ـ ولقد أسهمتُ أنا نفسي بعد آخرين وقبلهم إسهاماً كبيراً في ذلك.

والثاني: أنني لو ولجت إلى هذه المسألة فإنني سأخرج عن موضوع هذا الفصل الذي يتحدث عن سوسير وليس عن لاكان.

وإنه مع ذلك مما لا غنى عنه بلا شك أن أُحدّد في بضع كلمات وظيفة الإحالة إلى سوسير في تفكير لاكان. ولكي أسجل في البداية واحدة من البديهيات أقول: إن لاكان لا يأخذ في الحسبان تفكير سوسير حول اللاوعي. وليس في ذلك ما يدعو إلى الدهشة: لأنه ينبغي أن يكون المرء قارئاً متنبّهاً متعمّقاً **للدروس** أكثر مما كان لاكان[10] لاكتشاف الفقرات النادرة التي يمكن أن نقرأ فيها مشروع نظرية للاوعي لغوي.

هل وجد لاكان مشروع تلك النظرية التي كان سوسير بلا شك محتاراً كل الحيرة بشأنها. وآية ذلك أن النظرية السوسيرية في اللاوعي مبنيّةٌ بناءً هو بالتحديد معكوس بالنسبة إلى نظرية لاكان. إن «التمفصل الدال» هو الذي يكوّن اللاوعي عند لاكان [175]، ذلك اللاوعي «مبني كلِسانٍ ما». ويعني بالتمفصل الدال شبكة الاختلافات المتقابلة. أما ما ينتمي إلى اللاوعي عند سوسير فإنه على العكس ليس بالتحديد المقابلة بين «الحدود»، وهو الاسم الذي يُطلق في هذا الموضع على العلامات، أي

---

(10) ليطمئن الجميع: لا أنوي القول: إن لاكان قرأ سوسير «قراءة منحرفة» كما اتهمه بذلك جورج مونان الطيب (1969-1970، 188) وهي التهمة التي استنكرها بشدة خوان داڤيد نازيو Juan David Nasio (1992، 93). لا: إنني على العكس متأكد من أن لاكان قرأ سوسير قراءةً فيها ضرب من التمجيد جعلته يلاحظ بعض النقاط الخفية والصعبة من تفكيره، كما هي الحال بالنسبة إلى العلاقة بين الخطية والتعاقبية. (انظر الفصل الخامس). ويبدو لي مع ذلك أن قراءته تركزت على الفصل الخاص المتعلّق بالعلامة. وبالطبع المُتصور اللاكاني للعلامة هو بعيد كل البعد عن متصور سوسير.

الدوال في المصطلحات اللاكانية: تلك «الحدود» نفسها التي توصف بأنها «عاجزة جذرياً عن الوصول كما هي إلى مناطق اللاوعي» (إنكلر، 1968-1989، 266؛ **كتابات**، 219): ونتذكر أن العجز المذكور في الانبثاق في مستوى الوعي هو الذي يفسر الصفة الاتفاقية لتطورها التعاقبي. أما بخصوص شبكة الاختلافات فإنها عند سوسير، وهذا عكس ما عند لاكان تماماً ـ العنصر الوحيد الذي «يلحظه» الوعي.

لقد اتضح لنا أن ما أخذه لاكان من تفكير سوسير ليس بالتأكيد نظرية اللاوعي التي يعتقد قارئ مماحك أنه اكتشفها لديه. إن ما أخذه هو بنية اللسان، ما هذا الذي أقوله؟ إنه أخذ بنية لغة ما. وألح هنا كل الإلحاح الممكن على تنوين التنكير *un* في عبارة «لغةٍ ما»، الذي يعطي للصيغة اللاكانية خصوصيتها. ويتفق أن عبارة لاكان «مبنيّة كلسانٍ ما = structuré comme un langage» وليست «مبنيّة عبر لسانٍ ما = structuré par un langage»؛ أي أن العلاقة علاقة تشابه وليست علاقة سببية ـ والتزامني بقوله «لغة ما» ضروري لكي لا أخون لاكان في قوله: إن اللاوعي مبني. ويتفق أن «الخوارزميات السوسيرية للعلامة» هو الذي يقدم للاكان ـ وأعني لاكان الخمسينيات والستينيات ـ هذا النمط لبنية اللاوعي.

ويبقى أن نعالج مرة أخرى المسألة التي عولجت مرّات عديدة، لكنها ما زالت بلا حلّ مُرضٍ، إنها مسألة ما احتفظ به لاكان من تعاليم سوسير. ولكي أوضح المسألة بكلمة واحدة فإنني لن أذكر إلاّ الحد المشترك بين لاكان وسوسير، إنه التمفصل *articulation* بالمعنى الذي يعطيه له الرجلان «التقسيم إلى عناصر لا تمايز بينها إلاّ بتقابل بعضها مع بعض». نظن أننا انتهينا: ليس ذلك بصحيح: يخبئ لنا سوسير على الدوام مفاجآت جديدة. وأعفي القارئ من الطُرَف المعتادة في الحديث عن توالد آل سوسير: الزوج السوسيري؛ سوسير النهاري وسوسير الليلي، الدكتور جيكيل (Dr Jekill) و م. هايد (M. Hyde) ومزاح آخر من هذا القبيل. وأعود إلى تناول القضية من أولها. نتذكر (انظر الفصل الأول) أن سوسير كان، في الوقت نفسه الذي يعدُّ فيه أسبوعاً بعد آخر لتلامذته دروسه في اللسانيات العامة، يعمل بصمت عملاً آخر يبدو غريباً كل الغرابة: كان يقرأ وراء نص الشعراء اللاتينيين والإغريقيين، نصاً [176] تحتياً منثوراً في حروف نص الظاهر. ونستطيع بالتأكيد مرة أخرى، على سبيل المثال، استخدام البيت الساتورني:

ليقدم المنتصر قرباناً عظيماً لمعابدي

ويُذكِّر سوسير بكيفية عمل ذلك النص الغائب: إنه الإله أبوللون (Apollon) الذي يتكلم مجيباً الرومان عبر هيكل معبد الإله أبوللو في دلفي[11] (Pythie de Delphes). ومعنى البيت واضح كل الوضوح. لكن سوسير لا يكتفي بهذا المعنى الظاهري. إنه يلحظ كلمة أخرى مبعثرة بدون ترتيب بين حروف البيت الشعري: إنه اسم الإله أبولو نفسه، بتسميته اللاتينية وبإملائه القديم بلام واحدة. بل إنه يلحظ ما هو ألطف من ذلك إذ يقول: إن الكلمة موجودة في كل شطر من شطري نص البيت الظاهر:

DONOM AMPLOM VICTOR/ AD MEA TEMPLA PORTATO
A PLO O/ A PL O O

وإنه لمن الضروري هنا أن ندخل في تفاصيل التحضير السوسيري الحرفي **للجناس التصحيفي**. وإن هذا التحضير لا ينبغي أن يزعج قراء فرويد الذين يجدون لديه الممارسة نفسها تقريباً في حديثه عن كلمة الحلم الشهيرة «Autodidasker» في كتابه **تفسير الأحلام** على سبيل المثال (فرويد، 1999–2003، 342–346)[12]. إذاً، أُعرِّج لبعض الوقت فقط إلى عملية تحضير **الجناس التصحيفي** لأقول: إنه ينبغي لكي أقرأ اسم أبوللو في حروف نص الظاهر أن أنقل في كل شطر من شطرَيْ البيت الـ O الأولى لأضعها بين الـ P و الـ L. وهذا على وجه التقريب ما يفعله فرويد لقراءة الاسم الأول لأخيه ALEX في كلمة الحلم أوتوديداسكر. بل إن فرويد أكثر بهلوانية من سوسير: إنه يضيف حرف الـ L الذي ينقص في الكلمة ليكتمل اسم أخيه[13]. لكن هذا عند فرويد ليس له أي تبعات: إنه طبيعة عمل الحلم الذي يخضع لأشياء منها «التكثيف» Verdichtung[14].

---

(11) يوجد هيكل معبد دلفي في فوسيديا (اليونان)، وهو معبد مشترك بين كل المدن الإغريقية القديمة، وهو مهدى إلى الإله أبوللو. والنسبة إلى أبوللو بيثيادي، وكان هناك ألعاب بيثيادية تقام كل أربع سنوات عند الإغريق القدامى تكريماً للإله أبوللو. وقد ترجمنا كلمة *oracle* بـ «هيكل»، وهي في أحد معانيها تعني المكان الذي يجيب فيه الإله المسؤول عن السؤال الموجه إليه بالعرف اليوناني. [المترجم].

(12) انظر: **تفسير الأحلام**، الترجمة العربية، 311-313. [المترجم].

(13) انظر: بحث ميشال أرْيفيه «فرويد وذاتية الدلالة» المنشور على موقع ميشال أرْيفيه. مصدر سابق. ويقول هناك: إن فرويد يضيف حرف L ويضيف المقطع *salle* وهما غير موجودين في كلمة *Autodidasker*. [المترجم].

(14) انظر: **تفسير الأحلام**، الترجمة العربية، ص292-317. [المترجم].

لكن الأمر يختلف عند سوسير لأن هذا التغيير في ترتيب الحروف يكون باباً للتشكيك في واحد من المبادئ الجوهرية للعلامة اللغوية: «صفتها الخطية». وفي الجملة، إن الشيء «الموغل في الخصوصية» الذي يكتشفه سوسير في خطاب **الجناس التصحيفي** يفلت من القواعد التي تنظم اللسان العادي. لكننا نجد أنفسنا أمام موقف فيه شيء من التعارض الداخلي: لقد لاحظنا أمثلة أخرى في تفكير سوسير.

هل تودون مثالاً آخر؟ هناك واحد لا أصمد أمام متعة إيراده. لأن له في نظري فائدةً مُضاعفةً: فعلى عكس الأمثلة التي أوردتها حتى الآن (SCIPIO في المُقدمة، APOLO في هذا الفصل [177] وفي سابقه)، لا تقدم لنا اسم علم وإنما اسماً لغير علم. وهذه هي فائدته الثانية، فهو اسم آخر غير اسم CREPITACILLUM، وهي تسمية لاتينية لناقوس خشبي صغير يستخدمه الأطفال جشخيشة. وأترك للقارئ إذا ما تابع القراءة حتى الفصل التاسع أن يكتشف المتعة - المحتملة - الكامنة في سبب اهتمامي بهذه الكلمة. فالاسم (*crepitacillum*= ناقوس خشبي صغير) بصيغته المفعولية في الجمع (*crepitacillis* =نواقيس) موجود في ظاهر بيت من الأبيات الأربعة التالية للوكراس[15] (Lucrèce):

Cui tantum in vita restet transire malorum
At variae crescendo pecudes armenta feraeque
Nec crepitacillis opus est, nec cuiquam adhibendast
Almae nutricis blanda atque infracta loquella
(De *rerum natura*, V, vers 227-230)[16].

---

(15) لوكراس: اسمه الكامل تيتوس لوكريتوس كاروس: Titus Lucretius Carus: فيلسوف وشاعر لاتيني (55 ق. م-96؟ ق.م). أهم أعماله قصيدته «في طبيعة الأشياء» De rerum natura: وهي قصيدة وعظية، سُداسية التفاعيل. تتألف من 7400 بيت وتقع في ستة كتب تبثّ فيها فلسفة أبيقور (341-270 ق.م). وتُعدّ قصيدته انتصاراً للعبقرية الشعرية على المادة غير الشعرية. [المترجم].

(16) ترجمة الأبيات كالتالي:

ما الذي يستطيع دفع الذين ينعمون برغد العيش
إلى تغيير نمط حياتهم
وحدهم الذين يئنون تحت وطأة العادات البالية
يدقون نواقيس التغيير.
[في طبيعة الأشياء، 5، الأبيات من 227-230]. [المترجم].

ناهيك عن أن الاسم موجود مُفرّقاً في حروف (أو فونيمات) الأبيات، في البيت الأخير على سبيل المثال:

> فالمقاطع التي يتكوّن منها البيت رقم 230 [الأخير] هي AC+ CI + LLA، ونرى والحالة هذه أن هذا الجزء من البيت يتضمّن بأي وجهة نظر الاسم المعني. (غاندون، 2002، 357).

في أي موقع تتحقق العلاقة باللاوعي في هذا الجري وراء الكلمات الكامنة تحت الكلمات؟ أظن أننا نستطيع تلمس تلك العلاقة عبْر طريقين:

أولاهما، نجدها في ما لاحظناه للتوّ: إن ما يعمد إليه سوسير من تطويع حرفي للمادة الشفوية المُقدّمة إليه يُذكّر بالتحديد بما قام به فرويد من تطويع في العصر نفسه تقريباً لكلمات الحلم. **فالجناس التصحيفي** موجود بوضوح وباسمه في كلمة الحلم «أوتوديداسكر Autodidaskr» (فرويد، 1999–2003، 342–346)، وأحيل في تحليله لما قام به لاكان في الـ Séminaire 3 (1981، 269–270). إن الممارسة الشفوية العاملة في نص **الجناس التصحيفي** تخضع في الجُملة لقواعد تُذكّر بالإجراء الأوليّ أكثر مما تُذكّر بالمبادئ التي تتحكم بالعلامة اللغوية. وقد انتبه سوسير لذلك بالتأكيد، وخصّص فقرة رئيسية من تفكيره لهذه المسألة، على الأقل بما يسمح له برؤيته تاريخ القضية: لقد رأينا للتوّ أنه لم يكن يعرف أعمال فرويد ـ أو كان يعرف القليل منها معرفةً غير مباشرة ـ و أنه لم يُشر إليها ولو تلميحاً. لكنه يتساءل بكثير من الانتباه عن الاستثناء من الخطية الذي يظهر متعثراً في نصوص **الجناس التصحيفي** (ستاروبنسكي، 1971، 46–47، وانظر أيضاً: في هذا الكتاب الفصلين الخامس والسادس).

وثاني النقاط هي بلا شك أكثر ظهوراً مع أن ظهورها سلبي.. وتتمثل في الواقعة التالية. يطرح سوسير باستمرار إبّان [178] الوقت كله الذي خصّصه للجري وراء **الجناس التصحيفي** الصفة الواعية والقصدية ـ مما يجعلها في أعلى درجات الوعي ـ للممارسة الجناسية التصحيفية. بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك ليقول: إن الكلمة أو الخطاب الخفي ـ في المثال الأول اسم الإله أبولو *Apolo*، وفي الثاني الاسم غير العلم الناقوس الخشبي الصغير، وفي بعض الأحيان تركيب، ونادراً سرد قصير ـ هما اللذان يشكّلان بالنسبة إلى الشاعر le *vates* نقطة الانطلاق في نظمه.

ذلك النظم الذي يتمثل في بناء القصيدة انطلاقاً من نص خفي قَبْلي، موزعاً في ظاهر ذلك النص العناصر الحرفية. وإن عملية التأليف هذه هي التي تصفها الفقرة التالية:

> إذاً، ينبغي على الشاعر [...] أن يضع نصب عينيه، في سبيل أبياته، أكبر عدد ممكن من القطع الصوتية الممكنة التي يستطع استخلاصها من المضمون [العنصر الذي لحقه **الجناس التصحيفي**]، فإذا كان المضمون أو واحدة من كلماته هي *Hercolei* على سبيل المثال فإنه يجد تحت تصرفه المقطعين ـ *ol* ـ، أو ـ *er* ـ من جانب، والمقطعين *re* أو *cl* من جانب آخر، إلخ.
>
> حينئذٍ ينبغي عليه أن يَنْظُمَ قطعةً ما ويُدْرِج فيها أكبر عدد ممكن من تلك المقاطع في أبياته، مثال *afleicta* للتذكير بـ *Herco-lei*، وهكذا دواليك. (ستاروبنسكي، 1971، 23–24).

يبدو واضحاً أنه ليس هناك في العملية إلاّ ما هو واعٍ كل الوعي، وقصدي وعمدي حتى في أدق التفاصيل في هذا الإجراء التأليفي الشعري.

ومع ذلك فإن هناك تردداً يتملك سوسير، ويولِّد بالتدريج قلقاً حقيقياً. فبطريقة تبدو في الظاهر فقط مفارقة يظهر الشك، ثم يغذوه تكاثر **الجناس التصحيفي** بالتحديد. وأستشهد بواحدة من الفقرات التي يتجلّى فيها الشك تجلياً مؤلماً:

> عندما يظهر أول **جناس تصحيفي** يبدو وكأنه بزوغ النور. ثم عندما ترى ظهور **جناس تصحيفي** ثان وثالث ورابع، حينئذٍ تبدأ في فقدان الثقة في الأول مهما كان شعورنا بأننا بعيدون عن كل الشكوك: تفقد الثقة لأننا نصبح في حالة تجعلنا نتساءل: ألا نستطيع في نهاية الأمر أن نجد كل الكلمات الممكنة في كل نص، أو أن نتساءل أيضاً: هل تكون الكلمات التي يقدّمها لنا النص دون أن نبحث عنها مشمولةً بضمانة تعريفية، وتفترض قدْراً كبيراً من التوافقات كتلك التي تفترضها أول الكلمات وروداً، أو تلك التي لم ننتبه لها. (ستاروبنسكي، 1971، 132).

وربما يكون هذا التأمل في «إمكانيات» الالتقاء «بالتوافقات» أكثر وضوحاً:

> كلما كان عدد الأمثلة كثيراً كان هناك ما يدعو إلى التفكير في ما إذا كان **الجناس التصحيفي** الطبيعي لإمكانيات الحدوث في حروف الألفباء الأربعة والعشرين هي التي ينبغي أن توجد تلك التوافقات. (ستاروبنسكي، 1971، 151).

[179] ونجد في مكان آخر هذا التساؤل الجوهري:

هل يمكن أن تكون مادية الوقائع عائدة إلى المصادفة. (ستاروبنسكي، 133).

هل يمكن أن يكون هناك عامل آخر غير القصد الواعي للشاعر Vates يتدخل في تأليف نص **الجناس التصحيفي**؟ هذا العامل الآخر يُطلق عليه سوسير اسم: المصادفة. ويتساءل بما لا نهاية له عن الطرق التي ينبغي تفعيلها للاختيار بين القصد والمصادفة.

وهو يرى لذلك حلَّين. الأول، ليس إلاَّ «حساب الإمكانيات»، المذكورة بجلاء في عدد من المواضع. بل يصل به الأمر إلى أن يزعم أنه «على بُعد خطوتين من حساب الإمكانيات بوصفها مصدراً نهائياً». لكنه ما يلبث أن يقول: إن «ذلك الحساب، في حالته هذه، يتحدى مقدرة علماء الرياضيات أنفسهم». (ستاروبنسكي، 1971، 132). ولهذا السبب لم يسلك سوسير ألبتّة طريق هذا الحساب[17].

ما الحلُّ الثاني؟ إنه ينبثق من نفسه ما إنْ نزيح طريقة الحساب: والمقصود سؤال الشاعر الروماني: لأن الشاعر الروماني كان ما يزال على قيد الحياة في بداية القرن العشرين، إنه أُستاذ الشعر اللاتيني في الجامعات الإيطالية. ولكي يثبت براعته لتلاميذه وزملائه نَظَمَ باللاتينية بعض القصائد. وقد قرأ سوسير قصائد واحد من أولئك الشعراء. إنه الشاعر المشهور جيوفاني باسكولي الذي لم يكن بالتأكيد مشهوراً بقصائده اللاتينية فقط: كان معاصراً لسوسير تقريباً (1855–1912)، واشتهر في إيطاليا بإنتاجه الشعري الغزير (بالإيطالية)، كما اشتهر بعمله السياسي (سُجن عام 1879). كان هناك عدد قليل من المدن الإيطالية التي لم يكن فيها «شارع جيوفاني باسكولي». كان خَلَفاً لجيوزوي كاردوتشي (Giosuè Carducci) في جامعة بولونيا في نهاية مسيرته العلمية وحياته، إنه بلا شك أحد أبرع المختصين باللاتينية في عصره. لقد وقع نظر سوسير على قصائده اللاتينية التي كانت بصريح القول تقليداً بارعاً في كل الجوانب لأجمل قصائد الشعر اللاتيني: وقد رأى في قصائده «تسيل جناساً تصحيفياً»، بما يساوي، وربما يزيد عما لدى فرجيل

(17) لم يكن سوسير يمتلك معونات معلوماتية. ولقد ذكرتُ، متبعاً في ذلك غاندون (2002)، بعض المظاهر التمهيدية للشروط التي ينبغي أن تتوافر في برنامج حسابي معلوماتي عن **الجناس التصحيفي** بالمعنى السوسيري للمصطلح. (أرّيفيه، 2007).

ولوكراس فبادر سوسير والحالة هذه إلى سؤاله. فكتب له في 19 آذار/مارس 1909 رسالة أولى ذات طبيعة عامة: طرح فيها مسألة القصد الواعي أو المصادفة طرحاً واضحاً كل الوضوح:

> هل الالتزام ببعض الجزئيات التقنية في نظم بعض المعاصرين مصادفة خالصة، أم إنها إرادية ومطبّقة تطبيقاً واعياً؟. (ستاروبنسكي، 1971، 149).

[180] أركّز على الصفة واعية *conscient*. فسوسير يفترض أن عملية الجناس التصحيفي ليست قصدية فقط ولكنها قصدية واعية. ولن يرضى حتى لو أنها استطاعت أن تقرّ بغرابة بالحديث عن قصدية لا واعية.

ويبدو أن باسكولي (Pascoli) ردّ على رسالة سوسير ردّاً مُرَحِّباً فتح الطريق لأسئلة أكثر تفصيلاً. والرسالة الثانية مؤرخة في 6 نيسان/أبريل 1909. ولكي يسوّغ مرّة أخرى أيضاً تساؤله عاد سوسير إلى الحديث عن صعوبة الحساب:

> ولما كان حساب الاحتمالات، في هذا الصدد، يتطلب موهبة مختص بارع في الرياضيات وجدت أن الطريق الأقصر والأكثر أمناً أن أتوجه بالسؤال إلى الشخص الذي يستطيع أن يرشدني بامتياز إلى القيمة التي يمكن إعطاؤها إلى لقاءات الأصوات هذه. (ستاروبنسكي، 1971، 151).

أما بخصوص الفحوى المحددة لسؤاله فإنها ترتكز على تحليل بعض أبيات باسكولي:

> هل من المصادفة أم من القصد أن نجد في فقرة مثل *Catullocalvos* ص16 اسم فاليرني *Falerni* محاطاً بكلمات تعيد إنتاج مقاطع ذلك الاسم؟ (ستاروبنسكي، 1971، 150).

لا يمكن أن نكون أكثر وضوحاً: هل هو القصد؟ أم هو شيء آخر، يسمّيه سوسير المصادفة؟ باسكولي حسبما نعرفه اليوم من سيرة سوسير لم يردّ عليه. لكننا نعلم علم اليقين أن سوسير كان، في الوقت الذي كان ينبغي أن يصله فيه الجواب، نيسان/أبريل أو أيار/مايو 1909، قد أوقف نهائياً سعيه وراء **الجناس التصحيفي**.

إذاً، أقف هنا عند صمت سوسير. وإنه ليس بالسهل تأويل ذلك الصمت ـ صمت سوسير النهائي عن هذا الموضوع ـ الذي يأتي عقب صمت آخر ـ هو صمت باسكولي. لأن هذا الأخير، وهذا بلا شك ما لم نلحظه بوضوح، كان

غامضاً في ردّه. وبالتأكيد كان في استطاعة باسكولي، أن يؤكد بصمته فرضية المصادفة عند سوسير. لكن ألم يرد بالصمت نفسه أن يحمي قاعدة خفية، فك رموزها بعبقرية رائعة باحث لا يحفظ السر؟ وإن ما يبدو مرجحاً، ولن أعود عما قلته في كتابي عام 1994–2005، أن سوسير رأى أن فرضية اللاقصدية غير مؤكدة، فوجد نفسه حينئذٍ مدفوعاً إلى الفرضية الأخرى: المصادفة. والمصادفة هي بالتأكيد مُتصوّر معتاد عند سوسير. فقد رأينا في الفصل السابق أن ذلك المُتصوّر موجود باطّراد في عدد من مواضع تفكيره. لكنه، وهذا من المفارقات، لم يكن يريد أن يعرف شيئاً عن هذه المصادفة، التي تجعل الكلمات تظهر تحت الكلمات: ومن هنا جاء صمته النهائي. والسؤال الذي أطرحه على نفسي في كتابي، والذي قد أكون تسرعت في الإجابة عنه، وأطرحه مرّةً أخرى [181] اليوم هو التالي: أليست المصادفة عند سوسير هي الاسم الذي يعطيه للاوعي؟ وعلى وجه الإجمال، قد يكون سوسير قد عرف في تناقض ظاهري اللاوعي عبر واقعة التزام الصمت بخصوصه.

أختم هذا الفصل بهذا السؤال، تاركاً لقارئي فضل الإجابة عنه، كما يجيب عن سؤال آخر قد يكون خطر بباله: ماذا بخصوص العلاقة بين ضربَي التفكير عند سوسير؟ هل في الإمكان أن نتلمس علاقةً ما بينهما، علاقةً هي بالطبع مختلفة عن كونهما موضوعين لغويين؟ هذا السؤال ما زلت في ما يخصني أطرحه حتى اليوم على نفسي.

[183] الفصل الثامن

سوسير، بارت، غريماس

في عام 1949، وصل إلى معهد اللغة الفرنسية في كلية الآداب في الاسكندرية أُستاذان شابان: رولان بارت، وله من العمر أربعة وثلاثون عاماً؛ وألجيرداس ـ جوليان غريماس، وله من العمر اثنان وثلاثون عاماً. وقد سلك كل منهما مساراً جامعياً حافلاً بالمصاعب والعقبات. لقد كان لهما سمات مشتركة، لكن واحدة منها كان لها أثر سلبي كل السلبية عليهما: لم يكونا يحملان شهادة التبريز[1] (agrégation). وقد كان ذلك حينئذٍ عقبةً لا يُمكن تجاوزها لمسيرة جامعية طبيعية في فرنسا. كان بارت قادماً من بوخارست، حيث شغل وظائف متواضعة، فقد كان موظفاً مساعداً في مكتبة المعهد الفرنسي، قبل أن يعطي بعض الدروس. وكان غريماس قادماً من باريس، حيث شغل لبعض الوقت وظائف متواضعة في المركز الوطني للأبحاث العلمي CNRS، كمتدرِّب على الأبحاث[2].

كان بارت قد نشر من قبلُ بعض المقالات القصيرة، وخصوصاً عن أندريه جيد (A. Gide) وألبير كامو (A. Camus): ونجد في تلك المقالات البذور الأولى

(1) لقد بدأ بارت الذي كان مُعتلَّ الصحة دراساته العليا في سنٍّ متقدمة منعته من تحضير شهادة التبريز. وغريماس الذي هاجر من مسقط رأسه ليتوانيا لم يكن يعرف خفايا الجامعة الفرنسية، وأعدَّ منذ وصوله إلى فرنسا رسالةً دون أن يهتمّ لشهادة التبريز. ونقرأ بمتعة التعليقات الساخرة التي قدمها حول وضعية غير الحاصلين على شهادة التبريز (وهي وضعية يتقاسمها ليس مع بارت وحده وإنما مع ماتوري Matoré و كيمادا Quemada، وغيرو Guiraud) في شوفاليه وأنكروفيه Encrevé (75, 1984)، ثم في شيفالييه (2006).

(2) هذه المعلومات المرجعية مقتبسة بخصوص بارت من بارت (1975) وبخصوص غريماس من شوفالييه ـ وأنكروفيه Encrevé (1984)، ومن شوفالييه (2006) وخصوصاً من كوكيه (1985).

لِما سيصبح بعد عدة سنوات، **الكتابة في درجة الصفر**[3]. أما غريماس فكان قد نشر بعض التعليقات الوجيزة، وحصل لتوّه على دكتوراة الدولة الفرنسية عن رسالتين ناقشهما في عام 1948 في السوربون بإشراف شارل برونو (Charles Bruneau) وروبير ـ ليون فاغنر (Robert-Léon Wagner).

وسيكون اللقاء الاتفاقي لهذين الأُستاذين الشابين في جامعة مصرية لقاء في غاية الأهميّة لتطور ذلك الفرع الدراسي الذي يحمل اسماً مزدوجاً ـ وقد يكونان [184] فرعين دراسيين؟ ـ السيميولوجيا والسيميائية. وأقتبس هنا شهادة غريماس نفسه، كما سمعتها في عام 1983، إبّان الحلقة الدراسية التي خُصّصت للحديث عن أعماله في سيريزي ـ لا ـ سال (Cerisy-la-Salle). وقد سألته عن «تاريخ أول مرّة قرأ فيها هلمسليف وطُرق تلك القراءة»، وأجابني بالتالي:

> ندخل هنا في تسلسل الأحداث التاريخية بمفهوم ريكور Ricœur، وأقرّ لك بأنني ضعيف كل الضعف في هذا المجال! ولا أستطيع تذكّر لحظة التقائي بهلمسليف. ولست أذكر إذا كان بارت هو الذي قال لي بأنه مهمّ، أو أنني أنا من قال لبارت ذلك. حينئذٍ كنا نعمل معاً ويُخبر كل منا الآخر بكل ما يبدو له أنه مهمّ لصاحبه، وبكل ما يسمح لنا بإتقان التحليل وبالتعمق فيه. وبالمهول كم كان ذلك صعباً!. (أرّيفيه وكوكيه، 1987، 303).

وأظن أنه من المفيد أن أقف بعض الوقت عند هذه القطعة الموجزة من السيرة الذاتية الثقافية لأُشير إلى سمات ثلاث:

1/ إن غريماس حسبما أعلم هو الوحيد من الصديقين الذي ذكر تلك المدة الطويلة من العمل المشترك ـ لأنها تتجاوز بكثير المدة القصيرة جداً (السنة الجامعية 1949-1950)، لإقامتهما المشتركة في الإسكندرية. فمنذ عام 1950 عاد بارت لاعتلال صحته إلى باريس، ليعمل في الإدارة العامة للعلاقات الثقافية. وبقي

(3) تُرجم إلى العربية ترجمتين، إحداهما بعنوان: **الكتابة في درجة الصفر**، ترجمها الدكتور نعيم الحمصي، دمشق، وزارة الثقافة، 1970؛ والثانية بعنوان: **الكتابة في درجة الصفر**، ترجمة محمد برادة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981. وانظر مراجعة لهذه الترجمة في **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، جامعة الكويت، ع19، مج 15، 1985 بقلم رمضان الصباغ، ص 236-243؛ وتعليق آخر ضمن مقالة في **صحيفة المستقبل** اللبنانية، 22/7/2007، العدد 2681 صفحة 19 بعنوان: «السياسة وآثارها الموحلة في ثلاثة كتب أدبية»، بقلم منذر مصري. [المترجم].

غريماس في الإسكندرية حتى عام 1958، تاريخ تعيينه في أنقرة. لكنهما كانا يلتقيان دورياً في أثناء الإجازات في فيلفرانش (Villefranche)، ونادراً ما كانا يلتقيان في باريس. ويتحدث غريماس حديثاً ممتعاً عن زيارتهما مارتينيه المشرف على أطروحة بارت هذا الأخير، الذي حينئذ كان يفكر ـ في غضون عام 1956 أو 1957 ـ في تقديم كتابه الذي ظهر في عام 1967 بعنوان: **نظام الموضة** والذي صاغه على شكل رسالة جامعية (غريماس، 1987 a، 303-304). ولن أتردد في اقتباس هذه القطعة التي تميّزت بدقة موقف غريماس الذي كان في الوقت نفسه مرحاً وساخراً ـ لقد كان يهاب مارتينيه ـ دون أن ننسى ما يبدو في ذلك الموقف من صرامة إبستيمولوجية ومن إلحاح على تكوُّن السيميائية:

> عندما ذهبنا لزيارة مارتينيه، الذي كان بارت ينوي تسجيل أُطروحته معه، سأله بارت: «في رأيكم ما أكثر الأمكنة دلالةً على الموضة النسائية؟» وبالبداهة كان الساقان هما المكان المفضل عند مارتينيه: وقصة الساقين تلك تشكّل برنامجاً متكاملاً: كيف يمكن لموقف سيميائي أن ينجو من تعليق بارت الذي قال: «لكن ماذا أستطيع أن أفعل مع الساق؛ إذ ليس له إلاّ ثلاث حالات معنوية: بجورب أو بغير جورب، بما هو مخيط أو بدونه، بعَقِب أو بغير عَقِب، هذا كل شيء؟»[4] [...]». إن انطلاقة السيميولوجيا تولدت من مثل هذه الأحداث.

[185] كان غريماس قد خصّص لبارت قبل عام 1983 كلمة تأبينية هي في الوقت نفسه واضحة وغامضة ومؤثّرة (غريماس، 1980). أما بارت، حسبما أعلم، فقد التزم على الدوام صمتاً يكاد يكون مُطبقاً بخصوص غريماس[5]. وعلى أي حال فإن اسم غريماس لا يظهر في قائمة أولئك الذين يشكّلون لوحة «أطوار» حياة بارت في كتابه **رولان بارت بقلم رولان بارت** (1975، 129). ويبدو واضحاً أن بارت فضّل الأسماء الأكثر «شهرةً»، واختار من الأحياء أكثرهم حضوراً إعلامياً: غريماس وهلمسليف غائبان، وسوسير ولاكان حاضران...

---

(4) نلاحظ إلى أي حدّ وصل تطور الموضة النسائية ـ مع استبدال الجورب has بالجورب المشدّ collant، واختفاء ما هو مخيط تقريباً ـ مما جعل مشروع تحليل بارت باطلاً في مرجعيّته.

(5) يستشهد به عرَضاً في **مبادئ السيميولوجيا** على سبيل المثال في إحدى الحواشي (1964، 108، رقم 4) التي تحيل إلى الكُرّاسة الأولى المطبوعة على الآلة الكاتبة من كتاب **سيميوطيقا بنيوية**، الذي كانت توزعه مدرسة المعلمين العليا في سان ـ كلو **l'ENS de Saint-Cloud**.

2/ إن «الصعوبة الفائقة» التي يتحدث عنها غريماس ستُدهش بلا شك باحثي اليوم، وخصوصاً الشباب منهم. لأنهم يتمثلون تمثلاً سيئاً ظروف التفكير اللساني ـ لأن الناس في السنوات التي تلت الحرب مباشرةً كانوا وما زالوا لا يتحدثون عن السيميولوجيا إلاّ تلميحاً، ولا يذكرون ألبتّة السيميائية ـ ولم يكن سوسير بالتأكيد مجهولاً إلى الحد الذي يزعمه غريماس بعد ذلك بقليل (انظر ما سيأتي). أما هلمسليف فكان لا يكاد يُعرف عند اللسانيين الفرنسيين: ومقال مارتينيه (1942-1945) كان قد عرّف به للتوّ أعضاء جمعية اللسانيات في باريس. ترجم منذ عام 1943 كتاب هلمسليف **مقدمات تمهيدية** ترجمة إنكليزية لم تعرف انتشاراً، وبعد أن أخفق في الرمق الأخير المشروع الذي قدمه توغيبي (Togeby) وأشرف عليه مارتينيه لنشر كتاب هلمسليف (أرّيفيه، 1982 a و b؛ هلمسليف، 1985)، لم يُنشر كتاب **المقدمات** بالفرنسية ـ نشرةً مخيبة للآمال بادئ ذي بدء ـ إلاّ في عام 1968، ثم أُعيد نشره عام 1971. وكانت المجلات الفرنسية حينئذٍ تُعدّ على أصابع اليد الواحدة. والمؤتمرات نادرة، وكان ينبغي أن ننتظر عام 1960 لتأسيس جمعية الدراسات اللسانية الفرنسية SILF التي وفرت لقاءات شهرية مثمرة بين اللسانيين الشباب في ذلك العصر: وقد ألقى غريماس الورقة الأولى في تلك اللقاءات في تشرين الأول/أكتوبر 1960، وكانت موضوعها «التركيب الاسمي». وانتظر بارت حتى 14 تشرين الثاني/نوفمبر 1964 ليتحدث عن البلاغة (أرّيفيه، 1982 c). أضف إلى كل ما ذكرناه المصاعب الأخرى التي شكّلها للأستاذين الشابين المنفى المصري: ولعلكم تفهمون ضخامة الجهد الذي كان عليهما أن يبذلاه لتجاوز ذلك[6].

3/ لم يجب غريماس، انسجاماً مع نص السؤال الذي طرحته عليه في سيريزي عام 1983 ـ وأغفل الإشارة إلى سوسير[7] ـ إلاّ فيما يخص هلمسليف. وإن حضور هلمسليف هو بالتأكيد حضور حاسم في أعمال غريماس [186] وفي

(6) تحدّث غريماس في عدد من الأسطر المرحة والمؤثّرة عن ذكريات إقامته في الإسكندرية في الشهادة التي أدلى بها في شوفاليه وأنكروفيه (1984، 79).

(7) وأصبحتُ اليوم أتساءل عن هذا «النسيان». وهو يعود بلا شك إلى أنني كنت أَعُدُّ التأثيرات السوسيرية في غريماس مُعطًى بديهياً ولازمنياً. لقد أخطأتُ كما سترى ذلك لاحقاً.

أعمال بارت[8]. ولكن هلمسليف لن يكون هلمسليف دون من يشير إليه إشارةً لا لَبْس فيها بوصفه «المنظِّر الوحيد الذي يستحق أن يُستشهد به على أنه سابق للسويسري فردينان دو سوسير». (هلمسليف، 1971، 14). أما غريماس نفسه فإنه قدّم سوسير على هلمسليف في موضع من ورقته تقديماً يبعث على الدهشة يقول:

> إن اكتشاف سوسير، وهو اكتشاف حدث بالاشتراك مع بارت، كان في نهاية الأمر أكثر أهميةً من غيره ـ سوسير ثم جاكوبسون ثم ليفي ستروس ثم هلمسليف بعد ذلك. (غريماس، 1987 a، 304).

أجل، إنَّ التفوق المُعطى لسوسير في هذا الموضوع مدهش هو يشكِّل تناقضاً ظاهريّاً بالنسبة إلى الأحاديث الأخرى، بعد وقت قصير من المقابلة ذاتها

> ما يقول سوسير عن السيميولوجيا هو بالتأكيد مثير للاهتمام، لكنه حكائي. وهما جُملتان. (1987 a، 306).

هل هناك تناقض؟ الجواب بالنفي بلا شك. فغريماس حسبما أعرف، لم يهتم أَلْبتَّة ببحث **الحكاية الخرافية** (الذي لم يكن يُعرف عنه الشيء الكثير في عام 1983) ولا بالسيميولوجيا التي يُرسي أُسسها. والسيميولوجيا التي يتحدث عنها هي سيميولوجية **الدروس**: الصحيح أنهما جملتان تقريباً في المُقَدِّمة (وبالتحديد أربع جمل ينبغي أن يُضاف إليها بعض الجمل الأخرى في مواضع أخرى من الكتاب). وهذه السيميولوجيا لا تشمل إلاّ حقول بحث متواضعة كل التواضع: الرتب العسكرية على سبيل المثال، وبعض الموضوعات الأخرى التي سبق أن ألمحنا إليها في الفصل الثالث. وليس فيها إلاّ مشروع برنامج حول المنهج وحول علاقات العِلْم المستقبلي باللسانيات، والطرح الوحيد هو أن القوانين التي «ستكشف عنها السيميولوجيا سيكون من الممكن تطبيقها على اللسانيات». (**الدروس**، 33)[9]. وفي الجملة، نتفهم لماذا أطلق غريماس لنفسه العنان ليقول:

> [...] لا نستطيع بتلك العبارت القليلة أن ننشئ سيميولوجيا، ولا سيميائية أيضاً. (المصدر السابق).

---

(8) هل هو هلمسليف نفسه الذي نجده عند بارت وعند غريماس؟ إن السؤال بالطبع يطرح نفسه. لكن ليس هنا مكان الاستفاضة في معالجة هذا الموضوع.

(9) التونسية، 37؛ العراقية، 34؛ اللبنانية، 27؛ المصرية، 40؛ المغربية، 26. [المترجم].

هل يسمح لنا ذلك بالقول: إن غريماس يرى أنه ليس لما جاء به سوسير إلاّ فائدةً ثانويةً؟ الجواب لا بالتأكيد. لكنه يتلمس فائدته في مستوى اللسانيات، ويعود من أجل هذا إلى أوائل ما كتب سوسير، إنه بحثه عن النسق البدئي للصوائت في اللغات الهندية ـ الأوروبية:

> إن أهمّ ما في عمل سوسير هو بحثه، والطريقة التي لخّص فيها القرن التاسع عشر كله في المنهج اللساني المقارن: وأصبحت فكرته في معالجة نظام من الأنظمة بوصفه مجموعةً من العلاقات المتبادلة، تنتمي منذئذٍ إلى مجال السيميولوجيا. وهنا تكمن عظمة سوسير. (م. س).

[187] إن سوسير، حسبما يقول هذا النص، سيميائي عندما يكون لسانياً، ولا يستطيع أن يكون سيميائياً عندما يريد أن يكون سيميائياً. وبعيداً عن الأزمة المصطلحية بين سيميولوجيا وسيميائية ـ ولن أعرض لها هنا ـ فإن الجدلية بارعة. إن وظيفة العكس هي إرساء مفهوم النظام ـ مجموعة من العلاقات المتبادلة ـ في مركز النواة المشتركة بين اللسانيات والسيميائية: وفي هذه النقطة وحدها فإن سوسير هو المؤسس، لكن في **المذكرة** أكثر منه في **الدروس**. وينبغي ألاّ يغيب عن بالنا أن غريماس يطرح هذه الآراء في عام 1983. وهذا يعني أنه كان للسيميولوجيا ـ السيميائية حينئذٍ تاريخ طويل، وربما يقول بعضهم: الجوهري من تاريخها بلا شك. وينبغي الآن العودة إلى ذلك التاريخ ـ وأجرؤ على القول إنها مرحلة ما قبل التاريخ ـ: والدور الذي أداه سوسير ربما لا يكون متطابقاً كل التطابق مع الدور الذي ينسبه إليه غريماس بعد حين. لعله من المناسب والحالة هذه توضيح الطريقة التي تلقى بها بارت وغريماس، حتى قبل إرساء أسس هذا المجال، تعاليم سوسير، وكيف أخذاها في الحسبان في تفكيرهما مشتركين بدايةً، ثم مستقلين أحدهما عن الآخر بعد ذلك.

لقد لاحظنا في موضعين مما سبق أن غريماس كان يكره التسلسل التاريخي والحكايات الصغيرة، وهي في نظره أشكال منحطة من التاريخ. وأشاركه هذا الكره على وجه العموم. ولقد بدا لي مع ذلك أن الوسيلة المتعقلة الوحيدة لدراسة الموضوع الذي نطرحه هي أن نأخذ في الحسبان التسلسل التاريخي: إنه سيسمح لنا ما أمكن ذلك بمتابعة التعمق المثابر في عمل غريماس، والانعطافات الأنيقة في تفكير بارت. ولكنْ ليطمئنَّ الجميع. إنني لن أبحث عن آثار سوسير في أعمال بارت وغريماس كلها حتى نهاية مسيرتهما العلمية وحياتهما. سأقتصر على الآثار

الأولى: وهي آثار في بعض الأحيان غير معروفة، وخصوصاً عند غريماس، إن أعمالهما تسجل تسجيلاً هو بالتناوب احتفائي وغامض ظهور السوسيرية على مسرح الأحداث. وبعد ذلك، ندخل في حقل يسهل على القارئ الدخول إليه، وهو للمؤلف أكثر وضوحاً في الآن نفسه. ولهذا قرّرتُ أن أقف في بحثي عند المرحلة التي تنتهي بين عامي 1954-1957. وهي فيما يخص بارت مرحلة تكوُّن الأسطوريات، وفيما يخص غريماس مرحلة تأمل سوسيري ـ هلمسليفي طويلة قادته منذ عام 1956 إلى نشر بحث أساسي: «راهنية السوسيرية». لكنني بالطبع لن أمتنع من التلميح سبقياً إلى عدد من الأعمال التالية للمؤلفين.

[188] اللوحة الغريماسية الأولى، رسالتا دكتوراه الدولة في عام 1948:

لقد سبق غريماس بارت إلى الاهتمام بالموضة. لكن ليس بموضة الحاضر: الموضة التي اهتمّ بها هي موضة عام 1830. فقد حضّر بإشراف شارل برونو وروبير ـ ليون فاغنر[10] بالتتابع رسالتين وناقشهما، لأن ذلك كان إجبارياً في ذلك العصر للحصول على لقب دكتور في الآداب، أو دكتوراه دولة. وقد عنون الرسالة الرئيسية: «الموضة في عام 1830». محاولة وصف مصطلحات الثياب حسب مجلات الموضات في ذلك العصر. والرسالة التكميلية عنوانها: «بعض انعكاسات الحياة الاجتماعية في عام 1830». وهما رسالتان ظلّتا زمناً طويلاً مخطوطتين، ونشرتا بعنوان: **الموضة في عام 1830**. (غريماس، 2000). ويحتوي الكتاب فصلاً عن الرسالتين البحوث عن الراهنية السوسيرية (1956) وعن النكرات (1963).

أين نجد التأثير السوسيري في هاتين الرسالتين؟ نتوقع أن يكون ضعيفاً: فباعتراف غريماس نفسه أنه لم يكن في ذلك العصر الذي سبق ذهابه إلى الإسكندرية يقرأ سوسير، أو أنه بدأ لتوّه بقراءته[11]. وعلى الرغم من ذلك فإن في

(10) يبدو في حقيقة الأمر أن من «أشرف» على الرسالتين ـ بافتراض أن مثل هذا العمل يحتاج إلى من يُشرف عليه ـ هو جورج ماتوريه Georges Matoré، الذي تعاون معه غريماس حتى عام 1948 على الأقل لإنشاء معجمية اجتماعية.

(11) نلاحظ ظل تناقض بين شهادة عام 87 (في الواقع 83) التي ذكرناها أعلاه وبين شهادة عام 84 وهما مع ذلك متعاصرتان: «في تلك المدة [إعداد الرسالة من 45-48] بدأنا وحدنا، أنا وماتوريه، قراءة سوسير، ثم جوست ترييه Jost Trier (شوفالييه وأنكروفيه، 1984، 75). غريماس مضطرب كل الاضطراب مع التسلسل التاريخي؟

عمله، بما أمكن من الوضوح في الصياغة وبما أمكن من الاستمرارية في الصرامة في الآلية، سمةً سوسيرية: التمييز بين وجهات النظر «التاريخية» و«السكونية»:

> متجنبين قدر الإمكان تجنب وجهة النظر التاريخية، وغير راغبين سوى في وصف سكوني لحالة من لغة ما، فنحن لم نولِ إلاَّ أهميةً ثانويةً لاستعمال المعاجم. (2000، 7).

وينتج من هذا الموقف على الفور ممارسة سار عليها غريماس سيراً متجانساً قطعاً: لا تحتوي مُدوَّنة غريماس، ما خلا بعض الاستثناءات النادرة، إلاَّ على فقرات من مجلة «فصل الموضة» 1829–1830. وهو التزام سيأخذه عليه بعد حين ماتوريه نفسه (1953، 118).

لقد تراءى لنا أنه إذا كان غريماس في هذه النقطة يتمسك حينئذٍ بمواقف سوسيرية حازمة فإنه لا يستخدم المصطلحية الخاصة [189] **بالدروس** ـ الذي اعتمد عليه ماتوريه في النقد الذي سقناه قبل قليل:

> إن تعيين حدود موضوعه طرح مشكلة لغريماس الذي تبنى التمييز الذي اعتمده سوسير بين التزامنية والتعاقبية، وبنى متصور عمله على أنه عمل سكوني. (1953، 118).

وإنه لمن المؤكد على أي حال أن اسم سوسير، إذا كنت قد قرأت جيداً، لم يُذكر ألبتّة في أي من رسالتَي غريماس. وإننا نستطيع أن نبذل جهداً كبيراً لنجد لهما نسباً سوسيرياً. وينبغي لهذا أن نسجل أنهما تنتميان بوضوح إلى مشروع تجديد منهجية المعجمية التي كان غريماس يعمل عليه حينئذٍ مع ماتوريه: إن المُعجم هو مُكوِّنٌ من مُكوِّنات «اللغة، بوصفها منتجاً اجتماعياً». (ص 13). وهذا بلا شك صدىً للمواقف السوسيرية حول «الطبيعة الاجتماعية للغة». (**الدروس**، 112)(12). لكنه صدىً غير مباشر إلى حدٍّ بعيد. ولم يُذكر مييه، شأنه شأن سوسير في مصادر غريماس، وبعض المراجع الرئيسية للعمل (وخصوصاً دارميستيتر (Darmesteter)، الذي يبدو أن كتابه **حياة الكلمات** [1887] أثّر في الباحث الشاب تأثيراً كبيراً)، وهما معاً، مييه ودارميستيتر، من سابقي سوسير.

(12) التونسية، 123-124؛ العراقية، 95؛ اللبنانية، 99؛ المصرية، 140؛ المغربية، 99. [المترجم].

وفي مواضع أخرى، تبتعد بعض المواقف النظرية ابتعاداً كبيراً عن مُسلّمات السوسيرية. من ذلك أن غريماس يرفع صوته مطالباً أن نأخذ في الحسبان ما لم يكتسب بعدُ اسم المرجع:

> عندما نعمد إلى الوصف الموضوعي لمجال محدد، يكاد يكون مستوعباً كل الاستيعاب في مفهوم البزة *Costume*، ويشمله مفهوم «الأناقة اللباسية» نكون قد أردنا الوقوف أقرب ما يمكن من الأشياء: واتخذنا موضة الوقائع وليس موضة الكلمات نقطة انطلاق. (2000، 7).

إننا هنا في الجانب المعارض إطلاقاً لنظرية المرجع السوسيرية بامتياز، وهي النظرية التي اعتمدها في الحقيقة غريماس ـ بعد ثلاثين سنة ـ في المُعجم (غريماس وكورتيس، 1979، مادة مرجع *référent*). ولن يكون بالطبع من المستحيل أن نتساءل عن الوضع الحقيقي في هذه الرسالة أو تلك من هذه «الأشياء» التي يتحدث عنها غريماس: أليست تلك الأشياء من قبلُ مبنيّةً بوساطة الأنظمة المُعجمية التي تأخذها على عاتقها؟ لكن غريماس نفسه يُبطل، بعد حين، مفعول هذا التساؤل. ففي عام 1983 يقول: إنه لم يستفد من «مروره عبر المُعجمية إلاّ الوظيفة التي تدفع إلى الإخفاق». (1987 a، 302).

[190] اللوحة البارتية الأولى: الكتابة في درجة الصفر:

نشر بارت عام 1953 كتابه الأول، وهو كتاب يظل بلا شك واحداً من أصعب كتبه. ففي عام 1980 يُذكّر غريماس أنه، وهو يراجع «الملف الصحافي» للكتاب ـ الذي فتحه بارت بطلب من غريماس ـ «لاحظ أنه ليس هناك بين أفراد الجوقة المتنافرة التي كالت له المديح ـ ربما باستثناء بونتاليس (Pontalis)، إلى حدٍّ مُعيّن ـ مَنْ فهم المشروع الكامن في نصه». (1980، 4). وقد وصف غريماس هذا المشروع بكلمتين: «إن ثنائية الكتابة والأسلوب، التي تشاكل ثنائية ثقافة/ طبيعة، تشكّل من قبلُ واحداً من المبادئ المحورية في تفكير بارت».

وصحيح أن الإحاطة بمفهوم الكتابة صعبة، وأصعب من ذلك أيضاً التمكن منه. إنها (الكتابة) مرحلة بين الضرورتين اللتين هما عند الكاتب اللغة والأسلوب، وهما منتجان «طبيعيان» للزمن وللفرد، طبيعية شأنهما شأنهما (لكن بطريقة مختلفة)، وتشكّل واقعية صُورية أخرى، هي وظيفة وليست هدفاً:

إنها (الكتابة) العلاقة بين الإبداع والمجتمع، إنها اللغة الأدبية التي تتحول بفعل وجهتها الاجتماعية، إنها الشكل الملموس في غايته الإنسانية وفي ارتباطه بالقوى العظيمة للتاريخ بفضل تلك الغاية. (1953–1972، 14).

أين نجد تأثير سوسير في هذا التأسيس النظري الذي نلمح فيه بسهولة أكبر الأثر الحاسم للماركسية[13]. إن التأثير السوسيري ـ الذي لم يكن في ذلك الوقت قديماً، والذي يُستخدم في نظري، بالتناوب مع المنظومية[14] الهلمسليفية ـ هو في الوقت نفسه منتشر وعميق. ويتمثّل في ازدواجية مفهوم الكتابة نفسها. بوصفها وظيفة بالتأكيد، لكن أيضاً في إنتاجيتها، إذ تتحول إلى علامة بمجرد إنتاجها، وعلامة بالمعنى الدقيق للمصطلح السوسيري:

إن الهوية الصورية للكتابية écrivain [اسم آخر للكتابة écriture، م. أ.] لا تتحقق بالفعل إلاّ خارج معايير القواعد وثوابت الأسلوب المستقرة، هناك حيث سيصبح المضمون المكتوب، والمجموع، والمحصور منذ البدء في طبيعة لغوية بريئة كل البراءة، سيصبح، علامة كاملة (السابق).

[191] ولكي نضرب مثالاً نقول: إن «**الكتابة البيضاء**» ـ اسم آخر لـ «**الكتابة في درجة الصفر**»[15] ـ التي تمثّلها على وجه الخصوص رواية **الغريب** لألبير كامو تشكّل

(13) في ذلك الوقت كان بارت يعلن صراحةً انتماءه إلى الماركسية. ولم يكد يمرّ عامان، في تموز ـ آب/ يوليو ـ أغسطس 1955، حتى نشر في سلسلة «أسطوريات الشهر الصغيرة» في العدد 29 من **مجلة رسائل جديدة** تعليقاً وجيزاً ـ ثم ينشر في كتاب **أسطوريات** ـ كان عنوانه الاستفهامي الساخر «هل أنا ماركسي؟» (ص 191)، وأعطى فيها الجواب الذي كان يسعى إليه صحافي فاشل من NRF. أما بخصوص سوسير فإن بارت لم يكن حسبما جاء في اعتراف له عام 1974 نُشر في كتاب: **المغامرة السيميولوجية**، 1985، ص 10-11 قد قرأه بعد: وانتظر عام 1956 ليقرأه. ونلاحظ في هذه المرّة اختلافاً بين ذكريات بارت وذكريات غريماس. (ذكريات سيريسي، في 1983 [1987 a]. وأميل إلى متابعة غريماس لأنه يبدو لي من غير المرجح أن يُكتب كتاب **الكتابة في درجة الصفر** دون أي احتكاك حتى لو كان غير مباشر مع سوسير.

(14) Glossématique المنظومية: دراسة الوحدات اللغوية تبعاً لوظيفتها في بنية اللغة. [المترجم].

(15) إن بارت متحفظ أو بالأحرى يلتزم السرية كما هي عادته في ذكر مصادره اللسانية (وفي ذكر عدد لا بأس به من المصادر الأخرى...) ويكتفي بالتلميح إلى «بعض اللسانيين» (1953-1972، 55). فهو يشير والحالة هذه إلى فيغو بروندال الذي نفترض أن غريماس =

علامة كلية، مزودة بسلسلة منثورة من الدوال (يأتي في المستوى الأول منها الاستخدام الحصري للماضي المُركّب على حساب الماضي البسيط الذي يُستبعد بانتظام) ودال إجمالي يصفه بارت بأنه «طريقة وجود صمت ما». (1953-1972، 56).

لكننا نرى في الوقت نفسه أن «العلامة» التي نتحدث عنها هنا هي من قبلُ علامة من المستوى الثاني تتوافر لها على شكل دال علامات يُقدِّمها «أُفق اللغة». وإن سوسير ـ على أي حال سوسير كما يبدو في **الدروس** التي كانت وحدها هي المعروفة حينئذٍ ـ لا يُقدِّم على الفور أي أداة عمل لهذه العلامات المتفرعة. وهذا ما يفسر توجّه بارت تدريجياً نحو هلمسليف الذي قدّم له في البداية **اللغات الواصفة**، ثم **ألسنة الإيحاء**. وسأعود إلى هذا التسلسل التاريخي.

ونلاحظ أيضاً أن مُتصوَّر الكتابة الذي يُعرِّف باديء ذي بدء بأنه مقابل للأسلوب ينتهي به الأمر إلى أن يلتقي به بمكر. ويشهد على ذلك هذا المقطع من تحليل رواية **الغريب**:

> هذا الكلام الشفاف، الذي دشّنته رواية **الغريب** لكامو، يكتمل معه أسلوب للغياب، وهو يكاد يكون غياباً مثالياً للأسلوب. (1953-1972، 56).

نلاحظ مما سبق إلى أي حدّ تكون المصطلحية ـ والجهاز المفاهيمي الذي يغطيها ـ في حلة زئبقية: إذ يبدو من المرجح أن «الكلام الشفاف» يشير بغرابة إلى «الكتابة البيضاء» التي جرى ذكرها فيما سبق: أهو على الدوام حدس قَبْليّ خفي بما هو مكتوب في كل كلام؟ أم بما هو شفاهي في كل ما هو مكتوب؟ خصوصاً أن الكتابة «يكتمل معها» الأسلوب حتى إنها، كما فهمنا، تكتمل فيه، وتجد عبر هذا الاكتمال ذلك «الصوت التزييني لشهوة غير معروفة وسرية». (ص 12). هنا يصيخ غريماس بسمعه إصاخةً شرعيّةً. . . (انظر ما سيأتي).

= الذي كان يعرف حق المعرفة كتابه **المحاولات في اللسانيات العامة** هو الذي أعلم بارت به: وقد نشر غريماس مقالته الأولى في المجال القواعدي على طريق ما سيكون كتاباً باسم **السيميائية البنيوية** عام 1963 على نمط مقالة بروندال الشهيرة «المطلق والكلّي» «*omnis et totus*»: إنه مقال «كيف نعرف النكرات؟ (محاولة وصف سيميائي)».

[192] اللوحة الغريماسية الثانية: «الراهنية السوسيرية» (1956):

إن المشهد من الآن فصاعداً مختلف كل الاختلاف. فسوسير لم يعد بالنسبة إلى غريماس مرجعاً ضبابياً فيه قليل أو كثير من الشك: إنه على العكس يشكو من أن «النظرية السوسيرية لم تلقَ إلا صدىً ضعيفاً في فرنسا». (1956، 193). ويبالغ غريماس هنا بعض المبالغة، وهو على أي حال يتلاعب بالتسلسل التاريخي. ففي عام 1935 كان في استطاعة لساني شاب ـ في ريعان شبابه في الواقع: لم يكن له من العمر إلا ثمانية عشر عاماً. . . ـ «أن ينظر بازدراء إلى أعمال مدرستي جنيف وبراغ». (1956، 191). لقد كان ذلك في واقع الأمر انعكاساً لموقف مطّرد عند علماء الفيلولوجيا الفرنسيين في ذلك العصر، ومنهم على سبيل المثال أنطونان دورافور (Antonin Duraffour) الطيّب، وهو عالم لهجات متمكن، كان غريماس قد بدأ معه في غرونوبل (Grenoble)، قبل الحرب خطواته الأولى. لكن ذلك لم يعد بالتأكيد هو الحال في باريس إبّان الخمسينيات، بل قبل ذلك. فمنذ عام 1938 كان جورج غوغنهايم (Georges Gougenheim) يوكل لكتاب «**تدريس سوسير في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا**» (1938، 8) دوراً تأسيسياً للتمييز بين التزامنية والتعاقبية[16]. أما روبير ـ ليون فاغنر، فإنه كان في عام 1953 في كتابه **درس في القواعد والفيلولوجيا** الذي نشره مركز التوثيق الفرنسي CDU ـ وبالتأكيد قبل ذلك بكثير في تدريسه الشفاهي في السوربون ـ، كان، يولي أهمية مركزية **للدروس**[17]. ويدقق القول في هذا الدرس في أفكار موجودة من قبلُ في بحث منشور منذ عام 1948 في **مجلة الأزمنة الحديثة** *Les Temps modernes*. ولقد رأينا قبل قليل أن جورج ماتوريه يأخذ هو أيضاً **الدروس** في الحسبان. إذاً، ليست أصالة غريماس في اكتشاف النص ـ كثيرون قبله فعلوا ذلك ـ وإنما في كشف التأثير المحتمل في المجالات الأخرى.

وذلك لأن وضعية المُدرِّس الشاب ـ الذي ما زال في الإسكندرية ـ تحسنت

(16) هنا يكمن سرٌ صغير: لماذا يحيل غوغنهايم في تقديمه إلى تدريس سوسير في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا، وليس إلى **الدروس**، مع أن الكتاب مذكور في مصادر الكتاب؟ أترك المسألة بحذرٍ مُعلّقة.

(17) وإنه لمن المُسلّي أن نرى غريماس يستشهد بنشرة فاغنر هذه، بتحفّظ شديد على أي حال في واحدة من ملاحظاته في نهاية بحثه. (ص 202).

تحسناً ملحوظاً. لقد كان يشعر ويريد على الدوام أن يكون لسانياً ـ وقد أصبح لسانياً حتى نهاية حياته، وقد كان يشعر بالمرارة من الاستبعاد الذي طاله من بعض الأوساط اللسانية[18]. لكنه كان في الوقت نفسه يتصور تصوراً دقيقاً، أكثر فأكثر، الوظيفة التكيفية للسانيات بين العلوم [193] الإنسانية. وقد نشر بمناسبة أربعين سنة على نشر كتاب **الدروس في مجلة اللغة الفرنسية المعاصرة** *Le Français moderne* بحثاً عنوانه «الراهنية السوسيرية»، وهو بحث يشهد بتمثُّل عميق لأفكار سوسير. يعرض البحث، الذي صيغ بالدقة السلسة التي تتصف بها أعمال غريماس، بالتتابع الثنائيات السوسيرية الثلاث: لغة/كلام، دال/مدلول، وتزامنية/تعاقبية. وبدلاً من أن يظلّ غريماس داخل حقل اللسانيات كان يرغب «على الأرجح في البرهنة على فاعلية تفكير فرديناند دو سوسير الذي يتجاوز إطار اللسانيات، سوسير الذي تتناوله وتستخدمه حالياً الإبستيمولوجيا العامة لعلوم الإنسان». (1956، 192). إن ما يرمي إليه غريماس من وجوده مع سوسير هو أساساً اتساع نظرية للمعرفة ومنهجية ـ هما نفسهما يتأسسان على ما يسميه «رؤية العالم» ـ لتشملا بقية العلوم الإنسانية.

وهناك مثالان لهذا «الامتداد إلى الخارج»، كانا ما يزالان قيد الإعداد أمام ناظريه: إنهما ظواهرية ميرلو ـ بونتي والأنثروبولوجية البنيوية لكلود ليفي ستروس.

إننا نعلم، وبحث ماريا ـ بيا بوزاتو (Maria-Pia Pozzato) (1997) يعود إلى هذا الموضوع بانسجام وعمق، أنه يوجد، على الرغم من بعض ما توحي إليه المظاهر، توافق عميق بين تفكير ميرلو ـ بونتي وتفكير غريماس. ويظهر ذلك كل الظهور في كتاب غريماس الأخير، **في العيوب** *De l'imperfection* (b 1987). ومنذ عام 1956 كان غريماس يحس بوضوح شديد بأهمية مشروع ميرلو ـ بونتي: والمقصود بذلك في واقع الأمر «تكوين بسيكولوجية للسان يتخلّص فيها من ثنائية الفكر واللسان لصالح متصوَّر للسان يكون فيه المعنى ماثلاً في الشكل اللغوي»[19] (ص 193).

(18) أقتبس هنا هذه الشكوى المؤثِّرة التي عبّر عنها غريماس بقوله: «حتى لو كان اللسانيون الآن ينبذونني، ولا يعدونني واحداً منهم، فإنني أزعم أنني لساني في تكويني وفي طريقتي في توجيه فكري». (1987 a، 305).

(19) يحيل هنا غريماس إلى ظواهرية الإدراك (1945) وخصوصاً إلى الفصل المعنون «الجسد بوصفه تعبيراً والكلام». (ص 203-232). واسم سوسير ليس مذكوراً في هذا النص (وهو كذلك في الكتاب كله)، في حين أنه موجود بكثرة نسبية وبالتحديد في «مديح الفلسفة» =

ينبغي الاعتراف أن اللساني ذا الاتجاه السوسيري عندما يقلّب أعمال ميرلو ـ بونتي تعتريه الدهشة بعض الأحيان ـ هل أقول غالباً؟ ـ من بعض التأويلات ـ هل ينبغي تسميتها تأويلات جزئية؟ هي بالتأكيد كذلك، للأسباب التي سنوضحها للتوّ.

وتعترينا الدهشة بصفة مشروعة أيضاً من رؤية ميرلو ـ بونتي يقول: إن «سوسير يميّز بين لسانيات تزامنية للكلام وأخرى تعاقبية للغة» (1953–1960، 76). لكن ما يُستغرب هو تجاوز عدم الدقة ـ هل أقول «الأخطاء»؟ ـ في الجزئيات، والتأويل الكلي **للدروس**، وهو تأويل ميرلو ـ بونتي «يبدو في عدد جيد من الاعتبارات بوصفه امتداداً [194] طبيعياً للفكر السوسيري»: وهنا يتولّى غريماس دقة الكلام (ص 193) بطريقة هي في نظري وثيقة الصلة بالموضوع. وينبغي في السياق نفسه أكثر من وقفة تفكيرية سريعة لكي نقبل اقتراح ميرلو ـ بونتي الذي يقول: إنه «يمكن أن يكون سوسير قد شرع حقاً في إرساء أُسس فلسفة جديدة للتاريخ» (1953–1960، 56؛ غريماس يقتبس هذه الصيغة منذ السطور الأولى لبحثه، ص191). وإننا هنا على أي حال في نقيض المنظومة الفكرية التقليدية للسانيين كما رأيناها في الفصل الخامس. ولا يمكننا هنا إلاّ أن نعجب بالتنبؤ الذي جعل الفيلسوف يلمح الفكر الكامن في **الدروس**، وهو فكر أعرض عنه الناشران اللذان كانا في هذه المرّة أقل انتباهاً كما هم عليه في العادة، أو أنهما ربما كانا من قبلُ يسيران حسب منظومة فكرية في مرحلة التكوين. إذ لم يكن لميرلو ـ بونتي 1953، ولا لغريماس 1956 أن يطّلعا على **المصادر المخطوطة للدروس** ـ لم يُظهرها غوديل إلاّ في عام 1957: لقد عرف الفيلسوف واللساني القراءة بين السطور لكي نستخدم من جديد العبارة (اللعبية؟) التي استخدمها غريماس.

أما بخصوص ليفي ستروس، فإن الأمور حسب غريماس أكثر شفافيةً. إذ تكمن خصوصية عمله في أنه نقل خارج الحقل اللساني الخالص المقابلة السوسيرية بين اللغة والكلام، أو بالمصطلح الهلمسليفي بين النظام والإجراءات ـ ونرى هنا أن إسباغ الصفة الهلمسليفية على سوسير هي ظاهرة مبكرة عند غريماس.

= (1953-1960) وخصوصاً في «حول ظواهرية اللسان» (1953-1960). وهذان النصان جمعا بعنوان عام هو **مديح الفلسفة**، 1953-1960.

إن استخدام المصادرة السوسيرية تمكّنه [المقصود هو عالم الاجتماع ليفي ستروس كما يسمّيه غريماس] تمكيناً صالحاً من المقابلة بين «إجراءات» تواصل النساء في بنى القرابة، وتبادل الممتلكات والخدمات وبين البنية الاقتصادية. (1956، 195).

نرى باهتمام أن غريماس لا تعتريه الدهشة لا من العلاقات المتينة التي أقامها ليفي ستروس بين فرويد وسوسير ـ في عام 1955: وقد كان لاكان في هذا التاريخ معروفاً لكنه كان قد بدأ لتوّه بالحديث عن سوسير ـ ولا من الاستخدام العابر على كل حال، والمنحرف بالنسبة إلى حرفية النص السوسيري لمُتصوّر الدال. ويستشهد ببراعة بهذه القطعة الجميلة من كتاب ستراوس **المدارات الحزينة**:

هناك بادئ ذي بدء وراء ما هو عقلي طبقة أكثر أهميةً وأكثر خصوبةً، إنها طبقة الدال الذي هو أعلى حالات الكينونة العقلية، لكنها طبقة لم ينطق أساتذتنا حتى باسمها (لأنهم كانوا بلا شك مشغولين بتأمل المحاولة حول المُعطيات الفورية للوعي أكثر مما كانوا مشغولين بكتاب دروس في اللسانيات العامة لفردينان دو سوسير) (1956، 191 و 194).

ذلك أن غريماس يتبنّى هذا الاتصاف[20] التام للدال ـ المفصول، كما نلاحظ عَرَضياً، عن «مدلوله» الذي هو في **الدروس** ملزم بمرافقته قطعاً. وسنرى [195] بعد حين وظيفة هذا التوسع في مفهوم الدال، بالمعنى الطوبولوجي[21] للمُتصوّر.

لقد أغرى غريماس أن يضيف إلى مثالَي الظواهرية والأنثروبولوجية مثالاً ثالثاً: إنه التاريخ. والصحيح أنه يفعل ذلك كما يبدو دون اقتناع كامل، والمؤرخان اللذان يستشهد بهما ـ مارك بلوك وشارل مورازيه (Marc Bloch et Charles Morazé) ـ لا يوفران له إلاّ تصريحات برامجية «متفائلة». صحيح أن هذه هي الكلمة التي استخدمها غريماس[22] (1956، 197، رقم 20)، لكنها على أي حال كلمة توغل في اللادقّة.

---

(20) Substantivation = الاتصاف: تحول الصفة إلى موصوف. [المترجم].

(21) الطوبولوجيا، أو الهندسة اللاكمية؛ وهي فرع من الرياضيات يدرس موقع الشيء الهندسي بالنسبة إلى الأشياء الأخرى، لا بالنسبة إلى شكله أو حجمه. [المترجم].

(22) أخاطر بإيراد ملاحظة هنا: يبدو لي واضحاً أن غريماس كان يحب كلمة متفائل. وكان مدفوعاً إلى ذلك على ما أظن بتفاؤلية إيبستمولوجية عميقة تستطيع، عندما يكون خائب الظن أن يفتح المجال لمبالغات في التشاؤم المفرط.

وليس غريماس بحاجة إليها: إذ يكفيه مثالا ميرلو ـ بونتي وليفي ستروس لتصوُّر مشروع عظيم:

> إذاً، ليس هناك مبدئياً ما يتعارض مع توسع المناهج البنيوية لتشمل وصف الحقول الواسعة للرمزيات الثقافية والاجتماعية التي يغطيها الدال اللغوي، ويمكن إدراكها عبره. (1956، 196).

ويُعدِّد غريماس بين «حقول الرمزية» هذه، بعد ذلك بقليل، «الأنظمة المنهجية، الدينية أو ذلك الشكل من التخريف المعاصر الذي هو الأدب». (ص 197).

نرى من خلال ما سبق أن الاتساع المتصور يفترض قبلياً شرطين: الأول، هو تعريف الدال بوصفه «مستوى من اللسان منظوراً إليه في كُليّته ويغطي بتمفصلاته مجموعة المدلولات». وإن القارئ المتيقظ **للمُعجم المرتب لنظرية اللسان** (غريماس وكورتيس، 1979) سبق له أن اطّلع على مضمون مادة الدال: وكان هذا المطلب قد طُرح قبل عشرين سنة. والشرط الثاني، هو وضع أساس نموذج جدير بتوضيح تلك الألسن الخصوصية التي يكون الدال عندها نظاماً من العلامات مسبق التكوين. وإن النموذج الذي يقدمه كتاب **الدروس** لا يرضي على الفور. وهذا هو السبب الذي جعل غريماس منذ سنة 1956 يعمد إلى عملية استبدال: إذ استبدل بسوسير «الأصلي» ـ إذا كان لهذه الكلمة من معنى عند الحديث عن سوسير. . . ـ سوسيراً أعاد تأويله هلمسليف. وهنا أيضاً نجد أن الاستمرارية في فكر غريماس استمرارية نموذجية: ففي عام 1985، كتب استهلالاً قصيراً لكتاب كلود زيلبيربرغ (Claude Zilberberg) المثير كل الإثارة **عودة إلى سوسير؟** وفي ذلك الاستهلال أكّد، وأنا هنا أورد عبارته نفسها:

> أن إعادة قراءة سوسير ليست ممكنة إلاّ عبر هلمسليف، الوريث الوحيد الشرعي، هلمسليف الذي لا يوجد تماماً في المكان الذي وضعناه فيه. (1985، 3).

وبذلك يحلّ هلمسليف ـ أو بدقة أكثر سوسير بلبوس هلمسليفي ـ تدريجياً مكان سوسير **الدروس**.

ومع ذلك فإن غريماس لم يكن بعدُ قد تمكّن من الجهاز النظري لهلمسليف: لقد كان قد قرأ لتوّه بالإنكليزية كتاب **المقدمات**. لايظنن أحد أنه نقد

مُماحك أوجِّهه إلى غريماس عندما أقول: إنه لا يستطيع تجنب خلط يمكن أن تجد له في القول الحق عذراً في عصر الاكتشاف الذي هو فيه: **فهو يخلط بين اللغتين في** عدة مستويات أرسى هلمسليف أساسها في الفصل 22 من كتاب **المقدمات** ويعطي اسم لغات واصفة (métalangages) لِما هو بكل بداهة لغات الإيحاء:

> كما أن اللغة عندما نريد بناء أنظمة العلامات فيها تستخدم بنى صوتية هي، في الواقع أو في القانون ـ سابقة[23] عليه فإن اللغات الواصفة تستخدم العلامات اللغوية لتطوير أشكالها المستقلة. (1956، 198).

ويضرب غريماس مثالاً على أول «وصف للغة الواصفة الأدبية» (ص 198) كتاب **الكتابة في درجة الصفر**. ولا تعترينا الدهشة والحالة هذه من رؤية بارت يخلط الخلط نفسه في السنة التالية في كتابه **أسطوريات**: وسأعود إلى ذلك.

ولا يتوقف مشروع توسيع مناهج اللسانيات عند الأنظمة التي يتوافر لها دال شفاهي: بل إن غريماس يمضي إلى أبعد من ذلك، ويخطط لأن يجعلها مسؤولة عن «الأشكال البلاستيكية أو البنى الموسيقية» (ص 199). ما المراجع التي يعتمد عليها؟ فوسيللون ومالرو (Focillon et Malraux) بخصوص الأشكال البلاستيكية، وبوريس دو شلوايزر (Boris de Schloezer) بخصوص الموسيقا. ومن أجل هذه اللغات غير الكلامية يبرز غريماس السيميولوجيا السوسيرية:

> [...] إن اتساع السوسيرية لتشمل علم الموسيقا [ووصف الأشكال البلاستيكية] يُظهر بالتأكيد، وفي الوقت نفسه، فضلاً عن فهم أفضل للمسائل الخاصة بكل مجال، سيميولوجيا عامة حدس بها ف. دو سوسير (1956، 199-200).

وفي هذا الموضع أطرح على نفسي سؤالاً: هل يقْصر غريماس قصداً السيميولوجيا السوسيرية على اللغات غير الشفاهية؟ لأنه لم يذكر ألبتَّة سواءٌ كان المقصود الأساطير أو الخطابات الدينية أو الأدبية. وإن مثل ذلك القصر ليس بغريب عليه: ولن يكون إلاَّ نتيجة ما يأخذه عليه بوضوح ـ عبر اختيار هلمسليف ـ من نواقص في وصف الأنظمة ذات الدال الشفاهي.

---

(23) إن هناك بلا شك ما يسمح بالتساؤل عن هذه «الأسبقية» للبنى الصوتية بالنسبة إلى اللغة. وما المعنى المحدد الذي تحمله عبارة «في القانون» التي يرسم بوساطتها غريماس حدود طرحه الذي يشعر بأنه خلافي؟

[197] وبعد غارة نقدية ـ لا يسلم منها لا ميرلو ـ بونتي ولا رولان بارت ـ على ميل الباحثين إلى أن يأخذوا في الحسبان المظهر الفردي للوقائع المدروسة[24] على وجه الخصوص. يعرض غريماس في نهاية بحثه إلى الثنائية السوسيرية الثالثة: إنها ثنائية التزامن والتعاقب. حينئذٍ يعود غريماس إلى اللسانيات بمعناها الحصري، ويتصور وسيلتين لرفع «التعارض» ـ وهي الكلمة التي يستخدمها ـ بين نمطي المقاربة:

1/ الأولى تتمثّل في التفكير بهما شمولياً عبر مُتصوّر الثبات[25] *panchronie* (ص201). ونجد هنا مفاجأةً: تتمثّل في أنه يبدو هنا أن غريماس قد استقدم هذا المفهوم من المدرسة الدانماركية، وخصوصاً من فيغو بروندال. لكنه يصمت عن أصله السوسيري ـ ما السبب في ذلك؟ ـ إن سوسير لا يستخدم وجهة نظر التزامن الشامل في «الوقائع الخاصة والملموسة»، لكن في «المبادئ العامة» فقط (**الدروس**، 135)[26]. هل شكّل ذلك لغريماس سبباً مُقنعاً جعله يُخفي الأصل السوسيري للمفهوم؟ نذكر أن غريماس وصل به الأمر بعد حين إلى حد الشك في متصور التزامنية نفسه، محافظاً، بطريقة تطرح في القول الحق مشكلة، على مُتصوّر التعاقبية (انظر: **مُعجم** غريماس وكورتيس، 1979، فمواد التجرد عن التعاقبية والتزامنية: *achronie*[27]، والتعاقب *diachronie*، والتزامن *synchronie*، والثبات *panchronie*[28] لا وجود لها في **المُعجم**).

2/ والوسيلة الثانية هي إنشاء علاقة جدلية بين التزامنية والتعاقبية. وبذلك يُرسي غريماس أسس «استكمالية جديدة من الخارج للسوسيرية، وهي استكمالية لن تكون ألْبتّةَ خيانة للفكر السوسيري». (ص202). وهنا يستدعي غريماس عبْر ميرلو-بونتي المصطلح الماركسي التطبيق العملي[29] praxis.

---

(24) وهنا، كما يبدو لي، بوضع الانزلاق الخفي للكتابة نحو الأسلوب ـ لقد أشرت إلى ذلك فيما سبق ـ موضع الشك.

(25) المعنى ورد في **مُعجم اللسانية**، ص152. (المراجع).

(26) التونسية، 147؛ العراقية، 113؛ اللبنانية، 118؛ المصرية، 166؛ المغربية، 121-122. [المترجم].

(27) achronie: التجرد عن التعاقبية والتزامنية، **مُعجم اللسانية**، ص7. (المراجع).

(28) panchronique: ثابت؛ لا يتغيّر، **مُعجم اللسانية**، ص152. (المراجع).

(29) التطبيق العملي= praxis في الفلسفة الماركسية هو: محاولات تغيير العالم، وبخاصة وسائل الإنتاج التي تقوم عليها البنى الاجتماعية. وفي الفلسفة الوجودية: ما به ينكشف الوجود في التاريخ. [المترجم].

لقد فهمنا أن بحث غريماس، في طموحه، وصعوبته، وعمقه هو على الرغم من بعض مواضع الصمت[30] ومواضع الغموض يشكّل لحظةً حاسمةً ليس في تاريخ السوسيرية فقط وإنما في تاريخ اللسانيات والعلوم الإنسانية أيضاً. وإن **الدروس**، حتى لو أنها جزئياً قد ربطت بالمنظومة الهلمسليفية، تأخذ لديه بُعدها الحقيقي: أعظم النصوص التي أعادت تأسيس اللسانيات، وابتدعت السيميولوجيا/ السيميائية.

[198] اللوحة البارتية الثانية: أسطوريات[31]:

لا بد بادئ ذي بدء من كلمتين في التاريخ، تاريخ وصفي ووقائعي ما أمكن ذلك. فمنذ عام 1954 كان بارت ينشر بانتظام في مجلة *Les lettres nouvelles*[32]، التي أسسها منذ عام 1953 موريس نادو (Maurice Nadeau) «وقائع مختصرة». وقائع: الكلمة في ذهني محايدة ما أمكن ذلك: إنها تحدد فقط أن الموضوعات التي يعالجها بارت هي موضوعات يقدمها له الزمن العابر، والأوضاع الراهنة إجمالاً. لكن الأوضاع الراهنة كلها: العرض والرياضة، والأدب، والسياسة، والحياة اليومية و«أحداث المجتمع» كما لم يكن بعدُ شائعاً للإشارة إلى الأحداث المتنوعة. وفي كل هذا هناك قليل من النصوص («**آداموف واللغة**»، ص 99). ولكن كثير من الأشياء أيضاً «**ألعاب**»، ص 63، «**النبيذ والحليب**»، ص 83، «**شريحة البقر والبطاطا المقلية**»، ص 67، «**سيارة ستروين الجديدة**»، ص 169، إلخ)، وكثير من الصور («**الممثل آركور**»، ص 22، «**علم الأيقونات[33] للخوري بيار**»، ص 57، «**وجه غريتا غاربو**»، ص 77، إلخ)، وبعض الأحداث («**رحلة الدم**

(30) وأكثر مواضع الصمت دهشةً في النظرة الأولى هو الصمت التام الذي التزمه غريماس حول لاكان. ليس لأن غريماس يجهله: لقد كان يعرفه حق المعرفة، لكنه لم يشر إليه ألبتّة إلاّ بلهجة احتقار باسم «الدكتور لاكان». أظن أنني أعرف، عبر بعض آراء غريماس أن انتحار اليافع لوسيان سيباغ Lucien Sebag بعد حين (1935-1965)، مؤلف كتاب **ماركسية وبنيوية**، وكان صديقاً لغريماس، وتلميذاً لليفي ستروس و«خضع لتحليل **نفسي**» مع لاكان، هو سبب من أسباب هذا الكره. لكن صمت غريماس الذي التزمه قبل تسع سنوات لا يمكن تفسيره إلاّ بأسباب أخرى.

(31) ترجمه بهذا العنوان الموفق الدكتور قاسم المقداد، مركز الإنماء الحضاري، حلب، 1996. [المترجم].

(32) ...ونشر نصين من نصوص الكتاب في مجلتي *Esprit* و *France-Observateur*.

(33) Iconographie: علم الأيقونات، **قاموس لاروس المحيط**، ص374. (المراجع).

الأزرق البحرية»، ص 33، «**دومينيتشي**»، ص53، «**محاكمة دبريز**»، ص 116، إلخ)، وأشخاص: «**الفقير والكادح**»، ص41، «**عامل جذاب**»، ص74، «**بيلي غراهام في فل ديف**»، ص 112، «**بوجاد والمثقفين**»، ص 205، إلخ. وفي عام 1957 نشر كل تلك النصوص في مجلد حمل اسم «**أسطوريات**». قدم لتلك النصوص باستهلال قصير بلا عنوان (صفحة واحدة)، وفي النهاية نشر وثيقةً طويلةً (54 صفحة في الطبعة الأصلية) نظرية عنوانها «الأسطورة اليوم». وهذا النص مؤرخ في أيلول/سبتمبر 1956، فهو إذاً متأخر عن كل[34] الأسطوريات» التي جُمعت في الكتاب. وبعد نشر الكتاب تابع بارت حتى عام 1959 تقديم عدد من «**الأسطوريات**» لمجلة *Lettres nouvelles*: ظهر آخرها في عدد 22 نيسان/أبريل في المجلة المذكورة التي أصبحت أسبوعية، وكان مخصصاً «للتراجيديا والارتفاع». ولم يجمع بارت هذه «**الأسطوريات**» الفريدة في كتاب.

ماذا عن حضور سوسير في هذا الكتاب؟ يتخذ غريماس في عام 1987 موقفاً جريئاً:

> إن أفضل نتيجة لمن ساروا في المسار السوسيري هي الأسطوريات. فبارت يطوّر فيها سيميائية إيحائية وليس سيميائية دلالة ذاتية تعض على الواقع. ذلك في غاية الروعة، لكننا لا نستطيع البدء عبر الإيحاءات. (1987 a، 306-307).

[199] إنه بلا شك حكم قد وقع بعيداً، ومُثقل بالنقد، الذي يعدُّه غريماس جوهرياً، إنه اللجوء إلى الإيحاء، وخصوصاً عندما يكون مُقدَّماً على أنه أساس أولي من أُسس البحث. ولكي نحصل على تحليل أكثر دقةً أجد أنه من المناسب أن نميّز بين «**الأسطوريات**» في القسم الأول وبين «الأسطورة اليوم» في القسم الثاني.

1/ نبحث في «**الأسطوريات**» عبثاً، إن لم أكن مخطئاً، عن اسم سوسير. ليس لأن بارت لم يستشهد بأحد من اللسانيين: فالثنائي المشهور داموريت (Damourette) وبيشون يقدمان معاً بنجاح وصلة قصيرة عن «قواعد إفريقية» (ص

(34) لن أستسلم هنا للتنقيب البارتي: لم أسعَ إلى التحقق عما إذا لم تُنشر، مصادفةً، بعض الأسطوريات بعد أيلول/سبتمبر 1956. لكن هذا لا يغيّر كبير شيء في الوضعية التبادلية بين قسمي الكتاب.

155)[35]: إنها الصدمة المشهورة «للطبق الشهير»، المخصص لتوضيح الخطابات الوزارية في ذلك العصر عن «مهمة فرنسا». لكنه لا ذكر لسوسير، مع أن العلامة تتكاثر، وإن كان ذلك يتمّ على الدوام، والحق يُقال، بطريقة ليست مطابقة بدقة حرفية ما جاء في **الدروس**[36]. أما جورج مونان الطيّب ـ الذي لم يكن يحب كثيراً بارت، ولا هلمسليف، ولا لاكان ولا ليفي ستروس وبعض الآخرين. . . . ـ فإنه تسلّى بإجراء جرد لاستخدام كلمة علامة (مونان، 1970، 194)، واستخلص من ذلك نتيجة مفادها أن «كل ما له دلالة هو علامة» عند بارت. وهو بلا شك لم يُخطئ تماماً. لكنه يسهو عن أن يأخذ في الحسبان مُعطىً جوهرياً، يتراءى له مع ذلك، لكنه ينكره للتوّ: ذلك أن الأشياء التي يحللها بارت ليست عملياً شفاهية *verbaux* ألبتّة، وأن العلامة تبدو بالضرورة بمظاهر مختلفة باختلاف المادة التي تُظهرها. ولن أضرب إلاّ مثلاً واحداً هو مَثَلُ الخوري بيار (l'abbé Pierre)»، أو بالأحرى صورته. يلاحظ بارت أن لحية الخوري «لا يمكن لها أن تفعل شيئاً آخر إلاّ أن تدل *signifier* على الكهنوتية والفقر». (ص 58)[37]. هل هي إذاً علامة؟ نعم، شرطَ أن نأخذ علامة بالمعنى الذي أعطاه للدال، في وقت متأخر كل التأخير من إنشاء **الدروس**. لقد رأينا في الفصلين الثاني والثالث أن سوسير يعطي من قبل هذه القيمة لمصطلح العلامة. لكن المقصود بالعلامة في حالة الفس بيير هي علامة أيقونية. كيف تعترينا الدهشة من أن تكون هذه العلامة مختلفة جوهرياً عن كلمات اللغة؟ ولكي نبقى مع مونان في السوسيرية الأكثر أرثوذوكسية نقول: إنه يبدو أن الأسطر القليلة حول السيميولوجيا في **الدروس** تفترض هذا الفارق من قبلُ. والقطع المنثورة في **بحث الحكاية الخرافية الجرمانية** التي أظهرها للناس بدءاً من 1964 ستاروبنسكي (1971) تفسر بوضوح أن الوحدة السيميولوجية ـ التي تُسمّى في

---

(35) **أسطوريات**، الترجمة العربية، م. س، ص 184: اثنان من أروع التحويين وهما داموريت ويشون اللذان لم تخل مصطلحاتهما لا من الدعابة ولا من الصرامة. [المترجم].

(36) هل ينبغي التذكير أن سوسير نفسه يستخدم مصطلح علامة بقيمتين مختلفتين كل الاختلاف؟ فالنسخة النموذجية من الدروس تمحو ـ ليس كل المحو ـ التقسيم مُحِلّةً مصطلح الدال محل علامة في كل مرة يبدو فيها ذلك ضرورياً للناشرين. لكن ممارسة سوسير كانت مختلفة، وهو يعبّر عن ذلك باستفاضة. انظر في ذلك الفصل الثاني.

(37) الترجمة العربية، 64. [المترجم].

موضع آخر رمزاً وليس علامة، وإنّ دون اختلاف في المعنى [200] يمكن ملاحظته ـ يمكن أن يكون لها حتى في مظهر شفاهي حاملات مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي أسندت إليها في **الدروس**.

2/ في «الأسطورة اليوم» تختلف الأشياء بقضها وقضيضها. فطريقة الوقائع المُختصرة Chroniques تمّ التخلي عنها بالطبع، واتخذ النص مظهراً نظرياً صارماً. والإحالة إلى سوسير، سوسير الذي وضع السيميولوجيا هي إحالة مؤسسة(38):

> ولما كانت الأسطورة دراسة للكلام فهي ليست [...] سوى جزء من ذلك العلم الواسع للعلامات الذي سلّم به سوسير قبل أربعين سنة(39) باسم السيميولوجيا. (1957، 217)(40).

ومهما يكن من الأمر، فإن الطبيعة الخطابية للأسطورة ـ «الأسطورة هي كلام»: ذلك هو التعريف الذي يعطيه بارت بدءاً (ص 215)(41)، وأعاد ذلك في الفقرة التي سقناها قبل قليل ـ تمنحها وضعية «نظام سيميولوجي ثانٍ». (ص 221)(42). وكما رأينا فيما سبق أن كتاب **الدروس** الذي هو برامجي حصراً بخصوص السيميولوجيا لا يُقدّم على الفور المفاهيم الضرورية لإرساء أُسس مثل هذه السيميولوجيا(43). وإن بارت شأنه شأن غريماس مدفوع إلى التوجّه نحو هلمسليف، دون أن يذكره أيضاً.

(38) هل ينبغي التذكير أن النص كتب سنة 1956، وأن أعمال غوديل ـ أول من أشار، حسبما أعلم، إلى البحث السيميولوجي عن الحكاية الخرافية ـ لم تظهر إلا في العام التالي؟

(39) نرى أن بارت لا يفكر إلاّ في تاريخ نشر الدروس (1916) دون أن يفكر في انبثاق السيميولوجيا المسبق، وفي ظهورها الفعلي في الدروس التي كانت تلقى في جنيف.

(40) الترجمة العربية، 249. [المترجم].

(41) الترجمة العربية، 247. [المترجم].

(42) الترجمة العربية، 252-253: إنها منظومة سيميولوجية ثانية...

(43) يمكن لهذه الملاحظة أن تُفعّل لدى البعض مسألة طرحتها عدداً من المرات، وسبق لي أن وضّحتها في الفصل الثالث: لماذا يذكر سوسير في **الدروس** حصراً موضوعات ممكنة للسيميولوجيا (ص 33) أنظمة مشتقة من اللغة (الكتابة، ألفباء الصم والبكم) أو أنظمة هامشية بوضوح (الطقوس الرمزية، آداب اللياقة، الرتب العسكرية)؟ والسؤال يطرح نفسه بحدّة تشبه الحدّة التي كان عليه عندما كان في طريقه لإنشاء سيميولوجية أخرى، بدال شفاهي، لكنها ليست مشتقة من اللغة: إنها سيميولوجية الحكاية الخرافية.

ويرتكب بخصوصه «الخطأ» نفسه الذي ارتكبه غريماس في البحث، الذي كان قد ظهر لتوّه حينئذٍ، والذي كان بلا شك قد فرغ من قراءته قبل قليل:

> هناك في الأسطورة نظامان سيميولوجيان، أحدهما مفكك بالنسبة إلى الآخر: نظام لساني، اللغة (أو صيغ التمثيل التي تتماثل معه)، والتي سأسميها اللسان ـ الموضوع؛ لأنها اللسان الذي تدرك الأسطورة ذاتها فيه لتبني نظامها الخاص؛ والأسطورة نفسها، وسأسميها اللغة الواصفة؛ لأنها لغة ثانية، نتحدث بها عن اللغة الأولى. (1957، 222)[44].

هل قلت: إن بارت ارتكب الخطأ نفسه؟ الحق أن بارت أصلحه بعد سبعة أعوام في القسم الأخير من بحثه (دلالة ذاتية وإيحاء») المنشور في كتاب **مبادئ السيميولوجيا** (1964، 130–132). لكنه يظل فيلولوجياً خطأ بالنسبة إلى نظرية هلمسليف. لكن هذه الرمية [20] الخاطئة ربما يكون لها معنى عند بارت. وآية ذلك أننا نذكر أنه في عام 1967، في استهلال كتاب **نظام الموضة** اقترح بارت أن نعكس، بالنسبة إلى تعليم سوسير، المكان المشترك بين اللسانيات والسيميولوجيا:

> الإنسان محكوم عليه بالكلام المبين، ولا يستطيع أي مشروع سيميولوجي أن يجهل ذلك، ربما ينبغي والحالة هذه عكس صياغة سوسير والتأكيد أن السيميولوجيا هي التي تكون قسماً من اللسانيات. (1967، 9).

وينبغي هنا أن ننظر إلى النص نظرة جادة، أي بالمعنى الحرفي. إذا كانت السيميولوجيا قسماً من اللسانيات فإن كل خطاب سيميولوجي هو في طبيعته لغة واصفة، شأنه على سبيل المثال شأن خطاب القواعد، الذي هو «قسم» آخر من اللسانيات. والحال أن علم الأسطورة هو بدوره (1957، 217) مُقدّم على أنه «قطعة من علم العلامات الواسع الذي صادر عليه سوسير قبل أربعين عاماً باسم السيميولوجيا». وينتج عن ذلك والحالة هذه أن خطاب علم الأسطورة هو بالضرورة لغة واصفة. وهذا لا يمنعه ألبتّة ـ وبارت يقول ذلك عام 1964 ـ من أن يكون في الوقت نفسه لسان الإيحاء: كما لو أن شكلَي اللسان المنزاح يختلطان. كما لو أنه ليس هناك، تقريباً، لغة واصفة، ولا لغة إيحاء أيضاً. وربما نجد هنا

(44) قارن بالترجمة العربية، 253. [المترجم].

التصور القبْلي لما سيقترحه بارت في S/Z، وإن كان ينطبق في الحق على «النصوص المعاصرة» فقط:

ليس من المؤكد أن هناك إيحاء في النصوص المعاصرة. (1970، 14).

لقد وصلنا بعقلانية إلى الحد الذي رسمناه: إنها سنة 1957. وبعدها ستأتي نصوص أخرى أساسية: **مبادئ في السيميولوجيا** في عام 1964، **علم الدلالة البنيوي** عام 1966، لكي نقتصر على أكثرها قُرباً. وهي نصوص أساسية بالتأكيد، وفي الوقت نفسه شفافة، وأقل إلغازاً بلا شك من تلك التي طفنا بها معاً بحثاً عن فرديناند دو سوسير: والمرجعيات النظرية تُعلن عموماً عن نفسها فيها بدقة أكثر وباتساق أكثر. فليس هناك على سبيل المثال أسهل من قراءة مكانة سوسير في **مبادئ في السيميولوجيا**. وليس هناك ما هو أكثر اضطراباً في المقابل في بقية عمل غريماس وبارت، إلاّ ذلك المسار الذي يسهل تتبعه: طريق واضحة المعالم، بالتأكيد، لكنها تعج بالتقاطعات الخطيرة والمفازات المهلكة. ثم تأتي بعد ذلك عند أحدهما والآخر [202] لحظة تنتهي فيها الطريق الواسعة للبداية عبر التفرع إلى طرق عرضية. هل يصل بهما الأمر إلى الضياع تماماً؟ لست أدري. لقد وجدت في بعض الأحيان صعوبةً في الاهتداء عبر تشعبات الطرق السوسيرية الأخيرة لبارت وغريماس.

[205] الفصل التاسع

[مطقطقون وصوت المطقطقين
طقطقة وصوت الطقطقة[1]؟
أو (كيف «يتواصل» المطقطقون)]

تعليق غير منشور لفردينان دو سوسير

أدالبير ريبوتوا

ADALBERT RIPOTOIS

تنبيه في لبوس اعتراف. كما قيل في الاستهلال: إن هذا الفصل قُدِّم عند أول ظهور له على أنه ضرب من «الخداع». فالوجود «الواقعي» لأدالبير ريبوتوا الذي نجد عنه ملحقاً يحتوي على سيرة هي في الوقت نفسه عن حياته ومؤلفاته ورثاء له كتبها جان فيرتز، يظلّ حتى اليوم موضع شك كبير. وإنه لمن المؤكد أن النص الذي يقدم على أنه لسوسير هو تقليد. لكن المشكلة التي يطرحها هذا الفصل هي مشكلة واقعية بحتة: إنها مشكلة طبيعية العلاقة بين اللسان والصوت الإنساني.

> «ساد الصمت، ولكي لا تنقطع المحادثة، أطلق المسيح مذًا تجاوز قش كرسيه مترافقاً مع تنغيم صوتي مُغنى لصراخ إنساني».

إميل زولا، الأرض،

القسم الرابع، الفصل الثالث

---

(1) سيأتي الحديث عن هذه الاستخدامات والمقابلات اللاتينية التي استخدمها سوسير في تعليقته على النص. وفي النص كلمات مشطوبة ومُعادة كتابتها. [المترجم].

التعليقة التي سنقرأها كانت قسماً من الملف الذي نُشر عنه في الأصل ما عرف بـ: **كتابات في اللسانيات العامة لفردينان دو سوسير**. لكنها لم تُنشر في ذلك الكتاب. والقول الحق إنها ليست التعليقة الوحيدة التي لم يضمّها ذلك المجلد: فالمأسوف عليه رودولف إنكلر[2] نشر تعليقة أخرى في العلامة والحرف. مُهدى إلى ميشال أرّيفيه 2002، 181-185. ولن أطرح من جديد هنا [206] مسألة الأسباب التي يمكن أن تكون قد دفعت الناشرين (رودولف إنكلر نفسه وسيمون بوكيه) إلى مسألة عدم إظهار هذه أو تلك من الكتابات فور عثورهم عليها، على الرغم من أهميتها النظرية.

وينبغي الاعتراف بصدق أن النص الذي سنقرؤه قد يبدو غريباً في مضمونه، وخصوصاً في نظر القراء الذين لم يعتادوا تماماً على العالم المفهومي السويسري. وإنه لمن المؤكد، ناهيك عن ذلك، أن المظهر المادي للوثيقة هو مظهر نادر-هل أجرؤ على القول: وحيد؟[3] ـ في مجموع مخطوطات سوسير.

تظهر المخطوطة على شكل سلسلة من ثلاث أوراق. ونلحظ حتى اليوم آثار الصدأ الذي تركه الدبوس الغليظ الذي استُخدم لجمع الأوراق.

1/ الصفحتان الأولى والثانية يغطيهما في الوجه فقط نص مطبوع ألصق بعناية. وكان من سوء الحظ أن ضربة مقص ذهبت بسطرين في آخر الصفحة الأولى.

---

(2) نعلم حقيقةً أن الأستاذ غير المنازع للدراسات السوسيرية توفي في الخامس من أيلول/ سبتمبر 2003، في فورب Worb في سويسرا حيث كان يقيم منذ زمن طويل. وكان سينتم الثالثة والسبعين في 25 تشرين الأول/ أكتوبر. انظر المقال التأبيني الذي كتبه ميشال أرّيفيه، *Le Monde*، 16 أيلول/ سبتمبر 2003. كان رودولف إنكلر في الوقت نفسه عالماً لا يُضاهى (على سبيل المثال في ثقافته الرومانية، وخصوصاً الإيطالية)، وناشراً مدققاً وذكياً في الوقت نفسه (فطبعته المحققة من كتاب **دروس في اللسانيات العامة** كانت نموذجاً في بابها)، ورجلاً مستقيماً وكريماً، وذا تواضع علمي مدهش، بل بشير الغضب في الكون (والجامعة) اليوم. لقد اصطبغت الشهور الأخيرة من حياته، وأنا أكيد من ذلك، بالحزن بسبب مناورات متنوعة لا تُشرّف الأشخاص الذين قاموا بها، وهم ممن كان قد وثق بسذاجة بهم. وأنا أهدي إلى ذكراه تحية مؤثرة.

(3) لن أعد نفسي، على عكس عدد من الآخرين ـ بدءاً من الأستاذ المذكور في الحاشية السابقة ـ بوصفي معتاداً على المخطوطات السوسيرية. ومع ذلك فإنه قد وقع لي غالباً تصفح مجموعات مكتبة جنيف: ولم ألمح فيها ألبتّة وثيقة من نمط الوثيقة التي يُتاح لي اليوم نشرها.

فحرص سوسير على أن ينسخ بيده النص الناقص. ولا تعترينا الدهشة من رؤية أن العيب الذي أصلحه سوسير أثّر في مقطعين بعيدين نسبياً عن النص: ذلك أن النص مُرتّب على عمودين مما كان له أثر في فصل القطعتين المحذوفتين. لقد أشرنا إلى هذا التدخل الملموس لسوسير، ووضعنا بين معقوفتين المقطعين اللذين رممهما. وتظهر كلمة *item* =زائدة بخط سوسير مرّتين في القسم الأعلى في الجهة اليسرى من الصفحة الأولى. لقد ضُرب عليها بادئ ذي بدء بخطّ (*item*)، ثم كُتبت مرّةً أخرى وضُرب عليها بخطين *item*. ونترك للقارئ أن يتساءل عن معنى هذا الندم المضاعف[4].

2/ أما الورقة الثالثة فقد استخدمت في الوجه والقفا. يشغل الوجه كله بداية تعليقة سوسير. ولا يحتوي القفا إلاّ أربعة عشر سطراً[5]. ويبدو بغرابة أن الكتابة التي تظلّ متماثلة في كل هذا النص الكثيف هي في الوقت نفسه سريعة ومنسوخة بعناية تقريباً. ويبدو أن سوسير هنا، يكاد يكون، على العكس مما نلحظه في كتاباته اللسانية أو السيميولوجية الخالصة، منتشياً، وعلى أي حال بعيداً عن حالات التردد. وأفكر هنا في نوع الكتابة الذي تبنّاه في بحث [207] **الجناس التصحيفي**: ونجد نسخاً عديدة عنه في كتاب فرانسيس غاندون 2002، مع تعليق خطاطي (ص417–418) تؤكد الانطباع الموغل في الذاتية الذي أثبته هنا. تبدو الكتابة وكأنها سعيدة وواثقة من نفسها. ويبدو أن المصطلحات الجديدة تأتي دون إبطاء ولا تردد، بل مع ضرب من الابتهاج: ونعلم كم يبدو هذ الموقف استثنائيّاً عند سوسير في حديثه عن اللسانيات. فالشطبات[6] نادرة كل الندرة، وخالية من أي أهميّة نظرية حقيقية. لكننا أشرنا إلى ذلك بواسطة الخط في وسط العبارة وليس تحتها.

3/ لا تحتوي التعاليق كلها على عنوان آخر غير *item* مشطوبة مرّتين كما

(4) هل ينبغي التذكير بأن عدداً كبيراً من «تعليقات» سوسير، وعلى وجه الخصوص الملاحقات التي نشرها إنكلر في المجلد الثاني من نشرته المحققة مسبوقة بإشارة item ولذلك أُطلق عليها اسم أصبح تقليدياً: ملاحظات زائدة Notes item؟

(5) سنشير إلى حدود وجهي الورقة في النص المنشور هنا بعارضتين طوليتين: //.

(6) rature: شطبة، **قاموس لاروس المحيط**، ص611. (المراجع).

أشرنا إلى ذلك للتوّ. إن العنوان الذي كان من الطبيعي أن نضعه في هذه الطبعة بين معقوفتين استخلصه مؤلف هذا الكتاب من محتوى التعليق، ونترك للقارئ بالطبع حرية أن يُقدّر مدى صلته الوثيقة بالموضوع.

1 . النص الذي أورده سوسير :

الصفات المادية هي التالية :

1/ كما لاحظنا للتوّ، فالنص مُرتّب على عمودين. لكن الملاحظات التي تحمل أرقاماً لاتينية هي طبقاً للمعتاد في بعض مجلات ذلك العصر تتناول الصفحة كلها وموضوعة في آخر النص.

2/ ليس للنص عنوان ولا اسم مؤلف. وإنه لمن المستحيل أن نضع أي فرضية عن سبب هذا الغياب المزدوج ـ وهل هو مقصود أم غير مقصود ـ.

3/ الورقة التي نُسخ عليها النص هي من النوع الجيد، وقد قاومت الآثار المدمرة غالباً للصمغ الذي ثُبتت بواسطته على الحامل. وطريقة الطباعة ممتازة. ولا نجد فيها أي خطأ مطبعي.

4/ نجد في السطر السابع من الورقة الثانية، في مستوى كلمة فِكْر *pensée* إدراجاً بخط اليد بالحبر الأحمر، بخط ليس هو بالبداهة خط سوسير. وقد أُشير إلى هذا الإدراج وشُرح باختصار في التعليقة الأولى من الصفحة 209.

نورد فيما يأتي النص الذي ذكره سوسير، ونلفت انتباه القارئ إلى التركيب الاسمي الأول : فلفظة أولئك = *cette* لا يمكن أن تعود بالبداهة إلاّ إلى مذكور سابقاً وهو كلمة قوم *peuplade* التي سبق ذكرها. وهذا يعني أن النص مبتور ليس فقط من عنوانه، لكن أيضاً من فقرة في بدايته يستحيل تقدير طولها وأهميتها. **[208]**

«أولئك القوم الذين يستحيل لأسباب ستتضح فيما يأتي نطق اسمهم الحقيقي يعيشون على جزر صغيرة تطفو على سطح مستنقع ليس مناسباً صحيّاً لإقامة الرجال البيض ألبتّةَ مدة طويلة، وهي ليست كذلك بالنسبة إلى السكان الأصليين الذين تتمتع غالبيتهم بصحة جيدة. إن إقامة أولئك السكان الأصليين على تلك الجزر الصغيرة يجعلهم منعزلين عن جيرانهم. والسكان الأصليون ـ هو في الواقع الاسم الذي لا جدال حوله، الذي سنسمّي به في الصفحات التالية أولئك القوم بما أننا

لا نستطيع نطق الاسم الذي يطلقونه على أنفسهم ولا كتابته ـ يقيمون مع بعض أولئك الجيران علاقات مطردة، يبدو أنها خالية من العداوة. فتجدهم في بعض الأحيان يستبدلون لحم الخنازير التي يربيها قوم مجاورين لهم بلحم أسماك ممتاز مدخن أو مقدد يصطادونها بين جزرهم الصغيرة. ومع قوم أكثر بُعداً عنهم بقليل من سابقيهم يتطارحون موسمياً الغرام، وهي مطارحات تفضي في بعض الأحيان إلى الزواج. لكن المكتشف لا يكاد يستطيع الاستعلام عن هذا النوع من العلاقات التي تبقى سرّية في كل جوهرها. إن تبادل الأغذية (وتطارح الغرام بلا شك) يتطلب من بعض السكان الأصليين [الذين يُنتدبون لهذه المهمة، ويؤدون دون جهد ولا صعوبة دور المترجمين]، وهو دور يتطلب كلاماً أكثر مما نعتقد: لأن أياً من أولئك الأقوام لا يعرف النقود حتى إن تبادل الأغذية (وبلا شك أيضاً الأشخاص المعشوقين) يفسح في المجال لمناقشات هي في الوقت نفسه كريهة وحيوية وودية لا يبدو خلالها مترجمو السكان الأصليين أقل مهارة في شيء من نظرائهم عند الأقوام الأخرى.

«على الرغم من ذلك، فإنهم، تقريباً، لا يمتلكون خبرةً ألبتّة بين جنبات قومهم في ممارسة الكلام الصوتي. أما بخصوص المحادثات التي تدور بينهم فإن السكان الأصليين يستخدمون استخداماً يكاد يكون حصرياً[7] صيغة تعبير أدهشت الأشخاص النادرين الذين أُتيح لهم أن يراقبوها. إنهم يستخدمون انتفاخات البطن[8] الصوتية التي تصدر عن عملية هضم الأغذية للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم. وأقصد بالطبع الأصداء الصوتية لانتفاخات البطن التي تصدر من العمق، وليس التجشؤات التي يمكن أن تصدر في بعض الأحيان من الفم. يكرّس السكان الأصليون النوع الأول من هذه النتاجات الصوتية ويلتزمون بها [209] بدقة، ويرفضون الثانية رفضاً شديداً، ويعدُّونها عندما تحدث عَرَضياً غير مناسبة بل ضرباً من [الفظاظة. والأطفال منذ نعومة أظافرهم يُعلّمون بإلحاح تجنب التجشؤات من

---

(7) لايبدو أن الصوت يُستخدم إلاّ لإبداء التعجب ولبعض أشكال المحاكاة الصوتية البدائية الخالصة التي تعبّر غالباً عن الاشمئزاز أو الاحتقار، وتنخفض في أحسن الأحوال إلى صوت أو صوتين مصوتين. أما بخصوص إيماءات السحنة وحركات الذراعين واليدين فإنه لا يبدو أن لها، تقريباً كما في ممارساتنا الأوروبية، إلاّ دوراً ثانوياً وتكميلياً.

(8) flatulence: انتفاخ البطن، تطبّل البطن، **قاموس لاروس المحيط**، ص315؛ **قاموس حتي الطبي الجديد**، ص160. (المراجع).

النوع الثاني] وتنويع تلك التي تصدر من الأعماق حسب ضرورات الخطاب. وهذا التدريب هو بالضرورة طويل، ولعله يكون أقل طولاً من الذي نلاحظه في لغاتنا: فالأطفال الذين يبدو أن عمرهم لا يتجاوز الستين قادرون مع ذلك على المشاركة في محادثات البالغين.

«ربما تعترينا الدهشة من أن الضوضاء التي يصدرونها بهذه الطريقة، من العمق، يمكن أن تُستخدم للتعبير عن الفكر[9]، كما نعجب من أن سكان جزر الكناري يستخدمون للغايات نفسها أنواعاً من الصفير[10]. إن أولئك الذين لم يتح لهم أن يسمعوا النقاشات المملة والطويلة التي تنشأ في اجتماعات السكان الأصليين رجالهم، ونسائهم على وجه الخصوص، أولئك وحدهم، يتركون العنان لأنفسهم لمثل هذه الارتباكات. إن السكان الأصليين ينجحون في تنويع إحداث الأصوات من أعماقهم وإصدارها بشكل تتساوى فيه المهارة والفاعلية التي تؤديها بأعضاء فمنا. إنهم يعرفون طريقة إحداث انتفاخات بطنٍ شديدة أو ضعيفة، طويلة أو قصيرة، منخفضة أو مرتفعة، والتمييز بينها. ويبدو في بعض الأحيان أن إحداث صوتين لانتفاخي بطن متتاليين يؤدي الدور نفسه الذي تؤديه طقطقة وحيدة. والأعجب أنهم يعرفون تركيب الخصائص التي يضفونها على عملية إحداثها، بعضها مع بعض: نستطيع سماع أصداء انتفاخات بطن هي في الوقت نفسه طويلة ومرتفعة، قصيرة ومنخفضة، بسيطة وشديدة أو مُكرّرة وضعيفة. ويبدو ذلك من بعيد أنه تركيب نوعين من الحروف، يؤلف السكان الأصليون منها متتاليات لا أجد لها كلمة أخرى إلاّ كلمة (كلمة) الجميلة.

«كان سيف الوقت مُسلّطاً عليّ فلم أقضِ بين السكان الأصليين إلاّ بضعة

---

(9) تقرأ في هذا الموضع الإدراج بخط اليد بالحبر الأحمر الذي أُشير إليه في ما سبق. ونصه كالتالي: ألا ينبغي بالأحرى أن نكتب pansée؟ ونترك الحرية للقارئ ليفهم حسب ذوقه هذا الجناس الصوتي. إن هذا الجناس الصوتي المرحب به كل الترحيب يُظهر بلا شك ضرباً من الاحتقار المصطبغ بالعنصرية ربما إزاء السكان الأصليين. هل ينبغي التذكير بأن هذا الإدراج ليس من فعل سوسير.

(10) لا ينبغي أن تعترينا الدهشة من رؤية مؤلفنا يتحدث عن لغة تصفيرية في جزر الكناري: وهذه الممارسة معروفة منذ القرون الوسطى، وتفسح المجال في كل عصر للعديد من الدراسات. وسترى فيما يأتي أن سوسير أقرّ تلميح المؤلف إلى اللغة التصفيرية، لكن لينتقدها.

أسابيع. وهي مدة غير كافية أبداً لكي أصل بمهمتين إلى برّ الأمان؛ مهمتين ينبغي في يوم من الأيام أن تصلا إلى نهايتهما.

«الأولى هي القيام بجرد تام لأصوات انتفاخات البطن التي يستخدمها السكان الأصليون. وأعني بشكل عام محاولة بناء ألفبائهم. ولن تكون المهمة بلا شك سهلةً كما تبدو عليه. وآية ذلك أنه يبدو لي أن بعض الفوارق بين أنواع الطقطقة التي نسمعها لا تسمح [210] مع ذلك بتمييز حروف حقيقية. ولكي نضرب مثالاً ربما يكون بسيطاً كل البساطة أن نقول: إنه من البديهي أن أصوات انتفاخات البطن التي تصدر عن عجوز بدين مختلفة عن تلك التي تصدرها شابة هزيلة تكاد تصل سن البلوغ. وعلى الرغم من ذلك، فإن هذين الشخصين يحددان هوية الأصوات التي يُصدرانها بعيداً عن الاختلافات المادية البحتة التي تفصل بينهما.

«أما المهمة الثانية فستكون أكثر صعوبة أيضاً: وتتمثل في أن يتعلّم العالِمُ التعاملَ مع ما لا أكاد أستطيع تسميته إلاّ لغة *langue* السكان الأصليين. والمحاولات الأولى التي انصرفت إليها مع اقتراب نهاية إقامتي أفضت إلى نتائج مخيبة جداً للآمال: إن التدريب المتأخر على هذه اللغة سيكون بدون أدنى شك أكثر صعوبةً من أي شيء آخر. وقد تحققت مع ذلك من أمر ربما سيسهّل المهمة على خالفي المحتملين. وأقدمه [ذلك الأمر الذي تحققت منه] هنا في أبسط مظاهره. إن بعض النساء، على عكس الرجال الذين يحتفظون، دون أن يكون لذلك تأثير في وضوح خطابهم، بمئزرهم التقليدي، ويعتقدن أنه من الضروري أن يظهرن العضو الذي يصدرن بوساطته الأصوات عارياً تماماً. وقد أشارت إحداهن، وكان لها ـ ينبغي الاعتراف بذلك ـ عضو جذاب جداً، أشارت، بيدها إلى خليط من الأعشاب المجففة التي بللتها لوقت قصير في ماء مُعبأ في ثمرة دباء مُفرغة تُستخدَم وعاءً. وقد شربت هي نفسها كميةً كبيرةً من هذه الأعشاب المنقوعة. لقد سلكتُ مسلكها، وأظن أنني تحققت من أن هذا الشراب يسهّل المحادثات الغرامية، عبر أصوات انتفاخات البطن، المرتخية كل الارتخاء التي يُحدثها بسرعة. وبذلك يبدو أن كلمات الحب مكوّنة نوعياً من بعض الحروف. ألا يمكن أن ينطبق الأمر نفسه على بقية أصناف الكلمات؟ وبذلك تتضح ظاهرة أظن أنني لاحظتها: إن السكان الأصليين مدفوعون إلى تخصيص غذاء مخصص لنمط الحديث الذي يستعدون لإجرائه. فالخنزير يبدو أنه مخصص للمماحكات السياسية: وهو ذو

استخدام نادر عندهم. والسمك المدخن يبدو أنه يميّز الأحاديث التي تتناول الصيد، وهي في المقابل أحاديث مطّردة لديهم».

ولعله من المفيد بلا شك قبل أن نصل إلى تعليق سوسير أن نطرح بعض التساؤلات عن بعض الجوانب التي حَكَم الأستاذ بأنها مما يمكن الاستغناء عنه. إلاّ إن كان بالطبع يمتلك معلومات لا نعرفها نحن اليوم، وحَكَم بأنها ليست وثيقة الصلة بالموضوع.

ما الأصل البيبليوغرافي لهذا النص؟ سيكون من الصعب بلا شك تحديده بدقة. في الوقت الراهن ليس من الممكن أن نقرر بالتأكيد ما إذا كان مصدره مجلة شهرية أو كان مأخوذاً من كتاب. أما تاريخ نشره فإنه غير مؤكد، ولا يمكن مقاربته إلاّ عبْر تحليل مادي [211] لحامل النص (الورق) ولطريقة الطباعة. وبحذر شديد أقترح بخصوص تاريخ الطباعة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دون أي تحديدات إضافية. فقد كان عدد من الصحف في ذلك العصر بدءاً من المجلة المشهورة، مجلة العالَمَيْن[11] *Revue des deux mondes* مجلة باريس *La revue de Paris*، والمجلة الزرقاء[12] *La revue bleue*، إلخ. كان، ينشر شهرياً مقالات من هذا النمط.

من هو مؤلف هذا النص؟ باستثناء حالة النشر المجهولة المؤلف أو ذات البديل الاسمي allonyme[13]، يجد هذا السؤال الثاني إجابته في وقت الإجابة عن السؤال الأول نفسه. لكننا رأينا للتوّ أن الحصول على الإجابة عن السؤال الأول يكاد يكون ميؤوساً منه. يشكل أسلوب المؤلف على بعض الألفاظ المهجورة[14]

---

(11) من المستبعد أن يكون قد نشر فيها لأسباب مادية: فالنصوص التي تنشرها ليست مخرجة على عمودين.

(12) كان سوسير يعرفها بلا شك بسبب المقالات التي كان بريال Bréal قد نشرها فيها. والمقالات مُخرجة على عمودين، لكن البحث الشامل في أعداد المجلة كلها بدءاً من 1863، تاريخ ظهور ملزمتها الأولى، واستمر توخياً للدقة حتى شهر كانون الثاني/ يناير عام 1913، الشهر الذي انتهى قبل موت سوسير أفضى إلى نتيجة سلبية.

(13) allonyme: بديل إسمي، متغيّر إسمي، (بديل لاسم العلم لا يغيّر دلالته)، **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص39. (المراجع).

(14) archaïsme: لفظ مهجور، **مُعجم اللسانية**، ص19؛ **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص55. (المراجع).

البسيطة على صعيدي النحو والمُعجم. ولعلنا لاحظنا أيضاً البراعة التي يصف فيها المؤلف بعض التصرفات التي كان يمكن لو كتبها من هو أقل مهارةً لوردت فيها ملاحظات ماجنة، بل مُحرجة. والكاتب باحث مميّز، يبدو ذلك على وجه الخصوص في تلميحه إلى اللغة الصفيرية المستخدمة في جزر الكناري. هذه التفصيلات تجعلنا نفكر في مؤلف عاش في بداية القرن التاسع عشر، بل في أقصى نهاية القرن الثامن عشر. وإذا كانت الفرضية الببليوغرافية التي صغناها للتوّ صحيحةً فإنه ينبغي أن نفترض أن النص ظلّ زمناً طويلاً غير منشور قبل أن يجد طريقة للنشر. ويمكن أن يكون النص أيضاً طبعةً ثانيةً لنص سبق أن ظهر من قبلُ.

أين عاش ـ أو بالأحرى أين كان يعيش ـ، السكان الأصليون؟ لأنه أمر قليل الاحتمال أن يكون أحد منهم قد بقي حيّاً. لن يستطيع أحد بلا شك معرفة ذلك. وإنه مما لا شك فيه أن مُعطيات جغرافية، ربما تكون دقيقة، قد ضاعت بضياع القسم الأساسي للنص.

يصف النص الممارسات الإثنية للسكان الأصليين ولجيرانهم وصفاً بارعاً، لكنه يظلّ وصفاً سريعاً لا يسمح بتحديد هوية المجتمعات المعنية. ونميل على وجه الخصوص إلى أن نأسف على أن تكون المطارحات الجنسية مع قوم آخرين ظلّت في الجانب الجوهري منها خافية على المؤلف. إن هذه الملاحظات، كما هي، لا تسمح بالاستدلال على السكان الأصليين ولا في موضعتهم في الزمان والمكان. وإن الاحتمالات التي يمكن أن ينصرف الذهن إليها (أميركا الجنوبية، إفريقيا الوسطى، غينيا الجديدة، المستنقعات على الحدود الإيرانية ـ العراقية[15]، إلخ.) لا يمكن التحقق منها بالدرجة نفسها.

(15) يصف كتاب غافان ماكسويل Gavin Maxwell في كتابه **شعب القصب** Le peuple des roseaux (1954-1961) المجتمعات التي تسكن المستنقعات في محيط مصب دجلة وصفاً يذكر بدقة كبيرة بالإشارات الجغرافية التي يوردها النص. ويلح المؤلف على أن «التابو» المطلق، عند شعوب القصب، يُؤثره على إحداث انتفاخات البطن المعوية. فقد نُفي شاب في مقتبل العمر لأنه «ضرط»، وظلّ يشعر بالحرج من ذلك حتى آخر فترة شيخوخته، ولم تكف «مدة حياته لكي ينسى الآخرون جريمته». (ص 35). هل ينبغي الاعتقاد أن هذا الموقف ليس إلاّ الانعكاس المعكوس لممارسة قديمة مهجورة؟ وما الشأن أيضاً، على العكس «في أنواع الدمدمات» التي تحدثها النساء، «وكل منها بنغمة مختلفة» عندما يطحنّ الحبوب؟. (ص 124).

[212] أما الملاحظات اللغوية فإنها حسبما أعرف فريدة تقريباً. إذ يبدو أنه لم يسبق لأي مؤلف أن وصف لغة حقيقية قائمة على انتفاخات البطن الصوتية. فلا نكاد نستطيع أن نذكر (عدا نص زولا الذي يشكّل العبارة التوجيهية الموضوعة في صدر هذا المقال) إلاّ بعض السطور الواردة عند غي جيورجي (Guy Georgy) تخصّ قبيلة «كوما الضراطون = Komas péteurs» الكاميرونية:

> كان هذا الجنس الرائع من «الكيرديس» Kirdis يعيش عارياً تماماً، وحليته الوحيدة بعض من ريش الصقر توضع في الشعر الطويل. وكان يمارس عملية الضراط la pétomanie بمهارة أسطورية. كان السلام يرمز إليه عبر ضرطة مسموعة، والتأهيل عبر رشقة من الضرطات. (جيورجي، 1992-1994، 146-167)[16].

تنحصر ممارسات قبيلة الكوما، على أي حال، في إصدارات ذات صفة مجاملاتية[17] phatique، يبدو أنها خالية من أي إبانة، بالمعنى اللساني للمصطلح. ناهيك عن أن قبيلة الكوما تمتلك لغة «طبيعية»، أي تجليات صوتية، على خلاف السكان الأصليين الذين يتحدث عنهم الرحالة المجهول.

هل من الضروري أن نحدد أن كل إشارة بيبلوغرافية، حتى ولو كانت غير دقيقة، إلى مواضع أخرى ذكرت فيها مثل تلك الممارسات مرحّبٌ بها باهتمام واعتراف بالجميل؟ ذلك أنه عزاء ضئيل أن نلاحظ أن اللغات الصفيرية ـ التي سنرى أن سوسير، بعد مؤلف النص، يلمح إليها ـ هي موضوع، منذ أمد بعيد، للعديد من الدراسات والأوصاف. وبعيداً عن الفوارق العضوية البديهية التي تجعلها مختلفة عن لغة السكان الأصليين، فاللغات الصفيرية منها تتميز تصنيفياً تميّزاً يعرفه سوسير خلافاً لسلفه (مؤلف النص).

2. تعليقة سوسير:

إنها تشغل الصفحتين الأخيرتين (أي كما رأينا الورقة الأخيرة) من الوثيقة.

---

(16) لعلنا لاحظنا أن سفير فرنسا النبيل الذي كانه هذا المؤلف لا يستطيع أن يجاري المسافر المجهول الذي ذكره سوسير في أناقة التعبير في نصه.

(17) fatic communion: تبادل المجاملة؛ إتصال انتباهي، تبادل المشاعر، **مُعجم المصطلحات اللغوية**، ص370. (المراجع).

وكما قيل فيما سبق: فالصفحة الثانية (الرابعة من الوثيقة) لا تحتوي إلاّ على أربعة عشر سطراً (انظر الحدود بين الصفحتين على شكل عارضتين طوليتين //).

[213] ولا يمكن وصف النص الذي ننشره هنا بأنه نص بارع إلاّ لأنه يعيد ذكر الكلمات القليلة التي ضُرِب عليها، في الأعم الأغلب، كما سنرى، ليكرّرها. ولم يكن هناك في القول الحق أي صفة للمخطوطة تستحق أن يشار إليها.

«إن تسمية: السكان الأصليين هي بلا شك أكثر الأسماء مناسبة: لأنها لا تخبر بشيء عن الكائنات التي تشير إليها. وإذا رغبنا في أن نطلق عليهم اسماً آخر فيمكن أن نسمّيهم: المطقطقين *Crépitants*. لأن هذا هو في الواقع معنى الفعل اللاتيني *crepo*= طقطق وتكراره *crepito*. لكن هل من المناسب أن نجعل الكلمات تشير إلى خواص ما تشير ما تدل ما تشير إليه؟ إلاّ أن تسمية السكان الأصليين *Indigènes* ليست مميّزة بما يكفي عندما يتعلّق الأمر بالشيء[18] الذي تسمح في نهاية الأمر بالإشارة إليه على وجه التقريب. ولهذا أميل بلا ندم إلى تسميتهم بالمطقطقين *Crépitants*.

«نعم، إن السكان الأصليين المطقطقين يتكلمون، كما يقول مؤلفنا[19]، وإن ما يتكلمونه هو لغة لغة. هل تلك اللغة تصويرية؟ إنها كذلك قطعاً. لكن ليس هذا ما ينبغي النظر إليه هنا[20]. وإنني أقول قولاً أراه سديداً: إن النقطة الأساسية في

---

(18) الشيء هنا مأخوذ بديهياً بالمعنى المعتاد عند سوسير، وهو «الشيء المُراد تسميته» أي على الجُملة المرجع référent أو بالأحرى référend بحرف الدل d في نهاية الصفة المشبّهة، وليس التاء t الخبية في نهاية اسم الفاعل العامل الذي قد شاع للأسف في الاستخدام. ونذكر أن بنفينيست ظلّ زمناً طويلاً مخلصاً للكتابة الإملائية التأثيلية الصحيحة عندما يقول: «إن لكل ملفوظ وكل مصطلح للملفوظ مرجعاً référend». (1962-1966، 128).

(19) ربما نكون قد لاحظنا أن المؤلف الذي يذكره سوسير يمتلك الجرأة بلا تهور في استخدام مصطلح لغة، لكنه يتجنب استخدام فعل تكلم Parler. وإنه على الرغم من ذلك لمن البديهي أن الفعل وإن كان غائباً بحروفه فإنه مفهومياً موجود في فكر المؤلف. إذ هل من المصادفة أن يستخدم بلا تحفظ كلمة palabre التي تشترك مع كلمة parler، وإنْ بطريقة غير مباشرة، بالجذر الاشتقاقي نفسه (وكلمة parole التي يستخدمها المؤلف أيضاً).

(20) إن هذا الانصراف عن الجانب «التصويري» للغة المطقطقين يذكّر عبر قلب المعنى بالفقرة المشهورة في الرسالة المرسلة إلى مِيّيه Meillet المؤرخة في 4 كانون الثاني/يناير 1894 التي يعترف فيها سوسير بأنه لم يعد يهتمّ إلاّ «بالجانب التصويري في لغة ما» (ذكرها =

هذا النص هي الفائدة النظرية من وجود مثل هذه اللغة في حد ذاتها. إذ ما الفائدة من القول: إن المطقطقين لا يستخدمون، شأنهم شأن أغلب ~~الكتل الاجتماعية~~ المجتمعات أعضاء التي تدخل في إصدار الصوت؟ لقد رأوا أن الأكثر يسراً هو اللجوء إلى انتفاخات البطن الصوتية التي تحدث في أعماقهم، كما يقول مؤلفنا؟ والمهزلة هي لو أنهم استخدموا ضجة أخرى، كالصفير الذي يستخدمه السكان الأصليون لجزر الكناري ـ هل أسميهم المصفّرين *Sibilants*؟ أو هل أنسبهم إلى أي ضجة أخرى[21]. إن مؤلفنا على أي حال [214] متعجل عندما ~~يقارن~~ يماثل بين المطقطقين والمصفرين. فالمصفرون يكتفون عبر صفيرهم، عندما تجبرهم المسافة على ذلك، بإعطاء معادلات طويلة المدى لفونيمات لغتهم. وهم يمتلكون القدرة في الظروف العادية على ~~التلفظ~~ بها وعلى النطق بها نطقاً طبيعياً. وليس لتصفيراتهم من وظيفة إلاّ أن ~~تشير~~ تدل على الفونيمات: وهي ليست في واقع الأمر إلاّ نوعاً من ~~الكتابة~~ الكتابة[22]، التي لا تقوم إلاّ على علامات مسبقة. أما المطقطقون فإنهم بالعكس لا يمتلكون إلاّ أصوات انتفاخات بطونهم باستثناء «المترجمين» وحدهم، الذين تلقوا تأهيلاً خاصاً لممارسة وظيفتهم؛ وهم ليسوا مؤهلين

= بنفينيست، 1963-1966، 37). هل من الممكن أن نستخلص من هذه الجزئية ما يساعدنا على تحديد تاريخ التعليق في حوالى شهر كانون الثاني/يناير 1894؟

(21) نصادف هنا موضوعاً متواتراً في التفكير السوسيري: الصفة غير الضرورية للإظهار الصوتي في اللغات. ونحيل على وجه الخصوص إلى الطبعة النموذجية 1916-1922-1972، 26 وإلى **كتابات في اللسانيات العامة**، مواضع مختلفة، وعلى وجه الخصوص ص 215. وفي هذين الموضعين يستشهد سوسير بـ «ويتني». وأكثر الفقرات صلةً بالموضوع عند ويتني، والفقرة التي يلمح إليها سوسير في الموضعين هي التالية: «إنه خطأ تولد من الاعتياد أن نعدّ الصوت الأداة الخاصة باللغة؛ إنه أداة من بين أدوات أخرى». (حياة اللسان، 1877، 238). ولا يستشهد سوسير في التعليق الذي نشره ويتني. ويعود ذلك بلا شك إلى أنه يرى بحيرة أن ويتني يضرب حصراً مثالاً وحيداً على هذه «الأدوات الأخرى»، وهي الوسائل التكميلية الثلاث التي هي «الإشارة، والإيماء، والنبرة» (1877، 240). ونفهم أن المثال الأكثر إثارةً الذي يجده لدى المطقطقين تنسيه تماماً العمل التمثيلي المجهد والضعيف عند الأميركي [ويتني].

(22) هذا هو، في حدود ما أعرف، الموضع الوحيد من **كتابات** سوسير المعروفة اليوم الذي نجد فيه هذا الاستخدام الفضفاض لكلمة كتابة. وآية ذلك أنه مُستخدم ـ استخداماً متردداً يدل عليه الضرب على الكلمة ثم إثباتها ـ للإشارة إلى دليل ثان ـ دال الدال ـ دون أن يطلب أن يكون له حامل هو عبارة عن أثر كتابي.

لاستخدام أعضاء النطق، عدا، ربما، في بعض حالات «المحاكاة الصوتية» و«التعجب» التي يتحدث عنه المؤلف في تعليق موجز هو في رأيي مفيد كل الفائدة. ونعلم ما ينبغي التفكير فيه بخصوص عناصر ~~اللغات~~ هذه، عناصر اللسان هذه[23]! فعلى العكس إذاً من المصفرين، لا يمتلك المطقطقون فونيمات.

لكن ما الوحدات التي تقوم إذاً لديهم مقام الفونيمات؟ هنا أتردد، تردداً أعترف بأنه عبثي بين مصطلحين. أحدهما ذو جذور إغريقية: *le perdème*، المأخوذ من الفعل اليوناني...، الذي نعرف معناه[24]. والآخر هو معادله اللاتيني *crépitème*، المبني على نمط الفعل اللاتيني *crepito*. هل هما مترادفان؟ أقول ذلك بحذر[25]. ويبدو مع ذلك أن الترادف أمر واقع هنا.

«أما *perdôme* أو *crépitôme* فإننا على الفور نرى بما يتعارضان مع نظيريهما المنتهيين بـ *-èmes*: إنه الضجيج، الضجيج في حالته الخام، كما يُنتج ويُسمع. إن مؤلفنا الهاوي لديه استعداد لساني أكثر مما لدى بعض زملائنا// (حد الصفحة) وخصوصاً الألمان. لقد لاحظ أنه ليس من المطلوب أن تتوافر أصوات تحدث وتلحظ بطريقة [215] متطابقة باستمرار. إن لغة المطقطقين لا تضطرب بالاختلافات التي يلاحظها أكثر من اضطراب اللغة الفرنسية بسبب ~~تعدد~~ تنوع إحداثيات الصوت ر[26]= ر.

(23) يلمح سوسير هنا بديهياً إلى الأفكار التي تظهر في الطبعة النموذجية ص 101-102. نحيل إلى هذا الموضع لنعرف ما يفكر فيه سوسير بخصوص حالات المحاكاة الصوتية *onomatopées* والتعجب *exclamations*.

(24) نتنبأ به على الأقل. ولغير الهِلّينيّين الذين يتمسكون بمعرفة معنى الفعل نقول: إن الفعل اليوناني المقصود هو واحد من عدة أفعال يونانية ـ هناك عدد منها ـ تدلّ على «إحداث طقطقة مصحوبة بضجيج».

(25) نعرف أن سوسير «يحذره» من الترادف، لأسباب نظرية وجيهة (انظر على وجه الخصوص كتابات، مواضع مختلفة، وخصوصاً ص 74-76). وإذا كان الأمر ينتهي به هنا إلى أن يطرح المصطلحين *perdème* و *crépitème* على أنهما مترادفان فإن ذلك كما يظهر بسبب كونهما «لغة واصفة»، وسوسير لم يكن بعد حينئذ قادراً على استخدام هذا المصطلح.

(26) نجد هنا صدىً محدداً بدقة للفقرة الشهيرة من الطبعة النموذجية، ص 164-165. ولعلنا لاحظنا أن كره سوسير لنظرائه الألمان ما زال كعهدنا به. وننبه أخيراً لواقعة أن سوسير لا يلوم ألبتة المؤلف لاستخدامه مصطلح حرف *lettre* للإشارة إلى الوحدات الصوتية =

«مع ذلك، هناك موضع يخالجني فيه شك في تأملات المؤلف التي هي في القول الحق حذرة. يظن أنه لاحظ أن بعض المطقطقين متأثرون خصوصاً بهذا النوع من الكلمات أو ذاك: هؤلاء لكلمات العشق، وأولئك للمُعجم السياسي، وآخرون لكلمات الصيد. وإذا كان ذلك هو الأمر، فينبغي التفكير في أن لغة المطقطقين لا تخضع تماماً لمبدأ اعتباطية العلامات. فالمطقطقون عبر ذواتهم يقولون شيئاً ما عن معنى الكلمة. هل مثل هذه اللغة ببساطة ممكنة؟ أطرح السؤال بتردد يجتاحني حتى الأعماق. والوسيلة الوحيدة لإعطاء إجابة صلبة عن هذه المسألة الخطيرة هي تعميق البحث في لغة المطقطقين. ترى هل ما زال في الإمكان أن نفعل ذلك؟».

= للغة. ولا يدهشنا أبداً هذا التسامح: فسوسير يظهره أيضاً بخصوص بوب Bopp (1916-1922-1972، ص 46).

[217] ملحق

أدالبير ريبوتوا

ADALBERT RIPOTOIS

توفي أدالبير ريبوتوا في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 2003 في مستشفى كانكان (Kankan) (غينيا)، حيث كان يُعالج من ملاريا حادة نزلت به، وكان عمره 59 سنة.

إن حياته ومساره العملي موسومان بالأصالة. فقد كان دكتوراً في الطب منذ عام 1968، وحصل في عام 1972 على شهادة التبريز في العلوم الطبيعية. وناقش في عام 1979 رسالة في العلوم حول أنظمة الاتصال في مجتمعات «ماكروتيرم Macrotermes» (عائلة من الأرَضَة[1] تحتوي نمطين من العمال).

أقام أدالبير ريبوتوا منذ عام 1972 في غينيا العليا لتحضير رسالته. وظلّ هناك حتى نهاية حياته يمارس مهنة الطب في مستشفى كانكان ويدرّس في جامعة جوليوس نييريري (Julius-Nyeréré) علم السلوك الحيواني للحشرات[2] واللسانيات. وكان قد حصل للتوّ بناءً على نشاطه في هذا المجال الرهيب على الوسام الغاني للتعليم والثقافة برتبة قائد.

ومنذ عدة سنوات كان أدالبير ريبوتوا قد أُولع بأعمال سوسير، وتردد إلى مكتبة جنيف، عدداً من المرّات، لهذه الغاية.

لقد نشر أدالبير أشياءً قليلة. لكنه ترك عدداً من العُلب الكرتونية المملوءة بالنصوص غير المنشورة التي يمكن أن يُنشر بعضها في المستقبل.

---

(1) termite: أرَضة [حشرة تعيش في جماعات، تأكل الخشب]، **قاموس لاروس المحيط**، ص720. (المراجع).

(2) entomology: علم الحشرات؛ مبحث الحشرات، **مُعجم حتي الجديد**، ص143. (المراجع).

كان أدالبير حفيد أدولف ريبوتوا. ومسيرته تشبه كل الشبه مسيرة جده الذي لم يكد يعرفه، لكنه استعمل في بعض الأحيان التوقيع المختصر Ad. Ripotois الذي يجعل الناس يخلطون بينهما. ومع ذلك نلمح من بعيد في أعماله غير المنشورة اقتباساً يدلف من خلاله إلى عمله، إنه القول المأثور المشهور: «الكلمة هي الموت بدون حرف الراء»[3]. ونادراً ما نجد الترجمة الإنكليزية غير الحرفية التي تكفل له شهرة عالمية، «The word is the world without the hell».

جان فيرتز

---

(3) الكلمة بالفرنسية mot والموت mort. والفارق بينهما هو حرف الراء. وهذا كما لو قلت بالعربية: الحرف هو الحتف بإبدال الراء تاء. [المترجم].

[219] خاتمة في لبوس اعتراف

لقد كان من الصعب كما رأينا ذلك في الفصل الثاني أن ننطلق بمشروع وصف التفكير السوسيري. كان يمكن أن يصل بي الأمر إلى حد التساؤل عما إذا كان ذلك في الحقيقة ممكناً. وأجد الصعوبة نفسها في اللحظة التي أسعى فيها إلى تسجيل نهاية هذا المسار. ويعود ذلك إلى سبب بسيط: إنه مشروع لم يصل إلى نهايته أكثر مما وصلها التفكير الذي يزعم أنه يجلوه للناس.

إذاً سأكتفي بخاتمة في لبوس اعتراف. قد أكون تركت العنان لنفسي لتغريني الأشكال التي تتخذها التأملات المثابرة، التي لا تنتهي لدى أُستاذ جنيف. إن المواربات التي يرسمها، ويبدو أنه هو نفسه يضلُّ طريقه فيها بعض الأحيان، يزداد تعرّجها عندما نسير وراءه فيها ـ وأنا على أي حال سرتُ وراءه فيها ـ مُعْرِضين عن التفكير في الاتجاه الذي يقصده بلا شك. ولكي أضرب هنا مثلاً واحداً أقول: إن جدلية المصادفة واللاوعي تأخذ الشكل نفسه، شكل جيئة وذهاب لا نهاية له مهما كانت المسألة التي يود الوصول إليها: إنها مسألة التطور التعاقبي أو مسألة **الجناس التصحيفي**. وفي هذا الشكل يجد البحثان بلا شك مظهراً من مظاهر الوحدة.

ولعله من المناسب أن نحاول اصطناع «الجدية» حسب المصطلح الذي يستخدمه سوسير بخصوص **الحكاية الخرافية**. ويعني بهذا أنه من المأمول أن نفكر في شيء. الشيء الذي يستهدفه تأمل سوسير باستمرار وحصرياً هو اللسان واللغة غير منفصلين. هل من الممكن حقاً أن نبني اللغة بوصفها موضوعاً للخطاب العلمي؟ إن سوسير وهو يفكر في الشكل النوعي الذي يأخذه كتاب ما ـ أي كتاب هو؟ بلا شك إنه مشروع كتابه عن **الجوهر المزدوج للسان** ـ كان يُعدّه، وينقسم إلى «فقرات

[220] صغيرة جداً»، أفضى به الأمر قبلي إلى هذا الاعتراف حول رحلة المغامرات التي بدأها في «المستنقع»:

> لأن هذا الكتاب، يُظهر أول ما يُظهر أن الخطأ كل الخطأ في أن تتخيل أننا نستطيع طرح توليفة ألمعية في اللغة انطلاقاً من مبدأ محدد يتطور ويمتزج مع [].

ويُظهر أننا لا نستطيع فهم ما اللغة إلاّ بمساعدة أربعة أو خمسة مبادئ تتقاطع بلا توقف تقاطعاً يبدو أنه يحدث قصداً ليضلل أكثر النابهين والمتنبهين في فكرهم الخاص. إنها إذاً أرض ينبغي أن تظلّ كل فقرة فيها وكأنها قطعة صلبة مغروزة في المستنقع، مع القدرة على إيجاد طريقها إلى الخلف وإلى الأمام.

في حين أن الحقائق في المجالات الأخرى كلها تتعاضد، ويستدعي بعضها بعضاً كلما تقدمنا، ويبدو أن هناك حتمية تريد للغة أن تطمس كل حقيقة جديدة معالم الحقيقة الأخرى لأن الحقائق البدئية ليست حقائق بسيطة. (**كتابات، 95-96**).

سيكون من التهور بلا شك، وبالتأكيد من غير المفيد، أن نضيف أي شيء مهما كان على هذه الكلمات الأخيرة. لذلك ألتزم الصمت.

المصادر

- Aron Thomas (1970), "Une seconde révolution saussurienne?". *Langue Française*, 7, septembre, 56-62.
آرون طوماس (هل هي ثورة سوسيرية ثانية؟)

- Arrivé M. (1999), "Parole saussurienne et énonciation benvenistienne", *Mémoires de la société de linguistique de Paris*, Nouvelle série, t. VI, 99-109.
أزيفيه ميشال (كلام سوسير وتلفظ بنفينستي)

—. (2000), "Préface mêlée de souvenirs sur la préhistoire de la sémiotique" in Greimas, Julien Algirdas. *La mode en 1830*, PUF, XI-XXV.
ــــ. (تقديم يختلط بالذكريات عن ما قبتاريخ السيميائية)

- Arrivé M. et Chevalier Jean-Claude (1970), *La grammaire, lectures*, Klincksieck.
أزيفيه ميشال وشوفاليه جان ـ كلود (القواعد، قراءات)

- Arrivé M. et Coquet Jean-Claude (éds) (1987), *Sémiotique en jeu. À partir et autour de l'œuvre d'A.-J. Greimas*. Paris/Amsterdam, Hadès/Benjamins.
أزيفيه ميشال وكوكيه جان ـ كلود (رهان السيميائية. انطلاقاً من إنتاج أ.ـج. غريماس وحوله)

- Arrivé Michel (1982 c), Les services de la SELF: un moment de l'histoire de la linguistique française (1960-1968)", *Langue française*, p. 17-24.
أزيفيه ميشال خدمات جمعية الدراسات اللسانية الفرنسية: برهة من تاريخ اللسانيات الفرنسية (1968-1960)

——. (1986 a), "Intertexte et intertextualité chez Ferdinand de Saussure", in R. Theis et H.-T. Sieppe. *Le plaisir de l'intertexte*, Berne, Peter Lang, 11-31.
ــــ. (التناص والتناصية عند فردينان دو سوسير)

——. (1986 b), *Linguistique et psychanalyse: Freud, Saussure, Hjelmslev, Lacan et les autres*, Paris, Méridiens-Klincksieck.
ــــ. (لسانيات وتحليل نفسي: فرويد، سوسير، هيلمسليف، لاكان وآخرون)

. (1990), "Saussure: le temps et la symbolisation", in R. Liver, I. Werlen et P. Wunderli (éds), *Sprachtheorie und Theorie der Sprachwissenschaft, Festschrift für Rudolf Engler zum 60*. Geburtstag, Tübingen, Gunter Narr, 37-47.
ــــ. (سوسير: الزمن والترميز)

— . (1993), "Il y a temps et temps: modestes remarques sur les conceptions saussuriennes du temps", in *Les logiques du temps*, Orléans, Association Psypropos, 155-160.
ــــ. (هناك زمن وزمن: ملاحظات متواضعة على المفهوم السوسيري للزمن)

——. (1994), "Narrativités saussuriennes", in Jacques Brès (éd.), *Le récit oral, Montpellier*, Praxiling, 445-456.
ــــ. (السرد السوسيري، 445-456)

—. (1994-2005), *Langage et psychanalyse, linguistique et inconscient*, PUF, puis Limoges, Lambert-Lucas. ـــــ. (لسان وتحليل نفسي، لسانيات ولاوعي)

——. (1995), "Diachronie et linéarité", in M. Arrivé et Cl. Normand, *Saussure aujourd'hui*, 139-146. ـــــ. (تعاقبية وخطية)

. (1998), "Trois paradoxes relatifs à la 'linguistique de la parole'", *Et multum et multa, Festschrift für Peter Wunderli zum sechzigsten Geburtstag*, München, Gunter Narr, 3-15. ـــــ. (ثلاث متناقضات تخص (لسانيات الكلام))

——. (1998), "Unité linguistique et unité sémiologique chez Ferdinand de Saussure", in G. Quiroz, I. Berthoud-Papandropoulo, É. Thommen et C. Vogel (éds), *Les unités discursives dans l'analyse sémiotique*, Peter Lang, 11-21.
ـــــ. (وحدة لسانية ووحدة سيميولوجية عند فردينان دو سوسير)

. (2001), "La sémiologie saussurienne entre le CLG et la recherche sur la légende", *Linx*, 44, 13-27. ـــــ. (السيميولوجيا السوسيرية بين الدروس وبحث الحكاية الخرافية)

——. (2003), "L'autonymie chez Freud", in *Parler des mots: le fait autonymique en discours*, Presses de la Sorbonne Nouvelle, 317-333. ـــــ. (ذاتية الدلالة عند فرويد)

—. (2003), "Rudolf Engler, le maître des études saussuriennes", *Le Monde*, 16 septembre, 27. ـــــ. (رودولف إنكلر، رائد الدراسات السوسيرية)

. (2007), "L'anagramme au sens saussurien", *Actes du séminaire de Cesenatico*, Bologna, Università degli Studi. ـــــ. (الجناس التصحيفي بالمعنى السوسيري)

- Arrivé Michel et Normand, Cl. (éds) (1995), *Saussure aujourd'hui*, Nanterre, LINX.
أرّيفيه ميشال ونورمان كلودين (سوسير اليوم)

- Arrivé Michel, (1965) "Encore les indéfinis. À propos d'un article récent", *Le français moderne*, 2, 97-108. Voir Greimas (2000).
(النكرات أيضاً. تعقيباً على بحث حديث)

——. (1982 a), "Hjelmslev lecteur de Martinet lecteur de Hjelmslev", *LINX*, 6, 77-93.
ـــــ. (هلمسليف قارئ مارتينيه قارئ هيلمسليف)

. (1982 b), "La glossématique", *Trends in Romance linguistics and Philology*, La Haye-Paris-New York, Mouton, vol. 2, 305-351. ـــــ. (المنظومية)

——. (1996), "Modeste contribution à la tâche du dénombrement des Saussure", in M. Costantini et I. Darrault (éds), *Sémiotique, phénoménologie, discours*, Paris, L'Harmattan, 51-60. ـــــ. (إسهام متواضع في مهمة تعدد سوسير)

——. (2006), "Le texte du *Séminaire* de Lacan (à propos du livre de Gabriel Bergounioux, *Lacan débarbouillé*, Max Milo, 2005)", *Langage et inconscient*, 2, 147-149. ـــــ. (نص المحاضرة للاكان)

- Avalle d'Arco Silvio (1973), "La sémiologie de la narrativité chez Saussure", in Ch. Bouazis (éd.), *Essais de la théorie du texte*, Paris, Éditions Galilée, 19-49.
آفال داركو سيلفيو (سيميولوجيا السرد عند سوسير)

- Badir Semir (éd.) (2003), "Les aventures de Polytychus [dessins de Ferdinand de Saussure]", in Simon Bouquet (éd.), *Saussure*, L'Herne, 473-504.
بدير سمير (مغامرات بوليتيكوس [قصة مصورة لفردينان دو سوسير])

- Bally Charles (1932-1965), *Linguistique générale et linguistique française*. Bern. A. Francke AG Verlag.
بالي شارل (لسانيات عامة ولسانيات فرنسية)

- Barthes R. (1953-1972), *Le degré zéro de l'écriture*, Paris, Le Seuil.
بارت رولان (الكتابة في درجة الصفر)

. (1955), "Suis-je marxiste?" *Les lettres nouvelles*, 3e année, Juillet-août, n° 29. 191.
___. (هل أنا ماركسي؟)

. (1959), "Tragédie et hauteur", *Les lettres nouvelles*. 7e année, n° 8, 51-52.
___. (تراجيديا وارتفاع)

——. (1964), "Éléments de sémiologie". *Communications*, 4, 91-135.
___. (مبادئ في السيميولوجيا)

—. (1967), *Système de la mode*, Paris. Le Seuil.
___. (نظام الموضة)

—. (1970), S/Z, Paris. Le Seuil.
___. (س/ز)

—. (1974), *l'aventure sémiologique*, Paris, Le Seuil.
___. (المغامرة السيميولوجية)

. (1975), *Roland Barthes par Roland Barthes*. Paris, Le Seuil.
___. بارت بقلمه

- Barthes R. (1957) *mythologies*, Paris, Le Seuil.
___. (أسطوريات)

- Benveniste É. (1966), *Problèmes de linguistique générale*, Paris, Gallimard.
بنفينست إميل (مسائل في اللسانيات العامة)

— . (1954), "Tendances récentes en liguistique générale", *Journal de psychologie*, janvier-juin, in Benveniste, 1966, 3-17.
___. (اتجاهات حديثة في اللسانيات العامة)

——. (1962-1966), "Les niveaux de l'analyse linguistique", *Proceedings of the 9th International Congress of Linguistics*, cité ici dans 1966, 119-131.
___. (مستويات التحليل اللساني)

——. (1939-1966), "Nature du signe linguistique", in *Problèmes liguistique* générale, 49-55.
___. (طبيعة العلامة اللسانية)

——. (1963-1966), "Saussure après un demi-siècle", *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 20. cité ici dans 1966, 32-45.
___. (سوسير بعد نصف قرن)

——. (1964), "Ferdinand de Saussure à l'École des hautes études", *Annuaire 1964 EPHE*, 4e *section*. 22-34.
___. (فردينان دو سوسير في مدرسة الدراسات العليا)

——. (1966-1974), "La forme et le sens dans le langage", in *Problèmes de liguistique* générale, II. 215-238.
___. (الشكل والمعنى في اللسان)

. (1974), *Problèmes de linguistique générale*, II, Paris. Gallimard.
___. (مسائل في اللسانيات العامة)

- Bergounioux Gabriel (2004), *Le moyen de parler*, Lagrasse, Verdier.
برغونيو غبريال (القدرة على الكلام)

— . (2005), *Lacan débarbouillé*, Max Milo.
___. (لاكان متخلصاً من مازق)

- Bouquet Simon (1997), *Introduction à la lecture de Saussure*, Payot.
بوكيه سيمون (مدخل إلى قراءة سوسير)

——. (2005), "Un manuscrit retrouvé de Ferdinand de Saussure ébranle la linguistique contemporaine", *Pour la science*.

——. (العثور على مخطوطة لفردينان دو سوسير تهز اللسانيات المعاصرة)

- Brondal Viggo (1940-1941, puis 1998), "Édouard Pichon", *Acta linguistica*, 2, puis *Fenestra: Saussurean Study*, 45.
بروندال فيغو (دراسات سوسيرية)

——. (1943), "*Omnis et totus*: Analyse et étymologie", *Essais de linguistique générale*, Copenhague, Einar Munksgaard.
——. المطلق والكلي (تحليل وتأثيل)

- Caussat Pierre (1991), "Introduction" à Naville Adrien, *Nouvelle classification des sciences*, Didier Érudition, I-IX.
كوسّا بيير (مدخل» إلى نافيل أدريان)

——., voir Bouquet Simon (2005).

- Cervoni Jean (1987), *L'énonciation*, PUF.
سيرفوني جان (التلفظ)

- Chevalier J.-C. (avec Encrevé P.) (2006), Combats pour la linguistique, de Martinet à Kristeva, *Essai de dramaturgie épistémologique*, Lyon, ENS Éditions.
شوفالييه جان ـ كلود (مع أنكروفيه) (معارك من أجل اللسانيات، من مارتينيه إلى كريستيفا، محاولة في الدرامية الإبستيمولوجية)

——. (1984), "La création de revues dans les années 1960: matériaux pour l'histoire récente de la linguistique en France", *Langue française*, 63, 57-102.
——. (إنشاء المجلات في فرنسا في الستينات: مواد للتاريخ الحديث للسانيات في فرنسا)

- Choi Yong-Ho (2002), *Le problème du temps chez Ferdinand de Saussure*, L'Harmattan.
تشوي يونغ هو (مسألة الزمن عند فردينان دو سوسير)

- Chomsky Noam (1968-1970), *Le langage et la pensée*, Payot.
تشومسكي نعوم (اللسان والتفكير)

——. (1971), *Aspects de la théorie syntaxique*, Le Seuil.
——. (مظاهر للنظرية النحوية)

- Cohen Marcel (1958), *La grande invention de l'écriture*, Paris, Imprimerie nationale et Klincksieck.
كوهن مارسيل (الاختراع العظيم للكتابة)

- Coquet J.-C. (1985), "Éléments de biobibliographie [de Greimas]", *Recueil d'hommages pour Algirdas Julien Greimas*, s.l., John Benjamins, vol. 1, III-XXXV.
كوكيه جان ـ كلود (عناصر بيبليوغرافيا [لغريماس])

- Darmesteter A. (1887), *La vie des mots étudiés dans leurs significations*, Paris, Delagrave.
دارميستيتير أ (حياة الكلمات مدروسة في دلالاتها)

- Ducrot Oswald (1968), "Le structuralisme en linguistique", in *Qu'est-ce que le structuralisme?*, Le Seuil, 13-96.
ديكرو أوزفالد (البنيوية في اللسانيات)

- Décimo Marc (1994-1995), "Saussure à Paris", *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 48, 75-90.
ديسيمو مارك (سوسير في باريس)

——. (1999), "Une petite famille de travailleurs autour de Georges Guieysse: le monde de la linguistique parisienne", *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 52, 99-121.
——. (أسرة صغيرة من العمال حول جورج غوييس: عالم اللسانيات الباريسية)

- Engler R. (1988), "Diachronie: l'apport de Genève", *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 42, 127-166.
إنكلر رودولف (تعاقبية: إسهام جنيف)

——. (1974-1975), "Sémiologies saussuriennes 1", *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 29, 45-73.
——. (سيميولوجيا سوسيرية 1)

——. (1980), "Sémiologies saussuriennes II", *Cahiers Ferdinand de Saussure*, 34, 1-16.
ـــــ. (سيميولوجيا سوسيرية 2)

—. (2002), "Solide/ Non-solide: "le Cru et le Cuit", in *Le signe et la lettre. Hommage à Michel Arrivé*, Paris, L'Harmattan, 181-185.
ـــــ. (صلب/غير صلب: النيئ والمطبوخ)

- Fehr Johannes (2000), *Saussure entre linguistique et sémiologie*, Paris, PUF.
فهر جوانس (سوسير بين اللسانيات والسيميولوجيا)

- Fleury Michel (1964), "Notes et documents sur Ferdinand de Saussure", *Annuaire 1964 EPHE, 4e section*, 35-51.
فلوري ميشال (تعاليق ووثائق عن فرديناند دو سوسير)

- Flournoy Théodore (1893), *Des phénomènes de synopsie*, Genève et Paris.
فلورنوا تيو دور (ظواهر السماع الملون)(1)

——. Flournoy Théodore (1900-1983), *Des Indes à la planète Mars*, Genève, puis Paris, Le Seuil.
ـــــ. (من الهند إلى كوكب المريخ)

- Fontanille Jacques (éd.) (1995), *Le devenir*, *Limoges*, PULIM.
فونتاني جاك (المستقبل)

- Freud Sigmund (1899-2003), *L'interprétation des rêves*, Œuvres complète, IV, PUF.
فرويد سيغموند (تفسير الأحلام)

——. (1905-1988), *Le mot d'esprit et sa relation à l'inconscient*, Gallimard.
ـــــ. (الطرفة وعلاقتها باللاوعي)

-. (1910) [trd. Franc., 1971], "Des sens opposés dans les mots primitifs", *Essais de pshycanalyse appliquée*, Paris, Gallimard, 59-67.
ـــــ. (معان متعارضة في الكلمات البدائية)

——. (1910-1971), "Le sens opposé des mots primitifs", in *Essais de psychanalyse appliquée*, Gallimard, 59-67.
ـــــ. (المعنى المقابل للكلمات البدائية)

——. (1915-1988), "L'inconscient", *Œuvres complètes*, XIII,, PUF, 203-242.
ـــــ. (اللاوعي)

- Gadet Françoise (1987), *Saussure. Une science de la langue*, PUF.
غاديه فرانسواز (علم اللغة)

- Gandon F. (2006), *Le nom de l'Absent. Epistémologie de la science saussurienne des signes*, Limoges, Lambert-Lucas.
غاندون فرانسيس (اسم الغائب، إبستيمولوجيا السيميولوجيا السوسيرية)

——. (2002), *De dangereux édifices. Saussure lecteur de Lucrèce. Les cahiers d'anagrammes consacrés au* De rerum natura, Louvain-Paris, Peeters.
ـــــ. (صروح خطرة. سوسير قارئاً لوكراس)

- Georgy Guy (1992-1994), *Le petit soldat de l'Empire*, Flammarion, puis J'ai lu.

(1) Synopsie: نوع من الحس المتزامن، يتمثل في أنه إذا استمع أحدهم إلى صوت مُعيَّن ورد تلقائياً في ذهنه لون مُعيَّن. عن المنهل. [المترجم].

جيورجي غي (جندي الإمبراطورية الصغير)

- Godel Robert [1957-1969], *Les sources manuscrites du Cours de linguistique générale de Ferdinand de Saussure*, Genève, Droz, [1957, seconde édition, 1969].
غوديل روبير (المصادر المخطوطة لكتاب دروس في اللسانيات العامة)

- Gougenheim G. (1938), *Système grammatical de la langue française*, Paris, d'Artrey.
غوغنهايم ج. (النظام القواعدي للغة الفرنسية)

- Green André (1997), "Le langage au sein de la théorie de la représentation", in Monique Piñol-Douriez, *Pulsions, représentations, langages*, Lausanne et Paris, Delachaux et Niestlé, 22-66. غرين أندريه (اللسان ضمن النظرية العامة للتمثيل)

——. (2003), "Linguistique de la parole et psychisme non conscient", Ferdinand de Saussure, Paris, Éditions de L'Herne, 272-284.
——. (لسانيات الكلام والنفسانية اللاواعية، فرديناند دوسوسير)

- Greimas A. J. (1956), "L'actualité du saussurisme (à l'occasion du 40e anniversaire de la publication du *Cours de linguistique générale*)", *Le français moderne*, 3, 191-203, voir Greimas (2000).
غريماس ألجيرداس (الراهنية السوسيرية (بمناسبة السنة الأربعين لنشر كتاب دروس في اللسانيات العامة))

——. (1963), Comment définir les indéfinis? (*Essai de description sémantique)*", *Études de linguistique appliquée*, 2, 110-125. Voir Greimas (2000).
——. (كيف نعرف النكرات؟ (محاولة وصف دلالية))

——. (1966-1986), *Sémantique structurale*, Paris, puis PUF. (الدلالة البنيوية)

——. (1987 a), "Algirdas-Julien Greimas mis à la question", Arrivé-Coquet (éds), 1987, 301-330. ——. (ألجيرداس جوليان غريماس مستجوب)

. (1948 a), *La mode en 1830. Essai de description du vocabulaire vestimentaire d'après les journaux de modes (sic) de l'époque*, thèse principale pour le Doctorat des lettres, exemplaire dactylographié. Voir Greimas (2000).
——. (الموضة في عام 1830)

. (1948 b), *Quelques reflets de la vie sociale en 1830 dans le vocabulaire des journaux de modes de l'époque*, thèse complémentaire pour le Doctorat des lettres, exemplaire dactylographié. Voir Greimas (2000).
——. (بعض انعكاسات الحياة الاجتماعية عام 1830 في مفردات صحف الموضة في ذلك العصر)

——. (1980), "Roland Barthes: une biographie à construire", *Le Bulletin du GRSL*, 13. p. 3-7. ——. (رولان بارت: سيرة تحتاج إلى بناء)

——. (1985), "Avant-propos" à C. Zilberberg, 1985, 3-4.
——. ("تقديم" لكتاب كلود زلبيربرغ)

-. (1987 b), *De l'imperfection*, Périgueux, Pierre Fanlac. ——. (في النقصان)

- Greimas A. J. et Courtès J. (1979), *Sémiotique. Dictionnaire raisonné de la théorie du langage*, Paris, Hachette.
غريماس ألجيرداس وكورتيه ج. (سيميائية. معجم مرتب لنظرية اللسان)

- Grunig Blanche-Noëlle (2005), "Voisinages disciplinaires de la linguistique", in Christine Jacquet-Pfau et Jean-François Sablayrolles, *Mais que font les linguistes?*, L'Harmattan, 99-108 غرونيغ بلانش ـ نويل (المجالات المجاورة للسانيات)

- Hjelmslev L. (1968-1971), *Prolégomènes à une théorie du langage*, Paris, Édition de Minuit.
هلمسليف لويس (مقدمات تمهيدية لنظرية للسان)

—. (1985), *Nouveaux essais*, Paris, PUF.
___. (محاولات جديدة)

—. (1939-1995), "Communication au V^e Congrès international des linguistes", in Alessandro Zinna, 1955, 249-257.
___. (مداخلة في المؤتمر الدولي الخامس للسانيين)

- Hénault Anne (1992), *Histoire de la sémiotique*, Paris, PUF, "Que sais-je?".
هينو آن (تاريخ السيميائية)

- (2002), "Saussure et la théorie du langage" in A Hénault (éd.) Questions de sémiotique, PUF, 53-72.
___. (سوسير ونظرية اللسان)

- Jakobson Roman (1973), *Essais de linguistique générale*, II: *Rapports internes et externes du langage*, Éditions de Minuit.
ياكوبسون رومان (محاولات في اللسانيات العامة، 2: علاقات داخلية وخارجية للسان)

- Joseph John-E. (1999), "The colonial linguistics of Léopold de Saussure", *in* D. Cram, A.-R. Linn et E. Nowak (eds), *History of Linguistics 1996*, Oxford, Jesus College, Sheffield, University et Leipzig, University, 127-138.
جوزيف جون (اللسانيات الاستعمارية لدى ليوبولد دو سوسير)

- Jäger Ludwig, Buss Mareike, Ghiotti Lorella (2003), "Notes [de Saussure] sur l'accentuation lituanienne", in S. Bouquet (éd.), *Saussure*, L'Herne, 323-350.
جاغر لودفيك، بوس ماريكي وغيوتي لوريلا (تعاليق سوسير حول النبير الليتواني)

- Kim Sungdo (1991), *Ferdinand de saussure: de la langue au mythe*, thèse de l' Université de Paris X-Nanterre.
كيم سونغدو(فيرديناد دو سوسير: من اللغة إلى الأسطورة، رسالة قدّمت في جامعة باريس العاشرة)

—. (1993), "La mythologie saussurienne: une nouvelle vision sémiologique? (À propos de la continuité de la pensée saussurienne)" *Semiotica*, 97-1/2, 5-78.
___. (الأسطورة السوسيرية: هل هي رؤية سيميولوجية جديدة؟ (بخصوص الاستمرارية في فكر سوسير))

- Kleiber Georges (1990), *La sémantique du prototype, catégories et sens lexical*, PUF.
كليبر جورج (علم دلالة الأنماط، مقولات ومعنى معجمي)

- Kurylowicz Jerzy. (1927), "[schwa] i. e. et h. hittite", *Symbolae grammaticae in honorem Ioannis Rzwadowki*, Cracovie, 95-104.
كاريلوفتش د. جيرزي (الرمز النحوي في تكريم ليوانيس رزوادوفكي)

- Lacan Jacques (1966), *Écrits*, Paris, Le Seuil.
لاكان جاك (كتابات)

- . (1973-2001), "L'Étourdit", *Autres écrits*, Le Seuil 449-498.
___. (كتابات أخرى)

- . (1975), *Le Séminaire, Livre I, Les écrits techniques de Freud*, Le Seuil.
___. (الحلقة الدراسية، الكتاب الأول)

—. (1981), *Le Séminaire, Livre III, les psychoses*, Le Seuil.
___ (الحلقة الدراسية، الكتاب الثالث)

-. (2005), *Mon enseignement*, Le Seuil.
___. (تعاليمي)

- Landowski É. (éd.) (1997), *Lire Greimas*, Limoges, PULIM.
لاندوفسكي إ. (قراءة غريماس)

- Lévi-Strauss C. (1955), *Tristes tropiques*, Paris, Plon. ليفي ستروس كلود (مدارات حزينة)

- Martinet A. (1942-1945), "Au sujet des *Fondements* de la théorie linguistique de Louis Hjelmslev", *BSLP*, 19-42.
مارتينيه أ. (بخصوص أسس النظرية اللسانية عند لويس هلمسليف)

- Maxwell Gavin (1954-1961), *Le peuple des roseaux (A Reed Shaken by the Wind)*, Flammarion. ماكسويل غافان (شعب القصب)

- Milner Jean-Claude (1978), *L'amour de la langue*, Le Seuil. ميلنر جان - كلود (حب اللغة)

---. (1989), *Introduction à une science du langage*, Paris, Le Seuil.
——. (مدخل إلى علم اللسان)

. (2002), *Le périple structural. Figures et paradigmes*, Le Seuil. ——
(إبحار البنيوية، صور وأنساق)

——. (2005), "Structuralisme et linguistique structurale dans *Les mots et les choses*", *Langage et inconscient*, 1, 71-85.
——. (بنيوية ولسانيات بنيوية في الكلمات والأشياء)

- Moeschler Jacques et Reboul Anne (1994), *Dictionnaire encyclopédique de pragmatique*, Paris, Le Seuil. موشلر جاك وريبول آن (معجم موسوعي للبراغماتية)

- Mounin Georges (1969-1970), *Introduction à la sémiologie*, Édition de Minuit.
مونان جورج (مدخل إلى السميولوجيا)

- Nasio (1992), *Cinq leçons sur la théorie de Jacques Lacan*, Rivages-Psychanalyse.
نازيو (خمسة دروس عن نظرية جاك لاكان)

- Naville Adrien (1901-1991), *Nouvelle classification des sciences*, Paris, Félix Alcan, puis Didier Érudition. نافيل أدريان (تصنيف جديد للعلوم)

- Necker de Saussure Albertine (1828), *Éducation progressive ou étude du cours de la vie*, trois volumes, ouvrage cité ici d'après la 9e édition, Garnier Frères.
نيكر دو سوسير ألبرتين (التربية المتدرجة أو دراسة مسيرة الحياة)

- Normand Claudine (1995), "La coupure saussurienne", in M. Arrivé et C. Normand, *Saussure aujourd'hui*, Nanterre, *LINX*, numéro spécial, 219-231.
نورمان كلودين (القطيعة السوسيرية)

——. (2000), *Saussure*, Paris, Les Belles Lettres. ——. (سوسير)

- Parret Herman (1973), *Discussing Language, Dialogues with [...] Noam Chomsky*, La Haye, Mouton. باريه هرمان (مناقشة اللغة)

. (2002), *La voix et son temps*, Bruxelles, De Boeck Université.
——. (صيغة الفعل وزمنها)

- Pichon Édouard (1937), "La linguistique en France: problèmes et méthodes", *Journal de psychologie normale et pathologique*, 25-48.
بيشون إدوارد (اللسانيات في فرنسا: المشكلات والمناهج)

——. (1938), "À l'aise dans la civilisation", *Revue française de Psychanalyse*.
——. (العيش بحرية في الحضارة)

——. (1940-1941, puis 1998), "Sur le signe linguistique. Complément à l'article de M.

Benveniste". *Acta linguistica*, 2, puis *Fenestra: Saussurean Study*, 44.
ـــــ. (حول العلامة اللسانية. تتمة لمقال السيد بنفينيست)

- Pozzato M.-P. (1997), "L'arc phénoménologique et la flèche sémiotique", in Landowski (éd.), 1997, 61-84. بوزاتو م.-ب. (القوس الظواهري والسهم السيميائي)

- Puech Christian (2005) "L'émergence de la notion de 'discours' en France et les destins du saussurisme", *Langages*, 159, septembre, 93-110.
بويك كريستيان (انبثاق مفهوم الخطاب في فرنسا ومصائر السوسيرية)

- Pétroff André-Jean (2004), *Saussure: la langue, l'ordre et le désordre*, L'Harmattan.
بيتروف أندريه - جان (سوسير: اللغة والتنظيم والفوضى)

- Sandomir Dr Irénée Louis, LXXXVI E. P. *Opus pataphysicum, Testament de sa Feue Magnificence le Docteur I. L. Sandomir, de son vivant Vice-Curateur Fondateur du Collège de Pataphysique*, Collège de Pataphysique.
ساندومير - د. إيرينيه لويس (86 قطعة في الباتافيزياء)

- Saussure F. de (1881), *De l'emploi du génitif absolu en sanscrit*, Genève, J. G. Fick, Cité ici d'après Saussure, 1922-1984, 269-338.
(دو) سوسير فردينان (في استخدام حالة الجر المطلق في السنسكريتية)

——. (2003), "Lettres de Leipzig (1876-1880)", Présentation et édition par Mareike Buss, Lorella Ghiotti, Ludwig Jäger, in S. Bouquet (éd.), *Saussure*, L'Herne 442-472. ـــــ. (رسائل من ليبزغ (1876-1880))

. (1879 [1878]), *Mémoire sur le système primitif des voyelles dans les langues indo-européennes*, Leipzig, B. G. Teubner. Cité ici d'après Saussure, 1922-1984, 1-268. ـــ. (المذكرة في النظام الأولي للصوائت في اللغات الهندو أوروبية)

- Saussure Horace Bénédict de (1779-1796-1874), *Voyage dans les Alpes*, quatre volumes. Cité ici d'après Zürcher et Marjolle, *Les ascensions célèbres*, Hachette, 1874. (دو) سوسير هوراس بنديكت (رحلة إلى جبال الألب)

- Saussure Léopold de (1899), *Psychologie de la colonisation française dans ses rapports avec les sociétés indigènes*, Paris.
(دو) سوسير ليوبولد (سيكولوجية الاستعمار الفرنسي في علاقاته بمجتمعات السكان الأصليين)

- Saussure R. de (1918), *La structure logique des mots dans les langues naturelles considérée au point de vue de son application aux langues artificielles*, Berne.
(دو) سوسير ريمون (البنية المنطقية للكلمات في اللغات الطبيعية منظوراً إليها من وجهة نظر تطبيقها على اللغات الاصطناعية)

——. (1922), *La méthode psychanalytique*, Genève et Lausanne, Payot.
ـــــ. (المنهج التحليلي النفسي)

- Saussure René de (1911), *Principes logiques de la construction des mots en espéranto*, Genève, Kündig.
(دو) سوسير رينيه (المبادئ المنطقية لبناء الكلمات في «الإسبرانتو»)

- Saussure Théodore de (1885), *Étude sur la langue française. De l'orthographe des noms propres et des mots étrangers introduits dans la langue*, Genève, Cherbuliez et Paris, Fischbacher. (دو) سوسير تيودور (دراسة في اللغة الفرنسية)

- Shepeard David (1986), "Saussures Anagramme und die deutsche Dichtung", *Schprachwissenschaft*, II, 52-67. شيرد دافيد (الجناس التصحيفي السوسيري)

- Starobinski Jean (1971), *Les mots sous les mots. Les anagrammes de Ferdinand de Saussure*, Gallimard.
ستاروبنسكي جان (الكلمات على الكلمات، ظواهر الجناس التصحيفي عند فردينان دو سوسير)

- Suenaga Akatane (2005), *Saussure, un système de paradoxes. Langue, parole, arbitraire et inconscient*, Limoges, Lambert-Lucas.
سويناغا أكاتان (نظام من المفارقات، لغة، كلام، اعتباطية)

- Toussaint Maurice (1983), *Contre l'arbitraire du signe*, Didier Érudition.
توسان موريس (ضد اعتباطية العلامة)

- Turpin Béatrice (2003), "La légende de Sigfrid et l'histoire burgonde", in Simon Bouquet (éd.) *Saussure*, L'Herne, 351-429.
توربان بياتريس (حكاية سيغفريد الخرافية والتاريخ البورغوندي)

- Vilela Izabel (2005), "In principio erat verbum", *Langage et inconscient*, I, 118-142.
فيليلا إيزابيل (لسان ولاوعي)

. (2006), «*In principio erat verbum*, ou la linguistique aux origines de la psychanalyse: qu'en est-il de Saussure?», Langage et inconscient, 1, 118-142.
ـــــ. (اللسانيات في أصول التحليل النفسي: ما وضع دو سوسير؟)

- Wagner R.-L. (1948), "Le langage et l'homme", *Les Temps modernes*, 30, 1583-1611.
فاغنر ر.ل. (اللسان والإنسان)

——. (1953), *Grammaire et philologie (préliminaires)*, Paris, CDU.
ـــــ. (قواعد وفيلولوجيا (مقدمات))

- Whitney William Dwight (1875-1877), *La vie du langage*, Paris, Germer-Baillère. Cet ouvrage est la traduction, effectuée par Whitney lui-même, de son ouvrage *The Life and Growth of Language. An Outline of Linguistic Science*, 1875. Le texte est cité ici d'après la reproduction en fac-similé de l'édition de 1977, Paris, Didier Érudition, s.d., préface de Claudine Normand. ويتني وليم دوايت (حياة اللسان)

- Wunderli Peter (1972), *Ferdinand de Saussure und die Anagramme. Linguistik und Literatur*, Tübingen, Niemeyer. وُندرلي بيتر (فردينان دو سوسير والجناس التصحيفي)

. (1990), *Principes de diachronie*, Frankfurt-am-Main, Bern, New york, Paris, Peter Lang. ـــــ. (مبادئ التعاقبية)

- Zilberberg C. (1985), "Retour à Saussure?", *Actes sémiotiques*, VII, 63, 5-38.
زلبيربرغ كلود (أهي عودة إلى سوسير؟)

. (1997), "Une continuité incertaine: Saussure, Hjelmslev, Greimas", in Alessandro Zinna (éd.), *Hjelmslev aujourd'hui*, Turnhout, *Brepols*, 165-192.
ـــــ. (استمرارية غير مؤكدة: سوسير)

- Zinna Alessandro (1995), "Linéarité et devenir", in Jacques Fontanille, 1995, 243-264. زينا أليساندرو (خطية وصيرورة)

تنبيه: نجد في توثيق بعض الأعمال تاريخين، الأول هو تاريخ الطبعة الأصلية، والثاني هو تاريخ الطبعة المستخدمة في الكتاب.

[221] كشاف أسماء الأعلام[1] والأماكن

تنبيه

1/ لا يحيط كشاف الأعلام هذا بكل شيء. وما خلا بعض الاستثناءات التي تجد في كل مرّة تسويغاً خاصاً أوردنا فيه الأسماء المذكورة في النص وحواشيه، وليس الأسماء التي ترد في قائمة المراجع والمصادر.

(1) أوردنا الأسماء بالعربية لأننا أوردناها عند أول ورود لها بلغتها الأصلية. [المترجم].

أبولو (أبوللو) 219، 225، 248، 250
أبيل، كارل 220
آداموف، أرتور 273
آداوكارو/ آدواكارو 223-224
آدم (أبو البشرية) 139-140، 146
آرون، توماس 222
أرّيفيه، ميشال 9، 12-13، 15-17، 19، 130، 132، 165، 176، 204، 207، 220، 238، 256، 258، 280
الإسكندرية 256-257، 261، 266
آغاممنون 228
أغسطين (القديس) 90-91، 239
آفال، داركو سيلفيو 131، 145
أفروديت 220
أفلاطون 23، 94
أندرونيكوس، ليفيوس 212
أنقرة 257
إنكلر، رودولف 198، 201-203، 214، 217، 240-241، 243، 247، 280، 298
أوستهوف، هيرمان 54
بارت، رولان 16، 30، 34، 37، 71، 129-130، 255-261، 263، 265، 271-278، 302
باريس 19-20، 52، 55-57، 255-258، 266، 286، 300، 302
بازيه، هيرمان 60، 176
باسكال، بليز 233-234
باسكولي، جيوفاني 205، 252-254
بالي، شارل 19، 36، 61
براغ 266
برلين 55
بروغمان، كارل 52
بروندال، فيغو 89، 264-265، 272
برونو، شارل 256، 261
برونوتيير، فردينان 234
بريال، ميشال 56-57
بريساش 223
بكتيه، أدولف 51
بلوك، مارك 269
بنديكت، هوراس 46
بنفينيست، إميل 33، 37، 56، 74، 88-89، 91-92، 160، 303
بنيديكت 45
بوالو، نيكولا 45، 47
بوب، فرانز 52، 155
بوجاد، بيير 274
بودزانو، ماريا-بيا 267
بورتاليه، لويس دو (زوجة هنري دو سوسير) 49
بورغوندي 135
بوس، ماريكي 28
بوسّويه، جاك بينيي 233-234

بوكيه، سيمون 20، 83، 89، 156–158، 280
بونتاليس، جان-بيرتران 263
بوهلير، كارل 183
بويك، كريستيان 159
بيتروف، أندريه جان 176، 189-190، 198-199
بيرغونيو، غبريال 154-155
بيشون، إدوارد 87، 274
بيلاّي، جواكيم دو 233
بيير (الأب) 273، 275
تروبتسكوي، نيكولا 33، 37
تروميتيللي، ألفريدو 29
تريستان 21، 30، 60، 138، 146، 150، 203
تربيه، جوست 261
تشومسكي، نعوم 155، 169، 171
تشوي، يونغ هو 25
توربان، بياتريس 130
توماّن، موريس 93-94
تيث _ ليف 219
تيوديريك 35، 49
جاري، ألفريد 212
جاغر، لودفيغ 58
جنيف 15-16، 19-20، 36، 45، 47، 49-53، 56-57، 59-60، 67، 133، 135، 156، 161، 175، 187، 201، 245، 266، 293، 295، 300
جوزيف، فرانسيس 86، 163
جون، جوزيف 50
جيورجي، غي 288
دارميستيتر، أرسين 262
داموريت، جاك 274
دورافور، أنطونان 266
دون كيشوت 229
ديبوي، ميشال 38
ديسيمو، مارك 56
ديغاليه، جورج 103، 171
راستييه، فرانسوا 156
راسين، جان 235
روبير، غوديل 20
روسو، أندريه 53
روسو، جان جاك 48، 210
روما 59
رونسار، بيير 233
ريبوترا، أداليير 31، 279، 293
ريبوترا، أدولف 31، 293
ريبول. آم 154
ريدار، إميل 59
ريدلينجر، ألبير 36، 60، 98، 181
ريكور، بول 256
زان (اسم روحي لأحد الرون) 145
زولا، إميل 279، 288
زيلبيربرغ، كلود 270
زينا، أليساندرو 182
ساندومير، لويس إيريني 144
ستاروبنسكي، جان 20، 24، 38-41، 61، 104، 205، 210، 212، 219، 221-222، 224-225، 227-229، 250-253، 275
ستروس، كلود ليفي 14، 34، 37، 259، 267–270، 275
سرفانتس، ميغيل 229
سميث، هيلين 59
سوسير، تيودور دو 47-48
سوسير، ريمون دو 57، 245
سوسير، رينيه دو 35، 49، 51
سوسير، فردينان دو 9، 11، 15-17، 20، 23، 45، 47، 57، 60، 68، 237، 245، 259، 267، 269، 278-280، 297-300، 304، 313، 326
سوسير، ليوبولد دو 35، 49-50، 195، 302
سوسير، نيكولا دو 47
سوسير، هنري دو 49

سوسير، هوراس دو 49
سوسير، هوراس-بنديكت دو 45–46، 49
سولكسور ـ سور ـ موزيلوت 45
سونغدو، كيم 225
سوير، جاك دو 57
سويناغا، أكاتان 25، 238
سياغ، لوسيان 273
سيبيو 39، 219
سيرفوتي، جان 73، 154
سيريزي ـ لا ـ سال 256
سيزار، جوليو 40
سيشهي (زوجة ألبير) 60
سيشهي، ألبير 19
سيغموند، سيغيزموند 223
شلوايزر (دو)، بوريس 271
شوفالييه، جان كلود 255، 258، 261
شيراك، جاك 115
غاديه، فرانسواز 63
غاربو، غريتا 273
غاندون، فرانسيس 38، 61، 100، 131، 219، 221، 250، 281
غرامون، موريس 56
غراهام، بيلي 274
غرونيغ، بلانش ـ نويل 178
غريماس، ألجيرداس-جوليان 16، 37، 71، 129-130، 200، 255-263، 265-274، 276-278، 297، 300-301، 303، 319، 326
غرين، أندريه 66، 156-157
غوتيه، ليوبولد 61
غوديل، روبير 37، 180
غوغنهايم، جورج 266
غونتر 138، 142
غويس، جورج 300
غيرميت، لويس 23
غيرو، بيير 255
غينيا العليا 293
غيوتي، لوريلا 58
فاغنر، روبير ـ ليون 256، 261، 266
فايش، ماري (زوجة فردينان دو سوسير) 57
فرجيل 227-228، 252
فردينان، ريمون بن 245
فرويد، سيغموند 13، 30، 57، 59، 121، 206، 220-221، 223، 238-239، 242-245، 248، 250، 269، 297-298، 314
فريدسايلا (فيرسي) 223
فريساش 223
فلورنوا، تيودور 58، 245
فلوري، ميشال 56
فهر، يوهان 130، 133، 136، 140
فود (مقاطعة) 135
فوسيللون، هنري 271
فوكو، ميشال 182
فيرتايمر، جوزيف 60
فيرتز، جان 31
فيلغرانش 257
فيليلا، إيزاييل 238، 245
قسطنطين، إميل 20، 60، 74، 78، 86، 159، 163، 170، 187، 214
كامو، ألبير 255
كاناري (جزر) 284، 287، 290
كانتونا (موقع أثر ما قبل كولومبي في المكسيك) 49
كانط، إيمانويل 23
كانكان (غينيا العليا) 293
كاي، لويس 60
كلاباريد، إميل 58
كلوفيس 143
كليبر، جورج 90
كورتيس، جوزيف 263، 270، 272
كورتيوس، جورج 52
كوردفان 187

كوكيه، جان-كلود 200، 256
كوماتسو، إيزوكي 20-21، 46، 72، 74-75، 77-78، 81-83، 111، 159-161، 163، 167-168، 214
كوني، ألبير 54
كوهن، مارسيل 145
كيم، سونغلدو 131
لافونتين، جان دو 233
لاكان، جاك 13-14، 30، 34، 37-38، 49، 72، 75، 90-91، 98، 108-109، 184، 187، 238-239، 243-244، 246-247، 250، 257، 269، 275، 297-299، 303
لاكتانس 210
لاكروا، موريس 23
لوت، فردينان 56
لوفينر، لوفيور، لوفيفر 216
لوكراس 249، 301
ليبزغ (اسم مدينة) 36، 52-53، 55، 304
ليتوانيا 55، 255
ماتوريه، جورج 262
مارتينيه، أندريه 14، 258
مارو، كليمان 233
مارينيتي، آنا 20، 130
ماكــويل، غافان 287
ماورو (دي) توليو 19
مورازيه، شارل 269
موريل، لويس 52
مولنر، إليز-كاترين 59
مونان، جورج 275
ميرلو - بونتي، موريس 37، 267، 14، 34
ميلنر، جان-كلود 91-92، 238
ميلي، مارشيلو 20، 130
مينر، غوستاف 54
مييه، أنطوان 37، 56، 59، 61، 64، 262
نابولي (اسم مدينة) 59
نادو، موريس 273
نازيو، خوان دافيد 246
نافيل، أدريان 67، 69، 134، 299
نورمان، كلودين 110، 130
نيكر دو سوسير، ألبيرتين-أدريان 47
هاجيج، كلود 225
هاجيبه 225
هوبشمان، هينرتش 53
هوميروس 18، 205، 211، 213، 227-228
هيرودوت 51
هلمسليف، لويس 37، 76، 100، 155، 180، 182-183، 256-259، 261، 264-265، 270-271، 273، 275-277، 297-298، 303، 315-316
هينو، آن 110، 129، 131
وولف ديترتش143
وندرلي، بيتر 238
ويتني، وليم دوايت 55، 58، 60، 84، 87، 94، 107، 114، 133-134، 137، 148، 159، 192-193، 195، 197، 201، 215، 239، 243، 290
جاكوبسون، رومان 96-97، 121، 176، 182، 259

[225] كشاف المفاهيم

آداب السلوك 137، 200، 214، 240
الأحداث الصوتية 192، 195
أخت 85-86
أداة النفي 126
الأدب 16، 30، 210-212، 215-216، 224، 226، 234، 270، 273
الأدبي 228-231
الأدبية 215، 222-224، 226-228
أسلوبية 168
أسماء الأعلام 223-224
الأسمانية 136
الأشباح 204
الأشخاص المتكلمين 155
الأشياء 92، 234
أصغر وحدة صوتية 76
أصل 60، 131، 140-141، 154، 167، 170، 180، 191، 203، 243
أصله 154
الأصوات 228، 285، 290-291
أفعال الكلام 125، 165، 187
أفعال اللسان 165
أفكار 11، 15
أفكاراً 132
أقارن 214
أكوستيكية 78
ألسنة الإيحاء 265
ألقاب 13، 69، 135، 144-145، 147، 150، 201-202، 207، 251
ألقاب الصم والبكم 70، 214
ألقابهم 285
أنظمة 131
أنظمة الزواج 240
أنظمة العلامات 68، 136-137، 271
آي للشروط الطبيعية للمقطع 160
الإبستيمولوجيا 121، 267
الإبستيمولوجية 74، 257
الإسبرانتو 50، 132
إسم 88
الإشارات 70
الإطار الزمني 198
الإملاء 115
الإيحاء 274، 277-278
إيحائية 274
ائتلاف 115
الاتصال 118
الاحتمال 287
الاحتمالي 119
الاحتمالية 103
الاختلاف 85-86، 106، 112، 115- 117، 120، 123، 130، 132، 142، 147، 168، 185، 187، 190، 194، 229، 240، 242-243، 266، 275-276
الاختلافات 117-118، 247، 285، 291
ارتباط 89، 92، 168، 212، 215
الاستعارة 69، 76-77، 93، 99، 105، 107-109، 123، 162، 166-167، 205، 208
استعارة لعبة الشطرنج 193
الاستعارة المشهورة للورقة 81، 107
استعارة المصباح السحري 100
استعارة المنطاد 77

اسم 72، 78، 134، 140، 143-144، 146-147، 154، 163، 165، 173، 180-181، 192، 196-197، 202، 210، 219-223، 225، 228، 233، 237-238، 242، 248-250، 252-254، 256-257، 262-263، 271، 274، 282-283، 289
اسم علم 39-40، 48، 219، 221، 224، 227، 229، 249
الاسم الموصوف 126
اسمي 188، 240
الاشتراك 75، 113، 144، 147
اشتقاقي 170
الاعتباطية 86، 89، 91-95، 103، 109-110، 113-114، 177، 292
اعتباطية العلامة 81-83، 85، 95-96، 111، 177، 181، 192، 214، 218
اقتران 113
انتظام 201
انتقال 224
الانتقالات والتغييرات 150
البالون 77
البحر 105
بلاغة 168، 234، 239، 258
بنية 90، 112، 192، 194، 238-239، 247، 269
البيت الساتورني 219
تآلف 216
التأثيل الشعبي 197
التأثيلي 211
التأليف 117، 194، 251-252
التأليفي 251
التأليمية 161
تتابع 85، 100، 104-105، 171، 178، 183، 217-218، 222، 241
التتابعية 106، 226، 231
تحاكي أصوات الطبيعة 83
تحفيز 167
التحول 150، 240
التخالف 114
تدل 166، 214، 275، 290
الترابط 170، 241
الترابطية 101، 109، 121، 171
الترادف 112، 291
التراكيب 119، 170، 172
التركيب 101-102، 119، 160-161، 169-170، 172، 183، 188، 213، 218-219، 250، 284
تركيبات 119
تركيبي 241
تركيبية 121، 160، 170
التزامن 51
التزامني 244، 247
التزامنية 16، 42، 121-123، 127، 179-180، 188، 198-199، 205، 262، 266-268، 272
التسميات 146، 204
تسمياتي 158، 161
التسمياتية 131، 146
تسمية 67، 90-91، 140، 154، 162، 165، 213، 249، 289
التشابه 213، 247
تشبه 294
التصنيف 71، 84، 90، 196، 215
التصنيفي 212، 215
التصور 127، 136، 166، 195، 230، 278
تصور التغيير 191
التصويت 160، 162
التضاد 51، 72، 77، 84، 220
التطابق 86-87، 103، 114، 118، 125-127، 138، 144، 149، 185-188، 201، 260
التطبيق 166، 272
تطبيقها 166

تطور 92
التعاقب 23، 51
التعاقبي 187، 191، 229-230، 247، 295
التعاقبية 16، 42، 98، 118، 121-127، 167، 179-180، 184، 188-190، 197-199، 202-203، 205، 231، 244، 262، 266-268، 272
تعاقبية الخطاب 184، 187
التعجب 83، 94، 291
تغيّر الدال 117
تغير العلامات 114
التغيّرات 151
التغيُّرات الصوتية 50، 198
التغيير 16، 122-124، 145-146، 167، 180-181، 187-190، 193-196، 199، 203، 205، 208، 215، 228-229، 240، 249
التغيير الصوتي 161
التغيير القياسي 161
تغييرات الصوت 160
التغييرات الصوتية 192، 195
تفصل 170
التقابل 214، 242
تقابلها 116
التكثيف 248
التكرار 108، 127، 176، 179، 185، 191، 215
التكرارية 169
التلفظ 154، 165، 185، 290
التماثل 194
التمفصل الدال 246
التنبوءات 219، 225
التنبير 58
التنظيم 123، 170، 172، 182، 202، 204، 206
التنظيم الحدسي 172
التنظيم الخطابي 172
التورية 53
التوليف 170-171، 230
توليفات 119، 170، 227
توليفات عابرة 204
توليفة 296
توليفة العناصر 160
الثانوي 73
ثنائية التزامن والتعاقب 272
جُبّة المُرقّعة برُقَع 123
الجرمانية 203
الجسد 77، 93، 204، 155
جماعة المتكلمين 228
الجُمل 157
الجُملة 102، 105، 119، 126، 143، 146، 148، 157، 159، 168-170، 172، 182-183، 200، 216، 221، 230، 241، 243، 250
الجُملية 123
جمهور المتكلمين 125-126، 189-191
الجناس 20
الجناس التصحيفي 24، 27-28، 39-41، 43، 61، 100، 104-105، 177، 205-207، 209، 211-212، 218-229، 231، 248-253، 281، 295
الجناس المنحوت 61
جناسية تصحيفية 223
الجهاز المصوت 50
الجهة 131
الجوهر 64، 100، 196
جوهر اللغة 217
الجوهر الزئبقي 64
جوهره 113، 147، 178، 216
الجوهر المادي 92
الجوهري 72، 141، 154، 157، 160، 167-168، 171، 179-180، 189، 204، 211، 229، 231، 239، 252، 260،

274-275، 287
الجوهرية 249
حار 126، 185
حد 171
حَدَثٌ 117
الحدسي 119
حرب 187، 258، 266
حرف 85، 101، 116، 135، 144-146، 175، 179، 201، 204، 216-217، 222، 225، 232، 239، 248، 280
الحرف الخيشومي المصوت 51-52
حرفي 211، 231، 248، 277
الحرفية 191، 222، 224-225، 227، 240، 269، 275
الحروف 70، 213، 220-221، 241، 248، 251، 284-285
حساب 125، 149، 252-253
حسب 39
حصان ضخم 169
الحكاية الخرافية 15، 21، 24، 28، 42، 60، 84، 95، 129-131، 133-151، 176، 189، 191، 194، 201-204، 208-209، 211-215، 218، 222-227، 229-231، 259، 295
خلف 210
الحُلْم 206، 248
الحنجرية 54
الحياة 257، 273
حياة العلامات 69، 192
الخارجية 66
خاف 109، 112
الخروف 112
خشي 109، 112
الخطاب 15، 101، 106، 109، 120-121، 127، 134، 154، 156-159، 162، 165-168، 173، 180، 188-189، 198، 205-206، 209، 215، 218، 224، 226، 230، 239، 249-250، 277، 284، 295
الخطابات 209، 217، 275
الخطابي 119
خطوة 126، 43، 96-99، 101-103، 106، 119، 123-127، 160، 181-183، 190، 203، 205، 207، 218-222، 224، 226-227، 229، 250
خطية الدال 104، 124، 218
خطية العلامات 219
خطية اللغة 106
الخوارزميات السويسرية 247
دال 42، 77، 80-83، 85-88، 90-93، 95، 97، 99-101، 106، 110، 112-113، 115-118، 120-121، 123، 138، 154، 164، 171، 177، 180-183، 192، 216، 218-219، 222، 226-227، 265، 267، 269-271، 275
الدال 87
الدال الكتابي 217
الدرجة 241
درجة الوعي 240، 242، 244
الدروس 168
الدلالة 16، 42، 77، 91، 115، 163، 168، 183، 243، 257، 274-275، 277-278
دلالي 220
الدلالية 114
الدوال 247
الدوال الأكوستيكية 105، 177
دورة الكلام 118
راغب 169
الربط 122، 146
الرتب العسكرية 69، 200، 214، 259
الرمز 54، 83-84، 94-95، 142-143، 146، 148-149، 202، 205، 214-215، 231

الرمز المستقل 87
الرمزية 69
الرموز 139
رونية 202
الزرافة 90-91
زلّة اللسان 121
الزمان 287
الزمانية 99
الزمن ـ الإطار 189
الزمن ـ الفاعل 189
الـزمـن 16، 97، 99، 101، 104-105، 123-127، 132، 134-135، 147-150، 160، 172، 175-180، 183-186، 188-191، 196، 198-200، 202-208، 218، 222، 229، 231، 263، 273
الزمنية 97-98، 100، 180، 198
السادة 187
الـسـبـب 180، 199، 209-210، 230، 242، 252، 270، 272، 295
السببي 204
السببية 247
السكان الأصليين 289
السلبي 162
السلبية 117-118، 168، 243، 255
السهم 208
السيرة 201، 256، 279
السيم 76
السيميائيات 14-16
الـسـيـمـيـائـيـة 8-9، 30، 129-130، 256-260، 273-274
السيميولوجي 95، 228
السيميولوجيا 30، 34، 41-42، 55، 60، 67-71، 74، 103، 129-134، 136-140، 142، 145-146، 148، 151، 168، 176، 194، 200، 202-205، 208، 210، 214-215، 229، 256-260، 271، 273، 275-278
السيميولوجية 139، 217، 222، 231
الـسـيـتيم 76
الشاعر 227، 250، 252
الشبه 194
الشخصيات 202
الشخصية 202، 207
الشخصية الخرافية 146
الشعر 232-233، 235، 252
الشعراء 229، 233، 247، 252
الشكل ـ المعنى 65-67، 77
الـشـكـل 65-66، 100-101، 105، 115-116، 119، 124، 144، 150-151، 153، 172، 192، 198-199، 201، 208، 216، 221، 223، 227، 229-230، 233، 235، 237، 264-265، 267، 280، 284، 289، 295
الشهيرة 248
الـشـيء 47، 77-78، 87-89، 91-92، 104، 116-120، 124، 127، 139، 147، 149-150، 154، 165، 168، 173، 178، 187-189، 192، 197، 201، 204، 215، 220-222، 230، 249، 257، 283، 285، 289، 295-296
الصائت 98، 178، 192
الصفات 141، 204
الـصـفـة (خـطـيـة) 105، 96، 98-99، 171، 178، 180-184، 189-190، 202، 205، 208، 218
الـصـفـة 84، 98، 100، 102، 120، 124، 131-132، 139، 145، 159-160، 168، 172، 177-178، 184، 196، 199-200، 202-203، 213، 218، 221، 224، 226، 233، 237، 240، 242-243، 247، 250، 253، 268، 288-289
الصفة الاجتماعية 229-230

الصفة الخطية 249
الصفة الخطية للدال 81، 95-97، 101-104، 106، 123، 160، 177، 180-181، 183-184، 205، 217-218، 222
الصفة الخطية للغة 101، 181، 183
الصفة الزمنية 178
الصفتين 240-241
الصم ـ البكم والقباؤهم 136، 200
الصوائت 260
الصوت 80، 91-92، 97، 100-101، 107-109، 115-116، 196، 265، 279، 290-291
الصوتي 182، 191، 195-197، 199، 217، 283
الصوتية 188، 195-196، 199، 217، 228، 244، 288، 290
الصور الأكوستيكية 92، 118
الصور الصوتية 151
الصورة 78، 114-116، 140
الصورة الأكوستيكية 75، 79-82، 88، 93، 113، 139، 164، 216
صورة أكوستيكية 92
الصورة الصوتية 65-66، 76، 99-101
الصورة القابلة للإلصاق 100
الصورة المنطوقة 115
صيغ محاكاة أصوات اللغة لأصوات الطبيعة 94
الصيغة النادرة 76، 201
الضرورات 284
الضرورة 93، 101، 108، 112-113، 133، 141-142، 145، 154، 171-172، 178-179، 198-199، 202، 204، 217، 221-222، 226-227، 243، 275، 277
الضروري 201، 219، 247
الضرورية 276
الطقطقة 284-285
الطقوس الدينية 240
الظاهرة 268
الظواهر 66، 197-199، 207، 219، 224
الظواهر الداخلية 66
العامل 196، 252
العامل زمن 179، 188
العبارة 76، 87، 112، 131، 149، 157، 168، 179-180، 183-185، 191، 195، 200، 205، 210، 212، 221-223، 247، 268، 281، 288
العبارت 259
عبارتي 149، 178
العجل 86-88، 93
العدم 173
عدم الاهتمام بوسيلة الإنتاج 217
عدم التتابع 104
عدم التعليل 84
عَرَضيّ 72، 154، 163، 195، 229-230
العَرَضيّة 85، 199، 192، 203
العلاقات 101-102، 123
علاقات تتابعية 42
العلاقات الترابطية 118، 120، 159-160، 181
العلاقات التركيبية 101، 118-119، 121، 159-160، 171، 181
علاقات حضور 121
العلاقات الدلالية ـ التركيبية 106
علاقات غياب 121
العلامات 69-70، 92، 101، 103، 106، 109-110، 117، 119، 131، 139، 141، 149-150، 178، 195، 204، 218، 246، 265، 276، 290، 292
العلامات الاعتباطية 94، 88
العلامات الصوتية 192
العلامة 23، 67-70، 75، 77، 79-84، 87، 89-95، 101، 106، 108، 110، 112، 117-118، 120، 124، 126-127، 131-133، 140-141، 144-145، 147-150،

163-164، 178-183، 192، 194، 197، 201-202، 204-205، 207، 214-215، 218، 231، 233، 240، 247، 249-250، 264-265، 275-276، 280
علم الأصوات 160، 191
علم الاجتماع 68-69
علم التراكيب 55، 100
علم العلامات 134، 277
علم النحو 168-169، 171
علم النفس 43، 68-69، 107
العمليات 123، 224
العملية 78-79، 82-83، 90، 108، 113، 117-118، 155، 162، 166-167، 171، 193، 203، 225، 248، 251، 253، 270، 283-284
عملية القطع 108
العناصر 104، 117، 121، 130، 151، 160، 171، 178، 193-194، 205-206، 230، 232، 291
العناصر الاكوستيكية 104
العناصر الحرفية 251
العنصر 51، 84، 92، 101، 106، 108-109، 114، 119، 146، 180-181، 184، 211، 222، 241، 247، 251
الفاعل 124، 162، 180، 189-190، 208
فاعل الكلام 159، 166، 168، 190، 244
الفاعل المتكلم 154
الفرد 50، 72، 146، 153، 163، 167-168، 171، 263
الفردي 71-72، 163
الفصل 170، 176-177، 184
الفضاء 123
فضاء الخطاب 123
فعل الكلام 161، 164، 190
الفعل الكلامي 125
فعل اللسان 161
فقاعة صابون 147، 189، 204
الفكر 9، 42-43، 92، 107، 114، 127، 143، 147، 155، 157، 175، 192، 201، 230، 234، 267-268، 270، 282، 284
الفكرة 17، 47، 60، 66، 77، 88، 90، 92، 95، 100، 105، 108-110، 113، 117، 156، 163، 167، 184، 188، 192-193، 201
الفونولوجي 113
الفونيم 113-114، 222
الفونيمات 106، 114، 160، 182-183، 250، 290-291
الفونيمين 54
الفيزيائي 71
الفيزيولوجي 71، 161
الفيزيولوجيا 66، 76
الفيل 90-91
القابلية 94، 229
قابلية التحول 124
القارئ 63، 104، 153، 175، 180، 212، 215، 227، 247، 249، 270، 281-282
القارئي 254
القاعدة 242-243
قانون الجهد الأقل 195
القرائي 143
القرابة 85، 104
قرن البقرة 182
القطع 108، 112-113، 193، 220
القلب المكاني 61
القلق 26
القواعد 106، 156-157، 168، 171، 191، 193، 205، 233، 249-250، 264، 274، 277
القواعدي 156-157، 199
القواعدية 188، 198

القياس 85، 96، 149، 169، 197-199
القياسي 197
القياسية 188، 244
القيم 122
القيمة 42، 82، 87، 95، 103، 106، 109-114، 116-118، 144-145، 148-149، 153، 161، 188، 192، 194، 196، 215، 217، 233، 253، 275
الكائن غير الموجود 131، 144-145، 147-149، 204
الكائن في الحكاية الخرافية 146
الكتابات 153، 155، 160، 280
الكتابة 14، 69-70، 97، 102، 114-116، 145، 149، 178، 200، 211-218، 229-230، 232، 263-265، 281، 290
الكتابة الصوتية 88
الشكل 14، 68-73، 75، 77، 91-93، 95، 98، 100، 102-104، 111-112، 114، 118-125، 127، 130، 132-133، 138، 140-143، 146-150، 155، 157، 161، 163، 165، 168-173، 176، 178-179، 184-185، 187-188، 190، 192، 194، 196، 199، 201-205، 208، 214، 216، 218، 220، 224، 227-229، 233-235، 240-248، 251-253، 255-260، 263، 265-267، 270-271، 273-277، 281، 283، 285، 288، 291، 294، 296
الكلام 15، 42، 71-75، 79، 99، 106، 118، 124، 154، 156-162، 164-168، 170-172، 178، 180، 182-184، 187-188، 198، 203، 233، 238، 240، 265، 267-268، 276، 283
الكلام الفعلي 160
الكلمات 20، 101-102، 104، 106، 113، 120، 127، 137، 139-140، 143، 157، 162، 172، 182-183، 186-187، 193-194، 204، 206، 214، 217، 220-221، 224، 238، 246، 250-251، 253-254، 275، 285، 289، 292، 296
كلمات الحلم 250
الكلمة 47، 70، 76، 81، 88، 90-91، 96، 100، 102-106، 112-113، 119، 126-127، 133، 135، 144، 147، 169، 172، 184-188، 191، 193-195، 197-199، 201، 203، 205، 207، 211-214، 220-221، 229، 232، 234، 241، 243-244، 248-249، 257، 269-270، 272-273، 275، 281-282، 284، 292، 294
كلمة بسيطة 50
كلمة الحلم «أوتوديداميكر» 250
الكلمة المكتوبة 115، 216
الكلمة الملفوظة 216
الكلمة المنطوقة 115
اللاتتابع 105
لاواع 196، 237، 240، 241
اللاوعي 114، 195، 199، 237-244، 246-247، 250، 254، 295
اللاوعي النموذجي 242-244
اللاوعي الوصفي 242-244
اللسان 57، 63-65، 71-72، 90، 94، 97، 99، 124، 133-134، 140-141، 148، 153، 155، 161، 163، 166-169، 178، 203-204، 208-209، 229، 239-240، 243، 246-247، 249، 267، 270، 277، 279، 291، 295
اللسان الخطابي 188
اللساني 260، 291
اللسانيات 7-9، 11-14، 16-17، 23، 33، 43، 54، 60، 63، 65، 67-69، 71، 73-74، 79، 89، 93، 95، 100، 103-

104، 106، 111، 115، 119، 121-123، 130-133، 141-142، 144، 151، 154، 156-158، 162، 168، 173، 179-180، 188، 202، 205، 221-222، 238-239، 247، 259-260، 267-269، 271-273، 277، 280-281، 293
لسانيات الخطاب 167، 173
لسانيات الكلام 73-75، 79، 157-158، 167-168، 170
لسانيات اللغة 171
لعبة الشطرنج 193-194، 196
اللغات 84، 183، 192، 240، 271
اللغات الهندو ـ أوروبية 53-54، 57، 193، 260
اللغات الواصفة 265، 271
اللغة 9، 11، 13-15، 42-43، 47-49، 55، 57، 63-67، 69-71، 74-75، 78، 85-87، 89-90، 92، 94-96، 100-103، 106-113، 116-119، 122-125، 128، 132-133، 135-137، 139، 141-142، 144-146، 149-151، 153-155، 157-163، 165-168، 170-171، 173، 177-181، 183-184، 187-190، 192-198، 200-204، 208-211، 214، 217، 220، 228، 230، 233، 240-241، 244، 246-247، 262-263، 265، 267-268، 271، 275، 277، 285، 287-291، 295-296
اللغة الأدبية 210-211، 213، 264
اللغة الخطابية 173
اللغة الشعبية 211
اللغة الطبيعية 213، 218-219، 226
اللغة المثقفة 211
اللغة الواصفة 27، 171، 277
اللفظة 282
اللهجات 266
اللواحق 169، 172، 194
ما تحت الشعور 237
ما تحت الوعي 241
المادة الصوتية 98، 115
مادية الدال 114
المبدأ 71
المترادفات 168
المتشابهة 201
المتطابق 187
المتطابقة 204، 291
المتقابلة 220
المتكلم 118، 162
المتماثلة 200
المحاكاة 222
المحاكاة الصوتية 291
المدلول 42، 77، 80-83، 85-91، 93، 100-101، 110، 112-113، 115-118، 120، 154، 164، 181-184، 192، 227، 267
المدلولات 270
المدوّنات 116، 125، 146
المرجع 91
المستقرة 264
المستنقع 16، 282، 296
المسيرة 131، 134
المشابهة 195
المشتقات 169
المشتقة 200
المصادفات 139
المصادفة 65، 67، 85، 87، 139، 151، 168، 192، 194-195، 199، 220، 223، 252-254، 295
المصباح السحري 100
المصطلحية 54، 75، 82، 105، 119، 122، 139، 165، 168، 179، 200، 204-205، 214، 260، 265
المطقطقون 291، 289-290، 292

المعاني 172، 220
المعجمية 74، 84، 153، 168
المغنَم 77
المعنى 64-66، 75، 81-82، 84، 113، 121، 131، 133-134، 160-162، 164، 169، 179، 182، 192، 201-204، 206-207، 212، 214، 218، 227، 230، 237، 247، 267، 269-270، 275-277، 281، 289، 292
المفاهيم 159، 168، 177، 276
المفهوم 66، 72، 75، 78-82، 88-89، 93، 95، 100، 102-103، 105-106، 110-111، 113، 116، 118-119، 125، 127، 131، 144-145، 154، 156، 161-164، 169، 171، 187، 209-210، 217-218، 241، 260، 263-264، 269، 272
مفهوم العلامة 216
المقابلة 83، 86، 94، 100، 118-119، 122، 160، 171-172، 179، 183، 203، 213، 246، 269
المقاطع 227-228، 253
المقطع 109، 181-183، 219، 265
ملكة اللسان 72، 153، 159، 163، 165، 167
الملكة اللسانية 164
ممارسة الكلام 161
المنشأ 126
المنظومية 273
المورفولوجيا 168
موضة الثياب 240
النبر 98
النبرة 85، 192
التحفز 149
النحو 170
نزع الصفة المادية عن الدال 115
النص 17، 19، 105-106، 114-115، 124، 131-133، 138، 142، 144، 149، 151، 153، 156-159، 161-162، 167، 176، 178-180، 182، 188، 190-193، 195-198، 201-203، 205-206، 213، 219، 221-224، 226-233، 239-241، 243، 247-248، 250-252، 258، 260، 266، 269، 276-277، 279-282، 286-290
النصوص 150، 168، 175-177، 184، 189، 204، 209، 211-212، 215، 219، 273، 278
التصيين 193
النظام 69، 83، 85، 91، 101-104، 109-111، 115-116، 118، 122، 132، 139، 141، 145، 160، 167، 172، 181، 184، 193-195، 197، 203-204، 208، 216، 222، 226-228، 260، 268، 276-277
نظام الرموز 148
نظام العلامات 70، 75، 94، 102-103، 107، 116، 184، 217
نظام اللغة 84
نظامي القيم 193
النقل 141، 194، 229
النقلة 193
النمط ـ التزامني 191
الهوية 120، 126-127، 146، 204، 264، 285، 287
هيراقليطس (اسم علم مركب) 221
واح 240-241
وجهة نظر 16، 67، 83، 101، 143، 146، 150، 155، 161، 165-166، 185-186، 195، 202، 216، 222-223، 228، 235، 262، 272
الوضعية 113، 132، 143-144، 146، 149،

153، 157، 160، 189، 194-195، 199، 201، 211، 213، 216-217، 241، 266، 276
الوعاء 77
الوعاء الصوتي 76
الـوعـي 114، 118، 148، 199، 228، 240-244، 247، 251
الوعي الكامن 241-242
الوعي النموذجي 244
يدل 172
يشبه 199
يطابق 146
يعرف 258
يفصل 186
يقابل 159-160
يماثل 213، 217، 290

فهرس المحتويات

الإهداء 5
مقدمة المؤلف للطبعة العربية 7
مقدمة المترجم 9
أعمال سوسير المطبوعة والمخطوطة 19
استهلال 23
– هذه ليست مقدمة أو إنها لم تعد كذلك 33
– الفصل الأول: حياة في اللسان 45
– الفصل الثاني: دروس في اللسانيات العامة: محاولة متواضعة لإعادة القراءة ... 63
– الفصل الثالث: السيميولوجيا السوسيرية، بين الدروس وبحث
الحكاية الخرافية 129
– الفصل الرابع: كلام، خطاب، وملكة اللسان في تفكير سوسير 153
– الفصل الخامس: الزمن في تفكير سوسير 175
– الفصل السادس: سوسير في مواجهاته مع الأدب 209
– الفصل السابع: ما شأن اللاوعي عند فردينان دو سوسير؟ 237
– الفصل الثامن: سوسير، بارت، غريماس 255
– الفصل التاسع: [مطقطقون وصوت المطقطقين، طقطقة وصوت الطقطقة؟] ...279
تعليقة غير منشورة لفردينان دو سوسير 293
– خاتمة في لبوس اعتراف 295
المصادر 297
– كشاف أسماء الأعلام والأماكن 307
– كشاف المفاهيم 313